شرح مقامات الحريري

لأبي العبّاس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي

تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الرّابع

بسم الله الرحمن الرحيم

المقامة الحادية والثلاثون وهي الرملية

حكَى الحارثُ بن همّامٍ قال: كنتُ في عُنْفُوانِ الشَّباب، وَرَيْعانِ العيشِ اللُّبَاب، أقْلَى الاكْتِنَانَ بالغاب، وأهْوَى الاندلاقَ مِنَ القِرَاب؛ لِعِلْمِي أنّ السَّفَر، يَنفُجُ السُّفَر، ويُنْتِجُ الظَّفَر، ومُعاقَرَةَ الوَطنِ تَعقِرُ الفِطَنَ، وتَحْقِرُ من قَطن، فأَجَلْتُ قِدَاحَ الاسْتِشَارة، واقْتَدَحتُ زِنادَ الاسْتِخَارة، ثم اسْتَجَشْتُ جأشًا أثبتَ من الحجارة. وأصْعَدْتُ إلى سَاحِلِ الشامِ للتِّجارة، فلمَّا خَيَّمْتُ بالرَّملة، وَأَلْقَيْتُ بِها عَصَا الرِّحْلَة، صادَفْتُ بِهَا رِكَابًا تُعَدُّ للسُّرَى، ورِحَالاً تُشَدّ إلى أمِّ القُرَى.

عنفوان وَرَيْعَان، معناهما أول. اللباب: الخالص. أقْلَى: أبغض. الاكتنان: الاستتار والإقامة في السكنّ. والغاب: الشجر المتلفّ، وهو بيت الأسد، وأراد به بلدته، وأنه كان يَكره الإقامة بها ويحبُّ السفر. أهوى: أحِبّ. الاندلاق: الخروج بسرعة وسهولة. والقِراب: وِعاء يُجْعَلُ فيه السيف، وهو غمده. السُّفَر: جمع سُفرة، وهي التي يجعل فيها الخبز ويضمّ عليها

بَحاقَ، وتستعمل فى السَّفر . يَنْفُج : يُكثر ، أى تكثر المأكولات فى السفر فتنفُج به . يُنتج : يولَّد. الظّفَر : الفوز بالحاجة . معاقرة الوطن : ملازمة بلد الإنسان. تعقر الفِطَن : تميت القلوب وتبلد الأذهان . قطن : سكن وأقام، فيريد أن الإقامة فى بلد الإنسان تُحَقِّر شأنه وتبلِّد خاطره .

[مما قيل فى الأوطان]

قال الشاعر :

أنفِقْ من الصَّبر الجميــــل فإنه ... لم يخش فقراً مُنفِقٌ من صَبْرِهِ
والمرء ليسَ ببالغٍ فى أرضه ... كالصَّقر ليس بصائد فى وَكْرِهِ

وأنشد الفَنجديهىّ :

نَقِّلْ ركابك فى الْفَلاَ ... ودَعِ العوالى والقُصُورْ
فمحـــالفو أوطانِهم ... أشبـــاه سكّان القبورْ
لولا التغــرُّب ما ارتقى ... دُرُّ البحور إلى النُّحورْ

وقالوا : مَنْ لم يصاحب البَرّ والفاجر، ولم يؤدبه الرخاء مرّة والشدة أخرى ، ولم يخرج من الظِّلّ إلى الشمس ، فلا ترجُه . وتقدم مثل هذا فى التاسعة(١) .

وقال أبو العباس الأعمى :

مَلِلْتُ حمصَ وملّتْنى فلو نطقتْ ... كما نطقتُ تلاحَيْنا على قَدَرِ
وسوّلتْ لى نفسى أنْ أفارقَها ... والماءُ فى المزنِ أصفَى منه فى الْغُدُرِ
أما اشتفت مِنِّىَ الأيام فى وطنى ... حتى تضايق بى ماعزَّ من وطرى
ولا قضتْ من سواد العين حاجتَها ... حتى تكرَّ على ما كان فى السَّفَرِ

---

(١) الجزء الأول صفحة ٣٣٩ ـ ٣٤٥

وقال البحترىّ :

وليس اغترابى من سجستان أننى عدمت بها الإخوان والدّارَ والأَهْلا[١]
ولكننى مالى بها من مُشاكلٍ وإنّ الغريب الفَرْدَ مَنْ يعدَم الشَّكْلا

ولأبى الفتح البستى عفا الله عنه :[٢]

ما أَنْصَفَتْ بغدادُ حين توحَّشت لنزيلها وهى المحلّ الآنسُ
لم يَرْعَ لى حقّ القرابة بُحْتُرٌ[٣] فيها ولا حقّ المروءة فارسُ[٤]

وتعقّب عليه المعرّى فى هذا فقال فى أبى القاسم علىّ بن المحسّن التنوخىّ القاضى :

ذمّ الوليدُ ولم أذُمّ جوارَكُم فقال ما أنصفتْ بغدادُ حُيّيتا[٥]
فإن لقيتُ وليدا والنوى قُذُفٌ[٦] يوم القيامة لم أعْدِمه تبكيتا
أحسنت ما شئت فى تأنيسِ مغتربٍ ولو بلغت المدى[٧] أحسَنْتَ ماشيتا

وقال أبو الفتح البستىّ[٨] :

وما غُرْبةُ الإنسان فى شُقّة النّوى ولكنّها والله فى عدم الشَّكْلِ

---

(١) ديوانه ٢٦٢٩ (عن الشريشى) .
(٢) كذا فى الأصول ، والصواب أن البيتين للبحترى ، من قصيدة يمدح فيها على بن يحيى المنجم فى ديوانه ١١٣٣ ، وهما أيضا فى شرح البطليوسى على سقط الزند ١٦٤١ .
(٣) ط : « بحتر » ، تصحيف ، وفى الديوان : « طيىء » .
(٤) الديوان : « ولاحق الصداقة » .
(٥) سقط الزند ١٦٤١ ، ١٦٤٢ ، وفيه : « حوشيتا » .
(٦) قذف ، أى بعيدة .
(٧) سقط الزند : « المنى » .
(٨) يتيمة الدهر ٤ : ٣١ ، ونسبهما إلى أبى سليمان الخطابى

وإنى غريب بين بُستَ وأهلِها   وإن كان فيها أسْرَتِى وبها أهلِى

ولأبى بكر بن بقىّ : (١)

أقمتُ فيكم على الإقتار والعَدِمِ   لو كنت حرًّا أبىَّ النَّفس لم أُقِمِ (١)

فلا حَدِيقتكُمْ يُجْنَى لها ثمرٌ   ولا سماؤكمُ تَنْهَلُّ بالدِّيَمِ

أنا امرؤٌ إن نَبَتْ بى أرضُ أندلسٍ   جئت العراق فقامت لى على قدمِ

ما العيش بالعلم الإحالة (٢) ضعفت   وحُرفةٌ وُكِلَتْ بالقَعْدِ الهرمِ

وللفقيه أبى محمد بن حزم :

ولى حول أكناف العراقِ صَبابةٌ   ولاغَرْوَ أن يستوحش الكلِفُ الصَّبُّ

فإن يُنزل الرحمن رَحْلِىَ بينهمْ   فحينئذ يبدو التأسف والكرْبُ

هنالك يَدْرِى أنَّ للبعد قصةً   وأنَّ كساد العلم آفته القُرْبُ

* * *

قوله: أجَلت، أى صرّفت . قداح : سهام . الاستشارة : مشاورة غيره فى رأيه ، وإجالة القداح تأتى فى الثالثة والأربعين ، واستعار هنا لمن يستشيره فى أمر السفر قداحاً،فإن وافق رأيه فكأنّه خرج له على السهم: «افعل» وإن خالفه فكأنه خرج عليه «لاتفعل» . اقتدحت : ضربت . زِناد : ما يكون فيه النار . الاستخارة : طلب الخيرة من الله تعالى . استجشت : حرّكت . جأشا : نفسا، وهى فى سكونها عن السفر كالحجر فلا تتحرّك للسفر . أصعدت : طلعت . خيَّمت : أقمت .

(١) نفح الطيب ٣ : ٤٨٤ .
(٢) النفح : « رحيلة » ، « البرم » .

الرَّمْلة : بلدة بالشام ، سَمَّتها العرب بالرَّملة لمّا غلب عليها الرمل ، وهى من كُوَر فلسطين ، بينها وبين بيت المقدس ثمانية عشر ميلا ، وكانت لدّ[١] مدينة فلسطين القديمة ، فلما وَلِيَ الخلافة سليمان بن عبد الملك ابتنى مدينة الرّملة ، وخرّب لدّ ، ونقل أهلُ لدّ إليها ، فصارت الرملة مدينه فلسطين .

ألقيت : تركت . الرِّحلة : الارتحال ، وكنى بإلقاء العصا عن الإقامة بعد أن تهيّأ .

أم القرى : مكة . وكنا نوينا ترك ذكرمكة لشهرتها ، ثم وجدنا شيخنا ابن جُبير قد ذكر فيها أشياء قلّ مَنْ يضبطها ، فأثبتناها إعلاماً لمن أحبّ استطلاعها ، وتبرّكا بذكر البيت الشريف أعزه الله تعالى .

[ذكر مكة ومعالمها]

قال شيخنا[٢] : مكة بلد قد وضعها الله تعالى بين جبال محدِقة بها ، وهى فى بطن وادٍ ، مدينة كبيرة مستطيلة لها ثلاثة أبواب :

باب المعلّى يخرج منه إلى الجبّانة بالموضع الذى يعرف بالحَجُون عن يسار المارّ إليها جبلٌ فى أعلاه ثنيّة ، عليها علَم يشبه البرجَ منها إلى العمرة ، وتعرف الثنيّة بكَداء ، وهى التى جعلها حسّان موعد خيل الإسلام فى قوله :

* تُثيرُ النَّقْع موعِدُها كَدَاء[٣] *

ومنها دُخِلَتْ مكة يوم الفتح ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ادخلوها من حيث قال حسان » .

---

(١) لد ، بالضم والتشديد ، ذكرها ياقوت وقال : « قرية قرب بيت المقدس ، من نواحى فلسطين » .

(٢) هو محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى ، المعروف بابن جبير ، صاحب الرحلة المعروفة باسمه .

(٣) ديوانه ٤ ، وصدره :

* عدِمْنَا خيلنا إنْ لم تَرَوْهَا *

والحجون هو الذى قال فيه الحارث بن مُضاض :

كَأنْ لم يكُنْ بين الحجُون إلى الصفا
أنيسٌ ولم يسمُرْ بمكَّة سامرُ[١]

وعن يسار المارّ إليها جبل ، وفى جبّانة الحجُون مدفن جماعة من الصّحابة دُثِرت اليومَ قبورهم ، وفيها بقيَّة علم ظاهر ، وهو موضع خشبة عبد الله بن الزبير ، كان فى موضعه بناء مرتفع ، فهدَمَهُ أهلُ الطائف غيرةً منهم على ما كان يجدّد من لعنة الحجاج صاحبهم . وعن يمينك إذا استقبلتَ الجبّانة مسجد فى مَسِيلٍ بين جبلين ، وهو الذى بايعت الجنّ فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وعلى باب الحجُون طريق الطائف والعراق ، والصُّعود إلى عرفات ، والباب بين الشرق والشمال مائلا إلى الشرق[٢].

الباب الثانى: باب السفلى[٣] إلى جهة الجنوب، عليه طريق اليمن ، ومنه دخل خالد بن الوليد ، يوم الفتح .

الباب الثالث : باب العُمرة يعرف بالباب الزاهر، عليه طريق المدينة والشأم وجُدّة ، وهو غربىّ ، ومنه يُخرَج إلى التَّنعيم ،وهوَ على فرسخ من مكة ، وهو أقرب ميقات للمعتمرين ، وطريقه حسن ، فيه الآبار العذبة المسماة بالشُّبَيكَة .

وعلى ميل من مكة فى طريق التَّنعيم يُلْفَى مسجد بإزائه حَجَر كالمصطبة ، يعلوه حجر آخر مسند ، فيه نقش داثر ، يقال إن النبى صلى الله عليه وسلم قعد عليه مستريحا عند مجيئه من العمرة، يمسح الناس خدودهم به تبرّكا. و بعده بغَلْوة على

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ : ٢٥٨ من قصيدة، وبعده فى ابن جبير:

بلى نَحْنُ كنَّا أهلَها فأبادنا صروفُ اللَّيالى والجُدود العواثرُ

(٢) رحلة ابن جبير : « إلى الشرق أميل » . (٣) ابن جبير : « المسفل » .

يسار الطريق قبر أبي لهب وامرأته ، قد علاهما جبلان عظيمان من الصَّخْر لرجم الناس على قديم الدهر .

وعلى قدر ميل يُلاقي الزاهر، وهو مبنيٌّ على جانبي الطريق ، يحتوى على دار وبساتين لأحد المكيين ، وفيه مكان مستطيل ، عليه كيزان الماء ، ومراكن مملوءة ، وهي القصاري للشرب والطهور ، وفيه منفعة كبيرة للمعتمرين .

وعلى جانبي الطريق في الزاهر أربعة أجْبال : جبلان ، من هنا وجبلان من هنا ، يُذكر أنها التي جعل إبراهيم عليه السلام أجزاء الطير عليها ، ثم دعاها عند قوله : ﴿ رَبِّ أرني كَيْفَ تُحْيِي الموتى ﴾[1] .

وعند إجازتك بالزاهر تمرّ بالوادي المعروف بذي طُوَى ، كان ابن عمر رضي الله عنهما يغتسل فيه عند دخوله مكة ، وفيه نزل النبيُّ عليه الصلاة والسلام عند دخوله ، وفيه مسجد إبراهيم عليه السلام ، وفيه آبار تعرف بالشُّبيكة . ثم تخرج من الوادي إلى أعلام ، وهي أحجار موضوعة بين الحِلّ والحرم ، كالأبراج المصفوفة ، فداخلُها إلى جهة مكة حَرَم ، ووهي كالأبراج ، وآخذةٌ من أعلى جبل ، يعترض عن يمين الطريق في[التوجّه][2] إلى العُمرة ، وينشق الطريق إلى جبل عن يساره ، وهما ميقات المعتمرين ، [وفيها مساجد مبنية بالحجارة][2] وخارجها[3] بنحو غَلْوَتَيْن مسجد عائشة رضي الله عنها .

ومن جبال مكة جبل أبي قُبيس ، وهو على الحرَم في الجهة الشرقية يقابل الحجر الأسود ، في أعلاه مسجد عليه سطح يشرف على مكة ، ويُظهر حسنَها وحُسْنَ الحرَم واتساعه وجمال الكعبة ، وهو مستودَع الحجر الأسود من الطوفان ، حتى أدّاه إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وفيه قبر آدم عليه السلام ، وهو أحد أخشَبَيْ مكة ، والأخشب الثاني المتصل بقُعَيْقِعان في الجهة

---

(١) سورة البقرة ٢٦٠ .　　(٢) من رحلة ابن جبير .

(٣) الرحلة : « خارج هذه الأعلام » .

الغربيّة ، وفيه موقف النبي صلى الله عليه وسلم ، عند انشقاق القمر .

ومن جبالها حراء ، على مقدار فرسخ ، ومشرف على منًى ، وهو مرتفع فى الهواء ، كان متعبَّد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى اهتزّ تحته ، فقال : اسكن حراء ، فما عليك إلا نبيّ وصدّيق وشهيدان ، لعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضى الله عنهما ، وفيه نزلت أول آية من القرآن ، وهو آخذ من المغرب إلي الشمال ، وعلى طرفه الشمالىّ جبّانة الحجُون المتقدمة .

ومن جبالها جبل ثَوْر ، وهو فى الجهة اليمانية على فرسخ أو أزيد ، وفيه الغار الذى أوى إليه النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وعلى مقربة من الغار قبة جبريل ، وهى عمود منقطع من الجبال ، قد قام شبه الذراع المرتفعة مقدار نصف القامة ، وانبسط من أعلَى شبه الكفّ ، كأنّه قبّة مبسوطة ، يستظلّ تحتها نحو العشرين رجلا ، ومن مكة إلى مِنًى نحو خمسة أميال .

ومنًى مدينة عظيمة الآثار واسعة الاختطاط ، وقد خربت اليوم إلاّ منازل يسيرة محدَثة للنزول ، كان الطريق إليها الميدان اتساعاً وانفساحاً . وأوّل مايلقى المتوجّه إليها بقربها مسجد البَيْعة التى عقدها العباس للنبي صلى الله عليه وسلم على الأنصار ، ثم يُفْضِى بها إلي جَمْرة العقبة ، وهى أوّل منًى وعليها مسجد ، وبها عَلَم منصوب شبه أعلام الحرَم المذكورة ، يجعله الرامِى عن يمينه مستقبلاً مكة ، ويرمى بها سبعَ حصيات يوم النحر أثر طلوع الشمس ، ثم ينحر أو يَذْبَح ، ويحلّق أو يُقصّر ، ومنًى كلّها مَنْحَر ، ويحلّ له كلّ الأشياء إلا النساء ، وبعدها الجمرة الوسطى ، وبها أيضا عَلَم ، وبين الجمرتين قدر غَلْوة ، وبعدها بمقدار غلوة الجمرة الأولى التى ترمى وقت الزوال ثانى يوم النَّحر بسبع حَصَيات ، وفى الوسطى بسبع ، وفى جمرة العقبة بسبع ، فتلك إحدى وعشرون حَصاة ، ويُفْعَل ذلك فى ثالث يوم النحر ، فتلك اثنتان وأربعون حَصاة ، وسبع تقدّمت يوم النحر ، فتكمل تسع وأربعون حَصاة .

وفى أثر ذلك ينفضّ الحاجّ إلى مكة ، وعند الجمرة الأولى يُلْفَى مجرى الذَّبيح عليه السلام ، وفى موضع المجرى حَجَرٌ ملصق بجدارٍ فيه أثر قَدَم صغيرة ، يقال إنها أثر قدمه ، عند تحرّكه لأنَ له الحجر إشفاقاً ، فيقبّله الناس ويلمسونه تبرّكا به .

ومسجد الخَيْف آخر مِنًى ، وهو متّسع الساحة ، كأكبر ما يكون من الجوامع ، وصومعته فى رحبة المسجد ، وله فى القِبْلة أربع بلاطات ، وهو مسجد مشهور البركة ، ومن مِنًى إلى المزدلفة نحو خمسة أميال ، والمزدلفة تسمى المشعر الحرام وجمعاً فلها ثلاثة أسماء . ووادى محسّر حدٌّ بين المزدلفة ومنًى . والمزدلفة بسيط من الأرض فسيح حولها صهاريج للماء ، وفى وسط البسيط حلَق فى وسطها قبّة ، فى أعلاها مسجد يصعد إليه على أدراج من جهتين ، يزدحم الناس عليه للصلاة فيه عند مبيتهم بها ، وبين المزدلفة وعرفات أزيد من خمسة أميال .

وعرفات بسيط من الأرض [على] مدّ البصر ، لو حُشِر الخلائق فيه لوسعهم ، تحدِقُ به جبال كثيرة . وفى آخر البسيط جبل الرّحمة ، وهو موقف الناس ، والعلَمان قبله ، فما أمامهما إلى عرفات جبل ، وما دونهما حَرَم .

وجبل الرحمة منقطع عن الجبال ، قائم فى البسيط ، فهو كلّه حجارة . وكان صعبَ المرتقى ، فأحدثوا فيه من أربع جهاته أدراجاً وطيئة يصعد فيها بالدوابّ الموقرة . وفى أعلاه قبّة تنسب لأم سلمة رضى الله عنها ، وفى وسطها مسجد يحدِق به سطح فسيح السّاحة جميل المنظر ، يزدحم الناس عليه للصلاة فيه ، فيشرف منه على بسيط عرفات ، وفى أسفله عن يسار القبلة دار عتيقة البنيان ، فيها غُرَف ، لها طِيقان تنسب إلى آدم عليه الصلاة والسلام . وعن يسارها مسجدٌ صغير . وبمقربة من العلمين مسجد إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، بقىَ منه

الجدار القبلي يخطب فيه الخطيب يوم الوقفة ، ثم يجمع بين الظهر والعصر ، ثم يقف الناس بعد جمعهم الظّهر والعصر باكين داعين متضرّعين ، حتى يغيب قُرْص الشمس ، ثم يدفع الإمام المالكيّ بالناس بالنّفْر دفعا ترتجّ منه الجبال ، فيصلّون بمزدلفة المغرب والعشاء الآخرة ، فيبيتون بها ، والدنيا كلها شموع مُسْرجَة ، فإذا صلّوا الصبح غدْوة النحر وقفوا داعين .

ومزدلفة كلّها موقف إلا وادى محسِّر ، فإن فيه تقع الهَرولة إلى منًى ، فإذا بلغوا منًى رموا بها جمرة العقبة .

ثم يَنْفِر الناس إلى البيت المكرّم إلى طواف الإفاضة ، وهو كمال الحجّ .

وأما البيت المكرّم فهو قريب من التربيع ، له أربعة أركان : ركن ينظر إلى الشرق وفيه الحجرَ الأسود ، ومنه ابتداء الطّوَاف. يبعد الطائف عنه قليلاً ، والبيت عن يساره ، ثم يُلفَى بعد ذلك فى طوافه الرّكن العراقىّ ، وهو ناظر إلى الشمال . ثم الركن الشامىّ ، وهو ناظر إلى المغرب ، ثم الركن اليمانىّ ، وهو ناظر إلى الجنوب ، ثم يعود إلى ركن الحجر الأسود ، وذلك شوط واحد .

وباب البيت فى السَّفح الذى بين ركن الحجرَ والركن العراقىّ ، وهو قريب من الحِجْر بعشرة أشبار ، وما بين الحِجْر والباب يسمَّى الملتَزم ، وهو موضع استجابة الدعاء ، ويرتفع الباب من الأرض أحد عشر شبراً ونصفا ، والباب من فضّة ، مذهّب بديع الصَّنْعة ، يستوقف الأبصار حسنا ، وعُضادتاه كذلك ، وعلى رأسه لوحُ ذهب خالص إبريز فى سعة نحو شبرين ، وله نقّارتا فضة ، كبيرتان يتعلّق عليهما قفل الباب ، والباب ناظر إلى الشرق ، وسعته ثمانية أشبار ، وطوله ثلاثة عشر شبرا ، وغِلَظ الحائط الذى ينطوى عليه الباب خمسة أشبار ، وداخل البيت مفروش بالرخام المجزّع ، وحيطانه كلّها رخام مجزّع ،

قد قام على ثلاثة أعمدة من السّاج ، مفرطة الطول ، بين كلّ عمود وعمود أربع خُطاً ، ودائرة البيت كلّه من نصفه الأعلى مطليٌّ بالفضة المذهبة ، يُخَيَّل إليك أنها صفيحة ذهب لغلَظها بالجوانب الأربع .

وللبيت خمسة مصابيح ، وعليها زجاج عراقيٌّ بديع النقش ، أدرجت فى وسط السقف ، ومع كل ركن مضوأ ، ويُلفِي الداخل من الباب عن يساره ركن الحجر الأسود وباب الرحمة ، هو الذى يصعد عليه إلى السطح .

والمقام حجر مغشَّى بالفضة ، ارتفاعه ثلاثة أشبار ، وسعته شبران ، أعلاه أوسع من أسفله ، وآثار القدَمين والأصابع فيه ، صُبَّ لنا فيه ماء زمزم ، فشربناه منه .

ومن الباب إلى الركن العراقىّ حوض طوله اثنا عشر شبرا وعرضه خمسة أشبار ، وارتفاعه شبر ، هو علامة موضع المقام ، وهو مصبّ ماء البيت .

وموضع المقام الذى يصلَّى فيه ما بين الباب والركن العراقىّ ، وموضع المقام قبّة حديد موضوعة إلى جانب قبّة زمزم ترفع فى أشهر الحجّ ، وتزال قبة الخشب، لأنها أجمل ، لازدحام الناس . ومن ركن الحجر إلى الركن العراقىّ أربعة وخمسون شبراً ، ومن الحجر الأسود إلى الأرض ستة أشبار ، فالطويل يتطامن لتقبيله ، والقصير يتطاول له .

وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة كأنها الرخام : سود وحمر وبيض، تتّسع عن البيت مقدار تسع خطاً ، وسائر الحرم مفروش برمل أبيض ، وطواف النساء فى آخر الحجارة المفروشة .

والحِجْر ستة أذرع وهو الذى تركته قريش من البيت ، وعليه جدار دوره تسع وعشرون خطوة ، وهى أربعة وسبعون شبرا من داخل الدويرة ، ودور جداره كلّه مجزّع بديع الإلصاق من الرخام ، وهو مفروش بالرخام المجزّع البديع التفاريع والتقاطيع ، فمرآه عجيب .

والحرم له ثلثمائة سوار من الرخام ، وذرع الحرَم في الطول أربعمائة ذراع ، وفى العرض ثلثمائة ذراع ، فتكسيره ثمانية وأربعون مرجعا ، وله تسع صوامع وتسعة عشر بابًا ، أكثرها مفتّح على الأبواب ، منها باب الصفا ، وهو مفتح على خمسة أبواب ، وهو أكبرها ، وعليه يُخْرَج إلى السعى بين الصفا والمروة . وللصفا أربع عشرة درجة ، وللمروة خمسة ، وما بين الصفا والمروة ميل ، وهو اليوم سوق جميل ، يجمع الفواكه بمكّة وحوانيت الباعة يمين وشمال فلا يكاد الساعون يخلصون للسعى لكثرة الزحام .

وقبة بئر زمزم تقابل الحجر الأسود ، منها إليه أربع وعشرون خطوة ، وداخلها مفروش بالرخام الأبيض وتنور البئر فى وسطها من رخام دوره أربعون شبرا ، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف ، وغلَظه شبر ، وعمقه إحدى عشرة قامة ، وعمق الماء سبع ، وباب القبة ناظر إلى الشرق .

ثم ذكر فى البيت وما يتصل به من البئر من ذلك غرائب من صنع الرخام والنقوش وغير ذلك أشياء لا يسع كتابنا ذكرُها، فلنقتصر على هذا القدر [1] .

* * *

فعصَفَتْ بِي ريحُ الغَرامِ ، واهْتاجَ لى شوقٌ إلى البيت الحرام ؛ فزمّمتُ ناقتي ، ونبذتُ عُلِقِي وعَلاَقتي

وقُلتُ لِلاَئمى أقصِر فإنِّى   سأختَارُ المَقَامَ عَلَى المُقامِ

وأنفِقُ ماجمعتُ بأرْضِ جَمعٍ

وأسْلُو بالحَطِيمِ عن الحُطَامِ

ثمّ انتظمْتُ مَعَ رُفْقَةٍ كنُجومِ اللّيْل ، لَهُمْ في السَّيْر جَرْيَةُ

(١) رحلة ابن جبير صفحة ٨٢ وما بعدها ، مع تصرف .

السَّيْلِ ، وإلى الخيرِ جَرْىُ الْخَيْلِ ؛ فلم نَزَلْ بين إدْلاَجٍ وتأويب ، وإيجافٍ وتقْريب ، إلَى أنْ حَبَتْنَا أيْدِى الْمطَايَا بالتُّحفة ، فى إيصالنا إلى الْجُحْفَةِ ؛ فَحللنَاها مُتَأهِّبين لِلإحْرَام ، مُتبَاشِرِينَ بإدْرَاكِ الْمرَامِ ، فَلَمْ يَكُ إلاّ أن أَنَخنَا بِهاَ الرَّكائب ، وحَطَطْنَا الْحَقَائب ، حتّى طَلَع عَلْينَا مِنْ بين الْهِضَاب ، شَخْصٌ ضاحِى الإهَابِ ؛ وهو يُنَادِى : يا أهل ذا النادِى ، هَلُمَّ إلى ما يُنْجى يَوْمَ التَّنَادِى . فانْخَرَطَ إلَيْهِ الحَجِيجُ وَانْصَلَتُوا ، واحتفُّوا به وأنْصَتُوا . فلمّا رَأَى تَأَثُّفَهُمْ حَوْلَه ، واستِعْظَامَهُمْ قَولَه ، تَسَنَّمَ إحْدَى الآكام ، ثم تَنحْنَحَ مُسْتَفْتِحاً لِلْـكَلاَم ، وقال :

* * *

قوله : عصفت ، تحرّكت واشتدّت . الغَرام : الشوق . اهتاج : تحرّك . زمت : شددت زمامها . نبذت : رميت . عُلَقِى : ما يتعلق به ويُمسكه عن إرادته . عَلاَقتى : ما يتعلّق بقلبى . أقصِرْ : كفّ . المَقام : مقام إبراهيم عليه عليه السلام . المُقام : الإقامة . وجَمْع: اسم المزدلفة ، سمِّيت بذلك لاجتماع الناس فيها . الحطيم : حَجَرٌ بمكة . الُحطام : كسب الدنيا . انتظمتُ : ارتفقت . كنجوم الليل ، أى هم أشراف وأهل أحساب . جَرْية : انصباب . الإدْلاج : سَيْر الليل . تأويب : سَيْر النهار . إيجاف : إسراع . تقريب : جَرْىٌ متقارب . حبَتْنا : أوصلتنا وأعطتنا . التُّحفة : الهديّة . إيصالنا : توصُّلنا .

الُجحفة ميقات أهل الشأم ومصر والمغرب ، وبينها وبين البحر ثمانية أميال.
حللناها : نزلنا فيها . الإحرام : الدخول فى الحَرَم . متباشرين : يبشِّرُ بعضُنا بعضاً . بإدراك المرام : بلوغ الحاجة . أنخنا الركائب : بركنا الإبل

بالأرض. حططنا الحقائب : أنزلنا الأحمال عن ظهورها . الهِضاب : الـكُدَى، واحدتها هَضْبة. ضاحى الإهاب : بارز الجلد ، أى ثوبه خَلَق لايستره . النّادِي : المنزل. هلّم ، أى أقبلوا . يومِ التّنادى ، أى يوم البعث لاجتماع الناس فيه ، أو لأنه ينادى للحساب . انخرط : اندفع بسرعة . الحجيج : اسم لجماعة الحجّاج . انصلتوا : خرجوا إليه مسرعين . احتفّوا : استداروا : وأنصتوا : سكتوا . تأثفهم : اجتماعهم وثبوتهم حتى صاروا له كالأثافىّ للقِدْر . استطعامهم قوله : استدعاءهم كلامه . تسنّم : ارتفع عليها ، وأصل « تسنّم » ركب البعير ، الآ كام : الـكُدَى .

* * *

يامَعْشَرَ الحُجّاج ، النَّاسِلِينَ من الفِجاجِ ، أَتَعْقِلُونَ ماتُواجِهُون ، وإلَى مَنْ تَتَوَجَّهُون! أمْ تَدْرُونَ عَلَى مَنْ تَقْدَمونَ ، وَعلاَمَ تُقْدِمونَ! أتَخالُونَ أنَّ الحجَّ هُوَ اختيارُ الرَّواحِلِ ، وقَطْعُ الْمَرَاحِلِ، واتّخاذ الْمَحامِلِ ، وإيقَارُ الزَّوامِلِ ! أم تَظُنُّونَ أنَ النُّسُكَ هُوَ نَضْوُ الأرْدَانِ ، وإنْضاءِ الأبْدَان ، وَمُفَارَقَةُ الوِلْدانِ، والتَّنائى عن الْبُلْدَانِ ! كَلاَّ واللهِ ، بل هُوَ اجْتِنَابُ الْخَطِيّة ، قبل اجْتِلاَب الْمَطِيّة، وإخْلاَصُ النِّيَّة ، فى قَصْدِ تِلْكَ الْبَنِيَّة ، وإمحَاضُ الطَّاعَة ، عِنْدَ وُجْدَانِ الاسْتِطَاعَة ، وإصْلاَحُ الْمُعامَلاَتِ ، أمام إعمالِ اليَعْمَلات !

. . .

الناسلين : المسرعين. الفِجاج : الطرق . وتعقلون : تفهمون . تواجهون : تَسْتَقبِلونِ بوجوهكم ، يريد البيت . إلِى مَنْ تتوجهون : تقصِدون . الرواحل :

الإبل . المراحل : المواضعْ يُرحل إليها وينْزَل فيها . المحامِل: آلات من خشب يركب عليها ، واحدها محمَل ، يقال : إن الحجّاج أوّلُ من أحدثها ، ولذلك قال الشاعر :

أوّلُ عبدٍ صنع المحاملا أخزاه ربِّى عاجلا وآجلا

قوله : لزوامل : جمع زاملة ، وهى البعير وغيره من الدوابّ يحمَل عليها الطعام. وإيقارها : رفع الأوقار عليها ، وهىالأحمال ، والوِقْر : الحِمْل . النسُك : التعبّد ، نَضْو الأردان ، تجريد المخيط من الثياب . التنائى : التباعد . اجتناب ُبعْد ، واجتنبته : بعدت عنه وتركته . الخَطِيئة : الذنب ؛ يريد أن أوّل مايجب على الحجاج أن يقدّموا التوبة . والبنيّة ، هى الكعبة . إمحاض : إخلاص . وُجْدان : إصابة . الاستطاعة : القدرة على الشيء ، وهى شرط وجوب الحج . المعاملات : الأفعال التى يتعامل بها الناس بينهم من المبايعات وغيرها ، وأراد إصلاح فعل العبد بينه وبين ربه . إعمال اليَعْمُلات : استعمال الإبل للمشى ، واليَعْمُلة : الناقة تعمل كثيراً فى المشى .

* * *

فوالّذِى شَرَعَ المناسِكَ للنّاسِك ، وأرْشَدَ السّالِكَ في اللّيْل الحالِك ، ما يُنْقِي الاغتِسَالُ بالذّنُوبِ ، مِنَ الانغِمَاس فى الذُّنوب ، وَلاَ تَعدِلُ تَعرِيَةُ الأَجْسَامِ ، بِتَعبِئَهِ الأَجْرَام ، وَلاَ تُغني لِبسَةُ الإحْرَامِ ، عَنِ المُتَلَبِّسِ بالحَرَامِ ، ولا يَنفَعُ الاضطِباع بالإزار ، مَعَ الاضطِلاَعِ بالأَوْزَارِ ، ولا يُجْـدِى التَّقرُّبُ بالحَلْق ، مع التّقلُّبِ فى ظُـلْم الخَلْقِ ، وَلاَ يَرْحَضُ التّنَسُّكُ فى التّقصِير ، دَرَنَ التّمَسُّكِ بالتّقصِيرِ ، وَلاَ يَسعَدُ بعرَفَةَ، غيْرُ أَهْلِ المعْرِفَةِ ، ولا يَزْكُو بالخَيْفِ ، مَنْ يَرْغَبُ فى الحَيْفِ ، وَلاَ يَشْهَدُ المقامَ ،

إلاَّ من استَقَام ، وَلاَ يَحْظَى بِقَبُول الحَجة ، مَنْ زَاغ عَن المحجّة ، فرَحِمَ اللهُ امْرَأً صَفـــا ، قَبلَ مَسْعَاهُ إلى الصّفاَ ، وَوَرَدَ شَرِيعَةَ الرِّضَا ، قَبلَ شُرُوعِهِ على الأَضاَ ، ونزَعَ عن تَلْبِيسِهِ ، قَبْلَ نَزْعِ مَلْبُوسِهِ ، وفاضَ بمعروفهِ ، قَبْلَ الإفاضةِ مِنْ تَعْرِيفِهِ . ثمَّ رَفَعَ عَقِيرَتَهُ بِصَوْتٍ أَسْمَعَ الصُّمّ ، وكَادَ يُزَعْزِعُ الجِبَالَ الشُّمَّ .

* * *

شرع : فرض . المناسك : مواضع الذبح والنّحر ، والنّاسك : الذى يأتى بنُسُك ، وهو مايُذْبح أو ينحَر فى الحرم . أرشد السالك : على الطريق للمشى فيها . الحالك : الشديد السّواد . الذَّنوب : الدَّلو . الانغماس : الغطس ، يريد أن التطهّر لايُزيِل الذُّنوب . وما أحسن قول الُحلوانىّ فى غلام وسيم أراد النهوض للحج :

يا طالبَ الحجّ وهو ذو صِغَرِ	عجلتَ فاستأْنِهِ إلى الــكبرِ(١)
إن كنتَ تبغى مثوبةً فعسى	تحمِــل لى قُبلةً إلى الحجرِ
وإن رميت الجمار فارم بهــا	كلَّ فؤاد عليــك لم يطرِ
فقال دعنى وزمزماً فعسى	أغسل عن وجنتى دم البشر

قوله : تعدل ، أى تقاوم وتساوى . الأجرام : الأجسام ، واحدها جِرْم . تعبئة الأجرام : تحمُّل أعباء الذنوب . لِبْسة : هيئة اللباس . التلبّس : التعلّق والاختلاط . الاضطباع : الاشتمال والالتحاف ، واضطبع الرجل بثوبه ، إذا أدخله تحت عضُده الأيمن وألقاه على منكبِه الأيسر ، والاضطلاع : القيام بها . والأوزار : أثقال الذنوب . يجدِى : ينفع . يرْحَض : يغسل . التقصير : الأخذ من الشّعر . دَرَن : وسخ . التمسّك : التعلق . التقصير : التضييع ، وترك الاجتهاد ،

(١) الذخيرة لابن بسام ٢٢١/١/٤ ، وهو الشاعر الأندلسى عبد الكريم بن فضال ، المعروف بالحلوانى .

عرَفة: يوم من أيام الحج ، سُمِّيت بذلك لأن آدم عليه السلام لما أهبط من الجنة، نزل بالهند ، وحوّاء بجُدّة فالتقيا بعرفة ، فسمّى موضع التقائهما ويوم التقائهما عرَفة ، وقيل : هى من العرف وهو الصَّبْر ، ورجل عارف ، أى صابر ، فسُمِّىَ الموضع عرفة لصبْر الناس على القيام به للدعاء . وقيل : هى من العَرْف ، وهو الرِّيح الطَّيّبة ، لأنها طيِّبة بنسبتها إلى مِنًى لما بِمِنًى من أقذار الفروث والدماء لأن بمِنًى يُنحر الهدى . يزكو: يكون نامياً ، والزكاء : النماء والصلاح. والخَيْف : موضع بمكة سمى بالخَيْف ، وهو ما ارتفع من الأرض عن موضع السّيل ، وانحدر عن غِلَظ الجبل . والحَيْف : الظلم . يحظى : يسعد ويظفر . زاغ : مال وخرج . المحجَّة : الطريق المستقيم . صفا : خلص قلبه . مَسْعاه : سعيه وجَرْيه . الصفا : صخرة بمكة . ورد : دخل . شريعة الرّضا : طريقة الخير ، والشريعة فى النهر والغدير : الطريق . يهبط عليه إلى الماء ، وبه سمِّيت شريعة الدين لأنه طريق موصِّل إلى الله تعالى ، فورَد الشريعة ، دخل فيها ، ووصل إلى الماء ، وشرعت الدوابّ فى الماء : دخلت فيه . الأضا : الغُدْران . نزع : زال وكفّ . تلبيسه: تخليطه ، والإفاضة : آخر الطواف . تعريفه : وقوفه بعرَفة . عقيرته : كناية عن صوته يُزعزع : يحرِّك . الشمّ : المرتفعة .

* * *

وأنشد :

ما الحجّ سَيْرُكَ تأويباً وإدْلاَجا ولا اغْتيامُكَ أجمالاً وأحْداجا

الحجُّ أنْ تَقْصِدَ البيتَ الحرَامَ على

تجْريدكَ الحجَّ لا تَقْضِي به حاجا

وتَمْتَطِي كاهِلَ الإنصافِ مُتّخِذًا

رَدْعَ الْهوَى هادياً والحقَّ منْهاجا

وأنْ تواسِي ما أُوتيتَ مَقْدُرَةً مَنْ مَدَّ كَفاً إلي جَدْواكَ محتاجا

فهذه إن حَوَتْهَا حِجَّةٌ كَمُلَتْ وإن خلا الحجُّ مِنْهَا كان إخداجا

حَسْبُ المرائينَ غَبْناً أنَّهُمْ غرَسُوا

وما جَنَوْا ولَقُوا كدًّا وإزعاجَا

وأنَّهُمْ حُرِمـوا حِرْزًا ومَحْمِـدةً

وألحموا عِرْضَهُمْ مَنْ عاب أو هاجَى

أُخَيَّ فابْغِ بما تُبْدِيهِ من قُرَبِ وَجْهَ الْمُهَيْمِنِ ولاَّجًا وخَرّاجَا

فليْسَ تَخْفى على الرَّحْمَنِ خافيـةٌ

إن أخلص العبدُ فى الطاعات أو دَاجَى

وبَادِرِ الْمَوْتَ بالْحُسْنَى تقـدِّمُهَا

فـا يُنَهْنِهُهُ دَاعِى الموتِ إن فاجـا

واقْنَ التَّواضعَ خُلْقًا لا تزايُـلهُ عَنْكَ اللَّيالِي ولَوْ ألبَسْنَكَ التاجا

ولاَ تِشِمْ كُـلَّ خالٍ لاَحَ بارقُـهُ

ولَوْ تَراءَى هَتُونَ السَّكْبِ ثَجَّاجا

ما كُلُّ داعٍ بأَهْلٍ أن يُصاخَ له

كَمْ قَدْ أَصَمَّ بنَعْيٍ بَعْضُ مَنْ ناجَى

وما اللَّبيبُ سِوَى مَنْ باتَ مُقتنِعًا

بِبُلْغَـةٍ تُدْرِجُ الأَيَّامَ إدْراجا

فـكُلُّ كُثْرٍ إلى قُلٍّ مَغَبَّتُهُ وكُلُّ نازٍ إلى لينٍ وإن هاجَا

* * *

اعتيامك : اختيارك . أخْدَاجاً : جمع حِدْج ، وهو ما يحمل على ظهر البعير ، يُركب عليه . حاجاً : جمع حاجة . تمتطى : تركب . كاهل : مقدّم الظهر . رَدْع : كفّ وردّ . هادياً : دليلا . منهاجا : طريقاً . تواسى : تعطِى . جَدْواك : عطيتك . حَوَتْها : جمعتها . إخداجا : نقصاناً . المرائين : المظهرين الخير ، وهم على خلافه . وحَسْب ، بمعنى يكفى . كدًّا : عجلة وشدّة . الإزعاج : ضد السكون والقرار ، وأزعجته : لم تدعه يستقرّ . حرزا : تحصيل ، وأحرزه : جعله تحت حِرْز . ألحموه : أمكنوه من لحمه . العِرْض : مايسبّ من الرجل أو يمدح . هاجى : شاتم وسابّ .

[ذكر المرائين وماقيل فيهم]

ومما قيل فى الرياء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إيّاكم والشّرْك الأصغر . قالوا : وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا رياء ولا سُمْعة مَنْ يسمع يسمِّع الله به » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من أسرّ سريرة ألبسه الله رداءها ؛ إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشرّ » .

وقال : «مَنْ أصلح سريرته ، أصلح الله علانيته » .

وقال الشاعر :

وإذا أظهرت شيئاً حسناً فليكُنْ أحسنَ منه ماتُسِرْ
فمُسِرُّ الخير موسومٌ به ومُسِرّ الشرّ موسوم بشرْ

وقال يحيى بن أكثم :

يقول لى القاضى معاذ مشاوراً وولّى أمراً فيما يرى من ذَوى الفضلِ
بعيْشِك ماذا تحسبُ المرء فاعلا فقلت وماذَا يفعل الذئب فى النّحْلِ !
يدقُّ خلاياها ويأكُل شهدَها ويترك للزّبّال ما كان من فضلِ

وأنشد الفرزدق :

رئيس السوق محمود السّجايا ... يقصّر عن مدائحه البليغُ
نسمّيه بيحيي وهـــو ميْت ... كما أن السليمَ هو اللديغُ
يعاف الوِرْد إن ظمئت حَشَاهُ ... وفى مال اليتيم له ولوغُ

وللأبيض فى الفقهاء المرائين :

أهلَ الرياء لبستمُ ناموسكمْ ... كالذئب يُدلج فى الظلام العاتمِ (١)
فملكتمُ الدنيا بمذهب مالكٍ ... وقسمتمُ الأموال بابن القاسمِ
وركبتمُ شُهْبَ البغال بأشهبٍ ... وبأصبغٍ صبغت لكمْ فى العالمِ (٢)

وله فى نحوه أيضاً :

قل للإمام سنا الأئمة مالكٍ ... نورُ العيون ونزهةُ الأسماعِ (١)
لله درّك من هُمامٍ ماجـدٍ ... قد كنت راعينا فنعم الرّاعى
فمضيتَ محمود النّقيبة طاهراً ... وتركتنا قَنَصاً لشرٍّ سباعِ
أكلوا بك الدنيا وأنت بمعزلٍ ... طاوى الحشى متكفّت الأضلاع
تَشكوك دنيا لم تزل بك بَرّةً ... ماذا رفعت بها من الأوضاع !

وفى الإسرائيليات : جاءت عصفورة ، فوقفت على فخّ ، فقالت له : مالى أراك منحنياً ؟ قال : لكثرة صلاتى انحنيت ، قالت : فمالى أراكَ بادية عظامُك؟ قال: لكثرة صيامى بدتْ عظامى ، قالت : فما هذا الصوف عليك ؟ قال : لزهادتى لبست الصوف ، قالت : فما هذه الحبّة فى يدك ؟ قال : قربان إن مرّ بى مسكين ناولتُه إيّاها ، قالت : فإنى مسكينة ، قال : خِذيها فقبضت على الحبة ، فإذا الفخ فى عنقها ، فصاحت : قعِى قعى . تفسيره : لا غرنى مراء بعدك أبدا .

(١) نفح الطيب : ٣ : ٤٤٨ .
(٢) ابن القاسم وأشهب وأصبغ ، من فقهاء المالكية .

قال الشاعر :

نعوذ بالله من أناسٍ تشيَّخوا قَبْل أن يَشيخُوا
تقوّسوا وانحنوْا رياء فاحذرهمُ إنّهمْ فخوخُ

وكان صائد يصيد العصافير فى يوم بارد ، فكان يذبحها والدموع تسيل ، فقال عصفور لصاحبه : لا بأس عليك من الرجل ، أما تراه يبكى ! فقال له الآخر : لا تنظر دموعه ، وانظر ما تصنع يداه .

ورأى بعضهم ثم هتك الله ستره ، فقال :

بينَا أنا فى توبتى مقبلاً قد شبّهونِى بابن دوّادِ
وقد حَمَلتُ العلم مستظهراً وحدّثوا عنى بإسناد
إذ خطر الشيطان بى خَطْرةً نكَسْتُ منها فى أبى جاد

ابن دوّاد : عابد بمكة .

صلّى رجل مراء فقيل له : ما أحسن صلاتك ! قال : ومع ذلك فإنى صائم .

وقال طاهر بن الحسين لأبى عبد الله المروزىّ : كم لك منذ نزلت العراق ؟ قال : منذ عشرين سنة ، وأنا أصوم الدهر منذ ثلاثين سنة ، قال : يا أبا عبد الله سألناك عن مسألة فأجبتنا عن مَسألتيْن .

وأمر عمر لرجل بكيس ، فقال : آخذ الخيط ؟ فقال عمر : ضع الكيس .

وكتب رجل عند الحسين كتاباً فقال : أتجعلنى فى حلٍّ من تراب الحائط ؟ فقال : يا أخى بلّ ورعك لا يتكسّر .

وأخبارهم كثيرة .

* * *

قوله : ابغِ أى اطلب : القُرَب : أفعال البرّ التى نقرب من الله تعالى ، واحدها قُرْبة . ولاَّجاً وخرّاجا ، أى كيف تصرّف فيها . داجى : ساتر العداوة ونافق .

الحسنى : اسم لأفعل الحسن ، وتكون الحسنى مؤنثة الأحسن فتلزمها اللام ، كالكبرى والأكبر وبابه ، وتكون الحسنى كالبُشْرى والرُّجعى .

ينهنه يزجر ويكفّ. فاجَى: جاء بغتة ، ولبعضهم:

وهل نحن إلاّ مرامى السِّهامِ ويحفـزُها نابلٌ دائبُ
طَرائِدُ تطلبنا النائبات ولا بد أن يُدْرِكَ الطالبُ
حبائلُ للدَّهْرِ مبثوثَةٌ يُرَدّ إلى جذبها الهاربُ

وقال آخر فى معناه :

تحارِبنا جنود لا تُجارَى ولا تلقى بآساد الحروبِ
تفوّق أسهمًا عن ظهر غيبٍ وما أغراضها غير القلوبِ
فأنّى باحتراس من جنودٍ مؤيدة تمدّ من الغيوب

وقال ابن جبلة :

وأرى اللّيالى ماطوتْ مِنْ شِرّتى زادته فى عِظَتِى وفى إفهامى[١]
وعلمت أنّ المرء من سُنَنِ الردى حيث الرميّة من سهام الرامى

قوله : اُقْنَ ، أى اكتسب والتزم . خُلُقًا : طبيعة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ تواضع لله رفعه الله » .

وقالت الحكماء : كلّ ذى نعمة محسود عليها إلا المتواضع .

وقال عبد الملك : أفضلُ الرجال مَنْ تواضع عن رفعة ، وعفا عن قدرة ، أنصف عن قوّة .

وقال رجل لبكر بن عبد الله : علِّمْنى التواضع ، فقال له : إذا رأيتَ مَنْ هو أكبرُ منك فقُلْ : سبقنى إلى الإسلام والعمل الصالح فهو خير منى ، وإذا رأيتَ هو أصغر منك ، فقل : سبقته إلى الذّنوب فهو خير منى .

(١) الأغاني

وقال أبو العتاهية :

يامن تشرّفَ بالدنيا ولذّتها ليس التشرّفُ رفعَ الطّينِ بالطّينِ [1]
إذا رأيت شريفَ القوم كلّهمِ فانظر إلى مَلِكٍ فى زىّ مسكين

وقال أبو الفتح البستىّ :

من شاء عيشًا رغيدا يستفيدُ به فى دينه ثُمّ فى دنياه إقبالا [2]
فلينظرنّ إلى مَنْ فوقه أدبا ولينظرنْ إلى مَنْ دونه مالاَ

قوله : لا تشِمْ ، أى لاتنظر . خالٍ: سحاب . لاح بارقه،ظهر برقه: تراءى: تظاهر. هَتُون : كثير الماء . السّكْب: الصّبّ . ثجاجا : صبّاباً ، ثج الماء يثج ثجا وثججته أنا . يُصاخ : يسمع . أصمّ : كسب الصمم . والنّعىّ : الخبر بالموت . ناجى : حَدّث . اللبيب : العاقل . بُلْغة : قوت يوم . تدرج تَطْوِى . كُثْر : كثرة . قُلّ : قلة . مغبّته : عاقبته وآخره ناز : مرتفع،ونزا الفحل ينزو نزوًا : قفز على الأنثى . لِين: فتور. هاج : اضطرب ، ويروى : «وكل نازٍ إلى لين» وهو الصحيح ، أخذه من المثَل: فلان ينزو ويلين ، يقول: لاتنخدع بما يكون له ظهور فى ملبسه وهيئته ، فقد يخيب ظنك وتقلّ فائدته ، أو يكون مضرًّا لانفّاعاً كما قد ينادى بك ، فتظنّ النداء لمنفعة ، فإذا سمعته فاجأك بمصيبة.وأخذ لفظ « كم قد أصمّ بنعى » من قول أبى تمام :

أصمّ بك الناعى وإن كان أسمَعَا فأصبح مغْنى الجود بعدك بلقعا [3]

والسابق إلى هذا المعنى جَزْو بن ضِرار ، أخو الشماخ بقوله :

أتانى فلم أسرُرْ به حين جاءنى حديثٌ بأعلى القُبّتين عجيبُ
تصاممته حتّى أتانى بقيْنةٍ وأفرغ منه مخطىء ومصيبُ

وقال المتنبّى :

طوَى الجزيرة لَمّا جاءنِى خبرٌ فزعت منه بآمالى إلى الكذب [4]

(١) ديوانه ٢٧٤
(٢) يتيمة لدهر ٤ : ٣٠٧
(٣) ديوانه ٣٧٤
(٤) ديوانه ١ : ٨٧ ، ٨٨

حتى إذا لم يَدَعْ لى صدقه خبرًا شَرِقتُ بالدمع حتى كاد يشرَق بِي

أشار بعد ذلك بالبيتين إلى القناعة ، وأن كثير الدنيا مصيره إلى قليل، وقد تقدم أمثال هذا .

وقال أبو تمام :

يا قليلَ البقاء فى هـذه الدا رِإلى كَمْ يغرّك التسويفُ (١)
عجباً لامرىء يذلّ لذى الما لِ ، ويكفيه كلّ يوم رغيفُ

ولابن عمران :

عجبًا لنا نبغى الغنَى والفقرُ فى نَيْلِ الغنى لَوْ صحَّت الألباب
فيما يبلِّغنى المحلَّ كفايةٌ والفضل فيه تكاثرٌ وحسابُ

* * *

قال الرّاوِى : فلمّا ألقَمَ عُقْمَ الأفهامِ ، بِسحْرِ الكلام ، استَرْوحْتُ ريحَ أبى زيد ، ومادَ بِى الارتياحُ إليه أيَّ مَيْدٍ ، فمكثتُ حَتَّى اسْتَوْعَبَ نَثَّ حِكْمَتِهِ ، وانْحَدَرَ مِنْ أَكَمَتِهِ . ثمَّ دَلَفْتُ إليه ، لِأَتَصَفَّحَ صَفَحَاتِ مُحَيّاه ، وأَستشِفَّ جَوْهَرَ حُلَاه ؛ فإذا هُوَ الضّالّة الَّتى أَنْشُدُها ، وناظِمُ القَلائِدِ الَّتِى أَنْشَدَها ، فعانقتُه عِناقَ اللاّمِ لِلأَلِفِ ، ونزَّلتُهُ مَنْزِلَةَ الْبُرْءِ عِنْدَ الدَّنِف . وسألته أن يُلازِمَنى فأَبَى ، أو يُزامِلَنِي فنبَا ، وقال : آليتُ في حَجَّتِى هذه ألاَّ أختَقِبَ وَلاَ أعْتَقِبَ ، ولا أَكْتَسِبُ ولا أنتَسِب ، ولا أرتفِقَ وَلاَ أُرَافِق ، وَلاَ أُوافِقَ مَنْ ينافق .

(١) لم أجدها فى ديوانه.

ثُمّ ذهب يُهَرْوِل ، وغادَرَنِى أُوَلْوِل .

فلمْ أزَل أَقْرِيهِ نظرى ، وأودّ لو يَمْشِي عَلَى ناظِرِى ، حَتَّى توقَّلَ أحَدَ الأطواد ، وَوَقفَ للْحجِيجَ بالمِرْصاد .

فلمّا شاهَدَ إيضاعَ الرُّكبان فى الكثبانِ ، وَقَّعَ بالبَنَان على البنان .

* * *

قوله : فلما ألقح عُقْم الأفهام ، أى جعل العقيم منها حاملاً بالعلم والفهم . استروحْت :شممت فوجدت رائحته . مادَ : مال .الارتياح : الطّرب . مكثت : أقمت . أستوعب : أستوفى : نثّ :نشر. أكمته : كُدْيته[1] .دلفت :أسرعت . أتصفّح : أنظر . صفحات محيّاه : جهات وجهه . أستشفّ : أبالغ النظر فيها . جوهر حُلاه : خلقة صفاته . أنشدها : أطلبها .القلائد : جمع قلادة ، وهى ما يُجعل فى العنق من سلوك الجوهر وغيرها ، ومنه تقليد البُدْن بمكة ، وتقلّدت بالسيف: جعلته فى عنقى ، وقلّدتك الأمر : جعلتُه فى عنقك ، وناظم القلائد: جاعلها فى خيطها ، ويعنى بالقلائد ما نثر من وعظه ، وأنشده من شعره ــ وصدق لَعَمْرِى إنّ كلامه المنظوم والمنثور أبْهى من القلائد فى أعناق الخرائد .

وقوله : عناق اللام للألف ، أمّا بخط المغرب فلا معانقةَ بينهما إلا فى الطرَفين ، وربما وقعت فى بعض هذا الخطّ كالصليب ، وفى بعضه لا التقاء بينهما البتّة ، وإنما يريد صورة لام ألف بالخطّ الكوفىّ ، وهما بذلك الخط متعانقان متلازمان من الأعلى إلى الأسفل . وأخذ اللفظ من قول بكر بن خارجة :

يامَنْ إذا قرأ الإنجيل ظلّ له	قلب الحنيف عن الإسلام منصرفا
رأيت شخصك فى نومى يعانِقُنى	كما تعانق لامُ الكاتب الألفا

(١) الكدية : الأرض الغليظة .

[مما قيل فى العناق من الشعر]

ونذكر هنا ما يستحسن فى العناق ، قال البحترىّ :

تلك نُعْمٌ لو أنعمت بوصالٍ ... لشكرنا فى الوصل إنعام « نعمٍ »(١)
نسيَتْ موقف الجِمَارِ وشخصا ... نا كشخصٍ ، أرمى الجمارَ وترمِى

وقال أيضاً :

ولم أنسَ ليلتنا فى العنا ... قِ لَفَّ الصَّبَا بقضيب قضيبا(٢)
كما مرّت الريح فى سيرها ... فطوراً خفوقا ،وطوراً هبوبا

وقال ابن المعتز :

كأنما عانقتْ ريحانةٌ ... تنفَّستْ فى ليلها الباردِ(٣)
فلو ترانا فى قميص الدُّجَى ... حسِبتَنا من جَسَدٍ واحدِ

وقال علىّ بن الجهم :

سقى الله ليلاً ضمّنا بعد هجعةٍ ... وأدنى فؤادًا من فؤاد معذَّبِ(٤)
فبتْنا جميعاً لو تُراق زجاجةٌ ... من الماء فيما بيننا لم تسرّبِ

وقال ابن عبدوس الفاسى : سرتُ يوماً إلى ابن الجهم ، فأنشدنى البيتين فى العناق ، فاقتدح زندى لإيراد مثله ، فقلت :

لا وللنازلِ من نجدٍ وليلَتنا ... بميد إذ جسدانا بيننا جَسَدُ
كرام فيناالكرى مع لطف مسلكهِ ... نوما فما انفكّ لا خدٌّ ولا عضدُ
ماأنصفونى، دعونى فاستجبتُ لهم ... حتى إذا قرّبونى منهمُ بَعُدوا

أخذ هذا البيت من قول الآخر :

أشكو الذين أذاقونى مودّتهم ... حتى إذا أيقظونى للهوى رَقَدُوا

---

(١) دوانه ١٩٤٠ (٢) ديوانه ١٥٠ (٣) ديوانه ٧٧
(٤) ديوانه ٩٥ (٥) للعباس بن الأحنف ؛ ديوانه ٨٤

وقال أبو نواس :

لبسنا رداء الليل والليل راضعٌ   إلى أن تردَّى رأسُه بمشيبِ
وبتْنا كغصنىْ بانةٍ عصفتْهما   مع الصّبح ريحاَ شمال وجنوب
إلى أن بَدَا ضوء الصباح كأنه   مبادى نصولٍ فى عذارِ خضيبِ
فياليلُ قد فارقتَ غير مذمّمٍ   ويا صبْح قد أصبحتَ غير حبيبِ

قال صالح بن موسى :

لى سيّد ما مثله سيّدٌ   تصدّتِ الحمّى له فاشتكى
عانقته عند موافاتها   والأفق بالليل قد احْلَولَكا
فجاءت الحمّى لعاداتها   فلم تجِدْ مابيننا مَسْلَكا

ولابن الرومى :

طالماالتفتْ إلى الصبْ   ح لنا ساقٌ بساقِ
فى نقابٍ من ودادٍ   ولثامٍ من عناقِ

وقال أيضاً :

أعانقها والنفس بعد مشوقةٌ   إليها وهل بعد العناق تدانِ[1]
وألثم فاها كى تموتَ حَرارتى   فيشتدّ ما ألقى من الهيَمانِ
كأنّ فؤادى ليس يشفى غليلَه   سوى أن يُرى الروحانِ ممتزجان

وقال ابن للمعتز :

يارُبّ فتيانٍ صحبتهم   لايرفعون لسَلْوة قلبا
لو تستطيع قلوبهم نفذَتْ   أجسامهم فتعانقت حُبًّا

---

(١) أمالى القالى ١ : ٢٢٦

وقال ابن رشيق :

ومهفهفٍ يحميه عن نظر الورَى ... غيرانُ سُكْنَى الموت تحت قِبابِهِ[1]
فلثمتُ خداً منه ضرّم لوعتِي ... وجعلت أُطفِئُ حرّها بُرضابه
وضممتُه للصَّدر حتى استوهبَت ... منى ثيابى بعضَ طِيب ثيابِهِ
فكأنّ قلبي من وراء ضلوعِه ... طرباً يخبِّر قلبه عمّا بِهِ

وقال ابن لُبّال :

ما كنت أحسب قبل رؤية وجهِه ... أن البدورَ تدور فى الأغصانِ
غازلتُه حتى بَدا لى ثغرُه ... فحسبتُه دُرًّا على مرجانِ
كم ليلةٍ عانقته فكأنّما ... عانقت مِنْ عِطْفَيْهِ غُصن البانِ
يطغى ويلعب عند عَقْدِ سواعدِى ... كالمهر يلعب عند ثَنْيِ عِنانِ

وقال آخر :

مشتاقةٌ طرقَتْ فى الليل مشتاقَا ... أهلاً بمن لم تَخُنْ عهداً وميثاقا
يا زائراً زار من قُرْبٍ على بُعْدٍ ... آنستَ مستوحشا لاذقت ما ذاقا
يا ليلُ عرّج على إلْفَيْنِ قد جعلا ... عقد السَّواعدِ للأعناق أطواقا

وقال ابن الزقّاق :

ومرتجّةِ الأعطاف أمّا قوامُها ... فلدْنٌ ، وأما ردْفُهَا فرَدَاحُ[2]
سريتُ[3] فبات الليلُ من قِصَرٍ بها ... يطير وما غيرُ السرور جناحُ
وبتّ وقد زارت بأنعم ليلةٍ ... يعانقنى حتى الصَّباحِ صباحُ
على عاتقى من ساعِدَيْها حمائلٌ ... وفى خَصْرِها من ساعدىّ وشاحُ

---

(١) نقله فى التنف ١٣ .
(٢) ديوانه ١٢٩ والرداح : الضخمة .
(٣) ديوانه « ألمت »

ونظير هذا قول برهون الغرناطيّ :

لله درّ ليالٍ ما أحيسنَهــا وما أحَيسِنَ منها لَيْلَةَ الأحدِ
لو كنتَ حاضِرَنا فيها وقد غفلتْ عينُ الرقيب فلم تنظر إلى أحَدِ
أبصرتَ شمس الضحّى في ساعديْ قمرٍ ريمٌ موسّدةٌ في ساعديْ أَسَدِ

وقال ابن قاضي ميلة :

حيث التقى أسدُ العرين وظبيةٌ تحت اللحاف وصارمٌ وسِوَارُ
قالت أرى بيني وبينك ثالثاً ولقد عهدتك للدخيل تغارُ
أأمِنْتَ نشرَ حديثنا فأجبتُها هـذا الذى تُطْوَى له الأسْرَارُ

أخذ هذا من قول امرئ القيس :

تجافَى عن المأثور بيني وبينَها وتُدْنِي علىَّ السَّابِرِيّ المضلّعا(١)

يعني بالمأثور السيف .

قوله : الدّنِف : المريض . يُزَاملني: يرادفني ، والزّميل : الرّديف نبَا . ارتفع وامتنع . أحتقب : أركب موضع الحقيبة ، وهي ما يعلّق خلف الراكب ، فيريد أنه حلف ألاّ يكون رديفاً ، ويريد بأحتقب أتّخذ حقيبة للزّاد ، يريد أنه لا يحمل زاداً اتكالا على ماعند الله تعالى . أعتقب : أركب عقبة يعني نَوْبة ، وهما يعتقبان ويتعاقبان، إذا ركب أحدُهما فجاء الآخر فكان مكانه ، والاعتِقاب : ركوب واحد ونزول آخر .

ولحاتم في المعنى :

وما أنا بالساعي بفضل زمامِها لتشربَ ماء الحوض قبل الركائب(٢)

---

(١) ديوانه ٢٤ (٢) ديوانه ١١٨

وَما أنا بالطّاوى حقيبةَ رحْلها لأبعثهـا خِفا وأنزل صاحبى
إذا كنتَ رَبًّا للقلُوص فلا تَدَعْ رفيقك يمشى حلفها غير راكب
أنِخها فأردفه فإنْ حملتْكما فذاك وإن كان العقابُ فعاقبِ

أرتفق:أستعين أرافق : أطلب رفيقاً. يُهَرْول : يسرعُ المشى. غادرنى: تركنى أولول : أصِيحُ : يا ويلى . أقريه : أتبعه . توقَّل : صعد . الأطواد : الجبال . بالمرصاد : بمضيق الطريق بحيث يرتصد فيه جميع الناس ، والمرصد والمرصاد عند العرب الطريق. إيضاع: سرعة، وقد أوضع فى سيره: أسرع كأنه يهتزّ ويركُض. الكُثْبَان : أكداس الرمل . رقع : ضَرَب بالبنان على البنان ، أى صفّق بيديه ، وقد تطلق البنان مرادًا بها اليد ، قال الله تعالى : ﴿واضربوا مِنْهُمْ كلَّ بنَان﴾[1] ، أى الأيدى والأرجل .

وأنشد الفَنْجديهىّ:

أقاموا الدِّيدبانَ على يفاعٍ وقالوا لا تَنَمْ للدَّيْدبَانِ
إذا أبصرت ضيفا من بعيدٍ فوقِّع بالبنان على البنان
تراهم خشية الأضياف خُرْساً يقيمون الصلاة بلا أذان

* * *

واندفع ينشد :

لَيْسَ مَنْ زارَ راكِبًا مِثلَ ساعٍ على القَدَمْ
لا ولا خادمٌ أطـا عَ كعاصٍ منَ الخدَمْ
كيفَ ياقومِ يَسْتَوى سَعْىُ بانٍ ومَنْ هدَمْ
سيقِيمُ المفـرِّطُو نَ غدًا مأتمَ النَّدَمْ
ويقول الذى تقـرَّ بَ : طوبَى لمنْ خَدَمْ

(١) سورة الأنفال ١٢

وَيكِ يانفسُ قدِّمِي صالحاً عند ذى القِدَمْ
وازْدَرِى زخرفَ الحيـ ـاةِ فوُجدانُه عَدَمْ
واذكُرِى مصرَعَ الحِمَا مِ إذا خطبُه صدَمْ
واندُبِى فِعْلَكِ القبيـ ـحَ وسِحِّى له بدمْ
وادْبُغيهِ بتوبةٍ قبلَ أن يَحْلَمَ الأَدَمْ
فعَسَى اللهُ أن يقيـكِ السَّعيرَ الذى احتَدَمْ
يَوْمَ لا عَثْرَةٌ تُقَا لُ ولا يَنْفعُ السَّدَمْ

* * *

قوله : ليس من زار راكباً ... البيت . يريد أن ثواب الماشى فى الحجّ أكثر من ثواب الراكب .

وقال ابن عباس لبنيه : اخرجوا من مكّة مشاة ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنّ للحاجّ الراكب بكلّ خطوة تخطوها راحلته سبعين حسنة ، وللماشى بكل خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحَرَم ، قالوا : يارَسول الله ، وماحسنات الحَرَم ؟ قال : الحسنة منها بمائة ألف .

وقوله : سَعْى بانٍ ومَنْ هَدَم ، من قول بشار :

متى يبلغ البنيانُ يوما تمامَه إذا كنتَ تبنيه وآخرُ يَهْدِم

المفرِّطون : المقصِّرون. مأتم : مناحة . ويك : تعجّب. ازدرِى : احتقرى. زخرف : زينة . وُجدان، مصدر وجدت الشيء. اندبى : ابكى . الحِمام: الموت. مصرعه : طَرْحه للميت بالأرض. خطبه : أمره الشديد . صَدم : ضرب، والصَّدْم: ضرب الشيء الصلّب بمثله ، وأراد أنه أصاب ، من قولهم : صدمهم أمر ، أى

أصابهم . سِحِّي : صُبِّي . يحلم : يتثقب . الأدَم : الجلد ، وهو مثل يُضرب للشيء يفوت ، قال الشاعر :

* كدابغةٍ وقد حلم الأديم(١) *

السّعير : النار المتّقدة . احتدم : التهب واشتد اتّقاده . السّدَم : همٌّ مع ندم .

* * *

ثمّ إنّه أغْمَدَ عَضْبَ لِسانِهِ ، وانْطَلَقَ لِشانِهِ ، فما زِلْتُ في كُلِّ موردٍ نَرِدُه ، ومُعَرَّسٍ نَتَوَسّده ، أتَفَقّدُهُ فأفقدُهُ ، وأسْتَنْجِدُ بِمَنْ يَنْشُدُهُ فَلَا يَجِدُه ، حتّى خِلْتُ أَنّ الجِنَّ اخْتَطَفَتْهُ ، أو الأرْضَ اقْتَطَفَتْهُ ، فما كابَدْتُ في الغُرْبةِ ، كهذه الكُرْبة ، ولا مُنيتُ في سَفْرَة ، بِمِثْلِهَا مِنْ زَفْرَة .

* * *

عضب : حدّ ، وأراد بإغماده سكوته . لشأنه : لأمره . مورِد : موضع الماء . نرِدُه : نقصِده . معرّس : موضع النزول بالسَّحَر للاستراحة . نتوسّده : ننزل فيه . أتفقّده : أطلبه ، والتفقّد طلب المفقود ، قال الله تعالى : ﴿ وتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ﴾(٢) ، طلبه بعد ما فقده . أستنجد : أستعين . ينشده : يطلبه . اختطفته : أخذته بسرعة . اقتطفته : اقتطعته . كابدت : قاسيت . الكربة : الهمّ . مُنيت : بُليت . زفرة : تنفّس المهموم .

---

(١) صدره :

* فإنَّكَ والكِتَابَ إلَى عَلِيٍّ *

من أبيات للوليد بن عقبة يحض فيها معاوية على قتال علي . اللسان ــ حلم .

(٢) سورة النمل ٢٠ .

ولأبى طالب الرَّقِّىّ فى غلام مُحرِم[١] :

ومشتملٍ عِطْفَىْ عفافٍ وفتنـــةٍ
يرى قَتْلَ مَنْ يهوى إلى النُسك مَسْلَكَا

جَنَى اللحظُ من خدّيه وَرْدًا مكفورًّا[٢]
ومِنْ عارضيه ياسمينًا ممسَّكَا

فيا رائحًا منـــه بأوفر فتنةٍ
تجهَّز لعام بعد هـذا لعلّكا

وقال صالح بن موسى :

عشقتُ صوفيًّا له شاهدٌ
يقيم عذْرى عند عُذَّالِى

قد عُبِـدِ اللهُ بأحواله
فليتَه ينظُــر فى حالِى

(١) أبو طالب الرقى من شعراء اليتيمة ، والأبيات فى الجزء الأول فيها ص ٢٤٥ .
(٢) اليتيمة : « مورّدا » .

المقامة الثانية والثلاثون وتعرف بالطيبية

حكى الحارث بن همام ،قال : أجْمَعتُ حين قَضَيتُ مَنَاسِكَ الحجّ ، وأَقَمْتُ وظائف الْعَجّ والثَّجّ ، أنْ أقصِدَ طَيْبَة ، مع رُفْقَةٍ مِنْ بنى شَيْبَة ؛ لِأَزورَ قبرَ الْمُصْطَفى ، وَأَخرُجَ من قبِيلِ مَنْ حَجَّ وَجفَا ، فأُرْجِفَ بأنَّ الْمسالِكَ شاغِرَة ، وَعَربَ الْحَرَمَيْنِ مُتَشَاجِرَة ، فحِرْتُ بَيْنَ إشْفَاقٍ يُثَبِّطُنِي ، وأَشْوَاقٍ تُنَشِّطُنى ؛ إلى أنْ أُلْقِيَ فِى رُوعِي الاسْتِسْلاَم ، وتغليبُ زِيارَةِ قَبْرِه عَلَيْهِ السَّلاَم فَأَعْتَمْتُ الْقُعْدَة ، وَأَعْدَدْتُ الْعُدَّة ، وَسِرْتُ والرُّفقةَ ، لاَ نَلْوِى على عُرْجَةٍ ، وَلاَ نَنِى فى تأويبٍ ولا دُلْجَةٍ ، حَتَّى وَافيْنَا بنِى حرْب ، وقد آبُوا مِنْ حَرْب ، فأَزْمَعْنَا أَنْ نُقَضِّيَ ظِلَّ الْيَوم، فِى حِلّةِ الْقَوْم.

* * *

أجمعت : عزمتُ عليه كأنه جمع نفسه له ، ومناسك الحج : متعبّداتُه . وظائف : لوازم ، والوظيفة : النصيب الذى يلزمك عزمُه . العجّ : رفع الصوت بالتّلبية ، وكانوا فى الجاهلية إذا أتمّوا حجّهم يتفاخرون بمآثر آبائهم ، فأمِرُوا بالثناء على الله تعالى. والثّجّ : إراقة الدماء ، وعجّ يعجّ عَجًّا وعجيجاً : رفع صوته ، وثَجَجْتُ الدمع ، أثجّه : أسلته ، وهو لازم ومتعدّ . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الأعمال فقال : « العجّ والثّجّ » .

طَيْبة : مدينة النبي صلى الله عليه وسلم . بنوشيبة : حَجَبة البيت ، وشيبة هو عبد المطلب ، وسُمِّىَ بذلك ، لأنه نشأ بالمدينة عند أخواله صغيراً ، فلما مات أبوه هاشم ذهب إليه المطلب ، فأتى به فرآه معه أهلُ مكة فقالوا : ماهو إلا عبد اشتراه ،فغلب عليه عبدُ المطلب . جَفَا أراد به قول النبي صلى الله عليه وسلم : «مَنْ حَجّ البيت ولم يَزُرْنِى ، فقد جفانى ، ومَنْ زارنى بعد وفاتى فكأنما زارنى فى حياتى » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« من جاءنى زائراً لايهمّه إلا زيارتى كان حقًّا على الله أن أكون له شفيعا يوم القيامة». وفى رواية :« مَنْ زار قبرى وجَبَتْ له شفاعتى » .

وأرجَف الرَّجل : خاض فى الفتنة والأخبار المسيئة . وشغَر الطريقُ : خلا من حُماته والمدينةُ خلتْ من حماتها ، وبلد شَاغر ، بعيد من القاضى والسلطان ، فلا يمتنع مِنْ غارة أحد،والشَّغر :التفرقة ،ومنه: خرجوا شَغَر بَغَر ، أى تفرّقوا ، وشغرعن بلده شغراً وشغاراً،إذا طرحوه ونفوه،واشتغرَتِ الحربُ بينهم:اتّسعتْ وعظمت ، وامرأة شاغرة،إذا رفعت رجليها لكلّ من نكحها ، والمعنى أنّ المسالك شاغرة ، أى أنّ الطرق مضطربة خالية من حماتها . الحرمين : مكة والمدينة . متشاجرة : مختلفة . إشفاق : خوف . يثبِّطنى : يحبسنى . تنشّطنى : تحرّضنى . رُوعى : نَفْسى . الاستسلام : الانقياد لأمر الله تعالى . أعتمت : اخترت . القُعْدة : الراحلة المتّخذة للركوب . تلوى: تعطف . عُرْجة:شىء يُشغل ليُعرَج عليه . ثنِى : نفتر ، وتأويب ودُلجة : مشى النّهار والسَّحر ، والدُّلجة ، بضم الدال : الاسم من الإدلاج ، وهو سير جميع الليل ، والتأويب : سير النهار أجمع ، والدّلجة ؛ بفتح الدال من الإدلاج بوزن الافتعال ؛ وهو أن يسير من آخر الليل . يعقوب:خرجنا بدُلجة ودَلْجة:إذا خرجوا فى آخر الليل. وافيناً:

وصلنا . آبوا : رجعوا . أزمعنا :عزمنا . نقضِّى : نتِمّ ، أراد عزمنا على أن ننزل ونتمّ بقية يومنا عندهم ، وظلُّ الشيء إنما يبقى ببقائه .والحِلّة. النزول ، والقوم : اسم للجمع ، والحِلّة هيئة الحلول ، والحِلّة مجلس القوم ومجتمعهم ، لأنّهم يحلّونه ، والجمع حِلال ، والحِلّة جماعة بيوت الناس .

* * *

وبينما نَحْنُ نَتَخَيّرُ المُناخَ ، ونَرُودُ الوِرْدَ النُّقَاخِ ، إذْ رَأَيْنَاهُمْ يَرْكُضُونَ ، كَأَنَّهُمْ إلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ، فَرَابَنَا انْثِيالُهُمْ ، وَسَأَلْنَا مَا بالُهُمْ ؟ فقيلَ : قَدْ حَضَرَ نادِيَهُمْ فقيهُ الْعَرَبِ ؛ فإهرَاعُهُمْ لِهَذَا السَّبَبِ ؛ فقلْتُ لِرُفْقَتِي : أَلاَ نَشْهَدُ مَجْمَعَ الحَيّ ، لنتبَيَّنَ الرُّشْدَ من الْغيّ ! فقالوا : لَقَدْ أَسْمَعْتَ إذْ دَعَوْتَ ، ونَصَحْتَ وَمَا أَلَوْت .

* * *

المُناخ : موضع النزول. نَرُود : نطلب . الوِرْد النُّقاخ: الماء البارد العذب، وأنشد أبو علىّ :

تركتُ النَّبيذ لأهل النبيذِ وأصبحت أشرب عذباً نُقاخَا

سُمِّى نقاخا ، لأنه ينقخ الفؤاد ببرده ، أى يكسره . يركضون : يجرون مسرعين . نُصب : صنم ، كانوا فى الجاهلية ينصبونه ، ويذبحون عليه لأوثانهم، وجمعُه أنصاب، والنّصَب : الشرّ، قال الله تعالى: ﴿بنَصَبٍ وعذَابٍ﴾(١). يُوفضون: يُسرعون . إهراعهم: إسراعهم ، وأهرع : أسرع فزِعاً مرتعداً . وَيُهرَعون : يُستحثّون . ألوتُ : قصرت .

---

(١) سورة ص ٤١ .

ثمَّ نَهضْنَا نتَبَّعُ الْهَادِي ،وَنَؤُمُّ النَّادِي ، حتَّى إذا أَظْلَلْنَا عَلَيْهِ ، واسْتَشْرَفْنَا الفَقِيهَ المنهودَ إليه ، أَلْفَيْتُهُ أبا زيْدٍ ذَا الشُّقَرِ والبُقَرِ ، والْفَوَاقِرِ والْفِقَرِ ، وقدْ اعْتَمَّ الْقَفْدَاء ، واشْتَمَلَ الصَّمَّاء ، وقَعَدَ القُرْفُصَاء ، وأَعْيَانُ الحيّ بِهِ مُحْتَفُونَ ، وأَخْلاطُهُمْ عَلَيْهِ مُلْتَفُّونَ ، وَهُوَ يقول : سَلُونِي عن المُعْضِلاَتِ ، واسْتَوْضِحُوا مِنِّي المُشْكِلاَت ، فوالَّذِي فَطَرَ السَّمَاء ، وعَلَّمَ آدَمَ الأَسْماء ، إِنِّي لَفَقِيهُ الْعَرَبِ الْعَرْباء ، وأَعْلَمُ مَنْ تحتَ الْجَرْباَءِ . فَصَمَدَ لَهُ فتًى فتيقُ اللِّسَانِ ، جَرِيء الْجَنَانِ ، وقال : إِنِّي حاضرتُ فُقَهَاءَ الدُّنيا ، حتَّى انتَخَلْتُ مِنْهُمْ مائة فُتْيَا ، فإِنْ كُنتَ مِمَّنْ يَرْغَبُ عن بناتِ غَيْرٍ ، ويَرْغَبُ مِنَّا فى مَيْرٍ ، فاسْتَمِعْ وأجِبْ ، لِتُقَابَلَ بِمَا يَجِبُ ، فقال : اللهُ أَكْبَرُ ، سَيَبِينُ الْمَخْبَر ، ويَنْكَشِفُ الْمُضْمَر ، فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ .

* * *

الهادى : الدليل . نؤمّ : نقصد . النادى : مجتمَع القوم . أظللنا : قربنا منه ودنونا وأشرفنا عليه . استشرفنا : نظرنا وتأمّلنا ، والاستشراف: أن تضع يدك على حاجبك من الشمس إذا أردت النَّظر إلى شيء يبعدُ منك. المنهود : المقصود ، ونهدت إليه ونهضت بمعنًى ، ونَهَد ينهد نَهْداً ، أى شخص ونهض . وقيل : أكثر مايستعمل هذا فى الحرب ، يقال : نهد إلى العدوّ ، إذا نهض ليقاتله . ألفيتُه : وجدته . ذا الشُّقر والبُقر : صاحب الدواهى ، يقال : جاءنا بالشُّقَر والبُقر ، إذا جاء بالكذب المستفظَع ، وجاء بالشُّقّارى والبُقّارَى ، أى بالكذب . والفواقر : قواصم الظَّهر ، يراد بها الدواهى ، والفاقرة : الكاسرة للفَقار ، وهو

عظم الصُّلب . والفِقَر في النثر ، مثْلُ القوافي في الشعر . القَفْداء ، بالقاف قبل الفاء : أن يلفّ عمامته على رأسه ولا يرسل منها شيئاً . ابن سيده : القَفْداء : والقَفْد ، إذا لوى عمامته على رأسه ، ولم يُسْدِلها ، قال الأزهريّ رحمه الله تعالى : العمّة القَفْداء معروفة ، وهي المِيْلاء ، والسنّة أن يتعمّم ويُسْدِل خلف ظهره .

ابن عمر رضي الله عنهما . كان النبيّ صلّى الله عليه وسلم إذا تعمّم سدَلَ عمامته بين كتفيه . والصَّمّاء : أن تُجلِّل نفسك بالثوب غير المخيط ، ولا ترفع شيئاً من جوانبه ، فتكون فيه فُرْجة تخرج منها اليد ، وإنما نَهَى عن ذلك مخافةَ أن تصيبَه شدّة في تلك الحالة ، وهو لا يقدِر على إخراج يده ، فيدفعها فيهلِك .

وقال الفجنديهي : رأيتُ بخط الحريريّ : اشتمل الصَّمَّاء ، أي التحف بثوب جَلَّل جسده ، وقيل لها صمّاء لأنها لا منفذ فيها كالصخرة الصماء ، التي لا صَدْع فيها ولا خَرْق ، وهي عند الفقهاء أن يشتمل بثوبٍ واحد ليس عليه غيره ، ثم يرفعه من أحد جانبيه فيضعه على مَنكِبيه ، فتبدو عورته ، فنُهي عن ذلك .

وقال الأزهريّ : هذا أصحّ الكلام ، والفقهاء أعلم بتأويل هذا . والقُرْفُصاء : أن يقعد على إليَتَيْه ، وينصب ساقيه ، ويلصق فخِذيه ببطْنه ويحتبي بيديه فيضعهما على ساقيه ، قاله أبو عبيد . وقيل : هي جلسة المحتبِي ، ثم يرفع فَخِذَيْه وركبتيه إلى صدره ، ويدير يديه عَلَى ساقيه ، ويشدّهما ، فإذا فعلت ذلك بالرجل وشدّدت يديك عليه ، فقد قرفصتَه .

الفنجديهي : رأيت بخط الحريريّ : معناه أن يَحْتَبِيَ بيديه ، قال أبو أمامة : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يجلس القُرْفصاء فيضع يده اليمنى على الشمال عند المفصل . وتقرفَص الرّجل ، إذا جمع يديه وانضمّ من جَرَب أو قروح به .

أعيان : أشراف . محتفّون : محلّقون ، والمنزل محفوف بالناس إذا اجتمعوا بحفافيه ، أي بجانبيه . والأخلاط : الدُّون من الناس . والمعضِلات : الغامضات

من الكلام الصّعب. واستوضحوا ، أى طلبوا منّى إيضاحها ، أى بيانها . فَطَر: خلق ، وفطر الله الخلق ابتدأ خلقهم ، قال ابنُ عباس : ما كنت أدرى ما فاطرُ السموات والأرض حتى احتكم إلىّ أعْرابيّان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتُها، أى ابتدأتها ، وقال الله تعالى: ﴿إلاَّ الذّى فَطَرَنى﴾(١) أى خلقنى. ويتفطّرن: يتشقّقن ، وانفطرت : تشقّقت . وعلّم آدم الأسماء كلّها ، أى علمه أسماء كل شىء من المخلوقات . وفقيه العرب ، أى عالمهم ، وقال تعالى: ﴿ليتَفَقَّهُوا فى الدين﴾(٢) أى ليكونوا علماء به ،وكلّ عالم بشىء فهو فقيه فيه ، ويقال: فقهت عنك ، أى فهمت، وفقهت فقهاً ، أى صرت فقيها ، وهو الحاذق بما يعلمه ، وفقِهت الرجل : غلبته فى الفقه . العَرْباء : الخالصة ، وهذا الادّعاء الذى يُدعى الآن يسمى انتحال العلم .

وقال بعض الحكماء : لاينبغى لأحد أن ينتحل العلم .

وقال مقاتل بن سليمان يوما ، وقد دخلتْه أبّهة العلم : سلونى عمّا تحت العرْش إلى أسفل الثرى ، فقال له رجل : مانسألك عن شىء من ذلك ، إنّما نسألك عما معك فى الأرض ، أخبِرْنى عن كلْب أهل الكهف ما كان لونه ؟ فأفحمه .

ولما شُهِرتْ تآليفُ ابن قتيبة ، ولُحِظ بعين العالم المتفنّن، صعِد المنبر ، وقد غَصَّ المحفل واعتلى ، تبريزاً على علماء وقته ، مع فضل جاه اشتمل به من السلطان ، فقال : ليسألنى مَنْ شاء عمّا شاء ، فقام إليه أحد الأغفال ، فقال له : ما الفتيل والقِطمير ؟ فلم يُحِرْ جوابا ، وأفحمه ونزل خجلا ، وانصرف إلى منزله كسلاً . فلما نظر اللفظتين وجد نفسه أذْكرَ الناس بهما ، وهذا من عقاب العُجْب .

ورأيت فى بعض الأخبار أنّ ابنَ قتيبة سُئِل عن حرف لغة فلم يعلمْه وقت

---

(١) سورة هود ٥١ .

(٢) سورة التوبة ٢٢ .

السؤال ـ وكان أبيض مشرباً بحمرة ـ فلما وجد الحرف غلبت الحمرة على وجهه ، حتى طفىء أسفاً على فَوْتِ الحرْف وقت الحاجة ، ولعله كان ما قدّمنا فى الحكاية .

وقال قتادة : ما سمعت قطّ شيئاً إلا حفظتُه ، ولا حفظت قطّ شيئاً فنسيته .
ثم قال : يا غلام هات نعلى ، فقال : هما فى رجليك ، ففضحه الله .

وقال قَتَادة : حفظت ما لم يحفظ أحدٌ قطّ ، ونسيت ما لم ينس أحد قطّ ، حفظت القرآن فى سبعة أشهر ، وقبضت على لحيتى ، وأنا أريد أن أقطع ما تحت يدى ، فقطعت ما فوقها .

وكان بشريش رجل من أهل الدين والورَع ، وحجّ فى أيام أبى حامد وصحبه ، ففاتت صلاة الصبح يوماً لأحد أصحابه ، فلامه على ذلك ، فاعتذر له صاحبه فلم يعذِره . ثم قال له عَلَى معنى الترغيب: كَمُلَتْ لى اليوم عشرون سنة ، ما فاتتنى صلاة الصبح فى جماعة ، فلمّا كان فى اليوم الثانى أدرك الحاج من صلاة الصبح ركعةً واحدة ، فلما لَقِيَه صاحبه بعد الصلاة قال له : هذا كما رأيت . وإنما ذكرت عملك على معنى التبصرة والإرشاد ، فلو ذكرتَه على غير ذلك لفاتتك ، وإذا كان موسى كليم الله قد عاتبه الله على الانتحال ، حين سئل : أىّ الناس اليوم أعلم ؟ قال : أنا ، وابتُلى بالسفر حتى لقى الخِضْر ، وجلس إليه راغباً فى أن يعلّمه ، والخضر لا ينبسط له فى التعليم ، ونقَر عصفور فى البحر ، فقال له الخَضِر : ما علمى وعلمك فى علم الله تعالى ، إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر .

وروى عن عبد الملك بن حبيب من طريق وهب بن منبّه : أنّ الله تعالى قال لموسى عليه السلام : أتدرى لم كلَّمتُك ؟ قال : لا ياربّ ، قال : إنى اطَّلعت على قلوب العباد فلم أرَ فيها قلبا أشدّ تواضعاً من قلبك ، قال المنجم :

لكل شىء فى الورى آفةٌ   وآفة المرء من الكِبْرِ

وقال آخر :

الكِبْر يأسٌ والتواضع رفعةٌ والمزح والضحك الكثير سقوط
والحرصُ فقر والقناعة رفعةٌ واليأس من روح الإله قنوطُ

فينبغي لكل عاقل أن يقول : ما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله :﴿ ربِّ زدني علماً ﴾[١]، ولا يَرَى لنفسه حظًّا ، ويشكر الله تعالى على ما أعطاه فهو بالأدب أليق ، وبالشرع أوفق .

ومن سخيف الشعر في الانتحال :

وما عنَّ لي من غامض العلم غامضٌ مَدَى الدَّهر إلاّ بتَّ منه على عِلْمِ

وقال عديّ بن الرّقاع :

وعلمت حتى ما أشاورُ عالما عن علم واحدةٍ لكي أزدادها[٢]

وسمعه كُثيّر ينشده الوليد بن عبد الملك ، فقال له : كذبت وربّ البيت الحرام ، فليمتحنك أمير المؤمنين في صغار الأمور دون كبارها ، حتى يتبيّن جهلُك ، وما كنتَ قطّ أحمق منك اليوم حين تظنّ هذا في نفسك[٢].

وقال أبو موسى المنجم : ما أحدٌ تمنّيت أن أراه ، فلمّا رأيته أمرت بصَفْعِهِ إلا عديًّا ، فقيل له : ولِمَ ذلك ؟ قال : لقوله هذا البيت ، كنت أعرض عليه أصناف العلوم ، فكلّما مرّ عليه بشيء لا يحسنُه أمرت بصفعه .

قوله : وأعلم مَنْ تحت الجرباء : سُمِّيَت السماء جرباء ، لأن النجوم فيها كالجرَب في البدن .

وقال ابن الرومىّ في غلام يهْواه وخرج عليه جُدَرِيٌّ ، وأشار إلى جرب السماء :

وقالوا شانه الجُدَرِيّ فانظرْ إلى وجهٍ به أثر الكلومِ
فقلت : ملاحةٌ نُثِرت عليه وما حُسْنُ السَّماء بلا نجومِ!

(١) سورة طه ١١٤ (٢) الأغاني ٨ : ٣٣

وقال أبو بكر بن السراج فى الفتح بن مسروق البلخىّ ، وقيل : قالَهما فى ابن ياسر المغنّى ، وكان من أحسن الناس وجهاً :

لِى قمر جُــدِّر لمّا استوَى   فزاده حسنا وزاتْ الهمــومْ[1]
كأنّمَا غنّى لشمس الضحى   فنقّطتْه طربا بالنجـــومْ

وقال آخر :

كأنّ آثار تجديرٍ بوجْنَتِهِ   عشر معوّرة فى صحفة ورّاقِ

* * *

وقال ذو الوزارتين أبو الوليد بن زيدون :

قالَ لى اعتلّ مَنْ هويتَ بجسودُ   قلت أنتَ العليلُ ويحَكَ ، لا هُو[2]
ما الذّى تنقِمُونَ من بثَرَاتٍ   ضاعفتْ حسنَهُ وزانت حلاهُ
وَجْهُه ـ فى الصّفاء والرقة ـ الما   ء ، فلاَ غرْوَ أنْ حَبابٌ علاَهُ

قوله : صمَد ، أى قصد . فَتيق : طَلِيق . جرىء الجنان : ماضى القلب قويّه . انتخَلْت : اخترت . الفتيا : لغة فى الفتْوى ، وهما اسمان يُوضعان موضع الإفتاء ، تقول : إفتاء وفُتْيا وفتْوى .

بنات غير ، كناية عن الكذب . الفنجديهىّ . رأيت بخط الحريرىّ : بَنَات الغير : الكذب .

القرّاء : يقال للرجل ، أبو بنات عبر ، وهو الباطل بعين مهملة وباء منقوطة ، واحدة .

مَيْر : رزق وصلة ، وأصله جَلْب الطعام للأكل . الله أكبر : حكى أهل اللغة أنّ معناه كبير ، وقال الفرزدق :

إنّ الّذِى سَمَك السَّمَاءَ بنَى لنَا   بيتــاً دعائمه أعزُّ وأطوَلُ[3]

---

(١) إنباء الرواة ٣ : ١٤٨ .
(٢) ديوانه ١٢٤ .
(٣) ديوانه ٧١٤ .

أى عزيزة طويلة .

قال معن بن أوس :

لَعَمْرُكَ ما أدرى وإنِّى لأوْجَلُ   عَلَى أيِّنــا تَعْدُو المنيّة أوّلُ(١)

أى لوجل ، وقال النّحويون : الكسائى والفراء وهشام معناه : أ كبرُ من كل شىء ، فحذفت مِنْ لأنّ أفعل خبر، كقولك : أبوك أفضل وأعقل، أىْ من غيره ، ولو كان اسما لم يحذف منه شىء ، ألا ترى أن مَنْ قال : أخوك أفضل لم يقل إن أفضل أخوك ، فحذفت « مَنْ » فى الخبر ، لأن الخبر يدلّ على أشياء غير موجودة فى اللّفظ ، نحو أخوك قام ، فيدلّ على المصدر والزمان والمكان والاسم لايحذف منه شىء يدلّ عليه . والمخبَر ، مصدر خبرت خَبَرَةً ومخبَرًا ، إذا جرّبتَه ، فأراد : سيتبيّن لك بالتجربة ماادّعيته من العلوم، وينكشف لك ماأضمرته منها . اصْدَع : تكلّم وأظهر ، وصدعتُ بالحق تكلّمتَ به جهارا، وقوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾(٢) أى أظهرْ دينك .

وإنما اعتمد الشيخ أبو محمد الحريرى فى شرح الألفاظ التى ألغز بها على الوجه المعمّى ؛ ولنشرح ما سوى ذلك مما اشتملتْ عليه إن شاء الله تعالى :

* * *

[فقيه العرب وفتواه]

قال : ما تَقُولُ فِيمَن تَوَضَّأَ ثُمَّ لَمَسَ ظَهْرَ نَعْلِهِ ؟ قال : انتقَض وُضُوءُهُ بِفِعْلِهِ (النَّعْل : الزَّوجة) .

قال : فإن توضَّأَ ثُمَّ أَتْكَأَهُ الْبَرْد ؟ قال : يجدِّدُ الوُضُوءَ من بَعْدُ (الْبَرْد : النوم) .

قال : أَيَمْسَحُ المتوضِّئُ أُنْثَيَيْه ؟ قال : قَدْ نُدِبَ إليــه ، ولم يوجَبْ عليه . (الأنثَيان: الأذُنان) .

---

(١) ديوانه ٥٧ . (٢) سورة الحجر ٩٤

قال : أيجُوز الوضوء مِمّا يَقْذِفُهُ الثُّعبان ؟ قال : وهَلْ أنظف مِنْهُ لِلعُرْبَان ! (الثُّعبان : جمع ثَعْب، وهو مَسيلُ الوادى)

قال : أَيُسْتَبَاحُ ماءُ الضَّرِيرِ ؟ قال : نعم ، وَيُجتَنَب ماءُ البَصِير . (الضَّرير : حَرْف الوادى . والبَصير : الكَلْب) .

قال : أيحِلّ التَّطَوُّف فى الرَّبيع ؟ قال : يُكْرَهُ ذلك لِلْحَدَثِ الشَّنِيع . (التَّطوُّف : التَّغوُّط . والرَّبيع : النَّهْر الصَّغير) .

* * *

قوله : لمسَّ، جرَّ أصابعه عليها . أتكأه : جعله مُتَّكِئًا . يقذفه : يطرحه من بطنه . والضَّرير : الأعمى . والبَصِير : البَصَر .

والطَّوف : مصدر طاف حَوْل الشيء إذا دار به . والحدَث : الغائط ، وجعله شنيعًا لأن الإنسان إذا فعله فى الماء ظهر على وجه الماء فكانت به شنعة ، واستُقذر الماء فلم يستعمل ، وإن كان مباحًا استعماله .

* * *

قال : أيجب الغُسْلُ على مَنْ أمْنَى ؟ قال : لا ولو ثنّى . (أمْنَى : نزل مَنْى ، ويقال منه : مَنَى وأمْنَى وامتَنَى) .

قال : فَهَلْ يجبُ عَلَى الجُنُب غَسْلُ فَرْوَتِهِ ؟ قال : أجل وَغَسْلُ إبْرَتِهِ (الفَرْوَة: جِلْدَةُ الرَّأْسِ ،والإبْرَةُ :عَظْمُ المِرْفَق) .

قال : أيجبُ عَلَيْهِ غَسْلُ صَحِيفَتِهِ ؟ قال : نعم كَغَسْلِ شَفَتِهِ (الصَّحيفة : أسِرّةُ الوَجْه) .

قال : فإن أخَلَّ بِغَسْلِ فَأْسِهِ ؟ قال : هو كما لَوْ أَلْغَى غَسْلَ رَأْسِهِ (الفأس : العَظْمُ المشرِفُ عَلَى نُقْرَةِ القفا).

قال : أيجوزُ الغُسْلُ فِى الجرابِ ؟ قال : هو كالْغُسْلِ فى الجِباب .
(الجِراب : جَوْفُ البئر)

قال : فما تَقولُ فيمن تيمّم ثم رأى رَوْضا ؟ قَالَ : بَطَلَ تَيَمُّمُهُ فليتوضّأ (الرَّوْض هاهنا: جَمْع رَوْضة ، وهى الصُّبابة تَبقَى فى الحوْضِ).

. . .

أخلّ : نقص . نُقْرَة : حُفْرَة . الرَّوض : مواضع الغيث . والصُّبابة : البقيّة .

* * *

قال: أيجوزُ أن يَسْجُدَ الرَّجل فى العَذِرَة ؟ قال : نعم وليجانب الْقَذِرَة
(العَذِرة : فناء الدار) .

قال : فَهَلْ له السُّجودُ عَلَى الخِلاَف ؟ قال : لا ، ولا عَلَى أَحدِ الأطراف . (الخِلاَف : الكُمّ) .

قَالَ : فإِنْ سَجَدَ على شِمَالِهِ ؟ قال : لا بأسَ بفِعاله . (الشِّمال : جمع شَمْلَة) .

قال: فهلْ يجوزُ السُّجود عَلَى الكُرَاعِ ؟ قال: نَعَمْ ، دُون الذِّرَاع
(الكُرَاع : ما اسْتَطَالَ من الحَرّة ، وهى أرضٌ ذاتُ حجارةٍ سُودٍ) .

قال : أيُصَلِّى عَلَى رَأْسِ الْكلْب ؟ قال : نَعَمْ ، كَسائِر الْهِضْبِ
(رأس الكلب : ثَنِيَّةٌ مَعْروفَة) .

قال: أيجوزُ للدّارِسِ حَمْلُ المصاحِف ؟ قال: لا ، ولا حَمْلُها فى الملاحِف.
(الدَّارِس : الحائض) .

قال : ما تقول فيمَن صلَّى وعانته بارزة ؟ قال : صلاته جائزة .
(العانة : الجماعة من حُمُر الوحش) .

والكُراع : الرِّجْل ، وكُراع كلِّ شيء طرفه . والحَرّة : أرض فيها حجارة سُود . والهُضْب : جمع هَضْبة وهى الصخرة العظيمة ، والكُدْية الصغيرة ، وقيل : الهضبة الجبل المنبسط على وجه الأرض ، وقيل : الجبل الطويل المتّسع والجمع هضاب . ثَنيّة : عقَبة .

* * *

قال : فإن صَلَّى وعلَيْهِ صَوْمٌ ؟ قال : يُعِيدُ ولَوْ صَلَّى مائة يوم .
(الصَوْم : ذَرَق النَّعَام)

قال : فإن حَمَل جرْوًا وصَلَّى ؟ قال : هُوَ كما لَوْ حَمَلَ باقِلَّى .
(الجِرْو : الصّغار من القِثَّاء والرّمان) .

قَالَ : أتَصِحُّ صَلاَةُ حامِلِ الْقَرْوة ؟ قَالَ : لا ، ولوصَلَّى فَوْقَ المَرْوة
(القَرْوَة : مِيلَغَةُ الْكَلْبِ) .

قَالَ: فإنْ قَطرَعلَى ثوْب المُصَلِّى نَجْو ؟ قال يَمْضِى فى صَلاَتِهِ ولا غَرْو . (النَّجْو : السَّحَاب الّذِى قدْ هَرَاقَ ماءه) .

قال: أيجوزُ أن يَؤُمَّ الرِّجالَ مُقَنَّع ؟ قَالَ : نعم ، ويؤُمُّهُمْ مُدَرَّع .
(المقنَّع : لابس المِغْفَر ، والمدرَّع : لابس الدِّرْع) .

قال : فإن أمَّهُمْ مَنْ فى يَدِه وَقْفٌ ؟ قال: يُعِيدُون ولَوْ أَنَّهم ألف

(الوَقف : السِّوَارُ من الْعَاج أو الذَّبْل ، وأراد أنّه لايَجُوز للرجال الائتمامُ بالنِّساء) .

. . .

الميلَغة : ما يَشْرب فيه الـكاب الماء ، وهى من وَلغ الـكلبُ ، إذا تَناول الماء بلسانه والقَرْوة : نَقِير من خشب تشرب منه الـكلاب . والقِثّاء : هو الفَقُّوس . والنَّجْو : هو الحدَث لا غَرْو : لا عجب . والمقنَّع : لابس القِناع ، يريد المرأة . والوقْف : ما وُقِف وحبس من الأموال على المساكين والمساجد . والذّبل: جلد السُّلَحفاة البرّية ، ويقال : إنها تعظم ، فربّما يضع التاجر ليلا عليها حمله يظنّها صخرة فترتحل به ، ويستعمل من الطّبق الذى عليها خلاخل للحشَم والعبيد . والعاج عَظم الفيل .

* * *

قال: فإن أمَّهُمْ مَنْ فَخِذُهُ بادِية ؟ قال : صَلاتُهُ وصَلاتُهُمْ ماضية . (الفخِذ : العشيرة ، وبَادِيةٌ ، أى يسكنون البَدْو ، واختار بعض أهل اللغة تسكين الخاء مِنْ هذه الفَخِذ ، ليحصُل الفرق بينها وبين العضو) .

قال : فإنْ أمَّهُمَ الثور الأجمّ ؟ قال : صَلِّ وخَلاكَ ذمّ . (الثّور : السَّيِّد . والأجَمّ : الذى لا رُمْحَ معه) .

قال : أيَدْخُلُ القَصْرُ فى صَلاَةِ الشَّاهِد ؟ قال : لا ، والغَائبِ الشاهد . (صلاة الشّاهِد : صلاة المغرب ، سُمِّيَتْ بذلك لإقامتها عِنْدَ طُلُوعِ النجم ، لأنّ النّجْم يُسمَّى الشاهد)

قال : أيجوز لِلْمَعْذُورِ أنْ يُفْطِرَ فى شَهْرِ رَمَضان ؟ قال : ما رُخِّصَ فيه إلاّ للصِّبْيان . (المَعْذُورُ : المختُون ، وهو أيضا المُعذَّر) .

قال : فهَلْ للمعرِّسِ أنْ يأكُلَ فيه ؟ قال : نَعَمْ بِمِلْءِ فِيهِ .

(المعرِّس : المسافِر الّذى ينزل فى آخر ليله لِيَسْترِيحَ ثمّ يرتحل).

قال : فإنْ أفطَر فيه العُرَاة ؟ قال : لا تُنْـكِرُ عليهِم الوُلاة .

(العُراة : الّذينَ تأخذهم العُرَواء ، وهى الحمّى بِرِعْدَةٍ) .

* * *

قال: فإنْ أَكَلَ الصَّائمُ بَعْد ما أَصْبَحَ ؟ قَالَ: هُوَ أَحْوَط له وأَصْلَح.

(أصبح ، أى استصْبَحَ بالمِصبَاحِ).

قال : فإنْ عَمَدَ لأن أَكَلَ ليلاً ؟ قال : ليُشَمِّرْ لِلْقَضَاءِ ذَيْلاً .

(ذكر ابن دُرَيد أنّ الليل فَرْخ الحبارى ، وقَالَ غيرُهُ : هُوَ وَلَدُ الـكرَوان) .

قال : فإن أَكَلَ قَبْلَ أن تتوارَى البَيْضَاءُ ؟ قَالَ : يلزمُهُ والله القضاء.

(البَيْضاء من أسْماء الشّمس) .

قال: فإن اسْتَثَارَ الصَّائمُ الـكَيْد ؟ قال : أَفْطَرَ وَمَنْ أَحلّ الصَّيْد .

(الـكَيْد : القىءُ . واستثاره ، أى اسْتَدْعاه) .

قال : أَلَهُ أنْ يُفطِرَ بإلْحَاحِ الطَّابخِ ؟ قال : نعم لا بطاهِي الْمَطَابِخ .

(الطَّابِـخ : الحُمّى الصَّالب) .

قال : فإن ضَحِكَتِ المرْأَةُ فى صَوْمها ؟ قَالَ : بَطَلَ صَوْمُ يَوْمِهَا .

(ضَحِكت ها هنا ، أى حاضتْ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فضَحِكَتْ فَبَشّرناها بإسْحَاقَ ﴾ .

قال: فإن ظَهرَ الجُدَرِيّ عَلَى ضَرَّتِها ؟ قال: تُفْطِرُ إنْ آذنَ بعضرّتها .

(الضَّرّة : أصْلُ الإبْهَامِ ، وأصْلُ الثّدْىِ أيضًا) .

الطَّاهى : طابخ اللّحم . والصّالب : الحمّى لا ترعد ، وإلحاحها : ملازمتها .
الجُدَرِىّ : قروح صغار تخرج على الصبيان . وضَرّتها : شريكتها فى زوجها .

* * *

قال : ما يجبُ فى مائة مِصْباحٍ ؟ قال : حِقّتانِ يا صاح .
(المِصْباح : النّاقة التى تُصبح فى المَبْرك) .
قال : فإنْ مَلَكَ عَشْرَ خنَاجر ؟ قال : يُخْرِجُ شاتين ولا يُشاجر .
(الخناجِر : النُّوق الغِزار الدَّرّ ، واحدتها خِنْجَر وخُنْجُور) .
قال : فإنْ سَمَحَ للسّاعِي بِحَمِيمَتِه ؟ قال : يا بُشرَى لَهُ يَوْمَ قيامَتِه .
(السّاعِى : جابِى الصَّدَقة ، والحَميمَة : خِيارُ المَال) .
قال : أَيَسْتحِقُّ حَمَلَةُ الأوْزَارِ من الزَّكاةِ جُزْءًا ؟ قالَ : نَعَمْ إذا كانُوا غُزًّى . (الأوْزار : السِّلاَح . وغُزًّى : جمع غازٍ) .
قال : أيجوز للحاجِّ أنْ يَعْتَمِرَ ؟ قال : لا ، ولا أنْ يَخْتَمِرَ .
(الاعتمارُ : لُبْس العِمارَة ، وهِىَ العمامة ، والاختمار : لبس الخِمـــار) .
قال : فَهَلْ لَهُ أنْ يَقْتُلَ الشُّجاع ؟ قال : نعم ، كما يقتل السّباع .
(الشُّجَاع : الحيّة) .

الحِقّة : التى استحقّت أن يركب عليها . والخناجر : نوع من السكاكين الكبار . ويشاجر : يخالف . والجابى : الجامع للصدقة ، ومنه الجباية .

والأوزار : أثقال الذنوب . والغُزّى : هؤلاء الرّماة بالنشّاب . ويَعْتَمِر : يحجّ بعمرة . ويختمر : يستعمل الخبز المختمر .

* * *

قال : فإنْ قتلَ زَمَّارَةً فى الحرَم ؟ قالَ : عَلَيْهِ بَدَنةٌ مِنَ النَّعَم .
(الزَّمَّارة : النَّعَامة واسْمُ صَوْتِها الزَّمَّار) .

قال : فإنْ رَمَى ساقَ حُرٍّ فجدَّلَهُ ؟ قال : يُخرِج شاةً بَدَلَهُ .
(سَاقِ حُرٍّ : ذَكَر القَمَارِى)

قال : فإن قتل أَمَّ عوْفٍ بَعْدَ الإحرَام ؟ قَالَ يتصدَّقُ بِقُبْضَةٍ مِنْ طَعَامٍ . (أم عوْف : الجرادة) .

قال : أيجبُ عَلَى الحاجِّ استِصْحَابُ الْقَارِب ؟ قالَ : نعم ، ليسوقَهُمْ إلى الْمَشَارِبِ. (القارِب : طالبُ الماء باللَّيْلِ) .

قَالَ : ما تَقُولُ فى الْحرَامِ بَعْدَ السَّبْتِ ؟ قَالَ : قدْ حَلَّ فى ذَلِكَ الوقْتِ. (الحرَام : المحرَّم ، والسَّبْتُ : حَلْق الرّأْس . وحَلَّ ، من تحليل الحجّ) .

قال : ما تقولُ فِي بَيْع الكُمَيت ؟ قال : حَرَامٌ كبَيْعِ المَيْتِ .
(الكُمَيْت: الخمْر) .

والزَّمَّارة: المرْأَة تَضْرب بالمزمار . والبَدَنة الناقة ، سُمِّيت بذلك لضخامتها وبَدُن الرّجُل ضَخُم . جَدَّلَهُ : قتله وطرحَه على الجدالة ، وهى الأرض .
ومن أبيات اللّغز فى الجرادة :

وما صَفْرَاءُ تُكْنَى أمّ عَوْفٍ كأنّ سُوَيْقَتَيْها مِنْجلَانِ

والقارب : السفينةالصغيرة . والكُمَيْت : الفرس الأسود العُرْف والذَّنب.
والكُمْتَة : حُمْرَة تضرب إلى السواد .

* * *

قال : أيجوز بَيْعُ الخلّ بلحْم الجَمل ؟ قال : ولا بلحْم الحَمَل .

(الخلّ ابنُ المخاض ، ولا يحلّ بيعُ اللّحم بالحْيوان ، سواء كان من جِنْسه أو مِنْ غير جنسه) .

قال : أيحلّ بيعُ الهَدِيّة ؟ قال : لا ولا بَيْعُ السَّبِيّة . (الهديَّة ، بالتَّشديد : ما يُهْدَى إلى الـكعبة ، ويقال فيها هَدْيَة ، بتسكين الدّال وتخفيف الياء . والسبيَّة : الخمرْ) .

قال . ما تقول فى بيع العَقِيقة ؟ قال : محظورٌ على الحقيقة . (العَقِيقة: ما يُذْبحُ على المولود فى اليوم السَّابع من وِلادته) .

قال : أيجوز بيعُ الدَّاعى ، على الرَّاعى ؟ قال . لاَ ، ولاَ على السَّاعى. (الدَّاعى : بقية اللّبن فى الضَّرْع ، والسَّاعى: جَابِى الصَّدَقه) .

قال : أيُبَاع الصَّقْر بالتَّمر ؟ قال: لاَ ، ومالِك الخلْق والأَمْر . (الصَّقْر : الدِّبس) .

قال : أيَشْترى المسْلِم سَلَب المُسْلِماتِ ؟ قال : نَعَم ، ويورَثُهُ عنه إذا مات . (السَّلَب : لِحاء الشَّجر ، وهو أيضا خُوصُ الثُّمام)

والحَمَل : الخروف . والعَقِيقة : خَرَزة حمراء محظور : ممنوع . والصَّقْر : من جوارح الطير . الدِّبْس : عسل التّمر . خَوص : ورق . الثُّمام : شجر ضعيف وَرَقُه كورق الدَّوْم مزدوجة .

* * *

قال : فهل يجوزُ أَنْ يُبتَاع الشَّافِع ؟ قال : ما لجوازه من دافع (الشافع : الشاة الّتى يتبعها سَخْلُهَا) .

قال : أَيُبَاعُ الإبريقُ على بنى الأَصْفَر ؟ قال : يُكْرَه كبيع المِغْفَر .

(الإبريق : السّيف الصّقيل الكثير الماء . وبنو الأصفر : الرّوم) .

قال : أيجوز أن يبيعَ الرّجل صيفيّه ؟ قال : لا ، ولكنْ ليبِعْ صفيَّـــهُ . (الصيفيّ : الولد على الكِبَر ، والصفيّ : الناقة الغزيرة الدّرّ) .

قال : فإنِ اشْتَرَى عبْدًا فبانَ بأمّه جِراح ؟ قال : ما فِي رَدّهِ من جُناح . (الأمّ : مُجْتَمعُ الدّمَاغ) .

قال : أتثبت الشُّفْعَة للشريك في الصحراء ؟ قال: لا، ولا للشْرِيكِ فى الصَّفْرَاء. (الصّحْرَاء : الأتان التى يُمازج بياضَها غُبْرة والصّفرَاء: النّاقة) .

قال : أيحلّ أنْ يُحْمَى ماءُ البِئْرِ والخَلاَ ؟ قال : إن كان فى الْفَلاَ فَلاَ . (يُحْمَى : يمنع . والخَلاَ : الكَلأُ) .

الإبريق : آنية الخمر . الصَّيْفيّ : ما ولد فى زمن الصيف. والصّفيّ : الصاحب الخالص . والدّرّ : اللبن . وبان : ظهر . وجَنَاح : إثم . والأتان : الأنثى من الحمير .

* * *

قال : ما تقول فى مِيتة الكافِرِ ؟ قال : حِلٌّ المقيم والمسافر .
(الكافر : البحر ، وميتته : السَّمَكُ الطّافِي فوق مائِه) .

قال : أيجوز أن يُضحَّى بالحُول ؟ قال : هو أجْدَرُ بالقَبُول .
(الحُول : جمع حائل) .

قال : فهلْ يُضحَّى بالطّالِق ؟ قال : نعم ، ويُقْرَى منها الطارِق .
(الطالق : الناقة تُرْسل ترعَى حيث شاءت) .

قال : فإنْ ضَحَّى قبل ظُهورِ الغَزالَةَ؟ قال : شاة لحمٍ بلا مَحالةٍ .

(الغَزَالة : الشمس) . قال بعضهم : يقال : طلعت الْغزالة . ولا يقال : غَرُبَت، وضدّها الجَوْنة ، تسمّى بها عند مغيبها ، لأنها تسودُّ حين تغيب ، كما قال الشاعر :

* تبادر الجوْنة أن تغيبا[1] *

قال : أيحِلّ التّكسّب بالطَّرْق ؟ قال : هو كالقِمَار بلا فرق .

(الطَّرْق : الضَّرْب بالحصَى ، وهو من أفعال الكَهَنة) .

قال : أَيسلِّمُ القائمُ على القَاعِد ؟ قال : محظُورٌ فيما بين الأَبَاعِد .

(القاعد : التى قعدت عن الحيْض أو عن الأزْواج) .

والطّافى : المرتفع على وجه الماء . والُحول : جمع أحْوَل وحَوْلاء . أجْدَر : أحق . والطّرْق : السّيْر بالليل . محظور : ممنوع .

* * *

قال : أينَامُ العاقِلُ تحت الرّقيع ؟ قال : أحْبِبْ به فى الْبَقيع .

(الرّقيع : السّماء ، وعَنَى بالبقيع المدينة) .

قال : أَيمْنَعُ الذِّمّى مِنْ قتلِ الْعَجُوز ؟ قال : معارضتُه فى الْعجوز لا تجوز . (العَجُوز: الخمر . وقتلها : مَزْجُها) .

قال : أيجوز أنْ ينتقل الرّجُلُ عِنْ عِمارَةِ أبيه ؟ قال : ما مُجَرِّز لخاملٍ ولا نبيه . (العِمارة : القَبيلة)

---

(١) اللسان ـ جون

قال : ما تقول فى التهَوُّد ؟ قال : هو مفتاح التزَهّد . (التَّهَوُّد : التوبة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إنَّا هُدْنا إليكَ ﴾ .

قال : ما تقول فى صَبْرِ الْبَلِيّه ؟ قال : أعْظِمْ بِهِ من خَطِيّة . (الصَّبْر: الحبس . والبليّة: الناقةُ تحبَس عند قبر صاحبها، فلاَ تُسْقَى ولا تُعلَف إلى أن تموت ، وكانت الجاهلية تزعُمُ أنَّ صَاحِبَها يُحْشَرُ عليها) .

قال : أيحِلّ ضربُ السَّفير ؟ قال : نعم ، والحَمْلُ على المستشير . (السَّفير : ما تساقط من ورق الشجر . والمستشير : الجمل السَّمين ، وهو أيضا الجمل الّذى يعرف اللاقِحَ من الحائل) .

والرّقيع : الأحمق الذى يتخرّق عليه رأيه حتى يَحْتاج إلى أن يرقَّع ، ثم كثر حتى صار الرّقيع الماجن القليل الحياء ، فأراد : أيرقُد عاقل تحت رقيع ؟ فقال : ما أحسن ذلك ، إذا كان فى البقيع ؛ هذا معناه فى الظاهر ، وما قصد به قد فسره . والبقيع فى الأصل : كلّ موضع فيه أصول أشجار مختلفة . التّهوّد : الدّخول فى دين اليهوديّة . عمارة أبيه : ما كان أبوه يعمره من دار يسْكنها ومال يعمره . السّفير : الرسول . المستشير : المسترشد الذى يستشيرك فى أموره والحمل عليه إهانته وظلمه . اللاّقح : الحامل بالولد ، والحائل : ضدّها .

* * *

قَالَ : أيُعَزِّر الرَّجُلُ أباه ؟ قال : يفعلُه البَرّ ولا يأباه . (التَّعزير : التَّعظيم والنُّصرة والتوقير) .

قال : ما تقول فيمن أفقر أخاه ؟ قال : حبّذا ما توخّاه . (أفقره : أعاره ناقة يركب فقَارها) .

قال : فإن أعْرَى وَلَدَهُ ؟ قال : يا حُسْنَ ما اعْتمده ! (أعْرَاه : أعطاه ثمرة نخلة عامًا) .

قال : فإن أصْلَى مملوكَهُ النّار ؟ قال : لا إثْمَ عَلَيْهِ ولا عار . (المملوك : العَجين الذى قد أُجِيد عَجْنُه حَتّى قوِىَ) .

قال : أيجوز للمرأة أن تصرم بَعْلَهَا ؟ قال : ما حَظَرَ أحدٌ فعلها . (البَعْل : النّخْل الذى يشرب بعروقه من الأرض) .

قال : فهل تؤدَّب المرأة على الخجل ؟ قل : أجل . (الْخَجَل : سوء احتمال الغنى ، ومنه قوله صلى الله وسلم للنساء : « إنّكن إذا جعتُنَّ دَقَعْتُنَّ ، وإذا شبعتُنَّ خجلتُنَّ ») .

قال : ما تقول فيمن نَحتَ أثْلَةَ أخيه ؟ قال : أثِمَ ولو أُذِنَ له فيه . (نَحتَ أثْلتَه ، إذا اغتابه وقَدَح فى عِرْضه) .

يعزّر : يؤدّب ، والتّعزير : ضرب دون الحدّ . والبَرّ : المكرِم لأبيه . توخاه : قصده ، وكذلك اعتمده . أصْلاَه : جعله فيها . تصرّم : تقطع وتباعد ، وأصل الصَّرْم القطع . بعلها زوجُها . حظر : منع . الخجَل : الاستحياء . وأراد بسوء احتمال الغنى ، أن تكون مبذّرةً لمالِها سفيهةً ، فكأنّ الغنى لمّا أتاها لم تحتمله فأفسدته نحَت : نجَر . أثلة : شجرة .

* * *

قال : أيحجُر الحاكم على صاحب الثّور ؟ قال : نعم ، ليأمن غائلة الجور . (الثّوْر : الجنون) .

قال: فهل له أن يضرب على يد اليتيم ؟ قال : نعم ، إلى أن يستقيم . (يقال : ضرب على يده ، إذا حَجَر عليه) .

قال : فهل يجوز أن يتّخذ له ربَضاً ؟ قال : لا ، ولو كان له رِضاً .
(الرَّبَض : الزوجة)

قال : فمتى يبيع بَدَنَ السّفيه ؟ قال حِينَ يَرَى له الحظَّ فيه .
(البَدَن : الدّرع القصيرة) .

قال : فهل يجوز أن يبتاع له حُشًّا ؟ قال : نعم ، إذا لم يكن مُغشّىً . (الُحشّ : النخل المجتمع) .

قال : أيجوز أن يكونَ الحاكم ظالمًا ؟ قال : نعم ، إذا كان عالمًا .
(الظّالم : الذى يشرب اللبن قبل أن يروّب ويخرُج زبَده) .

قال : أيُستقْضى مَنْ ليست له بصيرة ؟ قال : نعم ، إذا حسُنت منه السّيرة . (البصيرة : التّرس) .

قال : فإن تَعرّى من العقْل ؟ قال : ذاك عنوان الفضل . (العَقْل : ضرب من الوشى) .

غائلة : ضَرر . الرّبض : بقاع من الأرض تباع وتشترى . الُحشّ : الكَنيف . مغشّى : يغشاه الناس ويدخلونه . البصيرة : اليقين والنّظَر السديد . السِّيرة : العادة . عُنْوان : دليل وعلامة .

* * *

قال : فإن كان له زَهْوٌ جَبّار ؟ قال : لا إنكارَ عليه ولا إكبار .

(الزهو : البُسْر المتلوّن . والجبّار : النخل الذى فات اليدو ضدّه القاعد) .

قال: أيجوز أن يكون الشّاهد مريباً ؟ قال : نعم ، إذا كان أَرِيبًا.

(المُرِيب : الّذى يكثر عنده اللبن الرائب) .

قال : فإنْ بان أنّه لاط ؟ قال : هو كما لو خاط . (لاطَ الحوض ، إذا طيَّنه) .

قال : فإن عُثِر على أنه غَرْبَل ؟ قال : تُرَدّ شهادته ولا تُقبل .

(غَرْبل ، أى قتل ، ومنه قول الراجز * ترى الملوك حوله مغربلة *

قال : فإن وضح أنّه مائن ؟ قال . هو وصفٌ له زائن . (المائِن ها هنا : الذى يَعُول ويكفى المئونة ، من مان يَمُون ، لا مِنْ مَانَ يَمين) .

قال : ما يجب على عابدِ الحق ؟ قال : يحلّف بإلّه الخلق .

(العابد ها هنا : الجاحد. والحقّ: الدّين) .

قال : ما تقول فيمن فقأ عَيْن بلبل عامدا ؟ قال : تُفقَأ عينُه قولاً واحدا . (البُلْبل : الرّجل الخفيف) .

قال : فإن جرح قطاة امرأةٍ فماتت ؟ قال : النّفس بالنفس إذا فاتت . (القَطاة : ما بين الوَرِكَيْن) .

والزّهو : التكبّر والإعجاب . الأريب : العاقل . لاط : عمل عمل قوم لوط . وضح : تبيَّن . مائن : كاذب . القَطاة : نوع من الحمام ، وفقأ العين: أخرجها . والبُلْبل : طائر .

* * *

قال : فإن ألقتِ الحامِلُ حشيشاً من ضَرْبهِ ؟ قال : ليكفر بالإعناق عن ذنبه . (الحشيش : الجنين المُلقى ميتاً) .

قال: ما يجب على المختفى فى الشرع ؟ قال : القطع لإقامة الرّدع. (المختفى: نبّاش القبور) .

قال : فما يصنع بمن سرق أساودَ الدار ؟ قال : يُقطع إن ساوَيْن رُبْع دينار . (الأساود : الآلات المستعمله كالإجّانة والقِدْر : الجفْنة) .

قال : فإنْ سَرَقَ ثميناً من ذَهَب ؟ قال : لا قَطْع كما لو غَصَب . (الثمين : الثُّمْن، كما يقال فى النصف : نصيف ، وفى السُّدْسِ سَدِيس) .

قال : فإن بانَ على المرأة السّرَق ؟ قال : لاحَرَج عليها ولا فرَق (السَّرَق : الحرير الأبيض) .

قال . أينعقِدُ نِكاحٌ لم يَشْهَدْه القوارى ؟ قال : لا والخالق البارى . (القوَارِى : الشهود لأنهم يُقرُون الأشياء ، أى يتّبعونها) .

قال: ما تقول فى عريسٍ باتت بلَيْلَةٍ حُرّة ، ثم رُدّتْ فى حَافِرتها بسُحْرَة ؟ قال : يجب لها نصف الصّدَاق ، ولا تلزمُها عِدّة الطلاق .

(يقال: باتت العروس بليلةٍ حرّة ، إذا امتنعت على زوجها ؛ فإن افتضّها قيل : بانت بليلة شيباء . والرّد فى الحافرة بمعنى الرجوع فى الطريق الأوّل ، وكَنَى به عن طلاقها قبل وِرْدها إلى أهلها) .

* * *

الحشيش: نبات يابس . الرّدْع : الكفّ والمنع . الأساود: الحيات . الثّمين: الرفيع الثمن .

القوارى : طيور خضر ، وقد بين هو أنه أراد بالقَوارى الشّهود ».
ويقال : المسلمون قوارى الله فى الأرض أى شهوده ، وقال جرير :

* المسلمون لِمَا أقولُ قَوارِى *

وبابت العروس بليلة شَيْبَاء ، إذا غشيها زوجها .
النفجديهى : رأيت : بخط الحريرى رحمه الله تعالى :

طيّبوها ولم أطيِّب بطِيبِ   ربّ منعٍ ألذّمن إعطاء
بتّ فى دِرْعِهاَوبانت ضجيعى   فى بصـــير وليلة شَيْبَاء

البصير هنا: قطعة من دم :

وقد أتينا على مافى هذه المسائل من الغريب فى الظاهر ، وأمّا مَاقصده من المعمّى فهو مفسّر فى الأصل ، ولقد أَحسن أبو محمد فى هذه الفتاوَى وبلغ من الإقتدار والاتساع فوق المراد ، وإن كان لا يوصف فيها الابتداع ، فقد أحسن فى الاتّباع .

[الملاحن والمعاريض]

والسابق إلى هذا المعنى أبو بكر بن دُرَيْد رحمه الله تعالى فى كتابٍ سمّاه بالملاحن ، وهى من اللّحْن ، وهو أن تورِّىَ بلفظ عن لفظ .

ثم تمم تلك الأغراض وحسّنها أحمدُ بن عبيد الله فى كتاب سَمّاه بالمنقذ(١) .

وفائدة حفظ هذه الأغراض أن يخوّف الرجل أو يروِّعه أميرظالم أومسلّط غاشم ، فيتخلّص منه بهذه المعاريض . فأما أن يقطَع بها حقّ مسلم فلاسبيلَ إليها ، ومعتَمدُهم فيهـا حديث عمران بن حصين أنّ النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن فى المعاريض مندوحةً عن الـكذب » .

---

(١) فى كشف الظنون : « المنقذ من الإيمان لمحمد بن أحمد البصرى ، المعروف بالعجيج مات سنة ٣٢٠ ، وهو يشبه الملاحن لابن دريد .

وفى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « عجبت لمن يُحْسِن المعاريض كيف يكذب ، ولمنْ لاحَن النَّاس كيف لايعرف جوامع الكلم ! »

وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم لطلائع المشركين حين لقُوه فى نفر من أصحابه ، فقالوا : ممنْ أنتم ؟ قالوا : من ماء ، فتركوهم ، وأراد ﴿فلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ مِمّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دافِقٍ ﴾(١) .

وقوله صلى الله عليه وسلم فى مُزاحه لإحدى عماته « إن الجنة لاتدخلها عجوز » ، فلمّا جزعت قال لها « إن الله تعالى يخلقهم يود القيامة أبكاراً » .

وقال لامرأة : « مافعل زوجُك الذى فى عينيه بياض »؟ فلمّا جزعت قال : « لها أو ليس فى كلّ عين بياض »؟

وقال له رجل : احمِلْنى ، قال : ما عندى إلا ولد الناقة ، فقال : وما أصنع بولد الناقة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « وهل الإبلُ إلا من النّوق ! » .

فاستُجِيزت المعاريض على هذا النحو من المزاح أو التحويف .

ومن ذلك أنّ بعض العرب أُدخِل على الواثق ، وكان يقول بخلق القرآن ويعاقبُ منْ خالفه، فقال له ، ما تقول فى القرآنُ ، فتصامَم عايه ، فأعاد السؤال، فقال : من تَعْنى يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إيّاكَ أعنِى ، فقال : مخلوق - يعنى نفسه ، وتخلّص منه .

وقال لآخر من الصالحين : ما تقول فى القرآن ؟ فأخرج يده ، وجعل يعدّ أصابعه ، ويقول : التّوراة والإنجيل والقرآن هؤلاء الثلاثة مخلوقة. فعنى أصابعه، وتخلّص منه .

---

(١) سورة الطارق : ٦

وتعذّر على رجل لقاء المأمون فى ظُلامة ، فصاح على بابه : أنا أحمد النبيّ المبعوث . فأدخل إليه ، وأعلِم إنه تنبّأ فقال له : ما تقولُ؟ فذكر ظلامته ، فقال: له ما تقول فيما حُكِى عنك ؟ فقال : وما هو ؟ قال : ذكروا أنك تقول إنَّك نبى ، فقال: مَعاذ الله ، إنّما قلت: أنا أحمد النبيّ المبعوث ، أفأنت يا أمير المؤمنين ممّن لا يحمده ؟ فاستظرفه ، وأمر بإنصافه .

وخرج شُرَيح القاضى من عند زياد ، وتركه يجُود بنفسه ، فسأله الناس عن حاله ، فقال : تركتُه يأمر وينهى ، فجزعوا لسَلاَمَتِه ، فما راعهمْ إلا صياح النّائحات عليه . فسئل شُريح عن قوله ، فقال : تركته يأمر بالوصيّة ، وينهى عن البكاء .

وسُئِل ابن شُبْرمة عن رجل ليُستَعمل ، فقال: إن له شرفاً وقدماً وبيتاً . فنظروا فإذا هو ساقط سفلة ، فقيل له فى ذلك ، فقال: شرفُه أذناه ، و بيته الّذى يأوى إليه وقدَمه الذى يمشى عليه .

وقال صاحب المنقذ :

إذا حلفْت بالأيمان اللازمة لك ، فانو بالأيمان الأيدى ، قال تعالى : ﴿ وعَنْ أيمانهم وعن شمائلهم ﴾ . فإن قلت : كلُّ امرأة طالق فاعْنِ الطّالق من الإبل ، وهى التى يطلِقُها الراعى ، والطالق التى يحمل عليها عِقالها .

فإن قيل : احلف بظِهار امرأتك كظُهْرِ أمّك ، فاعْنِ بالظّهر ما رُكِب من الخيل والبغال والحمير ، ولا جناح عليه فى ركوب دوابّ أمه

فان قال: احْلِفْ بما لك على المسلمين صدَقة، فاعْنِ ما لك على المساكين من دَيْن ، وليس لك عليهم شيء .

فإن أحلفك بأنّ كلّ مملوك لك حرّ . فالمملوك : الدّقيق الملتوت بالماء أو الزيت أو السمن .

فإن قال: كلّ غلام لك حرّ . فالحرّ : الحيَّة الذَّكر ، والحرّ من الرمل الّذى ماوطىء ، والحرّ: ذكر الحمام، قال حُميد.

* دَعتْ ساقَ حُرٍّ ترْحةً وترنّماَ *(١)

فإن أحلفك بأنّ كل جارية الك حرّة ، فالجارية السفينة ، والريح والشمس.

فإن قال : احلف وإلا كلّ أمة لك حُرّة ، فالحرّة الأذن ، والُحرّة السحابة الغزيرة المطر .

فإن أحلفك : وإلا فمالك حبس ، فحبس بلد معروف ، قال ابنُ حِلّزة :

* لمن الديار عَفَوْن بالحبس *

فإن قال: وإلاّ فهو كافر . فالكافر الليل، أوالبحر أوالزرّاع للبَذْر ، قال الله تعالى : ﴿أعْجَبَ الكُفّارَ نباته﴾(٢) ، وأصله الساتر .

وتقول : كلّ امرأة تزوجتُها فقد طلّقتها بتاتًا. فتزوّجت اتخذْتُ زوْجًا من النبات أى لونا ، وقال الله تعالى:﴿وأنبتْنا فيها من كلِّ زوجٍ(٣) بَهيج﴾ . وقال تعالى : ﴿فأخرجْنا به أزواجًا(٤) من نباتٍ شَتّى﴾، وطلّقتها ألبستها الطلق ، وهو قبة من جلود والنبات : الزاد .

وتقول : ماتطيّبت ولا تمسّكت . فتطيّبت أتيت الطِّيب،وهو بلد بين واسط والسوس ، أو طَيْبة مدينة النبي صلى الله عليه وسلم . وتمسّكت : لبِست مَسْكا وهو الجلد ، أوتفعّلت من الامتساك .

وتقول : ماله قِبَلى درهم ولا دينار . فدرهم قبيلة من رَبيعة ، لهم خُطّة فى البصرة ، ودينار اسم رجل معروف .

---

(١) ديوانه ٢٤ ، وصدره :

* ومَاهاجَ هذا الشّوق إلاّ حمامةٌ *

(٢) سورة الحديد ٢٠ (٣) سورة ن ٧

(٤) سورة طه ٣

وماله قِبَلى ثوب ولاَ شُقّة ولاقميص . الثّوب : الرجوع ، من ثاب يثُوب ، والشُّقّة : البعد . والقميص : غشاء القلب .

وماله قِبَلى شَىٌّ بوجه من الوُجوه ، ولا بسبب من الأسباب . الشىّ : مصدر شويت اللحم . والوجوه صور مختلفة من التّصاوير . والوجه : المقصِد ، والجمع وجوه ، والأسباب : الحبال .

وما أوصيتُ إليه ، وما أوصى إلىّ . أوصى دخل فى الواصِى ، وهو بيت متّصل بعضه ببعض .

ولا أعلم له داراً ولاعَقاراً ؛ فدارًا : بلد معروف بالجزيرة ، قال الشاعر :

ولقد قلتُ لرجْلِى بيْنَ حرّانِ ودَارَا[١]

اصبرى يارجْلُ حتّى يَرزُق اللهُ حِمَارا

والعَقار : النّخل .

ولا أعرف للمرأةْ بعْلاً ولاَ وليْا . فالبعْل : النخل أو الشجر ، يَشْرب بماء السحاب ، والوَلِىّ : يَلِى الوَسْمِىّ .

وتقول : ما اشتريتُ لفلانة ضَرّتك قميصاً ، ولا إزاراً ولا رداء ، ولا قِناعاً ولا غِلالة ، ولا حَلّيتها خاتماً ولاَ خُلْخالاً ولا طوْقًا ولا سِوارا ؛ ولا قرْطتها ولاشنّفتهُا ولا كسوْتها ، ولاجلست مع قَيْنة ولامغنّية ولاضاربة بعود ولا بطبل ولارَباب ، ولاسمعت زَمّارة ولا ذقت نبيذًا فالقميص غِشاء القلب ، والرّداء السيف أو الدّين أو الغطاء ، والإزار : قُبُل المرأة أو جسم الرجل ، قال الشاعر :

• فدًى لك من أخى ثقة إزار[٢] •

والإزار : العفاف ، والقِناع : جمع قنُع ، وهو طبق يجعل عليه الفاكهة .

---

(١) دارا : بلدة فى لحف جبل بين نصيبين وماردين ـ ياقوت

(٢) اللسان ـ أزر ، من أبيات لجعدة بن عبدالله السلمى

وفى الحديث : إنّ[1] الربيع ابنة معوذ أتت النبيّ صلى الله عليه وسلم بقناع من رُطب وآخر من زَغَب فأكل منه ، والزَّغَب: القِثّاء . والفِلالة : مسمار من مسامير الدّروع ؛ قال :

* فهنّ وضاء صافيات الغلائل[2] *

والفِلالة: الجماعة من الناس ، والخاتم: شعرات بيض فى قوائم الفرس. والسِّوار مصدر ساورت الرّجُلَ. والخلخال: الرّمْل الجريش . والطّوق: المصدر من الطاقة، وقرطتها من القُرْط، وهو العَلَف الرّطب تأكله الدّواب، فإذا يبس فهو القتّ. وشنَفتها جملتُها مُشنَفة أى مبغَضة ، من شنفت الرّجُلَ، إذا أبغضته . وكسوتها : ضربت كُسَاها ، وهو جانبها ، وجانب كل شىء كساه والجمع أكساء ، والقَيْنة: هزْمة بين الوَرِكين وعُجْب الذّنَب من الفرس، والعُود الذى يُتبخّر به، والزّمارة: الفاجرة، ومنه نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كسب الزمّارة ، والزّمّارة : الغُلّ، وفى خبر الحجاج: أتى سعيد بن جُبير وفى عنقه الزّمارة، أى ساجور، والطبل: السّلة التى يجعل فيها الطعام ، والطّبْل: الخراج . والمغنّية : ناقة تضرب بنابها ، والرّباب :سَحَاب متراكب قريب من الأرض. والنّبيذ : ما نَبَذته النعام أو الحمير بأرجلها من الحصى.

وتقول : مالى مركوب ومابعت عبداً ، وقد افتقرت حتى مافى مِلْكى نفقةُ يوم . مالى، بمعنى مِلْكى ، ومركوب : ضُرِبت ركبتُه ، وثنيّة بالحِجاز . وعَبْد: جبل من جبال طيّىء . وافتقر : اشتدّ فَقَاره أو كَسَر فَقار جَدْى أو حَمَل ، والمِلْك : الحجة .

وتقول : ما أضعتُ عملكَ ولاقصّرتُ ولا أهملتُ ولا فرّطتُ ولاسامحتُ أحداً ، ولا تركتُ واجباً ، ولا ارتفقت بحبّه ، ولا أبقيتُ غايةً فى مناصحتك . أضعْت : كَثُرت ضياعى . وفرّطت : بعثت فارطا ، وهو طالب المـاء ،

(١) ذكرها ابن حجر فى الإصابة ٤ : ٢٩٣ (٢) النابغة ، ديوانه ٦٤ اللسان (غلل) ، وصدره :

* عُلِينَ بِكِدْيَوْنٍ وأبْطِنّ كُرّةً *

وقَصَرت : بنيت قصراً . وأهْمَلْت : كثُرت هَواملى ، وهى الإبل السارحة فى المَرْعى بلا راعٍ . وساهمتُ : نظرتُ أيّنا أكرم . والواجب : السّاقط ، وارتفقت : نِمْتُ على مِرْفَقى ، والغاية : رايةُ الخمار .

وتقول : ماشتمت له أبَىّ ولا عمًّا ولا عمّة ، ولا خالاً ولا خالة ، ولاصحبتُه ، ولا شاهَدْته ولا راسلتُه ، ولاشاربته ، ولا نادمتُه ، ولا رأيتُه منذدَهْرٍ

أَبَى : داء يأخذ المعزى ، قال :

* أبىَ لا إخال الضّأن منـــه نواجِيًا(١) *

وعمّ : قطعة من الناس ، وقرية بالشأم ، والعمّة النخلة ، قال صلى الله عليه وسلّم : « نعمت العَمّة لـكم النخلة » ، وقيل لها عَمّة لأنهـا خُلِقت من بقية طينة آدم عليه السلام . والخال : السحاب ، والخالُ من البُرود ، والخالُ من الخيلان ، والخالةُ : جمع خالٍ من الـكِبْر . وصحبتُه : منعته ؛ قال تعالى: ﴿ وَلاَهُمْ مِنّا يُصْحَبُون ﴾(٢) ، أى يمنعون . وشاهدته : أكلت معه الشَّهد ، وراسلته : شربت معه الرِّسْل ، وهو اللبن ، وشاربته من الشوارب ، ونادمته من النَّدَم ، ورأيتُه : ضربت رئتَه ، ودَهْر : قبيلة من إياد .

وتقول : ما كتبتُ له حرْفًا ، ولاخططت له بقلم ، ولا شتمته ولا هجوته ، ولا افتريتُ عليه ، ولا أعرف عليه سوءا . الحرْف الناقة المضمَرة ، والقلم : القِدْح ، قال الله تعالى : ﴿إذْ يُلقُونَ أقلامَهم﴾(٣) ، يعنى قِداح الميسر . والشّتُم : قبح الوجه ، وهجوته : أزلت نعمتَه ، وهو الهَجَى مقصور ، وافتريتُ : لبست الفَرْو ، والسّوء : البرَص .

وتقول : رأيته فى السّوق متوفًّى مقبورا ، وما أخذ دواء ولامعجونًا .

---

(١) اللسان ـ أبى ، ونسبه لابن أحمر

(٢) سورة الأنبياء ٤٣ (٣) سورة آل عمران ٤٤

فالسوق : أصول الشجر وأعناقها . متوفًّى دائماً . مقبوراً : مبخَّراً بالعود المندىّ الذى فيه قبر ، أى رخاوة . والدواء والدَّاوية : جلدة اللبن ، والمعجون : المضروب على عِجانه .

وتقول : هو مجنون مُصاب ، قد غُلَّ مراراً ، فما اعتذرتُ له ، ولا تنصّلت ، لأنه ليس من الأجواد ، ولا الشُّجعان الذين يُقدَح فى أنسابهم . المجنون : المستور . مصاب : مجدَّر من صاب يصوب ، وغَلّ من الغُلّة ، واعتذر وتنصّل : اتخذ عِذارا وَنَصْلا . والأجواد : العطاش . والشّجعان : الحيّات ، والأنساب : أسنان المُشْط .

وتقول : رأيت الجيش بالثّغر ، والفارس فى الفوارس ، فما أفضِّلُ عليه أحداً من العرب والعجم . الجَيْش : الغَلَيان ، والثّغر : شَجَرٌ له شوْكٌ ، والفارس : الحسن الفِراسة ، والفوارس : كُثْبان رمل ، والعرب : فَساد المعدة ، وعَرِبَتْ معدتُه . والعَجَم : النّوى .

وما أكلتْ دابتى شعيرا . الشعير : جمع شَعيرة ، وهو مسمار من الفِضّة فى قائم السّيف .

والباب متسع وفيه تأنُّس لما ذكره أبو محمد .

* * *

ومن المعاريض ، أن الحجاج لما أخرج ابنَ القبعثرى من سِجْنه قال له : سمنتَ يا غضبان ، قال : القَيْد والرَّتْعَة[1] ، والخفض والدعة ، ومَنْ يكن ضيفَ الأمير يسْمَن ، قال : لأحملنك على الأدهم ، قال : مثل الأمير يحمل على الأدهم والوَرْد والكُمَيت . قال : إنه حديد ، قال : لأن يكون حديداً خيرٌ من أن يكون بليداً ، قال : اضربوا به الأرض ، قال : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وفيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾[2] قال : جُرّوه ، قال : ﴿ بسم الله مجراها ومرساها ﴾[3] ، قال : احملوه على الأيدى

(١) الرتعة : الاتساع فى الخصب (٢) سورة طه ٥٥ (٣) سورة هود ٤١

فلمّا حمل قال: ﴿سبحان الذى سخّر لنا هذا﴾[1]، فضحك الحجاج وقال: غلبنا هذا الخبيث، خلّوه إلى صفحى عنه، قال: ﴿فاصفح عنهم وقل سلام﴾[2].

وقال خالد بن الوليد لعبد المسيح بن عمرو الغسانى - وهو ابن ثلثمائة وخمسين سنة - من أين أقصى أثرك؟ قال: من صُلب أبى، قال: من أين خرجت؟ قال: من بطن أمى، قال: فعلام أنت؟ قال: على الأرض، قال: ففيم أنت؟ قال: فى ثيابى، قال: أتعقل لا عقلت! قال: إى والله وأقيّد، قال: ابنُ كم أنت؟ قال: ابن رجل واحد، قال: فما سنُّك؟ قال: عَظْم، قال: ما تزيدنى مسألتك إلاّ عِيًّا، قال: ما أجبتك إلا عن مسألتك.

الربيع بن عبد الرحمن، قلت لأعرابىّ: أتهمز إسرائيل؟ قال: إنى إذاً لرجل سوء؛ أراد قوله: ﴿همّازٍ مشّاء بنميم﴾[3]، قلت: أتجرّ فلسطينَ؟ قال: إنى إذاً لقوىّ!

خلف الأحمر: قلت لأعرابىّ: ألقى عليك بيتاً؟ قال: على نفسك فألقِه.

قيل لأعرابى: أتهمز الفأرة؟ قال: الهرّ يهمزُها.

ودخل رجل من محارب قيس على عبد الله بن يزيد الهلالى عامل إرمينيَة، وقد بات على قربٍ من غدير فيه ضفادع، فقال عبد الله: ما تركَتْنا شيوخ محارب ننام فى هذه الليلة لشدة أصواتها. فقال المحاربىّ: أصلح الله الأمير! إنها أضلّت برقعاً، فهى فى بُغائه. أراد الهلالىّ قول الأخطل:

تنقُّ بلا شىء شيوخ محاربٍ ... وماخِلْتها كانتْ تَرِيشُ ولاتَبْرِى[4]
ضَفادعُ فى ظلماء ليــلٍ تجاوَبَتْ ... فدلّ عليها صوتُها حيَّةَ البحرِ

---

(١) سورة الزخرف ١٣ .
(٢) سورة الزخرف ٨٩
(٣) سورة القلم ١١
(٤) ديوانه ١٣٢

وأراد المحاربىّ قول الآخر :

لِكُلِّ هِلالىٍّ من اللؤم برقعٌ ولابن هلالٍ برقعٌ وقميصٌ

وهذا النحو من التعريض كثير .

وقال أبو الحسن بن سراج رحمه الله تعالى :

يا ضَرّة الشمس التى أشرقَتْ قد أشرقتْ حجة مُشْتاقِكْ
لَحْظُكَ أو خَصْرُكَ قد ضَمِنَا ما ضمنتْ عهدةُ ميثاقِكْ
ثَأرُ الهوى يطلبه ثائرٌ مصرعه ما بين أحداقِكْ
لا تدْخرى أنفَس صوتٍ فقد يُرْغَبُ فى أنفس أعْلاَقِكْ
رفقاً بمَنْ مُلِّكته فى الهوى فإنه آخرُ عُشّاقِكْ

فأنفس أعلاق المرأة معلوم ، والظّرْف كلّه فى قوله : « فإنه آخر عُشّاقك » يعرّض أنها أسَنّتْ فلا عاشق لها من بعده . والقينة : التى داعبها وما زحها تفهم ما خوطبت به ، لأنها تلميذة ولاّدة بنت المكتفى ، وولاّدة شاعرة بارعة التّنْدير ، فمن تندّرها قولها فى ذى الوزارتين ابن زيدون عاشقها تعرّض له بشىء كان يُزَنّ به :

ما لابن زيدون على فَضْلِهِ يغتابنى ظلماً ولا ذَنْبَ لِى[1]
يلحَظُنى شَزْرا إذا جئتُه كأنما جئت لأخصِى عَلِى

وعَلِىٌّ صَبيُّه ، وكان يمزح معه .

. . .

فقال له السّائل : لِلّه دَرُّكَ من بحرٍ لا يُغَضْغِضُه الماتح ، وحَبْرٍ لا يبلُغُ مدحَه المادِح ؛ ثمّ أطرَق إطراقَ الحيِّ ، وأرمّ إرمام

(١) تمام المتون ١١٠ .

العَيِيّ . فقـال له أبو زيد : إيه يا فتى ! فإلى متى وإلى متى !
فقال : إيهٍ لمْ يبْق فى كنانتى مِرْماة ، ولا بَعْد إشراقِ صُبْحِكَ
مماراة ؛ فباللهِ أىّ ابنِ أرْضٍ أنت ؟ فـما أحسن ما أَبنْت !
فأنشدَ بلسانٍ ذَلِقٍ ، وصوتٍ صَهْصَلِقٍ :

أنا فى العالم مُثْـلَهْ ولأهل العِلْمِ قِبْلَهْ
غيْرَ أنى كُلَّ يومٍ بَيْنَ تَعْرِيسٍ ورِحْلَهْ
والغريب الدار لو حَـلَّ بطُوبَى لم تَطِبْ له

ثمّ قال : اللهمّ كما جعَلْتنا ممن هُدِىَ ويَهْدِى ، فاجعلهم ممّنْ
يهتدِى ويُهدِى .

فساق إليه القومُ ذوْدًا مع قَيْنَةٍ ، وسألوه أن يَزُورَهُمْ الفيْنة
بعد الفيْنة . فنهض يُمَنِّيهِمُ الْعَوْد ، ويُزجِّى الأَمَةَ والذَّوْد .

. . .

قوله : ينضنضه : ينتقصه . الماتح : المستقى من أعلى البئر ، والمائح ، بالياء
من قعرها . حَبْر : عالم . أطرق : أمال رأسه ساكتاً . وأرمّ : سكت . العيّ :
الذى إن كلّمتَه لم يُحْسن ردّ جوابه . إيه : بمعنى زدنى من سُؤالك .

ابن السرىّ : إذا قلت: «إيهِ يارجل» ، فإنما تأمره أن يزيدكَ من الحديث
المعهود بينكما ، كأنك قلت : هات الحديث ، وإن قلت إيهٍ : بالتنوين ، فكأنك
قلت : هات حديثاً ما ، فإلى متى سكوتك ؟ مرماة : سهم يرمى به السَّبْق ، وقيل:
هو سهم مدوّر النّصل . بعد إشراق صبحك ، أى بعد ظهور فضلك . وإشراق
ضوء . مماراة : شك . أبنْت : بيّنت . ذَلِق : حديد . صَهْصَلق : شديد .

مُثلة : مغيّر الخلق ، فهى « فُعْلَة » من المثل ، ويقال المُثْلة والمثل بمعنى .

* * *

[ذكر قباح الوجوه من أهل العلم وغيرهم]

ونذكر على قوله : « أنا فى العالم مثلة » ، فصلاً فى ذكر قباحِ الوجوه من العلماء وغيرهم .

فنهم الجاحظ ، وأراد المتوكل أن يعلّم بنيه الثلاثة ولاة عهده ، فأدخِلَ عليهم ، فارتاعوا من قبح وجهه ، فأخرِج عنهم بعنف .

وحكى المسعودىّ : أنّ الجاحظ قال: ذُكِرْتُ للمتوكّل لتعليم بعض ولده ، فلما رآنى استبشع منظرى ، فأمر لى بعشرة آلاف درهم[1] وصَرَفنى .

وقال الحمدونىّ :

لو يُمسخُ الخِنزيرُ مسخاً ثانياً لرأيتَه فى دون قُبحِ الجاحِظِ[1]
رجُلٌ ينوب عن الجحيم بوجهه وهو العدوّ لكلّ عينٍ لاحظِ

قال الأصمعىّ رحمه الله : دخلتُ يوما على جعفر بن يحيى ، فقال لى : هل لك يا أصمعىّ من زوجة ؟ قلت : لا ، قال : فجارية ؟ قلت : للمهنة ، قال : فهل لك أن أهب لك جارية نظيفة ؟ ، قلت : إنى لمحتاج إلى ذلك . فأمر بجارية فأخرِجَتْ وهى فى غاية الحسن والجمال والهيئة والظَّرف ، فقال لها : قد وهبتُك لهذا ، وقال لى : خذ هذه ، فشكرته ، وبكت الجارية ، وقالت : يا سيّدى ، أتدفعنى لهذا الشيخ مع ما أرى من سَمَاجَتِك وقبح منظره ! وجَزِعَتْ جزعاً شديداً ، فقال لى : يا أصمعىّ ، هل لك أن أعوّضك منها ألفَ دينار ؟ فقلت : ما أكره ذلك ، فأمر لى بها ، ودخلت الجارية ، فقال لى : يا أصمعىّ ، أنكرت عليها شيئاً ، فأردت عقُوبتَها بك ، ثم رحِمتُها منك ، فقلت : أيّها الأمير ، أفلا

---

(١) نسبهما الثعالبى فى ثمار القلوب ٤٠٤

أعلمتنى قبل ذلك ، فإنّى لم آتك حتى سرّحتُ لحيتى ، وأصلحت وجهى وعِمّتى ، فلو عرفتُ الخبر لسرت على هيئتى وخِلقتى ، فوالله لو رأتنى كذلك لما عاودتْ شيئاً تنكره أبداً .

وما ضرّ من ذكرنا قُبحهم مع العلم الذى زيّنهم الله به ، وكذا ينبغى لِمَنْ خُلِق قبيح الصورة أن يستعمل لها الأخلاق الحِسان ، والأفعال الحسان ، لئلاّ يجمع بين قبيحين .

كان الأوْيقِص المخزومىّ أقبح الناس خِلْقة ، وما رُوِى مثله فى العفاف والزهد . وكان قاضى مكة ، فقال يوما لجلسائه : قالت لى أمّى : يا بنىّ إنك خُلِقت خِلقةً لا تصلُح معها لمجالسة الفتيان فى بيوت القيان ، فعليك بالدِّين ، فإنّ الله تعالى يرفع به الخسيسة ، ويتمّ به النقيصة . فنفعنى الله بكلامها ، فوُلِّيت القضاء .

وروى أن أمّ مالك بن أنس أوصته بمثل هذه الوصية ، حين أراد أن يتعلّم الغناء فى حَدَاثته ، فتركه وتعلّم العلم ، فذهب به حيث بلغ .

وكان عطاء بن أبى رَبَاح أعور أسود أفطس أشلّ أعرج ، ثم عَمِىَ . وأمّه سوداء تسمّى بَرَكَة ، وقيل لأهل مكة بعد موته : كيف كان عطاء بن أبى رباح فيكم ؟ قالوا : كان مثل العافية التى لا يُعرَف فضلها حتى تُفْقَد .

وكان فى خلقة أبان بن عثمان كلّ عيب ، وكان يُضْرَب بعيوبه المثَل فى المدينة .

كان معن بن زائدة أميرَ اليمن يوماً جالساً إذ أتته امرأة من بنى سَهْم ، ومعها ابن صغير يتبعُها ، ويطأ أذيالها ، فقالت : أصلح الله الأمير ! إن عمّى زوّجنى مَنْ ليس بكفء ، فقال : مَن هو ؟ فقالت : ابن ذى مناجب ؟ فقال : علىّ به ، فدخل أقبح مَنْ خلَق الله ، وأشوهَهم خَلْقاً ، فقال : مَنْ هذه منك ؟

قال : امرأتى ، قال : خلّ سبيلها ، ففعل ، فأطرق معن ساعة ، ثم رفع رأسه فقال :

لَعَمْرِى لقد أصبحتُ غير محبَّبٍ ... ولا حسنٌ فى عينها ذو مناجبِ
فما لُمْتُها لمّا تبيَّنت وجهه ... وعيناً له خَوْصاء من تحت حاجب
وأنفاً كأنفِ البَكْر يقطُر ناتئاً ... على لحية عَضْباء منه وشاربِ
أتيت بها مثل المهاة تَسُوقها ... فياحسنَ مجلوب ويا شرّ جالبِ

وكان تزوجها بمكّة وقدم بها اليمن . والصبىّ هو ابن جامع المغنّى المشهور .

وحكى البحترىّ فى نوادره عن رجل سمّاه قال : مررت بامرأة من أجمل الناس ، معها رجل من أقبحهم ، فقلت لها : يا أمَةَ الله ، مَنْ هذا منك ؟ قالت : رجُليه ، فقلت : ومَنْ قرَنك به ؟ قالت : أُخَيه ، فقلت :

جزى الرحمن عنك أخاك شرّاً ... فقد أخزاك فى الدنيا وزادا
فلم أرَ مُغْزِلاً قُرِنَتْ بكابٍ ... ولا خزّاً بطانتُه بجادا

وقال آخر :

ألا رُبّ بيضاء المحاجِرِ طَفْلةٍ ... تُساق إلى وَغْدٍ من القوم تنبالِ
يقولون جرّتها إليك قرابَةٌ ... فويح العذارى من بنى العمّ والخال !

وقال آخر :

لابن عبد النور وجهٌ ... صار للقُبْحَ ملاَذا
قال قرد إذْ رآه ... لعنة الله على ذا

وقال فى بشار :

تُوائب أقماراً وأنتَ مشوّهٌ ... وأقرب خلق الله من شَبَهِ القِرْدِ

وكان بشار ضخماً قبيح الوجه ، جاحظ الحدَقتين ، أقبح الناس عمًى ومنظراً قال فيه حمّاد عجرد :

ألا مَنْ مُبْلغٌ عنى الـ ـذى والدُه بُرْدُ[1]
إذا ما نُسِبَ النَّاس فلا قَبْلٌ ولا بَعْـدُ
وأعمى يشبهُ القِرْدَا إذا ما عَمِىَ القِرْدُ

فقال بشار عندما سمع هذا البيت : ما أخطأ ابن الزانية من حين شبَّهنِى بقرد وجعل يبكى ويقول : ما حيلتى ! يرانى ويشبّهنى ، ولا أراه فأشبهه ! وبعده :

ولو تُلقيـهِ فى صَلدٍ صفًا لانصَدعَ الصَّلْدُ
هو الـكلب إذا ما ما ت لم يُوجَدْ له فَقْدُ

وأنشده رجل قول حماد :

دُعيتَ إلى بُرْدٍ وأنت لغـيره وهبك ابْرْدٍ نـكتُ أمك من بُرْدِ

فقال : هاهنا أحد ؟ قال: لا ، قال: أحسن والله ابن الزانية ، ولقد تهيّأ له فى بيت واحد علىّ خمسةَ معانٍ من الهجو ، وهى : « دعيتَ إلى برد » معنى . « وأنت لغيره » معنى ثان ، و « هبك لبرد » معنى ثالث ، « نـكت أمك » شتم واستخفاف مجرّد ، وهو معنًى رابع ، ثم ختمها بقوله : « من بُرْد » فأتى بالطامّة الـكبرى .

وأوجعُ ما مرّ عليه من قول حماد :

لو طُلِيتْ جـلدتُه عَنْبراً لأفسدَتْ جِلْدَتُه العَنْبَرا[2]
أو طُلِيتْ مِسْـكاً ذكيًّا إذًا تحوّل المسك عليـه خرَا

كان حفص بن أبى بردة[3] أفطس أعمش مقبّح الوجه ، وكان حماد صديقه ، فتناشدوا الشعر يوما ، فطعن حفص على مرقّش ، فقال حماد :

لقد كَانَ فى عيْنيك ياحفصُ شاغلٌ وأنف كثِيل العُودِ عمّا تتبّع[4]

(١) الشعر والخبر فى الأغانى ١٤ : ٣٢٩ (٢) الاغانى ١٤ : ٣٣١
(٣) ط : « وردة » تصحيف . (٤) الأغاني ١٤ : ٣٥١ .

تَتَبَّعُ لحناً فى كلام مرقّش ووجهك مبنىٌّ على اللحن أجمعُ
فأذناك إقواء وأنفـــك مُكْفأٌ وعيناك إيطـاء ، فأنت المرقَّعُ

أخذ تشبيه الأنف بالثِّيل من قول كعب فى الوليد بن عبد الملك :

فَقَدْتُ الوليدَ وأنفاً له كثِيل البَعير أبى أنْ يبولاَ

قال أبو زيد : رأيت أعرابيًّا كأنّ أنفه كوزٌ من عِظَمه ، فرآنا نضحك ، فقال لنا : ما يضحكـكم ! فوالله لقد كنتُ فى قوم يسمُّوننى الأفطَس .

وقال الشاعر :

إذا أنت أقبلْت فى حاجةٍ إليـه فـكلّمه من خلفهِ
فإن أنت واجهتَه بالـكلا م لم يُسمع الصّوْت من أنفهِ

وقال آخر :

إنّ عيسى أنف أنفهِ أنفه ضِعف لِضعْفِه[1]
لو تراه راكباً والـــأنفُ قد جال بعِطفِهِ
لرأيت الأنف فى السّر ج وعيسى رِدْفُ أنفهِ

وقال الحسن فى جعفر بن يحيى :

ذاك الوزير الذى طالت علاوته كأنّه ناظِرٌ فى السيف بالطول

وقال أبو علىّ الخليع[2] :

سابور وَيحك ما أخصّـــك بل أخصّك بالعيوبِ !
وَجهٌ قبيح فى التبسّم كيف يحسُن فى القطوبِ !

كان جحظة البرمكى ناتئ العينين جدًّا ، قبيح الوجه ، فقال فيه ابن الرومىّ :

نبئتُ جحظة يَستعير جحوظَهُ من فيل شِطرَنج ومِنْ سَرَطَانِ[3]
يا رحمةً لمنادميه تحمّـــلوا ألم العيون لِلـــذّةِ الآذان

(١) ذيل زهر الآداب ٢٨١
(٢) هو الحسين بن الضحاك ، والبيتان فى ديوانه ٢٩
(٣) ذيل زهر الآداب ١٩٨

وكان طيّب الغناء ، وحضر مجلسه عليّ بن بسام ، فتفرّق القوم المخادّ ، فقال جحظة : مالي لا أُعطَى مخدّة ؟ فقال له ابن بسام : غنّ فالمخادّ كلها إليك تصير ، وقال فيه :

يا مَنْ هجوناه فغنّانا	أنت وحقِّ الله أهجانا
سيّان إن غنّى لنا جحظةٌ	أو مرّ مجنون فزنّانا

وله فيه أيضاً :

لجحظة المحسن عندي يد	أشكرها منه إلى المحشرِ
لمّا رآني ردّ برذونه	وصانني عن وجهه المُنكَرِ

كان الحطيئة قبيح المنظر ، كثير الشرّ ، فالتمس يوماً إنساناً يهجوه فلم يجد ، فجعل يقول :

أبتْ شفتايَ اليومَ إلاّ تكلُّماً	بشرٍّ فما أدري لمن أنا قائلُه[1]

فاطّلع في ماء فرأى وجهه ، فقال :

أرى لِيَ وَجْهاً قبح الله شخصَه	فقُبِّح من وجهٍ وقُبِّحَ حامله

نظر إلى هذا إسماعيل بن معمر القراطيسيّ فقال :

ويلي على ساكن شطّ الصراة	من وجنتيه شمت بُرق الحياه[2]
ما تنقضي من عجبٍ فكرتي	من خصلة فرّط فيها الولاه
ترك المحبّين بلا حاكمٍ	لم يقعدوا للعاشقين القضاه
وقد أتاني خبرٌ ساءني	مقالها في السرّ: واسوءتاه !
أمثل هذا يبتغي وصلنا	أما يرى ذا وجهَهُ في المرآه !

وقال الأصبهانيّ : إن القراطيسيّ سأل العباس بن الأحنف فقال له : يا أبا الفضل ، هل قلتَ في معنى قولي هذا شيئاً ؟ فقال : قلت :

---

(١) ديوان الحطيئة ١٢٠ . (٢) الاغاني ٢٠ : ٨٨ ، ٨٩ — ساسي

جاريةٌ أعجبها حُسنُها ومثلُها فى النّاس لم يخلقِ[1]
خبّرتها أنى محبٌ لها فأقبلتْ تضحك من منطقى
والتفتتْ نحو فتاةٍ لها كالرّشأ الوَسنانِ فى قرطقِ
قالت لها قولى لهذا الفتى: انظر إلى وجهك ثم اعشقِ

وقال الصّقلىّ فى صفة عذول قبيح :

رأى وجه مَنْ أهوى عذولى فقال لى أجلّك من وجهٍ أراه كريها
فقلت له بل وجه حِبّى مراةٌ فأنت ترَى تمثالَ وَجْهِك فيها

ولابن القابلة السّبْتى :

ووجه حبيبٍ رقّ حسنا أديمُهُ يرى الصبُّ فيه وجهه حين ينظُرُ
تعرّض لى عند اللقاء به رشًا تكاد الُحمَيّا من محيّاه تقطرُ
ولم يتعرضْ كىْ أراه وإنما أرادَ يُرينى أنّ وجهَكَ أصفرُ

ولبعض المصريين فى غلام يهواه :

يجرى النّسيم على غِلالة خدّه وأرقّ منه ما يمرُّ عليهِ
ناولته المرآة يَنظر وجْهَهُ فعكست فتنةَ ناظرَيْهِ إليهِ

وقال الرّمادىّ :

وإذا أراد تنزُّهًا فى روضة أخذ المراةَ بكفّه فتنزّها

كان للفضل بن سهل وصيفة ظريفةٌ كثيرة المُلَحِ والنّوادر ، وكانت ساقيتَه ، وكان أبو نواس يولع بها ويمازحها ، فقال لها يوما : إنى أحبّك وتبغضيننى فلم ذلك ؟ فقالت له : وجهُك والحرام لا يجتمعان ، فقال :

(١) ديوانه ٢٠٣

مذكَّرة مؤنثة مَهاةٌ إذا برزتْ تشبّهاغلاما[١]
تعَافُ الماء والعَسلَ المصفَّى وتشرب من فُتُوّتها المُدَاما
تقول لحظها[٢] ياسيفُ أبْشِر ستروى من دم وتشقّ هامَا
وقائلةٍ لها فى وجه نصحٍ علام قتلتِ هذا المستهاما ؟
فكان جوابها فى حسن مسٍّ :[٣] أأجمع وجه هذا والحراما !

ومن ملح ابن لنكك فى أهاجى أبى رياش :

على القبح الفظيع أبو رياشٍ يعاشرنا بأخلاقٍ ملاحِ[٤]
يبيح أكفَّنَا أبدا قفاه فنصفعُه على وجْهِ المزاحِ

وله فيه أيضاً :

قل للوضيع أبى رياشٍ لا تبلْ تِهْ كلّ تيه بالولاية والعمل[٤]
ما ازددت حين وليتَ إلا خسّةً كالكلب أنجس مايكون إذا اغتسل

* * *

قوله : تَعريس ، أى نزول آخر الليل . يهدى : الأول يرشد ، ويدلّ على الطريق ، ويقال: هداه يَهْدِيه هدًى فى الدِّين ، وهداه يهديه هِداية فى طريق . يَهْدِى: يعطي هدية ، ويقال : أهداه هدِيةً يُهديها إهداء ، إذا أعطاها . الذّود : مابين الثلاث إلى العشر من الإبل ، ولا تكون إلاّ إناثاً . قيْنَة : جارية مغنية ويقال: القيْنة الأمَة ، كانت مغنّية أو غير مغنّية . الفينة :الساعة والحين ، ويقال : إنى لآتيه الفيْنة بعد القيْنة ، وفينة بعد فيْنة ، يستعمل بالألف واللام وبتركهما ، أى أديم الاختلاف إليه الحين بعد الحين والوقتْ بعدَ الوقت . يُزَجّى : يسوق . السّفيه : البطّال المشتغل باللهو .

---

(١) ديوانه ٣٩٢ .
(٢) الديوان : « لسيفها »
(٣) الديوان : « سر»
(٤) اليتيمة ٢ : ٢٢٦ ، ٢٢٧

قال الحارث بن همّام : فاعترضْتُه ، وقلت له : عَهْدِي بكَ سَفيهاً ، فمتى صرت فقيهاً ! فظلّ هُنَيهةً يجول ، ثم أنشأ يقول :

لَبِستُ لِكُلِّ زمانٍ لَبُوساً
ولا بستُ صَرْفَيْهِ : نُعمَى وبُوساَ

وعاشَرْتُ كلَّ جليسٍ بِما ... يُلائِمُه لأَرُوقَ الجليسا

فعِنْد الرُّواةِ أُديرُ الكلامَ ... وبينَ السُّقاةِ أُديرُ الكئوساَ

وطوراً بوعْظِي أُسيلُ الدّموعَ
وطَوْراً بِلَهْوِي أسُرُّ النُّفُوسا

وأَقرِي المسامعَ إمّا نَطَقْتُ ... بياناً يقودُ الحَرُون الشَّمُوسا

وإن شئتُ أرْعَفتَ كفِّي اليراعَ
فساقطَ دُرًّا يُحَلِّي الطُّروساَ

وكم مشكلاتٍ حَكَيْنَ السُّها
خفاء فصِرْنَ بكشفِي شُمُوسا

وكم مُلَحٍ لي خَلَبْنَ العقولَ ... وأسأَرْنَ في كلِّ قلبٍ رسيسا

وعَذْراء فُهْتُ بِهاَ فانْثنَى ... عليها الثَّناء طليقًا حَبِيسا

* * *

هنيهة : سويعة ، تصغيرهنةً ، ويقال في تصغيرها هُنَيّة وهُنَيهَة ، كما تصغّر سنة سُنَيّة، وسُنَيهة . يجول: يتصرّف. لبوسا: ثوبا يشاكله ، أخذه من قول النابغة :

البِس لـكلّ حالة لبوسَهـا إما نعيمَها وإمّا بوسَها

لابست : خالطت . صَرْفَيْهِ : حاليه من الخير والشر . عاشرت : صاحبت . يلائمه : يوافقه . أروق : أعجب ، والصَّرْف اسم لحادث الدهر ، لأنه يصرف الأشياء عن وجوهها . طورًا : مَرّة . أقرِى المسامع : أعطى الآذان ، وأجمل فيها البيان . إمّا نطقت ، أى إن نطقت . الحرون : الذى يأبى المشى والانقياد . الشَّمُوس : الذى إذا نُخس وثب ، وقيل : الذى يمنع الركاب . اليَرَاع : الأقلام . أرعفها : أسالها بالمداد . يُحَلِّى : يزيّن . الطّروس : الـكتب ، سُمّيت بذلك لأنها ممحوّة ، والمطروس : الممحُوّ . قال رؤبة :

* كما رأيت الطَّلَل المطروسا *

[مما قيل فى وصف القلم]

وعلى ذِكْر اليراع قال محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمىّ فى قلم :

وأهيفَ طاوى الـكَشْحِ أسمرَ ناطقٍ له جَولانٌ فى بطون المهارقِ[1]

كأنّ اللآلى والزَّبَرْجـد نُطْقَهُ ونورَ الخُزامَى فى عيون الحدائق

إذا استعجلتْه الـكفّ أمطر خالُه بلا صوت إرعاد ولا صوب بارقِ

وقال ابن عبد ربه :

بكفّه ساحرُ البيـان إذا أدَارَه فى صحيفةٍ سَحَرا[2]

مهفهفٌ تَزْدَهِى به صحفٌ كـأنمـا حُلِّيَتْ به دُررا

يكاد عنوانهـا لروعَتِه يُنْبيك عن سرّها الذى استترا

وقال التِّهامىّ :

يَلْقَى العِدَا من كُتْبِه بكتائبٍ يجرُرْنَ من زَرَدِ الحروف ذُيُولاَ[3]

---

(١) العقد ٤ : ١٩١ ، أدب الـكتاب ٨١ . (٢) العقد ٤ : ١٩٣ .
(٣) ديوانه ٣١ .

فترى الصحيفة حِلْيَةً وَجِيَادَها أقلامَهُ وصَرِيرهنّ صَهِيلا
فى كفِّهِ قلمٌ أتمُّ من القنـا طولاً وهنّ أتمّ منـه طولا

وله أيضاً :

وإذا راش بالأنامل منـه قلمـاً واستمدّ ساء وَمراً[(١)]
قلمٌ دبّر الأقالـيم حتّى قال فيـه أهلُ التناسخ إمْرَا
يتبع الرمحُ أمرَه فابن عشريـن ذراعاً بالرأى يخدُم شبرَا

السها : نجم خفىّ . خَلَبنَ : خدعن . أسأرْنَ : أبقين ، والسؤر . البقية . وفى الحديث: «إذا أكلتم فأسئروا»، وأخذت سائره ، معناه بقيّته. الرسيس: أوّل بَرْد الحمّى ، يريد أن هذه المُلَح لعذوبتها إذا حلّت فى القلب أحدثت فيه حَركةً وهِزّةً ، وإذا سمع ذو الذكاء كلاماً مستظرفاً من نثر أو نظم وجد له دَبيباً وقشعْريرة . وأخذ « وكم مشكلات » ، من قول على رضى الله عنه :

إذا المشكلات تصدّيْنَ لى كشفتُ حقائقها بالنّظَر[(٢)]
وإن برقت فى مخِيل الصّوا ب عميـاء لا يجتليها البَصرْ
مقنّعـةً بغيـوب الأمور وضعتُ عليها صحيحَ الفكَرْ
لسـاناً كِشقْشِقَةِ الأرحَـبِىِّ أو كالحسام اليمـانىّ الذّكَرْ
وقلبـا إذا استنطقَتْه الغُيُوبُ أمرَّ عليهـا بِوَاهِى الدِّرَرْ

عذراء : قصيدة بِكْر ، لم يُسبق إليها . فُهْت : نطقت . انثنى : رجع . طليقاً: منتشراً فى الناس . حبيساً : موقوفاً عليها لا يتعدّاها لغيرها .

[ذكر مدح الشعراء للشعر]

ومدْح الشعراء للشعر بابٌ شأوه بعيد ، وسنذكر لحبيب ـ وهو المبرّز فيه ـ

(١) ديوانه ٣٩ (٢) ديوانه ٢٢ ، ٢٣ ، زهرة الآداب ٤٠

ولغيره ما يستحسن ويُستجاد ، قال حبيب :

جاءتكَ من نَظْمِ اللّسان قلادةٌ | سِمْطَانِ فيها اللُّؤلؤ المكنُون(١)
حُذِيتْ حذاء الحضرميّة أُرهفَتْ | وأجادَها التّخصير(٢) والتبيينُ
إنسيّة وحشيّة كَثُرتْ بها | حركاتُ أهلِ الأرض وهي سكونُ
أمّا المعاني فهي أبكارٌ إذا | فُضّتْ(٣) ولكنّ القوافيَ عُونُ

وقال أيضاً :

فوالله لا أنفك أهدى قصائداً | إليك يحملن الثّناء المبجّلا(٤)
يُحاك بها بُرْدٌ عليك مجدَّدٌ | وتحسبه درًّا عليك مُفَصَّلا
ألذّ من السّلوَى وأطيب نَفحَةً | من المسك مفتوقاً وأيسر مَحملا
أخفّ على سمعٍ وأثقلَ قيمةً | وأقصرَ في سَمْع الجليس وأطوَلاَ

وقال البحتريّ :

تَطُوعُ القوافي فيكمُ فكأنّمَا | يطير إليكمْ من عُلُوٍ قصيدُها(٥)
وكم ليَ من محبوكةِ الوشي فيكمُ | إذا أُنشدت قام امرؤ يستعيدُها

وقال أيضاً :

ألستُ الموالي فيكَ نظمَ قصائدٍ | هي الأنجم اقتادَتْ مع اللّيل أنجما(٦)
ثناء تخالُ الروض منه منوّرًا | ضحًى وتخالُ الوشي فيه مُسَهّما

وقال أيضاً :

إليك القوافي نازعاتٍ قواصدًا | يُسيِّرُ ضاحي وشيِها ويُنمْنَمُ(٧)

(١) ديوانه ٣٣٠ ، ٣٣١ (٢) ط : « التحصين » وصوابه من الديوان .
(٣) الديوان : « نصت » . (٤) ديوانه ٢٥٥ (٥) ديوانه ٦٥٥
(٦) ديوانه ١٩٨٤ (٧) ديوانه ١٩٣١

ومشرقةٍ فى النّظم غرًّا يزيدُها بهاء وحسنا أنّها لك تُنظَمُ
ضوامِنُ للحاجات إمّا شوافعاً مشفّعةً ، أو حاكاتٍ تُحَكّم

وقال علىّ بن الجهم :

ولكنّ إحسان الخليفة جعفرٍ دعانى إلى ما قلت فيه من الشّعْر (١)
فسار مسيرَ الشمس فى كلّ بلدةٍ وهبّ هبوبَ الريح فى البرّ والبحرِ

ولابن الرومى يهجو :

خذها إليك مَنيحةً سيّارةً فى النّاس من بادٍ ومن متحضّرِ
تغدو إليك بحاصبٍ وبحاصبٍ وعلى الرّواة بلؤلؤ متخيّرِ

وقال السرىّ الموصلى :

أتتك يجول ماء الطبع فيها مجالَ الماء فى السّيْفِ الصّقيلِ (٢)
قوافٍ إن ثَنَتْ للمرء عِطفاً ثنى الأعطافَ فى بُرْدٍ جميل

وقال أيضاً (٣) :

شرِقتْ بماء الطبع حتى خلتُها شرقت لرونقها (٤) بتِبْرٍ ذائبِ
ويقول سامعها إذا ما أنشِدت أعقود حَمْدٍ أم عقود كواكبِ

وقال أيضاً :

ألفاظُها كالدرّ فى أصدافِهِ لا بل تزيدُ عليه فى لألائه (٥)
من كلّ رائعة الجمال كأنّما جاد الشّباب لها برونقِ مائِهِ
والشعر بحرٌ حُزْتَ أنفسَ دُرِّهِ وتنافس الشعراء فى حَصْبائِهِ

---

(١) ديوانه ١٤٧ (٢) ديوانه ٢١٨
(٣) ديوانه ٢٣ (٤) الديوان : «لرقتها» (٥) ديوانه ٥

وقال أيضاً :

لفظ صَقَلْتُ متونَهُ فكأنه في مشرقات النظم دُرّ سِخَابِ[1]
وكأنما أجريت في صَفَحَاتِهِ حرّ اللجين وخالص الزِّرْيَابِ
أغربْتُ في تحبيره فَرُواته في نزهة منه وفي استغرابِ
وقطعت منه شبيبةً لم تشتغل عن حسنة بَصباً ولا بتَصابِ
وإذا ترقرق في الصحيفة ماؤه عَبَق النسيم فذاك ماء شبابي
يُصغى اللبيبُ له فيقسم لُبُّهُ بين التَّعجُّب منه والإعجاب
جِدٌّ يطير شرارُه، وفُكَاهةٌ تَستعطف الأحباب للأحباب

قال يحيى بن أكثم لمحمد بن حازم : مافي شعرك شيء غير أنك لاتطيله، فقال:

أبَى لِيَ أن أطيلَ الشِّعر قصدي إلى المعنى وعلمِي بالصَّوابِ[2]
فأبعثُهنّ أربعةً وخمساً مثقّفةً بألفاظ عِذابِ
خوالدَ ما حَدَا ليلٌ نهاراً وما حَسُن الصِّبا بأخي الشّباب
وهنّ إذا وَسَمْتُ بهنّ قوما كأطواق الحمائم في الرِّقابِ
وهنّ إذا أقمْتُ مسافراتٌ تَهادَاها الرُّواة مع الرِّكابِ

* * *

عَلَى أنني مِنْ زَمانِي خُصِمْتُ
بكَيْدٍ ولا كَيْدَ فِرْعَوْنَ موسى
يُسَعَّر لي كلّ يومٍ وغًى
أطا منْ لظاها وطِيساً وطِيساً
ويَطْرُقنِي بالخطوبِ الّتي
يُذِبْنَ القُوَى ويُشِبْنَ الرءوسا

---

(١) ديوانه ٢ ٤ والسخاب : القلادة (٢) الأغاني ١٤ : ٩٨، ٩٩

ويدنى إليَّ البعيد البغيضَ ويُبعد عنّى القريبَ الأنيسا
ولولا خساسَةُ أخلاقِه لما كان حَظّىَ مِنْه خسيسا

فقلت له : خفِّض الأحزانَ ، ولا تَلُمِ الزمان ، واشكُرْ لمن نقلك عن مذهبِ إبليسَ ، إلى مذهَبِ ابن إدريس .

* * *

قوله : على أنى ، أى مع أنى . وقوله : ولا كيد فرعون موسى ، أضاف فرعون إلى موسى ، لأنّ الفراعنة كانوا جماعة .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إنّ لكل أمة فرعونًا ، وفرعون هذه الأمة أبو جهل » .

وفرعون موسى ، كان أكبر الفراعنة كيداً وأطولَهُمْ عمراً ، وأعتاهم على الله ، وأسراهم مملكةً .

ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : قال موسى عليه الصلاة والسلام : ياربِّ ، أمهَلْتَ فرعون أربعمائة سنة ، وهو يقول : أنا ربّكم الأعلى ، ويكذِّب بآياتك ويجحد رسلك ! فأوحى الله تعالى إنه كان حسنَ الخُلُق سهل الحجاب ، فأحببت أن أكافئه .

وأما عذابه لبنى إسرائيل فقد قدمناه فى الخامسة .

ومما يحكى عنه أنّه كان يأمر بالقَصَبِ فيشقّ ، ويُجعل أمثال الشفار ، ثم يضيف بعضَه إلى بعض ، ثم يؤتى بالحبالَى من بنى إسرائيل فيوقَفْن عليه ، فيحزّ أقدامهنّ ، حتى إن المرأة لتضع ولدها فيقع بين رجليها ، فتظَلّ تطؤه تتقى به حدّ القَصَب عن رجليها .

قال وهب بن منبّه : بَلَغَنِى أنه ذبح فى طلب موسى تسعين ألف ولد .

ونسَب الثعالبىّ المفسر فرعونَ ، فقال : هو أبو العباس الوليد بن مصعب بن الرّيان

ابن أراشه بن ثروان بن عمرو بن قاذم بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام .

قوله : يُسَعّر ، أى يهيّج . وغًى : حرب. لظاها : حرّها . وطيساً : شدة ، وحَمِيَ الوطيس : اشتدت الحرب ، وأصله تَنّور من حديد يطبخ فيه ، فشبِّهت شدّة الحرب وحرارتها به . وقيل : هو حفرةٌ يُخْتَبزَ فيها . والوطيس : الوطء الشديد ، والبلاء الذى يطسّ الناس ،أى يدقهم ويقتلهم .

يطرقنى : يقصدنى ليلا . الخطوب : الأمور الشداد . خساسة : حقارة . حظّى : نصيبى .

ومما قيل فى معنى قوله : ويدنى إلىّ البعيد البغيض . . البيت .. قول الزاهد ابن عمران :

إلمـام كلّ ثقيل قد أضرّ بنا   نروم نقصَهمُ والشىء يزدادُ
ومَنْ يخفّ علينا لا يلمّ بنا   وللثقيل مع السّاعات تَزْدادُ

ويقرب منه قول الشاعر :

وكيف يودّ القلب مَنْ لا يودّه   بلى قد تريدُ النفس مَن لا يريدُها

وقال عدىّ بن الرقاع[1] :

تَبلتْك[2] أخت بنى لؤىّ إذ رمَتْ   وأصاب نَبلُك إذ رميتَ سِواها
وأعارها الحدَثان منك مودّةً   وأعار غيرَكَ وُدَّها وهوَاها

وهذا من قول الأعشى :

عُلِّقْتُها عرَضاً وعُلِّقت رجُلاً   غيرى ، وعُلِّق أخرى غيرَها الرَّجُلُ[3]

(١) اللآلى ١٣٩ .   (٢) ط : « بلتك » ، والصواب ما أثبته من اللآلى
(٣) ديوانه ٥٢ .

وقال مسلم بن الوليد ـ وهو صريع الغوانى ، وكان خاملا فولاه بنو سهل جرجان فشرُف ـ فقال :

أهلَ الصفاء نأيتمْ بعد قُربكمُ فما انتفعتُ بعيش بعدكم صافِ[1]
وقد قصدْتُ ندى مَنْ لا يوافقنى فكان سهمى عنه الطّائش الطافى
أردتُ «عمراً» وشاءالله «خارجةً» أما كفَى الدهرَ من خُلفى وإخلافى!

ولهذا أشار ابن شرف بقوله :

سَلْ من رضاى عَنِ الزّمان فإنّهُ كرضا الفَرَزْدق عن بنى يَرْبُوعِ[2]
لله حالٌ قد تنقّل عهدُها كخلاف نَقْل الدهر حال صريعِ
دارت دراريّ الخطوبِ قواصداً حتى نظرن إلىّ من تَرْبيعِ

وله أيضاً يتشكىّ :

مالى أجاذِبُ ذى الدنيا مولّيةً فكلّ ثوب عليها قُدّمن دبُرِ[3]
أتى الزّمان على يأسٍ به لبَنِي الدُّنيا كبشُرى بمولود على كِبَرِ

وقال أيضاً :

إنى وإن عزّنى نيلُ المنى لَأرى حرْصَ الفتى خَلّةً زيدت على العدمِ[4]
تقلّدتنى الليالى وهى مدبِرةٌ كأننى صارمٌ فى كفّ منهزمِ

وقال جحظة :

ضاقت علىّ وجوه الرأى فى نفرٍ يلقونْ بالجحد والكفران إحسانِى
أقلّب الطرف تصعيداً ومنحَدَراً فما أقابل إنساناً بإنسانِى

وقال أيضاً :

لقد مات إخوتِيَ الصالحونَ فمالى صديقٌ ومالى عمادُ

---

(١) ديوانه ٣٢٧
(٢) نقله الميمنى فى النتف ١٠٤
(٣) نقله الميمنى فى النتف ١٠١
(٤) نقله الميمنى فى النتف ١١١

إذا أقبل الصبحَ ولّى السرورُ وإن أقبل الليل ولّى الرقادُ

قوله : خَفّض ، أى سَكّن .

* * *

[ترجمة الإمام الشافعى]

وابن إدريس هو الإمام الشافعىّ محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف ، يلتقى نسبُه مع بنى هاشم وبنى أميّة فى عبدِ مناف .

وقال صلى الله عليه وسلم : « نحن وبنو المطّلب كهاتين » ـ وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى مضمومتين .

وحاصرت قريش بنى المطلب مع بنى هاشم فى الشِّعب .

وكان الشافعى أعلَم الناس وأورعَهم وأعبدهم ، وأجودهم ، فإن أردت أن تقف على حفظه ومبلغ علمه ، فانظر رحلته .

ووصفه بعضُ أهل العلم فقال : هو شقيق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نَسَبِه وشريكُه فى حَسَبِه .

زوّج المطلب ابنَه هاشماً الشِّفاء بنت هاشم بن عبد مناف أخيه ، فولدت له عبد يزيد جدّ الشافعى رضى الله عنه ، فكان يقال لعبد يزيد : المحضُ لاقذًى فيه ، فولَدَ الشافعىَّ رضى الله تعالى عنه هاشمان : هاشم بن المطلب وهاشم بن عبد مناف ، فالشافعىّ ابن عم النبىّ صلى الله عليه وسلم وابن عمّتِه ، لأن للشفاء أخت عبد المطلب ، فهى عمة النبى صلى الله عليه وسلم .

وأسلم السائب جدُّه يوم بدر ، وكان صاحب راية بنى هاشم بن عبد مناف

أُسِرَ وفدَى نفسه ، فأسلم ، فقيل له : لِمَ لَمْ تُسلِم قبلِ أن تَفتَدِى ؟ فقال : ما كنت أحرمُ المؤمنين طمعاً لهم فىّ .

قال أبو ثور : مارأيتُ ولا رأى الراءون مثله .

وقال أحمد بن حنبل : ماصلّيت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو الله للشافعىّ . وقال له ابنه : أىّ رجل كان الشافعىّ حتى تدعو له هذا الدعاء ؟ فقال : يا بنىّ كان كالشمس للدنيا ، أو كالعافية للناس .

وحدّث صالح بن أحمد بن حنبل قال : مشى أبى مع بَغلَةِ الشافعىّ فى ركابه ، فبعث إليه يحيى بن معين فقال له : يا أبا عبد الله ، أما رضيتَ إلا أن تمشى مع بغلته ! فقال : يا أبا زكرياء ، لومشيتَ من الجانب الآخر لكان أنفع لك ، ومامسّ أحدٌ محبرةً إلا وللشافعى فى عُنُقِه مِنّة .

وقال الشافعىّ رضى الله عنه : ماشبِعتُ منذ ست عشرة سنة ، لأنّ الشّبَع يثقّل البدن ، ويقسِّى القلب ، ويزيل الفِطْنة ، ويجلِب النوم ، ويضعف صاحبه عن العبادة .

وقال : ماحلَفْتُ بالله لاصادقاً ولا كاذباً .

وقال : ماناظرتُ أحداً قطّ فأحببت أن يخطىء ، وما كلّمت أحداً إلا أحببت أن يوفّق ويُسَدّد ويعان ، ويكون عليه من الله رعاية وحفظ . وما كلّمت أحداً إلا وأنا لا أبالى أن يُبَيِّن الله الحقّ على لسانه أو لسانى ، وما أوردتُ الحجة على أحدٍ ، فقبِل منى إلا هبْته واعتقدت محبّته ، ولا ثابرنى على الحق أحدٌ ودافع الحجة إلا سقط من عينى ورفضته .

وكان يختم القرآن فى رمضان ستين مرّة كلّ ذلك فى الصلاة .

وقال الكرابيسىّ : بتُّ معه غير ليلة فكان يصلّى نحواً من ثلث الليل ، فما رأيته يزيد على خمسين آية ، فإذا أكثر فمائة آية . وكان لايمرّ بآية فيها رحمة إلا

سأل الله لنفسه ولجميع المسلمين ، ولا بآية عذاب إلا تعوّذ منها وسأل النجاة منها لنفسه ولجميع المسلمين .

وقال عمر بن عبد الله البَلَوِيّ: جلسْنا يوماً نتذاكر الزّهاد والعبّاد والعلماء ، وما بلغ من زهدهم وفصاحتهم وعلمهم ، فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا عمر ابن نباتة ، وقال : فيم تتحاورون ؟ فأعلمناه ، فقال عمر : والله ما رأيت رجلاً قطّ أوْرعَ ولا أخشَع ولا أصبَح ولا أسمح ، ولا أعلم ولا أكرم ولا أجمل ، ولا أجَلّ ولا أفضل، من محمد بن إدريس الشافعيّ ، خرجت أنا وهُو والحارث بن اللبيد إلى الصّفا ، وكان الحارث صاحب صالح المُرِّى، وكان من المتّقين الخاشعين ، وكان حسن الصوت، فقرأ ﴿هذا يَوْمَ لا يَنطِقُون.ولا يُؤذَنُ لَهُمْ فيَعْتَذِرون﴾(١) فرأيتُ الشافعى رضى الله عنه قد تغيّر لونه ، واقشعرّ جلده واضطرب اضطراباً شديداً ، ثم خرّ مغشيًّا على وجهه ، فلما أفاق جعل يقول : أعوذ بك من مقام الكاذبين ، وأعراض الغافلين ! اللهم خضعتْ لك قلوبُ العارفين ، وذَلّت لك قلوب المشتاقين ، اللهم هب لى جُودَك ، وجَلِّلْنى بسِتْرك ، واعف عن تقصيرى بكرم وجهك . ثم قمنا وتفرّقنا .

وقال الربيع بن سليمانَ ، سمعت الشافعيّ رضى الله عنه ، يقول: أتى علىّ عيد وليس عندى نفقة ، فاستسلفت سبعين ديناراً لنفقة أهلى ، فبينا أنا كذلك إذ أتانى رجل من قريش يشتكى إلىّ الحاجة فأخبرته خبرى، وقلت له :خذ ماتحبّ، فقال لى : مايقنعنى إلاّ أكثر من هذه الدنانير ، فقلت له : خذها ،وبتُّ ومامعى دينار ولا درهم ، فبينا أنا فى منزلى إذ أتانى رسول جعفر بن يحيى البرمكى ، يقول : أجب الوزير ، فأجبته . فقال : ماشأنك فى هذه الليلة ؟ يهتف بى هاتف كلّما دخلت فى النوم، يقول:الشافعىّ الشافعىّ ، فأخبرته بالخبر ، فأعطانى خمسمائة دينار ، ثم قال: أزيدك فأعطانى خمسمائة أخرى ، فلم يَزَلْ يزيدنى حتى أعطانى ألفى دينار .

(١) سورة النازعات ٣٥ ، ٣٦

ومن جُوده أن سوطه وقع من يده ، فأعطى مَنْ ناوله إياه خمسين دينار .

وورد مكة بعشرة آلاف درهم ، فضرب خباءه خارجَها ، فأتاه الناس ، فما برح من موضعه حتى فرّقها .

وكان شاعراً مجيدا ، قال أبو القاسم بن الأزرق : دخلت عليه ، فقلت له : يا أبا عبد الله ، أما تنصفنا ! لك هذا الفقه تفوز بفوائده ، ولنا هذا الشعر ، وقد جئتَ تُداخلنا فيه ! فإمّا أفردتَنا أو أشركتنا فى الفقه ، وقد أتيتُ بأبيات إن أجزتَها بمثلها تبت من الشّعر ، وإن عجزتَ تُبْ منه ، فقال لى : إيه يا هذا ، فأنشدته هذا الكلام :

ما همّتى إلا مقارعةُ العِدَا   خَلَقَ الزمان وهمّتى لم تخلَقِ
والنّاس أعينهم إلى سبب الغِنى   لا ينظرون إلى الحجا والأولَقِ
لكنّ مَنْ رُزِق الحجا حُرِم الغنى   ضدّان مفترقان أىّ تفرق
لو كان بالحيل الغنى لوجدْتَنِى   بنجوم أقطار السماء تعلّقِى

فقال الشافعىّ رضى الله تعالى عنه : ألا قلت كما أقول ارتجالا :

إن الذى رزق اليسار فلم يَنَلْ   حمداً ولا أجراً لغيرُ موفّقِ(١)
فالجِدّ يدنى كلّ أمر شاسعٍ   والجدّ يَفتَح كلّ باب مُغلَق
فإن سمعت بأنّ مجدوداً حوى   عُوداً فأثمر فى يديه فحقّقِ
وإذا سمعت بأنّ محروماً أتى   ماء ليشربَه فغاض فصدّق
وأحقّ خلق الله بالهمّ امرؤ   ذو همّةٍ يُبلَى بعيشٍ ضيّقِ
ومن الدليل على القضاء وكونِه   بُؤْس اللبيب وطيبُ عيش الأحمَقِ

فقلت له : لا قلتُ شعرا بعدها .

---

(١) ديوانه ـ ، ونقل جامعه عن محمد بن منصور ، قال : قرأت فى كتاب طاهر بن محمد النيسابورى بخط الإمام الشافعى ، وذكر الأبيات .

قال المبرِّد : كان الشافعيّ رضى الله عنه أشعرَ الناس وآدب الناس ، وأعرفهم بالفقه والقراءات ، ولقد أخبرنى بعضُ أصحابى أنه مات ولدٌ لعبد الرحمن ابن مهدىّ ، فكتب إليه الشافعى رضى الله عنه : يا أخى، عزِّ نفسك بما تُعزِّى به غيرك ، واستقبح من فعلك ما تستقبحه من غيرك . واعلم أن أمضّ المصائب فقدُ سرور ، وحرمان أجر ، فكيف إذا اجتمعا مع اكتسابِ وزرْ ! فتناول حظّك يا أخى إذا قرب منك قبل أن تطلُبه وقد نأى عنك ، ألهمك الله عند المصائب صبرًا ، وأحرز لنا ولك بالصبر أجراً ، وكتب إليه :

إنى أعزّيك لا أنِّى على ثقة ... من الحياة ولكنْ سُنَّة الدِّينِ (١)
فما المعزَّى بباقٍ بعد ميِّتِه ... ولا المعزِّى وإن عاشا إلى حين

وقال أيضاً :

علمى معِى حيثما يَمّمْتُ ينفعنى ... قلبى وعاء له لا بطنُ صُنْدُوقِ (٢)
إن كنتُ فى البيت كان العلمُ فيه معى ... أو كنتُ فى السّوقِ كانَ العلمُ فى السّوق

وقال أيضاً :

ومنزلةُ السَّفِيهِ من الفقيهِ ... كمنزلة الفقيه من السَّفِيهِ (٣)
فهذا زاهدٌ فى قُرْب هذا ... وهذا فيه أزهدُ منه فيه
إذا غلب الشقاء على سفيهٍ ... تقطّع فى مخالفة الْفَقِيه

وناظرَ الشافعىّ محمد بن الحسن الكوفىّ بالرّقة فقطعه الشافعىّ ، فبلغ ذلك هارون الرشيد ، فقال : أما علم محمد بن الحسن إذا ناظر رجلاً من قريش ، أنه يقطعه ؛ سائلا أو مجيبا ، والنبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : « قدِّموا قريشا ولا تقدَّموا عليها ، وتعلّموا منها ولا تعلّموها » ، فإن علم العالم منها يسَع طباق

(١) ديوانه ٦٨ (٢) ديوانه ٤٩ . (٣) ديوانه ٧١

الأرض . وكان الشافعيّ يعظّم محمد بن الحسن لعلمه ، واستعار شيئاً من كتبه فلم يسعفه بذلك ، فكتب إليه الشافعيّ رضى الله تعالى عنه :

قُلْ للذى لم تَرَ عيـ ... نَا مَنْ رآه مثلَهُ(١)
ومن كأنّ من رآ ... ه قد رأى من قبلَهُ
العلم ينهى أهلَه ... أن يمنعوه أهلَهُ
لعلّه يبذُله ... لأهله لعلّه

فبعث إليه بما سأل .

وقال فى الفقيه ابن عبد الحكم وقد اعتلّ فعاده :

مَرِضَ الحبيبُ فعدْته ... فمرضت من حَذَرِى عَليْهِ
شُفِىَ الحبيبُ فعادنى ... فشفيت من نظرى إليه

وقال أبو سعيد : سمعت الشافعى رضى الله عنه يقول بيتين وهما :

إنى أرى نفسى تتوق إلى مصرِ ... ومِن دُونها عَرْضُ المهامه والقَفْرِ
فوالله ما أدرى أللخفض والغنى ... أقاد إليها ، أم أقاد إلى القبر !

قال : فوالله ما كان إلا قليل حتى سيق إليهما جميعا .

ورأيته بعد وفاته ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أجلسنى على كرسيّ من ذهب ونثر علىّ اللؤلؤ الرّطب .

وقال المُزَنىّ : دخلت عليه غداة وفاته فقلت له : كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ قال : أصبحتُ من الدنيا راحلاً ، ولإخوانى مفارقاً ، ولكأس المنية شاربا ، ولا أدرى إلى الجنة تصير نفسى فأهنّيها أم إلى النار فأعزّيها !
ثم أنشا يقول :

---

(١) ديوانه ٥٤ .

وَلَمَّا قسا قلبي وضاقَتْ مذاهبي ... جعلت الرَّجا منّى لعفوك سُلَّمَا[(١)]
تعاظَمنى ذنبي فلمّا قرنتُه ... بِعَفْوِكَ ربِّى كان عفوُكَ أعظما

وكانت وفاته فى رجب ليلة الجمعة سنة أربع ومائتين ، ودفن فى صبيحتها وهو ابن أربع وخمسين سنة ، وصلّى عليه السَّرى بن الحكم أمير مصر ، ودفن بها نحو قبور الشهداء فى مقبرة بنى عبد الحكم وعند رأسه عمود من الحجر كبير ، وفيه مكتوب : « هذا قبر محمد بن إدريس الشافعيّ أمين الله » .

وقال الشافعيّ : أظلم الظالمين لنفسه مَنْ تواضع لمن لا يكرمُه، ورغِب فى مودة من لا ينفعه ، وقَبِل مدح مَن لا يعرفه .

وقال : مَنْ غلبت عليه شدة الشهوة بحبّ الدنيا لزمته العبودية لأهلها ، ومن رضىَ بالقنَع زال عنه الخضوع .

وقال الربيع بن سليمانُ : سمعت الشافعيَّ يقول :

وأنزلنى طُولُ النوى دارَ غُرْبةٍ ... يجاورنى مَنْ ليس مثلى يشاكِلُه[(٢)]
أخامقُه حتى يقال سجيّةٌ ... ولو كان ذَا عقلٍ لكنت أعاقله

قال : وسمعته ينشد :

صُنِ النفس واحملها على ما يَزِينُها ... تَعِشْ سالما والقولُ فيك جميلُ[(٣)]
ولا تولينّ الناس إلا تجمّلاً ... نَبَا بك دهرٌ أو جفاكَ خليلُ
وإن ضاق رزق اليوم فاصبرْ إلى غدٍ ... عسى نكباتُ الدهر عنك تزولُ
ولا خيرَ فى ودّ امرىءٍ متلوّنٍ ... إذا الريحُ مالتْ مال حيث تميلُ
وما أكثر الإخوانِ حين تعدُّهم ... ولكنّهم فى النائبات قليلُ !

(١) ديوانه ٥٩ . (٢) ديوانه ٥٣ . (٣) ديوانه ٥٣ .

قال : وسمع رجلاً يَسْفَهُ على رجل من أهل العلم ، فقال لأصحابه : نزّهوا أسماعكم عن استماع الخنى ، كما تنزّهون ألسنتكم عن النطق به ، فإن المستمع شريك القائل ، وإنّ السفيه ينظر إلى أخبث شىء فى وعائه ، فيحرص على أن يفرغه فى أوعيتكم .

نظم بعضهم هذا المعنى ، فقال :

فسمْعَكَ صُنْ عن سَماع الخنَى ... كصونِ اللّسان عن النُّطْق بهْ
فإنك عند استماع الخنَى ... شريكٌ لقائله فانتبهْ

وكان الحسن البصرىّ رحمه الله ، إذا خطب الحجاج ، وذكر السَّلَف ، يتكلّم تشاغلاً عن خطبته ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إن السامع والمتكلم شريكان ، ألم تسمع قول الشاعر :

فجاء به ناطق منهمُ ... بليغٌ ومستمِعٌ صامتُ
فكلٌ له حظّه أنه ... أعانَ مَعَ الناطقِ الساكتُ

وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود :

إن كنتَ لا ترهب ذمّى لما ... تعلم من صَفْحِى عن الجاهل
فاخش سكوتى إذ أنا منصتٌ ... فيك لمسموعى خنى القائل
فالسامع القوْل كمن قاله ... والموكّل المأكول كالآكِل

وذكر الفنجديهىّ الشافعىّ ، فقال: هو إمام الأنام ، ونظام الإسلام ، أحد الأئمة الأربعة الأطواد ، الشامخة فى الدين الأجواد ، رضيع لبان النبوّة ، أفضل العلماء ، وأعلم الفضلاء ، وصدر البدور وبدر الصدور ، وهادى الدّعاة ، وداعى الهداة ، إكسير العلوم ، وإكليل الرسوم . عِلْم العلماء شظيّةٌ من عِلْمه ، وحلم الحلماء جَذْوَةٌ من حلمه ، وعقائد الأصول مقتدَحة من زناد كلماته ، وقواعد

الفروع مقترحة من عداد نعمانه ، فارس هَيْجاء المشكلات ، ومقوّم عَوْجاء المعضلات ، منبع السُّنن ، ومتّمم السُّنن ، فاز بغلبات الأقران ، وحاز قَصَبَاتِ الرّهان ، بطهارة الأعراق ، ودماثة الأخلاق ، وفخامة شرف الأمومة ، وكرامة طرفى الأبوّة والعمومة ، درّة الأصداف ، من صميم آل عبدمناف ، كشف الظّلمة عن الأمة ، وصرف عنهم المظلمة المدلهمّة ، بعلمٍ كالبحر اللجّىّ ، ورأى كالبدر فى الليل الدجِىّ ، مذهبه مؤيّد بنصوص القرآن ، وفصول الفرقان ، أسّس بنيانه على تقوى من الله ورضوانه ، فهو بين المذاهب والأديان ، كالناظر فى الأجفان والسمع فى الآذان ، والعقل فى الإنسان ، والعدل للسلطان ، أحلّه الله محلّ القُدْس ، وأدلى إليه سحاب الأنس ... فى كلام أكثر من هذا .

* * *

فقال : دَعِ الهِتَار ، ولا تهتِك الأستار ، وانهضْ بنا لِنَضرِبَ إلى مسجد يَثْرِب ، فعسى أن نَرْحَضَ بالمزارِ ، درَن الأوْزار . فقلت : هيهات أن أَسيرَ ، أو أفقَــهَ التفسير ، فقال : تاللهِ لقدْ أوجَبْتَ ذِمَمًا ، وطلبت إذ طلبت أَمَمًا . فهاكَ ما يشفى النَّفس ، ويَنْفى اللَّبس ، قال : فلمّـا أوضح لى المعمّى ، وكَشَفَ عنّى الغُمَّى ، شدَدْنا الأكْوَار ، وسِرْت وسار . ولم أزل مِنْ مسامَرَته ، مدّة مسايَرَتِهِ ، فيما أنسانى طعْمَ المشقّة ، وودِدْتُ معــه بُعْدَ الشُّقة ، حتّى إذا دَخَلْنا مَدِينة الرّسول ، وفزنا مِن الزّيارةِ بالسُّول ، أشأم وأعْرَقتُ ، وغرّب وشَرّقتُ .

. . .

قوله : دع الهِتار : ، أى أترك تمزيق العِرْض ، وفلان يهاتر فلانا ، أى يسابّه بالباطِل من القول ، والقبيح من اللفظ ، وأصل الهتر سقط الكلام والباطل ، والمهاترة : القول الذى ينقض بعضه بعضاً ، وأُهتِر الرجل فهو مهتَر ، إذا أولِع بالقول فى الشىء ، واستُهتر ، فهومستهتَر : ذهب عقله فيه ، وانصرفت إليه همته . تهتك : تخرق وتكشف ، يريد أنه لما عرض له بنقائصه قال له : دع كشف العيب ، فليس هذا موضعه . انهض : تقدم . لنضرب : لنمشى فى الأرض . نَرْحض : نغسل . المزار : زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم . درَن الأوزار : وسخ الذنوب . هيهات : معناه بَعُدَ ذلك عنك . أفقه : أفهم ، وذِمَمًا : جمع ذمّة ، وهى العهد . أمَمًا : شيئًا قريبا ، والأمَم : القصد . هاك : أى خذ . المعمّى : المغطّى المشكل المعنى ، وأراد به شرح المائة الفتيا الملغزة . ويقال لمن يطلب ما يمكن ولم يشتطّ : طلب أمَمًا قال عبيدالله بن قيس الرقيّات :

كوفيّةٌ نازح محِلّتها لا أمَمٌ دارها ولا صَقَبُ[(١)]

الصَّقب : القرب . الغُمّى : هى الغمة التى تغطّى على الذهن ، والمعمّى الأمر الملتبس . الأكوار : ما هو للإبل كالبراذع للدواب . الشُّقة : السفر البعيد . والسُّول : المراد ، أشأم وأعرقت : قصدَ الشأم وقصدتُ العراق .

[فصل فى زيارة قبر الرسول عليه السلام]

ونذكر هنا فصلاً فى زيارة القبر المعظّم وتوديع زائره له ووصف الروْضة والمسجد وذِكر يثرب ، وهى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم ومهاجَره ، سمّاها طيْبة لما كان اشتقاقها من التّثْريب[(٢)] . وكان صلى الله عليه وسلم يغيّر الأسماء التى تدلّ على الاستقباح إلى ضدّها .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ زار قبرى وجبت له شفاعتى » .

---

(١) ديوانه ٨ ، وفيه « ولا سقب » ، وهما سواء (٢) التثريب : الإفساد

ابن عمر رضى الله عنهما : يثرب أرض مدينة الرسول فى ناحية منها .

وقال شيخنا ابن جبير فى روضته صلى الله عليه وسلم : شاهدنا[1] الرّوضة المكرّمة ، وقد وقع الأذان بوصول صدر الدين رئيس الشافعيّة الأصبهانىّ الذى ورث النّباهة والوجاهة فى العلم كابراً عن كابر ، المعروف برئيس العلماء ، توارثة عن أبٍ فأبٍ ، وقد غَصّ الحَرَم بالمنتظرين ، وقد أُعِدّ له كرسىّ بإزاء الرّوْضة المقدسة ، فصعد وحضر قرّاؤه أمامه ، فابتدءوا بالقراءة بنغمات عجيبة ، وتَلَاحين مطربة بهيجة ، وهو يلحظ الرّوْضة المقدَّسة ، ويُعلن بالبكاء . ثم أخذ فى خطبةٍ من إنشائه سحرية البيان ، وسلك فى أساليب من الوعظ باللّسان ، وأنشد أبياتاً بديعة من قوله ، كان يردّد منها هذا البيت ، ويشير إلى الروضة المعظَّمة المطهّرة .

هانيك روضتُه تفوح نسيماً صلُّوا عليه وسلِّموا تَسْليماَ

وتمادَى فى وعظه إلى أن أطار النفوس من خشيةٍ ورقةٍ ، هو يعتذر من التقصير ، لهول ذلك المقام ويقول : عجبا لألكَنِ العجم ، كيف ينطق عند أفصح العرب . وتهافتت الأعاجم عليه معلنين بالتوبة ، وقد طاشت ألبابُهم ، ودِهشت عقولهم ، فيلقُون نواصِيَهم بين يديه ، فيستدعى الجلَمَيْن ، ويجزّها ناصية ناصية ، وكلّما جزّ ناصية كساها عمامة ، فتوضع عليه للحين عمامة أخرى ، ثم ختم مجالسه ، بأن قال : معشر الحاضرين ، قد تكلّمت لكم ليلة بحرَم الله ، وهذه الليلة بحرم رسوله ؛ ولابد للواعظ من كُدْية ، وأنا أسألكم حاجة وإن ضمنتوها إلىّ أرقتُ لكم ماء وجهى فى ذكرها . فأعلن الناس بالإسعاف وشهيقهم قد علا ، فقال: حاجتى أن تكشِفُوا رءوسكم ، وتبسطوا أيديَكم ، ضارِعين لهذا النبى الكريم فى أن يرضى عنّى ويسترضى الله عزّ وجل لى . ثم أخذ فى تَعداد ذنوبه ، والاعتراف بها ، فأطار الناس عمائمهم ، وبسطوا أيديَهم للنبى صلى الله

(١) رحلة ابن جبير ص ١٦٨ وما بعدها مع تصرف .

عليه وسلم ، داعِين له باكين متضرِّعين ؛ فما رأيت ليلة أكثر دموعاً، ولا أعظم خشوعاً من تلك الليلة . ثم انفضّ المجلس .

قال ابن جبير رحمه الله : ثم كان فى اليوم التالى لهذه اللّيلة وداعُنا للروضة المكرّمة ، فياله وداعاً ، ذهلت له النفوس ارتياعاً ، حتى طارت شعاعاً ، وماظنّك بموقف ينادَى بالتوديع فيه سيّدُ المرسلين، وخاتم النبيين، ورسولُ رب العالمين ! إنه لموقفٌ تنفطر فيه الأفئدة ، وتطيش له الألباب المتّئدة ، فوا أسفاه وا أسفاه ! كلٌّ يبوح لديه بأشواقه ، ولا يجدُ بُدًّا من فراقه ، فما تستطيع إلى الصبر سبيلا ، ولا تسمع فى ذلك المقام إلاّ رنّةً وعويلا ، وكلٌّ بلسان الحال ينشد :

محبّتى تقتضِى مَقَامِى وحالتى تقتضى الرَّحِيلا

بوّأنا الله بزيارة هذا النبىّ الكريم منزلَ الكرامة ، وجعله شفيعاً لنا يوم القيامة ، وأحلّنا بفضله فى جواره الكريم دار المقامة .

ثم ذكر الرّوضةَ المقدّسة مع المسجد العتيق الذى احْتَوى على الروضة ، فقال:

المسجد المبارك مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مُستطِيلٌ ، وتحفُّه من جهاته الأربع بلاطات مستطيلة ، ووسطه كلّه صحن مفروش بالحَصَى والرّمل ، وفى الصحن خمس عشرة نخلة ، فالجهة القبلية لها خمس بلاَطات مستطيلة من غَرْب إلى شرق ، والجنوبيّة كذلك ، على الصفة المذكورة والشرقيّة لها ثلاث بلاَطات ، والغربيّة لها أربع بلاطات . وطول المسجد مائة خطوة وست وتسعون خطوة ، وسعته مائة وست وعشرون خطوة ، وعددُ سَواريه مائتان وتسعون ، وهى أعمدة متصلة بالسُّمْك دون قِسِىّ تنعطف عليها ، فكأنّها دعائم قوائم ، وهى من حَجَرٍ منحوت قطعا قطعا ، مُلَمْلَمة[1] مثقوبة توضع أنثى فى ذكر، ويفرغ بينهما الرصاص المذاب إلى أن يتصل عموداً قائماً ، وتُكسى بغِلالة جير ، ويبالَغ فى صَقْلها ودَلْكها ، فتظهر كأنها رخام أبيض ، وتحفّ بالبلاط المتّصل بالقبلة من

(١) الململم : الحجر المجتمع الأملس

البلاطات الخمس مقصورة تكتنفه من غرب إلى شرق ، والمحراب فيها ، وعلى رأس المحراب حجر مربع أصفر قدرَ شبر فى شبر ، ظاهر البريق ، يقال : إنه كان مرآة كسرى . وفى أعلى داخل المحراب مسمار مثبّت فى جداره ، فيه شِبْه حقّ صغير لايعرف من أىّ شىء هو ، ويزعمون أنه كان كأس كسرى . ونصف جدار القبلة الأسفل رخام موضوع أزاراً على إزار مختلف الصّنعة واللون ، مجزّع أبدع تجزيع . والنصف الأعلى من الجدار مزيّن كلّه بفصوص الذهب المعروفة بالفُسَيْفِساء ، قد نتج الصانع فيه نتائج غريبة من الصّنْعة ، تضمّنت تصاوير أشجار مُختلفة الصفات ، مائلة الأغصان بثمرها ، والجداران الشرقى والغربى النّاظران إلى الصحن مُجرّدان أبيضان مُقرفَصان ، قد زُيّنَا برسم يتضمّن أنواعاً من الأصبغة إلى مايطول وصفه من الاحتفال فى هذا المسجد المبارك .

وفى الجهة الشرقية بيتٌ مصنوع من عُود لمبيت بعض سَدَنتِه ، وسدنَتُه فتيانٌ أحابيش صقالبُ ظراف الهيئات ، نظاف الملابس ، والمؤذّن الرّاتب فيه أحد أولاد بلال ، وفى جوف الصّحْن قبّة كبيرة تُعرَف بقبّة الزيت ، هى مخزن لجميع آلات المسجد .

وله تسعة عشر باباً لم يبقَ منها مفتوحاً سوى أربعة : اثنان فى الغرب ، ويُعرَفان بباب الرحمة ، وباب الخشية ، واثنان فى الشرق: باب جبريل ، ويقابله دار عثمان الّتى استُشهد بها ، وباب الرّجاء . وفى الشرق خمسة مغلقة ، وفى الغرب كذلك ، وفى الجنوب أربعة وفى القبلة واحدٌ صغير ، وله ثلاث صوامع إحداها فى الركن الشرقىّ على هيئة الصوامع ، واثنتان فى ركنى الجهة الجنوبية صغيرتان على هيئة بُرْجين ، والرّوضة المقدّسة مع آخر الجهتين ، الجهة القبلية ممّا يلى الشرق ، وقد انتظمت من بلاطاته ممّا يلى الصّحن فى السعة اثنين ونيّفت إلى البلاط الثالث بمقدار أربعة أشبار ، ولها خمسة أركان بخمس صفحات ، وشكلُها شكلٌ

عجيبٌ لايكاد يتأتى تصويرُه ولا تمثيله ، والصّفحات الأربع محرّفة عن القبلة تحريفاً بديعاً ، لا يتأتى لأحد معه استقبالها فى صلاته ، لأنه ينحرف عن القبلة ، والذى اخترع ذلك فى تدبيرها مخافة أن يتّخذها الناس مصلّى عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه وأخذت من الجهة الشرقية سعة بلاطتين ، وانتظم داخلها من أعمدة الأبلطة ستة ، وسعة الصفحة القبلية منها أربعة وأربعون شبراً ، وسعة الصفحة الشرقية ثلاثون شبراً ، ومن الركّن الشرقىّ إلى الركن الجنوبىّ صفحة سعتها خمسة وثلاثون شبراً ، ومن الركن الجنوبىّ إلى الغربى صفحة سعتها تسعة وثلاثون شبراً ، ومن الركن الغربىّ إلى القبلىّ صفحة سعتها أربعة وعشرون شبراً ، وفى هذه الصفحة صُندوق آبنوس مختّم بالصندل ، مصفّح بالفضة ، مكوكب بها طوله خمسة أشبار ، وعرضه ثلاثة أشبار ، وارتفاعه أربعة ، وهو قُبالة رأس النبى صلى الله عليه وسلم ، فجميع سعة الروضة من جميع جهاتها مائة شبر، واثنان وسبعون شبراً ، وهى مؤزّرةٌ بالرخام البديع النحت الرائع النعت ، وينتهى الإزار منها إلى نحو الثلث أو أقلّ يسيراً ، وعليه من الجدار المكرم ثلث آخر ، قد علاهُ تَضْميخ المسك والطّيب مقدار نصف شبر مسودّا مترا كباً ، متشقّقا مع طول الأزمنة والأيام ، والذى يعلُوه من الجِدار شبابيكِ عُود متّصلة بالسُّمْكَ الأعلى ، لأنّ أعلى الروضة متصل بسُمْك المسجد ، والى حيّز إزار الرخام تنتهى الأستار ، وهى لازورديّة اللون ، مختّمة بخواتم بيض مثمّنة ومربعة ، وفى داخل الخواتيم دوائرُ مستديرة ، ونُقَط بيض تحفّ بها ، فمنظرها منظر بديع الشّكل. وفى أعلاها رسم مائل إلى البياض ، وفى الصفحة القبلية أمام وجه النبى صلى الله عليه وسلم مسمار فضة ، هو قبالة الوجه المكرّم ، فيقف الناسُ أمامه للسّلام ، وإلى قدميه صلى الله عليه وسلم رأس أبى بكر رضى الله عنه ، ومما يلى كتفى أبى بكر رأس عمر رضى الله عنهما ، فيقف المسلّم مستدبر القبلة ، ومستقبل الوجه الكريم ، فيسلّم ثم ينصرف يميناً إلى وجه أبى بكر ، ثم إلى وجه عمر رضى الله تعالى عنهما .

وأمام هذه الصفحة المكرّمة نحو العشرين قِنديلاً معلّقة من الفضة ، وفيها اثنان من ذهب ، وفى جوفِى الروضة حوضٌ صغير مرخّم فى قبلته شكلُ محراب ، قيل : إنه بيت فاطمة رضى الله تعالى عنها ، ويقال : هو قبرها ، وعن يمين الرّوضة المكرّمة المنبر الكريم ، ومنه إليها اثنتان وأربعون خطوة ، وهو فى الحوض المبارك الّذى طوله أربع عشرة خطوة ، وعرضه ستّ خطا ، وهو مرخّم كلّه وارتفاعه شبر ونصف ، وارتفاع المنبر نحو القامة أو أزيد وسعته خمسة أشبار ، وطوله خمس خطوات ، وأدراجه ثمانية ، وبابه على هيئة الشّبّاك مقفَل يُفتح يوم الجمعة ، وطوله أربعة أشبار ونصف شبر .

والمنبر مغشّى بعود الآبنوس ، ومقعد النبى صلى الله عليه وسلم من أعلاه ظاهرٌ ، وقد طبق عليه لوح من الآبنوس غيرُ متّصل به ، يصونه من القعود عليه ، يدخلُ الناس أيديَهم إليه ، ويمسحونه تبركا بلمْسِ ذلك المقعد الكريم ، وعلى رأس رجْل المنبر اليمنى ، حيث يضع الخطيب يده حلقة فضة مجوّفة مستطيلة تشبه حَلْقة الخياط ، لكنها أكبر لاعبة تستدير فى موضعها ، يزعمون أنها كانت لُعبة للحسن والحسين فى حال خطبة جدّهما ، صلوات الله عليهم أجمعين .

وفى الرّوضة الصغيرة التى بين القبر والمنْبر ، جاء الأثر أنها روْضة من رياض الجنة ، وقدرُها ثمان خُطا ، ويتزاحَمُ النّاس فى هذه الرّوضة للصلاة ، وبإزائها لجهة القبلة عمود ، يقال إنه مُطْبق على بقية الجِذْع الّذى حَنّ للنبيّ صلى الله عليه وسلم وقطعة منه فى وسط العمود ظاهرة ، يقبّلها الناس ، ويمسحون خُدُودهم فيها وعلى حافتها فى القبلة منها صندوق كبير للشّمْع والأنوار التى توقد أمام الرّوضة كلّ ليلة ، ومصلّى الإمام فى الروضة الصغيرة المذكورة إلى جانب الصندوق ، وبينها وبين الروضة الكبيرة محمَل كبيرٌ مدهون عليه مُصْحَفٌ كبيرٌ فى غِشَاء مقفل ، هو أحدُ المصاحف الأربعة التى وجّه بها عثمان إلى البلاد ،

وبإزاء المقصورة لجهة المشرق خزانتان كبيرتان محتويتان على كتب ومصاحف موقوفة على المسجد ، ويليها فى البلاط الثانى دفّةٌ لجهة الشرق ، وَدَفّة مطبقة على وجه الأرض إلى سرداب يهبط إليه على أدراج تحت الأرض ، يُفْضِى إلى خارج المسجد إلى دار أبى بكر ، وهو كان طريق عائشة رضى الله عنهما إليها . وذلك الموضع هو موضع الخُوخة المُفْضية لدار أبى بكر رضى الله عنه التى أمر النبى صلى الله عليه وسلم بإبقائها ، وبإزاء دار أبى بكر دار عمر وابنه عبد الله بن عمر رضى الله عنهم أجمعين .

وفيما ذكرناه كفاية ، والله تعالى أعلم .

المقامة الثالثة والثلاثون وتعرف بالتفليسية

حَكَى الحارث بن همّامٍ ، قال : عاهَدْتُ اللهَ مُذْ يَفعتُ ، أَلاّ أؤخِّر الصَّلاة ما استطَعْت ؛ فكنتُ مَعَ جَوْبِ الفَلَوَاتِ ، ولَهْوِ الخَلَواتِ ، أُراعِي أَوْقَاتَ الصَّـلاة ، وأُحَاذر مِنْ مأثم الْفَواتِ . وإذا رافقْتُ فى رحْلَة ، أو حَلَلْتُ بحِلّةٍ ، مَرْحَبْتُ بِصَوْتِ الدَّاعِي إليْهَا ، واقتَدَيْتُ بِمَنْ يُحافِظُ عَلَيْهَا .

فاتّفَق حين دخلتُ تَفْلِيس ، أن صَلّيْتُ مَعَ زمْرَةٍ مَفالِيس فلمَّا قضيْناَ الصَّلاة ، وأزْمَعْنا الانفِلات ، بَرَز شيخٌ بادِي اللَّقْوَةِ ، بالِي الـكُسْوةِ والقوّة ، فقال : عَزَمْتُ عَلَى مَنْ خُلِقَ مِنْ طينة الْحُرِّية ، وتفوّق دَرَّ الْعَصبيّة ، إلاّ ما تـكلّفَ لِي لُبْثَةً ، واستَمعَ منّى نَفْثةً ، ثم له الخيارُ مِنْ بَعْد ، وبيدِه الْبَذْل والرّدّ . فعقَدَ لَهُ الْقوْمُ الحُبَا ، وَرَسَوْا أَمْثَالَ الرُّبا .

يفعت : شببت ولم أبلُغ الُحلم ، وقاربت ذلك .

ابن أبى الخير: يفَع الغلام وأيفَع، إذا كان ابنَ سبع سنين ، فإذا ناهز الُحلُم قيل : مُراهق وكوكب[1] ، فإذا أدرك قيل : فيه حزَوّر .

غيره: غلامٌ يَفعة غضُّ الشباب ، وجاريةٌ يَفعة ، والجمع أيفاع وأيفُع ، فهو يافع على غير قياس . قال ابنُ سيده رحمه الله : ولم يقل أحدٌ منهم يَفَع الغلام ، ولا مُوفع ، ومثله أبقَل الموضع ، وأورَس ، والوَرْس : نَبتُ أصفر . جوب :

(١) فى القاموس : الـكوكب : الغلام المراهق .

قطع . الخلَوات : حيث يخلو للذاته . أراعِي . أحفظ . مأثم : إثم . الفوات . فوت الوقت . رافقت فى رحلة : صاحبت فى ارتحالٍ وسفر . حَلَلْتُ : نزلت ببلدة . والحِلَّة : جماعة البيوت ، والحِلّة : القوم الحُلول والجمع حِلال. مَرْحبت: قلت مَرْحَبًا . الدَّاعى : هو المؤذِّن .

[ما قيل فى أداء الصلاة فى وقتها وما جاء فى تركها]

وجاء من الأثر فى تأخير الصلاة قوله صلى الله عليه وسلم : « إنّ الرجل ليصلِّى الصلاة وما فاتَهُ وقتها ، ولَمَا فاته من وقتها أعظمُ أو أفضلُ من أهله وماله » . فهذا وقد أدرك آخر الوقت سيندم على فوات أوله .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الوقت الأوّل من الصلاة رضوان الله ، والثانى عفو الله » ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : رِضْوان الله أحبُّ إلىّ من عفوه . وإنّما قال ذلك لأن عفو الله لا يُتصوَّر إلا عند اكتساب خطيئة .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : « مَنْ حافظ عليها كانت له نوراً وبرهانا ونجاة من النار ، ومن لم يحافظ عليها كان يومَ القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأُبىّ بن خلف » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إنّ الذى تفوته صلاة العصر ؛ فكأنما وُتِرَ أهله وماله» .

وكتب عمر رضى الله عنه إلى عمّاله : إن أهمّ أموركم عندى الصّلاة ، من حفظها وحافظ عليها حفظ دينَه ومن ضيّعها فهو لما سواها أضيَع .

وجاء فى القرآن: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بعدِهِمْ خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتّبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًّا﴾ (1) ، وفى التفسير : لم يتركوا الصّلاةَ وإنما أضاعوا وقتها .

وقال صلى الله عليه وسلم: « لاتفريط فى النوم ، وإنما التفريط فى الّذى يؤخّر الصلاة إلى وقت الأخرى»

---

(١) سورة مريم ٥٩

وسُئِل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الذين هم عن صلاتهم ساهون ، فقال: « هم الذين يؤخّرون الصلاة عن وقتها » .

ومما يُستظرف من هذا الباب أنّ المنصور قيل له : إن أبا دُلاَمة لا يحضر الصلاة ، لأنه معتكفٌ على الخمر ، وقد أفسد فتيان العسكر ، فلو أمرتَه بالصلاة معك لأصلحتَه وغيره . فلمّا دخل عليه قال : أبو دلامة الماجن ! قال : يا أمير المؤمنين ، ما أنا والمجون ، وقد ساورْت بابَ قبرى ، فقال: دعني من استكانتك وتضرّعك وإياك أن تفوتك صلاة الظهر والعَصر فى مسجدى ، فإن فاتَتْك لأحْسِنَنّ أدبَك ، ولأطيلنّ حبسَك . فوقع فى شرّ أمر ، فلزم المسجد أياماً ثم كتب رقعةً ودفعها إلى المهدىّ ، فأوصلها إلى أبيه وفيها :

ألم تعلمَا أنّ الخليفةَ لزّنى ... لمسجدِه والقصْرِ مالى وللقَصْرِ [1]
أصلّى به الأولى جميعاً وعصرَها ... فويلى من الأولى، وَويلى من العَصرِ !
أصلّيهما بالكُرْه فى غير مسجدِى ... فمالىَ فى الأولى وفى العصر من أجْرِ
يكلّفنى مِنْ بعد ما شبتُ توبةً ... يحطّ بها عنّى الثّقيلَ من الوِزْرِ
ووالله مالى نيّــةٌ فى صلاتها ... ولا البرّ والإحسان والخيرُ من أمرى
لقد كانَ فى قومى مساجدُ جَمّةٌ ... ولم ينشرح يوماً لغشيانها صَدْرِى
وما ضرّه ـ والله يغفر ذنبه ـ ... لو أن ذنوبَ العالمين على ظهرى!

فقال : صدقَ دَعوه يُضلّ مَنْ يشاء ، وما يضرّنى ذلك ! والله لا يفلح هذا أبداً ، فدعوه يفعل ما يشاء .

وكان الجمّاز منقطعاً إلى أبى جَزْء الباهلىّ ، فتناسك أبو جَزْء ، فقال الجمّاز : لا أحِبّ أن تخالطني إلا أن تتنسّك فأظهر النُّسْك ، ثم كتب إليه :

(١) الخبر والشعر فى الأغانى ١٠ : ٢٤٨ .

قد جفانى الأمير كى أتقرَّى ... فتقرّيتُ مكرهاً لجفائِهِ[١]
والذى أنطوى عليه المعاصى ... علم الله نيَّتى من سمائِهِ
ما قِراة لمكرَهٍ بقراةٍ ... قد رواه الأمير عن فقهائِهِ

ومن مجون أبى نواس أن الأمير لما نهاه عن الخمر وحبسه، فكلّمه فيه الفضل بن الربيع، وأخرجه كتب إليه :

أنتَ يابن الربيع علّمتنِي الخيْـ ... ـرَ وعوّدْتَنيه والخيرُ عادَهْ[٢]
فارعوى باطِلِى وراجعَنِى الحـ ... ـلمُ فأحدثتُ رهبةً وزهادَهْ
لو ترانى ذكرت بى الحسن البصـ ... ـرىّ فى حال نسكه أو قتادَهْ
المسابيح فى دراعى والمُصْـ ... ـحف فى لَبَّتِى مكانَ القِلادَه
فإذا شئت أن ترى طرفة تعـ ... ـجب منها مليحةً مستفادَهْ
فادْعُ بى لا عدمتَ تقويمَ مثلى ... فتأمَّلْ بعينك السجّادهْ
لو رآها بعضُ المرائين يوماً ... لاشتراها يَعدّها للشهادهْ
أثرٌ لاحَ للصَّلاة بوجهى ... تُوقن النفسُ أنه من عِبادَهْ

وأذِن بشار لأصحابه والمائدة بين يديه، فأكل ولم يدعُهم لطعامه، ثم دعا بطشتٍ وكشَف عن سوءته فبال، ثم حضر الظهر والعصر والعشاء الأولى والآخرة، فلم يُصلِّ فقالوا له : أنت أستاذنا وقد رأينا منك أشياء أنكرناها عليك . قال : وما هيَ ؟ قالوا : دخلنا والطعام بين يديك فلم تُدعُنا إليه، قال : إنما أذنت لكم لتأكلوا، ثم ماذا ؟ قالوا : دعَوْت بالطشت ونحن حضورٌ فبُلْتَ ونحن نراك ؛ فقال : أنا مكفوف وأنتم بصراء وأنتم المأمورون بغضّ البصر دُونى، ثم ماذا ؟ قالوا : حَضَرتِ الصلاةُ فلم تصلِّ ، فقال : إنّ الذى يقبلُها تفاريق يقبلها جملة . هذا على أنه القائل :

(١) الأمالى ٣ : ٤٦ . تقرى : تنسك .
(٢) ديوانه ١٤٥ ، ذيل زهر الآداب ١٦٨ .

ألم تر أنّ الدهر يقدح فى الصّفا وأنّ بقائى إن حييتُ قليلُ[١]
خليلُك ما قدّمت من عَمل التُّقى وليس لأيّام المنــون خليلُ
فعش خائفاً للموت أو غير خائفٍ[٢]
على كلِّ نفس للحِمَام دليلُ

وقال الحسن رحمه الله تعالى[٣] :

وندمانٍ يرى غبناً[٤] عليـه بأن يمسى[٥] وليس له انتشاءُ
إذا نبّهتَه من نــــوم سُكرٍ كفاه مَرّةً منك النداءُ
إذا ما أدركتْه الظهر صلّى[٦] فلا ظهرٌ عليـه ولا عشـاءُ[٧]
يُصلّى هذه فى وقت هــــذى فـكلّ صلاته أبداً قضاءُ

[ذكر مدينة تفليس]

تفليس : مدينة بأرمينيَة بينها وبين قالِيقَلاَ ثلاثون فرسخا، ومن قالى قلا ابتداء الأنهار العظام، أوّلها الفرات ـ وقد تقدّم ـ يأخذ من قالى قلا فرسخين، ثم يشقّ مغرِّبا إلى دَبيل إلى وَرْثان ، ثم يصبّ إلى بحر الخزَر ،والثانى الكبير يخرج من مدينة قالِى قَلاَ ، ثم يشقّ إلى مدينة تَفْليس مشرّقا إلى مدينة بَرْدعة وأرضها ، ثم يقرب من بحر الخزَر ، فيلتقى مع الرسّ ويصيران نهراً واحداً .

ويقال : إن خَلْف الرسّ ثلثمائة مدينة خراب، وهى التى ذكرها الله تعالى ، وأصحاب الرسّ بُعث إليهم حنظلة بن صفوان فقتلوه ، فأهلكوا . وقيل فى أصحاب الرسّ غير ذلك .

---

(١) نقله البارودى فى مختاراته ٤ : ٤٦ (٢) المختارات : « عائف »
(٣) مختار الأغانى ٣ : ٦٩
(٤) ط : « عيبا » ، تصحيف . (٥) المختار : « يلفى » .
(٦) ط : « حيا » ، وما أثبته من المختار .
(٧) المختار : « ولا عصر عليه ولا عشاء » .

وإرمينيَة مقسومة على ثلاثة أقسام ، فالقسم الأوّل مدينة دَبِيل ، ومدينة قالىقلا ، ومدينة خِلاَط ، ومدينة شِمْشَاط ، ومدينةالسوّاد ، والجزء الثانىمدينة بَرْدعة ، ومدينة البَيْلَقان ، ومدينة قيلة ، ومدينة الباب والأبواب والثالث مدينة خَزْوان ومدينة تفليس . والمدينة التى تعرف بمسجد ذى القرنين ، وافتتحت إرمينيَة فى خلافة عثمان ، وافتتحها سلمان بن ربيعة الباهلىّ فى سنة أربع وعشرين .

عُصْبة : جماعة . مفاليس : فقراء ، وأفلسَ الرجل: صار صاحبُ فلوس بعد أن كان صاحب دنانير . أزمعنا الانفلات : عزمنا على الخروج . اللقوة : داء يأخذ فى الوجه ، و الفُوَاق : ما بين الحلبتين . درّ العصبيّة : لبن الحَمِيّة ، وهو مَثَل . نفثة : كلمة . البذل : العطاء . والردّ : المنع . الحبا : عقد اليدين على الركبتين . رَسَوْا : ثبتوا . الرّبا : الكُدَى .

* * *

فَلمَّا آنَسَ حُسْنَ إِنْصَاتِهِمْ ، وَرَزَانَةَ حَصَاتِهِمْ ، قال : يا أُولِى الأَبْصار الرّامقة ، والْبَصائر الرّائقة ؛ أَمَا يُغنى عن الخبر العيان ، ويُنْبِئُ عن النّار الدّخانُ ؛ شيبٌ لائح ؛ وَوَهْنٌ فادِح ، وداء وَاضِح ، والباطِنُ فاضح .

ولقد كنتُ واللهِ مِمَّن مَلَكَ ومالَ ، ووَلِىَ وآل ، ورفَد وأنال ، ووصَل وَصال ؛ فلم تَزَلِ الجوائحُ تَسْحَت ، والنّوائب تَنْحَت ؛ حتّى الوَكْرُ قفرٌ ، والكفّ صِفرٌ ، والشّعار ضُرٌّ ، والعيْشُ مُرٌّ ؛ والصِّبْيَةُ يتضاغَوْن من الطَّوى ، ويتمنّون

حُصَاصة النَّوى ولم أَقُمْ هَذَا المقَامَ الشَّائن ، وأُكْشِفْ لـكُمُ الدَّفائن ؛ إلاَّ بَعْدَ ما شَقِيت ولُقيت ، وشِبتُ مِمَّا لَقِيت ؛ فَلَيْتَنِي لم أَكُنْ بقِيتُ . ثمَّ تأوَّهَ تأوُّهَ الأَسِيف ، وأنشد بصوتٍ ضعيف . . . .

* * *

آنس : أبصر . إنصاتهم : سكوتهم . رزانة حصاتهم : رجاحة عقولهم ، والحصاة يكنى بها عن العقل ، قال طرفة :

وإنَّ لسان المرء ما لم يكنْ لهُ حَصَاةٌ على عَوْرَاتِهِ لدليلُ[1]

الأبصار الرَّامقة : العيون الناظرة . البصائر : جمع بصيرة وهى المعتَقد . الرائقة : المعجِبة . العيان : المعاينة ، يقول : معاينتك الشيء تُغنى عن خبرته

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ليس الخبَر كالمعاينة » .

ينبىْ : يخبر . لائح : ظاهر . وَهَن : ضعُف . فادح : مثقل بَيّن . فاضح: أى صاحبه فى شهرة وفضيحة . ملك: كان ملكا أو ملك الأموال العظام فصار ذا مِلك : مال : صار ذا مال . ولِىَّ : صاروا ليا . آل : ساس ، أى صار يسوس الناسَ ، أى يكون عليهم أميراً ، قال عمر رضى الله عنه : ألنا وإيل علينا . رِفْد : وَهَب الرفد . أنال : أعطى النّيل والنوال ، يقال : منه نلته وأنلته . وصل : أعطى صِلة ، والرّفد والنَّوال : العطاء . والإيالة : السياسة ، آل الأميرُ رعيّتَه أحسن سياستهم ، وآل ماله يؤله : أصلحه . صال : بطش وهدّد ، وصال

---

(١) لم أجده فى ديوان طرفة ، والبيت فى اللسان (حصى) ، ونسبه مع بيت قبله إلى كعب بن سعد الغنوى .

الفحل : هَدَر فى قطيعه . الجوائح : المصائب . تَسحت : تستأصل الأموال . تنحت : تنجر وتأخذ . النوائب : النوازل . الوكر : قعر المنزل : صِفر : خالية من الدَّرَاهم . الشِّعَارِ : اللباس : يتضاغون : يصيحون ، والضُّغاء صياح الذئب إذا جاع ، والضُّغاء : البكاء بذلّ وخشوع . الطَّوَى : الجوع . مصاصة : مايمصّ منه . الشائن : العائب صاحبه . شَقِيت : أدركنى الشقاء . لُقيت : أصابتنى اللَقوة . تأوّه : توجّع ، وقال أوّه . الأسيف : الحزين .

* * *

أشكو إلى الرّحمَنِ سُبْحانَهُ تَقَلُّبَ الدّهرِ وعُدْوَانَهُ
وحادثاتٍ قَرَعَتْ مَرْوتى وقَوّضَتْ مَجْدِى و بُنْيانَهُ
واهْتَصَرَتْ عُودِى ويَاوَيْلَ مَن
تَهتَصِرُ الأحـــداثُ أغصانَهُ

وأمْحَلَتْ رَبْعى حتَّى جَلَتْ مِنْ رَبْعِيَ المُحلِ جرْذانَهُ
وغادرتْنِي حائراً بائراً أُكابِدُ الفَقْرَ وأشجانَهُ
من بَعْدِ ما كنتُ أخا ثَرْوةٍ
يَسْحَبُ فى النِّعمــةِ أردانَهُ

يختبطُ العافون أوراقَهُ ويحمد السارُون نيرانَهُ
فأصْبَحَ اليومَ كأَنْ لم يكنْ أعانَه الدَّهْرُ الذى عانَهُ
وازوَرَّ مَنْ كان له زائراً !
وعاف عافِى الْعُرْفِ عِرْفَانَهُ

فهل فتى يحزنُهُ ما يَرَى من ضُرِّ شيخٍ دهرُهُ خانَهُ
فيَفرِجَ الهمَّ الّذى هَمَّه ويُصلِحَ الشأنَ الذى شانَهُ

* * *

عدوانه : ظلمه . قرعتْ مَرْوتى : ضربت صخرتى ، وأراد بها نفسه . قوّضت : نقضت وهدمت . اهتصرت : كسرت وحتّت ، وهَصْرُ الغصن : تعطُّفه وانحناؤه ، وضرب بالمَرْوة والعود أمثالا وهو يريد جسده وماله. أمحلته: جعلته مُحْلاً . جلَت: طردتْ . المحل : الذى لا نبات فيه ولا رزق . جرذانه : فئرانه ، وقد تقدّم فائدة هذا المعنى. بائرا : هالكاً. أكابد : أقاسى . أشجانه : أحزانه . أخا ثروة : صاحب غنى . يسحب . يجرّ . أردانه : أذياله . يختبط : يطلب . العافون : الطالبون للرزق ، وخبطت الورق : ضربتُها بالعصا ، فتسقط فتعلفُها الإبل ، فيضرب بها المثل لعطية الكريم ، وأنشد زهير[1] :

وليس مانِعَ ذِى قُرْبَى وذى رَحِمٍ[2] يوما ولا معدماً من خَابِطٍ وَرَقَا

السارون : الماشون بالليل . عانه : أصابه بالعين . ازورّ : انقبض . عاف : كَرِه . عافى العُرْف : طالب المعروف . عرفانه : معرفته . همّه : أذابه . وشَانَهُ : عابه .

[من كلام الأعراب]

ومن كلام العرب فى هذا الباب، ماحَكَى الأصمعىّ رحمه الله: أنّ الأعراب أصابتْهم سنوات كثيرةٌ جدْبة ، فدخلت طائفة منهم البَصْرة وبين أيديهم أعرابىّ يقول : أيّها الناس ، إخوانكم فى الدين ، وشركاؤكم فى الإسلام ،

(١) ديوانه : ٥٢ .
(٢) الديوان : « وذى نسب » .

عابرُ سبيل وفلَّال بؤس ، وصَرْعى جَدْب ، تتابعت علينا سنون ثلاث غيّرت النِّعم ، وأكلت النَّعَم ، فأكلنا ما بقى من جلودها فوق عظامها ، فلم تزل نعلِّل بذلك نفوسنا ، ونمنّى بالغيث قلوبَنا ، حتى عاد مختاراً ، وعاد إشراقنا ظلاما ، فأقبلنا إليكم يصرَعنا الوعر ، وينْكبنا السهل ، وهذه آثار مصائبنا لائحة فى قَسَمَاتِنا . فرحم الله متصدّقاً مِنْ كثير ، أو مواسياً من قليل ، فلقد عَظُمت الحاجة ، وكَسِفَ البال ، وبلغ المجهود ، والله يجزى المتصدّقين .

وقف أعرابىّ على حَلْقة يونس النحوىّ ، فقال : الحمدُ لله ، وأعوذ به أن أُذَكِّر به وأنساه ، إنّا أناس قَدْ قدمنا هذه المدينة: ثلاثون رجلا ، لا ندفن ميّتاً ، ولا نتحوّل عن منزل ، وإن كرهناه ، فرحم الله عبدًا تصدّق على ابن سبيل ، ونضْوِ طريق ، وفَلّ سَنة ، فإنه لا قليل من الأجر ، ولا غنى عن الله . ولا عمل بعد الموت ، يقول الله تعالى:﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يُقرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فيضاعفه له ﴾ ، إن الله لا يستقرض من عوَزٍ ، ولكن ليبلوَ أخيارَ عباده .

قال الأصمعىّ رحمه الله: وقف أعرابىّ علينا ، فقال : تتابعت علينا سنون ، بتغيير وانتقاص ، فما تركت لنا ضِيَعاً ولا رَيْعاً[1] ، ولا نافطة ولا عافطة[2] ، ولا ثاغية ولا راغية[3] ، فأماتت الضَّرْع وأفنت الزَّرع ، وعندكم من فضل الله نعمة فأعينوا مِنْ عطيّة الله إياكم ، وارحموا أبا أيتام ، وأنضاء زمان ، فلقد خلّفْتُ أقواما لا يمرّضون مريضهم ، ولا يكفِّنون ميتهم ، ولا ينتقلون من المنزل وإن كرهوه ، ولقد مشيت إليكم حتى انتعلتُ الدماء ، وجُعْت حتى أكلت النوى المحرِقة .

وقفت أعرابية على عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فقالت:

---

(١) الضيع جمع ضيعة ، وهى العقار . والريع : مسيل الوادى من كل مكان مرتفع .
(٢) العافطة : النعجة ، وكذلك النافطة .
(٣) الثغاء : صوت الغنم ، والرغاء : صوت البعير أو الناقة .

إنى أتيت من أرض شاسعة ، تهبطني هابطة ، وترفعني رافعة ، في ملحّات من البلايا ، بَرَيْنَ لحمى ، وهضْن عظمى ، وتركتني والهة ، وقد ضاق بى البلد ، بعد الأهل والولد ، وكثرة العدد ، لا قرابة تؤويني ، ولا عشيرة تحميني . فسألتُ أحياء العرب : مَن المرتجى سَيْبُه ، المأمون عيبُه ، الكثير نائلُه ، المكفىّ سائله ، فدُلِلْتُ عليك ، وأنا امرأة من هوازنَ ، فقدت الوالد والرّافد ، فاصنع فى أمرى واحدة من ثلاث : إمّا أن تحسِنَ صفَدَى ، وإما أن تقيم أَوَدِى[1] ، وإما أن تردّنى إلى بلدى ، فقال : بل أجمعهنّ لك ففعل بها ذلك .

خرج المهدىّ يطوف بالبيت بعد هَدْأة من الليل ، فسمع أعرابيّةً من جانب المسجد ، وهى تقول : قوم متظلّمون ، نبتْ عنهم العيون ، وَفَدَحَتْهم الديون ، وعضتّهم السُّنون ، بادت رجالهم ، وذهبت أموالهم ، أبناء سبيل ، وأنضاء طريق ، وصية الله ووصية رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهل من آمرٍ بخيرٍ كلأه الله فى سفره ، وخَلَفه فى أهله ! فأمر لها بخمسمائة درهم .

ومما جاء فى ذم السؤال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأَنْ يأخذ أحدُكم حبلَه فيحتطب فيه أهونُ من أن يأتىَ رجلا أعطاه الله من فضلِه فيسأله ؛ أعطاه أو منعه » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ فتح على نفسه باباً من السؤال ، فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر » .

وقال أكثم بن صيفى : كلّ سؤال وإن قلّ أكثر من كلّ نوال وإن جلّ .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : المساكين لا يعودون مريضاً ، ولا يشهدون جنازة ، ولا يحضرون جمعة ، وإذا اجتمع الناس فى أعيادهم ومساجدهم يسألون

(١) الصفد : العطاء . والأود : الاعوجاج .

الله من فضله ، اجتمعوا يسألون الناس ما بأيديهم .

سأل سائل بمسجد الكوفة فلم يُعطَ شيئاً ، فقال : اللهمّ إنك بحاجتي عالم لا تعلَّم ،أنت الذى لا يعوزك نائل ، ولا يلحفك سائل، ولا يبلغ مدحك قائل ؛ أسألك صبراً جميلا ، وفرجاً قريباً ، وبصراً بالهدى ، وقوّة فيما تحب وترضى . فتبادروا إليه بالعطية ، فقال : لا والله لا أرزؤكم الليلة شيئاً ، ثم خرج وهو يقول :

ما نال باذلُ وجهه بسؤاله ... عوضاً ولو نال الغِنَى بسؤالِ

وإذا النوال مع السؤال وزنته ... رَجَح السؤال، وخفّ كلّ نوَالِ

وإذا بليت ببذل وجهك سائلاً ... فابذله للمتكرّم المِفْضَالِ

وقال بعض الأدباء : المخذولُ مَنْ كان له إلى اللئام حاجة .

وأنشد الجاحظ فى نوادره لأعرابىّ :

سير النواعج بالمَيمة فى الضُّحَى ... يمشى الدليلُ بها على بلْبالِ

خيرٌ من الطمع الدنِىء ومجلسٍ ... بفناء لا طلق ولا مِفضَالِ

فابثُثْ حوائجكَ لليـــلك فإنه ... يغنيك قبل تخشُّعٍ بسؤالِ

* * *

قال الراوى : فصبَتِ الجماعةُ إلى إنْ تستَثْبِتَه ، لتَستنجِشَ خُبْأتَه ، وتَستَنْفِضَ حَقِيبتَه ، فقالت له : قَدْ عرَفنا قَدْر رُتبَتِك ، ورأَينا دَرَّ مُزْنَتِك ، فعرِّفْنا دَوْحَةَ شُعبَتِك ، واحسِر اللِّثامَ عن نِسْبَتِك . فأَعْرضَ إعْراضَ مَنْ مُنِيَ بالإعْناَتِ ، أو بُشِّر بالْبنات ، وجَعلَ يلْعَنُ الضَّرُورات ، ويتأفَّفُ مِنْ تَغيُّض المرُوءات . ثم أَنْشَدَ بلفظ صادعٍ ، وجَرْسٍ خادعٍ :

لعَمرك ما كلّ فرعٍ يدلُّ جناهُ اللّذيذ على أصْلِهِ
فَكلْ ما حلاَ حين تؤْتَى بهِ ولا تسأل الشّهْدَ عنْ نحْلِهِ
وميِّز إذا ما اعتصَرْتَ الكرومَ
سُلافةَ عصْرِك من خلّهِ
لِتُغلي وتُرخِصَ من خِبْرةٍ وتَشْتَرِى كلاًّ شِرًا مثلِهِ
فمارٌ على الفَطِنِ اللّوْذَعىّ دُخُولُ الغميزةِ فى عقْلِهِ

* * *

قوله : تستنبثه : تحقق مَنْ هو . تستنجش ، تستخرج ، والنَّجَش : استخراج الشىء المجهول المستور . وقيل : تنفير الوحش ، وهو من الأوّل، لأنّ تنفير المطمئن كإظهار الكامن . خبأته : سرّه الّذى أخبرهم بظاهره حيث قال : كيت وكيت .

الحقيبة : وعاء يعلّقه الرجل خلف رَحْلِه ، يجعل فيه ما يعز عليه ممّا يحتاج أن يتناوله متى شاء ، وأراد بها ها هنا موضع سِرّه تستنفض : تنثر ما فيها . رتبتك : قدرك ومنزلتك . دَرّ مُزْنتك : ماء سحابك ، وأراد ما أبدى لهم من البلاغة . دوحة : شجرة . شعبتك : فرعك وغصنك . اخسِر : أزل واكشف . اللّثام : ما يُجعَل على الأنف والفم ، يريد عرّفنا أصلك ، ومن أين أنت . مُنِىَ : بُلِىَ . الإعنات : المشقة ، وعنّتَه وأعنته : كلّفته ما يشقّ عليه . وبُشّر بالبنات : أخبِر بولادتهن ، وقد أخبر الله تعالى أن مَنْ بُشّر بالأنثى ظلّ وجهُه مسودًّا وهو كظيم ، يتوارَى مِنَ القَوم ِمن سُوء ما بشِّر به . وقد تقدّم وأد البنات وهو دسّهنّ فى التراب .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم من طريق عقبة بن عامر : « لا تكرهوا البنات فإنهن المؤنسات الغاليات » . وقال عليه الصلاة والسلام «أحبّوا البنات ، فإنيّ أبو البنات »، وإنّ الرجل إذا ولدت له ابنةٌ هبط إليها مَلَكان فمسحا على ظهرها ، وقالا : ضعيفة خرجت من ضعيف ، مَنْ أعان عليك لم يزل يصاب إلى يوم القيامه .

قوله : يتأفف ، يقول : أف أف ، وهو من فعل المهموم الملهوف . تغيُّض المروءات : ذهاب الأفعال الحسان . صادع : شديد يشقّ الأذن . جرس : صوت . جناه : ما يجتنَى منه . الشهد : الْعَسَل ، أى كل العسل ، ولا تسلْ عن النحل التي صنعته ، ولا مِنْ أين هو ، ضرب به مثلا لترك سؤالهم عنه ، إذ أفادهم . سُلافة : خمر لم تُعْصَر . عصرك : تعصيرك . خِبرة : معرفة وتجربة . الأَوْذَعِيّ : الذّكى . الفهيرة : ضعف التدبير والنّظر ، لأنّ الذى لا يحسن التدبير ، والنّظر إذا سقط غمزه الناس وعابوه .

* * *

قال : فازْدَهَى الْقَوْمَ بذَكَائِه ، واختَلَبَهمْ بِحُسْنِ أَدَائه مع دائه ، حتَّى جمعوا له خبَايا الْحُبَن ، وخفَايا الثُّبَن ، وقالوا له : يا هذا ، إنَّك حُمْتَ على رَكِيَّةٍ بَكِيَّةٍ ، وتعرّضت لِخَلِيَّةٍ خَلِيَّةٍ . فخذ هذه الصُّبابة ، وهَبْهَا لا خَطأً ولا إِصَابة .

فنزّلَ قلُّهمْ مَنْزِلَةَ الكُثْر ، ووصَلَ قبولَهُ بالشُّكْرِ . ثم تولَّى يجرُّ شِقَّهُ ، ويَنْهَبُ بالخبطِ طُرْقَهُ .

قال المخبِرُ بهذهِ الحِكايَةِ : فصُوِّرَ لِي أَنَّهَ مُحِيلٌ لِحَلْيَتِه

مُتَصَنِّعٌ فى مِشيَتِهِ . فنهضْتُ أَنْهَجُ مِنْهَاجَه ، وَأَقْفُو أَدْرَاجَه ؛ وهُوَ يَلْحَظُنى شَزْرًا ، ويَوسِمُنِى هَجْرًا ؛ حتَّى إذا خَلاَ الطريق ، وأَمْكَنَ التَّحقيق ، نَظَر إلىَّ نَظَرَ مَنْ هَشَّ وَبَشَّ ، وما حضَ بَعْدَ ما غشَّ ، وقال : إنِّى لإخالكَ أخَا غُرْبَة ، ورائدَ صُحْبَة ؛ فهلْ لك فى رفيقٍ يَرْفُق بكَ ويُرْفِق ، وَيَنْفُقُ عليك ويُنْفِق ؟ فقلت له : لو أتانى هذا الرفيقُ لَوَاتانى التَّوفيق . فقال لى : قدْ وَجَدْتَ فاغتبط ، واستَكْرَمتَ فارتبِطْ .

* * *

ازدهى : دعاهم إلى الزهو والإعجاب به . ذكائه : حدّة ذهنه . اختلبهم : خدعهم . الخبْن : أطراف الثوب ، كالكم وغيره ، والثُّبَنُ : أطراف الرداء وشبهه ، والخُبْنة فى الثوب المخيط ، وقد خبنته عطفته وكففته بالخياطة ، وقيل : الخَبْن القبض ، والخُبْنة لما يلى من حُجْزة السراويل والإزار ، والجمع خُبَن ، والثُّبنة مايلى الظهر من السراويل والإزار . حُمّتَ : حلّقت . ركية : بئر . بكية : قليلة الماء . خلية : جَبْح النحل حيث كان من حجر أو شجر ، وقيل الخلية الخشبة المنقورة لها خاصة ، والخلية فى غير هذا السفينة ، فشبِّهت خلية النحل بها . خلية : فارغة ، الصُّبابة : الشىء القليل إذا أخذ منه بكثرة . الخبط : أراد به أخذ الأموال بالسؤال ، يقال : خبطت الشجرة خبطاً ، نفضتُ ورقها ، أراد أنه كان يجرّ جانبه المعلّ ، فكل مَنْ مرّ به وسأله رحمه . محِيل : مغيّر . حِلْيَتُهُ : خلقته وصفاته . نهضت : تقدّمت للمشى . أنهج منهاجه : أمشى فى طريقه . أقفو أدراجه : أتبع آثاره . يلحظنى : ينظرنى .

شزراً ، أى فى جهة بمؤخر عينه . قال ابن الأنبارىّ : نظر إلىّ شزرا ، أى نظر إلىّ من جانب عينه من شدّة العداوة والبغضاء ، يقال : شزر يشزَر ، إذا نظر

من جانب عينه من العداوة أو من الفَرَق . ويُوسعنى هجراً ، أى يكثر تجنّبى ومباعدتى .هشّ : خفّ واهتزّ . بشّ : حسن اللقاء ،ويقال : بش فلان بفلان، إذا سرّ به وفرح وانبسط إليه ؛ ويقال : تبشبش به بمعنى بشّ به ، والبشاشة والهشاشة الطلاقة والتبسّم . ماحض : أخلص وده . غشّ ، ضد أخلص ، ويقال: غشّه ، أى عمل فيما يحبه شيئاً قليلا وخلطه بما يسوءه ، أخذ من الغشش ، وهو الشراب الكدر . إخالك : أحسبك. رائد:طالب . يرفق بك : يلاطفك ويكون بك رفيقاً . يرفق : يوليك مرافقة ، أى يعينك بماله حتى يجد معها الرفق. لواتانى : لوافقنى. اغتبط ، أى كن به مغتبطا أى محبًّا فى بقائه ، والغِبْطة : حسن الحال . استكرمت فارتبط ، أى اتّخذت كريماً ، وجاء هذا اللفظ فى حكاية ذكرها أبو علىّ ، وهى أنّ فتى من العرب جاء إلى أمّه ، وقد عميت فقال لها : يا أمّه ، إنى اشتريت فرساً ، فقالت : صفه لى ، قال : إذا استقبل فظبى ناصب، وإذا استدبر فهِقْل[(١)] هاضب ، وإذا استعرض فسِيد[(٢)] قارب ، موالى المسمعين ، طامح الناظرين ،مدعاق الطّبيين ، قالت:أجدْت إن كنت أعربت ، قال: إنه مشرف التّليل ، سبط الخصيل ، وهواه الصهيل ، قالت : أكرمت فارتبط[(٣)] .

. . .

ثمّ ضَحِك مليًّا ، وتمثّل لى بشراً سَوِيًّا ؛ فإذا هو شيخنا السَّرُوجىّ ، لا قَلَبَةَ بجسمه ، ولا شبهةَ فى وَسْمِهِ ؛ ففرحتُ بلُقْيَتِهِ ، وكَذِب لَقْوَته ، وهَمَمْتُ بملامَتِهِ ، على سوء مَقَامَتِهِ ، فشحَا فاه ، وأَنْشَدَ قبل أن ألحاه :

ظَهَرْتُ بِرَثٍّ كيْما يقالُ فقيرٌ يُزَجّى الزّمانَ المُزَجَّى

(١) الهقل : الفتى من النعام ، والهضب : نوع من السير .
(٢) السيد : الذئب ، والقرب : نوع من السير .
(٣) مجمع الأمثال ٢ : ١٤١

وأظهرتُ للنّاس أنْ قدْ فَلِجْتُ

فكَمْ نال قلبِى بهِ ما ترَجّى

ولولاَ الرَّثاثَةَ لم يُرْثَ لى ولولاَ التّفالُجُ لم أَلْقَ فُلْجَا

ثمّ قال : إنّه لم يَبْقَ لِي بهذِه الأرض مَرْتَع ، ولاَ فى أَهلها مطمع ؛ فإن كنتَ الرفيق ، فالطريقَ الطّريقَ . فسِرْنا مِنْها مُتَجرِّدِيْن ، ورافقتُه عامَيْن أَجْرَدِيْن . وكنتُ على أن أصحبه ما عِشتُ ، فأَبَى الدّهرُ المُشِتّ .

* * *

قوله : مليًّا ، أى طويلا . قُلبة : عِلّة. قال الكسائى رحمه الله : مابه قُلْبة ، أى شىء يقلقه فينقلب من أجله على فراشه لغمّه . وقال الفراء رحمه الله : مابه من وجع يُخاف عليه منه ، من قولهم : قُلِبَ الرجل إذا أصابه وجع فى قلبه ، فلا يكادينقلبمنه . قال الأصمعىّ رحمه الله : معناه مابهداء ، مأخوذ من القُلاب، وهو داء يصيب الإبل فى رءوسها فيقلبها إلى فوق. شِبهة : التباس وتغيّر . وسِمَه : صفاته. اللُّقيَة : المرّة الواحدة من اللقاء. وقال فى الدّرة[1] : العرب تقول : لقية ولقاءة ولقاية، إذا أردوا للمرّة الواحدة ، فإن أرادوا المصدر ، قالوا : لقيته لقاء ولَقًى ولُقِيًّا ، هذا وأنشد :

وإنّ لقاها فى المنام وغيره وإنْ لم تجد بالبَذْلِ عندى لرابحُ

وخطّأ من يقول : لقيته لقاءة واحده ، وأغفل أنّ سيبويه قال فى كتابه : أتيته إتيانة ، ولقيته لقاءة واحدة .

(١) درة الغواص ٩٣

والقوة : استرخاء اللحي وعوجه . مقامته : مجلسه الذي كدى به شَحَاقاه : فتحه قال جرير :

وُضِـع الخزير فقيل أين مجاشع فشحا جحافِلَه جُراف هَبْلَع[(١)]

الخزير، بنقط الخاء ثم زاى: دقيق يلبك بشحم ، وجراف الشيء سخونة. ألحاه : ألومه . يزجّي : يسوق . المزجى : القليل الخير ، وهذا كما قال : لبست الحميصة أبغى الخبيصة .فُلجت: أصبت بفالج. الرثاثة:سوء الحال. التفالج: استعمال الفالج ، وهو خَدَرُ يصيب الجسد. فلجاً : فوزا وظفرا. مَرْتع: موضع يَرْعى فيه. مُنْجَرِدَيْن: مُسْرعين، وانجرد الرجلُ فى سيره ، إذا جدّ فى الذهاب. أجردين: تامّين كاملين ، وسرتُ يوماً وشرًا وحولا أجرد ، وجريدًا أى تاما ، قال سُويد بن كراع :

وجَشّمني خوف ابن عفان ردّها فثقّفتُها حولاً جريدا ومَرْبعا[(٢)]

الشتّ : المفرّق .

---

(١) ديوانه ٣٤٥

(٢) الشعر والشعراء ٦١٧

المقامة الرابعة والثلاثون وتعرف بالزبيدية

أخبر الحارث بن همّام، قال: لمّا جبتُ البيدَ إلى زَبيد، صحبَني غلامٌ قد كنت رَبّيته إلى أن بلَغَ أشدَّهُ، وثقّفتُه حتّى أكملَ رُشْدَه.

وكان قد أنِسَ بأخلاقي، وخَبَرَ مجالبَ وِفاقي؛ فلم يكُنْ يتخطّى مرامِي، ولا يُخطِئُ في المرامِي؛ لا جرم أنّ قُربَهُ التاطتْ بِصَفرِي، وأخلصْتُه لحضَرِي وسَفَرِي، فألوَى به الدّهرُ المُبيدُ، حين ضمّتْنا زبيد.

* * *

جُبْت: قطعت. البيد: الصحارى.

زَبيد: بلدة باليمن بينها وبين صنعاء أربعون فرسخا، وليس فى اليمن بعد صنعاء أكبر منها، ولا أغنى من أهلها، ولا أكثر خيرا، واسعة البساتين، كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره، وهى برّية لا ساحلية.

وبلغ أشدّه: أى بلغ الحلم، وقيل ثلاثين سنة. قال الأزهريّ رحمه الله تعالى: الأشدّ فى كتاب الله تعالى على ثلاث معان: أما قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام ﴿ولمّا بلَغ أشدّه آتيناه حُكمًا وعلما﴾[1] فبلوغه مبلغ الرجال، وكذا فى اليتيم، حكمه أن يحفظ عليه ماله حتى يبلغ أشدّه، وبلوغه أشده أن يؤنس الرّشد منه مع أن يكون بالغا.

(١) سورة يوسف ٢٢

وأما قوله تعالى فى قصة موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ وَلَمَّا بلغ أشدَّه واستَوَى ﴾[1] فقرن بلوغ الأشد بالأستواء وهو أن تجتمع قوّته ، ويكتهل وذلك من ثمان وعشرين إلى ثلاث وثلاثين سنة ، وذلك منتهى الشباب . وأما قوله تعالى ﴿ حَتَّى إذَا بلَغَ أشدّه وبلغ أربعين سنة ﴾[2] فهى نهاية بلوغ الأشد ، وعندها بُعِث محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد اجتمعتْ حكمته وتمام عقله ، فبلوغ الأشدّ محصور البداية محصور النهاية مابين ذلك .

ثقفته : قوّمته وحَذَقته . خبر : أى جرّب وعَرَف . مجالب وفاق : أى عَرف من أين يُجلب مايوافقنى. يتخطّى: يتجاوز . مرامى : مرادى ومَقْصدى. لاجرم ، أى لامحالة ولابدّ ، ثم صارت بمعنى حقًّا . قُرْبة : ما يُتقرب به إلى من المبّرة . التاطت : لصقت . بصفَرى : بنفسى وقلبى ، والصَّفَر دود فى البطن ، إذا جاع الإنسان عضّت شراسِيفَه ، وهى رقيق البطن ، قال أعشى باهلة :

* ولا يَعضّ على شُرْسُوفِهِ الصَّفَرُ *[3]

فيريد أن هذا الغلام مهذّب يأتى بمحاولاته على الوفاق ، ويقرب الطعام من مولاه وقت الحاجة ، ومن حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنّ النبى صلى الله عليه وسلم قال : « نعمّا للمملوك أن يتوفّاه الله ، بحسن عبادة ربه،وطاعة سيّده نعما له » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا نصح العبد لسيده وأحسن عبادة ربّه فله أجران » .

أخلصته: أفردته . ألوى : ذهب به وأهلكه . المبيد : المهلك . وننشد هنا أبياتا لابن الحضرمى فى غلام هلك للمتوكّل ببطليوس :

غالته أيدى المنايا وكُنّ فى مقلتيْه

---

(١) سورة القصص ١٤ (٢) الأحقاف ١٥ (٣) الكامل ٤ : ٦٥ ، وصدره :

* لاَ يَغْمِزُ السَّاق من أيْنٍ ولا وَصَبٍ *

وكان يَسْقِى الندامى بطــرفه ويدَيْه
غُصن ذوَى وهلالٌ جاء الكسوفُ عاليه

ويُستحسن لابن همام أن ينشد فى وصف هذا الغلام :

حين تمَّت آدابُه وتردَّى بِرداء من الشَّباب جديدِ
وسقاه ماء الشبيبة فاهتــزّ اهتزاز الغصن النّدىّ الأملودِ
وسمت نحوه العيون وما كا نَ عليه لزائدٍ من مَزِيدِ
وكأنّى أدعوه وهو قريبٌ حين أدعوه من مكان بعيدِ

وأنشد بعضهم :

نأى آخر الأيام عنك حبيبٌ فللعين سَحٌّ دائم وغروب(١)
كأن لم يكن كالغصنِ فى مَنِيعة الضُّحى
سقاه النــدى فاهتزّ وهو رطيبُ
وريحان صدرى كانَ حين أشمُّهُ ومؤنس قَصْرِى كان حين أغيبُ
وكانت يدى ملآنة ثم أصبحتْ بحَمْد إلهى وهىَ منه سليبُ

* * *

فلمَّا شالتْ نعامتُه ، وسَكَنَتْ نأمتُــه ، بقيتُ عامًا ، لا أسيغَ طعامًا ، ولا أُرِيغُ غُلاَمًا ، حتَّى ألجأتنِي شوَائبُ الوَحْدَة ، ومَتَاعِبُ القَوْمَةِ والقَعْدَةِ ؛ إلى أَن أعتاضَ عن الدُّرّ الخرز ، وارتادَ مَنْ هُوَ سِدادٌ مِنْ عَوَزٍ ؛ فقصَدْتُ مَنْ يَبيع العبيدَ ، بِسُوقِ زَبِيد ، فقلتُ : أريدُ غلامًا يُعجبُ إذا قُلِّبَ ، وَيُحْمَدُ

---

(١) لإبراهيم بن المهدى يرثى ابنه ، وهى قصيدة وردت فى الكامل ٤ : ٢٣ ـ ٢٥ ، ومنها هذه الأبيات .

إِذَا جُرِّب ؛ ولْيَكُنْ مِمَّنْ خَرَّجَهُ الأكْيَاس ، وأَخرَجه إلى السُّوقِ الإفلاسُ ؛ فاهْتَزَّ كلٌّ مِنْهُمْ لِمَطْلَبِى وَوَثَب ، وبَذَل تَحْصِيلَهُ عَنْ كَثَب . ثمَّ دارت الأهِـلَّة دَوْرَهاَ ، وتقلَّبتْ حَوْرَها وكَوْرها ، وَماَ نجزَ من وَعُودِهِمْ وعْدٌ ، ولا سَحَّ لهاَ رَعْد .

فَلَمَّا رأيتُ النَّخَّاسِين ، ناسِينَ أو مُتَنَاسِينَ ، علمتُ أَنْ لَيْسَ كلُّ مَنْ خَلَق يَفْرِى ، وأَنْ لَنْ يَحُكَّ جِلْدِى مثلُ ظُفْرِى . فَرَفَضْتُ مَذْهبَ التَّفويض ، وبَرَزْت إلى السُّوق بالصُّفْر والبِيض .

* * *

شالت نعامته ، أى ارتفع نعشه . ويقال فى المصلوب : شالت نعامته ، أى ارتفعت خشبتُه ، وشالت نعامة القوم ، أى ولَّوْا منهزمين، وهو مثَلٌ يُضْرَب للانهزام وللهلاك والتفرّق . وأنشد الشاعر :

تلقى خصاصةَ بيننا أرماحُنا شالتْ نعامةُ أيِّنا لم يفعل

يخاطب أعداءه وقد وافقهم ، يقول: هلُم نلتقى فى الفُرْجة الّتى بيننا أرماحنا ، ونضرب بالسيوف ، هلك وانهزم مَنْ لم يفعلْ، يدعوعليه وينسب ذلك للنعامة ، لأنّ النعام موصوف بالسُّخف والرِّق والشراد . فإذا قالوا : شالت نعامتُهم ، وخفَّتْ نعامتهم ، ورَقّ رأيهم ، فمعناه إذا تركُوا مواضعهم بجلاء أو بموت . ويقال : أحمَقُ من نعامة ، لأنها تنشر للطعام ، فربما رأت بيضةَ نعامةٍ أخرى وحدها فتحضُنها ، وتنسى بيضَها ، ثم تجىء الأخرى فترى على بيضها غيرها ، فتمضى لوجهها ، وإياها عنى ابن هَرْمه بقوله :

كتاركة بيضها بالعراء وملبسةٍ بيض أخرى جَناحا[1]

قاله الجاحظ :

وأما أبو عبيدة فقال : عَنَى الحمامة . وقال ابنُ الاعرابىّ ، بيضة البلد التى سَار بها المثل هى بيضة النعامة التى تتركها فلا تهتدى إليها فتفسد فلا يقربها شيء . قال الراعى :

لو كنتَ من أحدٍ يُهْجَى هجوتكمُ
يا بنَ الرّقاع ولكن لستَ من أحدِ[2]
تأبَى قضاعة أن ترضَى لكمْ نسبًا[3]
وابنا نزار فأنتمْ بيضةُ البلدِ

قوله : نأمته ، أى حركته التى تنمو بحياته. وزعموا أنّ النّامّة بوزن العامّة، عِرْق اليافوخ . أسيغُ طعاما : استسهِلُ بَلْعَه . أريغ غلاما : أطلبه . السِّدَاد : اسم مايسدّ به الشيء ، مثل سِداد القارورة وهو صمامها ، وسِداد الفقر مايذهبه ويكتفى به من المال ، وسِداد الثّغر مايذهب خوفه من الخيل والرجال ، والسَّداد بالفتح : الإصابة فى المنطِق، وقال يعقوب: السِّداد والسَّداد بمعنًى واحد ، وسنعيد ذكره فى أخبار العرجى .

والعَوَز : فقد الشيء فإنه أراد عبدا يَسُدّ به فَقْد غلامه الميِّت . إذا قُلِّب أى إذا قلِبت خلقته وجدت كلّ جزء منها حسنا . خرّجه : حَذّقه وربّاه . الأكياس : أهل الفطنة والحذق . والإفلاس : الفقر . وثب : قفز وعجِل إلى

---

(١) ديوانه ٨٧ ، قال فى شرحه : « يضرب مثلا لمن ترك مايجب عليه الاهتمام به والجد فيه ، واشتغل بما لايلزمه » .
(٢) اللسان ــ بيض ، والبيت الثانى فى المضاف والمنسوب ٤٩٦ .
(٣) اللسان : « تأبى قضاعة لم تعرف لكم نسبا » .

المشى . بذل : أعطى ، تَحصِيله : وجوده وحصوله . كَثَبِ : قرب يريد أنه أعطى من نفسه القدرة على حصُوله فى أقرب مدة . دارت الأهلة دورها ، أى كملت الستة وكَمَلَت الأهلّة فيها بالطلوع . كَوْرها وحَوْرها : زيادتها ونقصانها ، وقد تقدّم الكَوْر والحوْر . نجز : حضر . سَحّ : أمطر .

النخّاسين : الدلاّلين للعبيد والدواب . ثعلب : أُخِذ من النَّخْس وهو الدفع ، فمعنى النّخاسين الذين يشترون العبيد ليدفعوهم إلى غيرهم . ليس كلُّ مَنْ خلَق يفرِى ، مثل، وخلق قدّر ، يقال: خلق الصانع الجلد ، إذا قدر مايقطع منه ، وقيل: الخَلْق:القَطْع،والفَرْى : القطع أيضاً ، ولكن تقديرا ، فمعنى المَثَل: ليس كلّ من قطع شيئاً قدّر مايقطع به ، ويفرِى أيضاً : يُحسن القطع على جهة الإصلاح . قال زهير :

ولأنْتَ تفرى ماخلقْتَ وبعـــضُ القوم يَخلُق ثم لا يَفرِى(1)

ويقال أيضاً : خلق الشىء صنّعه ، وفرَاه : أفسده ، وأراد ليس كلّ الناس يحسن شراء العبيد .

قوله : لايحك جِلْدى مثل ظفرى هو مثل يضربُ فى ترك الاتـكال على الناس ، قال الإمام الشافعىّ رضى الله عنه :

ماحكَّ جلدَكَ مثل ظُفْرِكْ فتولَّ أنتَ جميعَ أمْرِكْ

وإذا قَصَدْتَ لحاجةٍ فاقصد لمعترف بقَدْرِكْ

رفضت : تركت . التفويض : أن يتـكل الرجل على غيره ويسلِّم أمره إليه . الصُّفْر والبيض : الدّنانير والدراهم .

* * *

فإنِّى لأستَعْرِضُ الغِلمَانَ ، وأستَعْرِفُ الأثْمان ، إذْ عارَضنِي رجلٌ قد اختَطَمَ بِلثامٍ ، وقبَضَ عَلَى زَنْدِ غُلام ، وقال :

(1) ديوانه ٩٤

مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي غُلامًا صَنَعاً
في خَلْقِهِ وَخُلْقِهِ قَدْ بَرَعــــا
بِـكلِّ ما نُطْتَ به مُضْطَلِعــا
يَشفيك إن قال وإن قلتَ وعَى
وإن تُصِبْكَ عَثرةٌ يقُـــلْ لَعا
وإن تَسُمْهُ السَّعْيَ في النـار سَعَى
وإن تُصاحِبْهُ ولَوْ يومًا رَعَى وإن تُقنِّعْهُ بِطِلْفٍ قَنِعا
وهو على الـكَيْسِ الذى قَدْ جَمَعا
ما فاه قـــطُّ كاذِبًا ولا ادَّعَى
ولا أجابَ مطمَعًا حين دعا ولا استجاز نَثَّ سِرٍّ أُودِعَا
وطَالَمَا أَبْدَعَ فيما صَنَعـاَ وفاق في النثر وفي النَّظمِ مَعا
واللهِ لوضَنْكُ عَيْشٍ صَدَّعاَ وصِبْيَةٌ أَضحَوْا عُراةً جُوَّعا
* ما بعتُه بمُلكِ كِسْرَى أجمعاً *

قال: فلمَّا تأمّلتُ خَلْقَهُ القويم، وحُسْنَهُ الصَّميم، خِلتُه مِنْ وِلْدَانِ جَنَّـةِ النَّعيم، وقُلتُ: ما هذا بشراً إنْ هذا إلاَّ مَلَكٌ كريم.

° ° °

أستعرض: أطلب أن يُعرَض عليّ، وعارضني: قابلني. أستَعرِف: أطلب معرفته. اختطَم: جعَل اللثام على طرف الأنف ـ وهو الخطْم والخُرطوم للسباع ـ واللثام: ما كان على الأنف من النقاب. والزَّنْد: طرف عظم الساعد المتّصل

بالكفّ ، فهو قد قبض على أرقّ موضع فى الذّراع . الصّنَع : الحاذق بالصناعة ، والمرأة صَنَاع . برع : فَضَل وفاق غيره . نُطْتَ : عَلِقت . مضطاما : مكتفيا قويًّا عليه . وعى : حفظ . لعًا ، كلمة تقال للعاثر – يعنى : أقال الله عثرتك ، وسلّمك الله – تَسُمْه السّعى : تكلّفه المشى . رَعى : حفِظ الصحبة . الظِّلْف للشاة بمنزلة الحافر للدّابة . الكَيِّس الحاذق . فاه : تكلّم .

ثم قال : لم يدعه الطمع قطّ فأجابه . استجاز : استحلّ . نَثّ : نشر ، أبدع : أغرب وأتى بما لم يُسبَق إليه . ضَنْك : ضِيق . صَدْع : كسر ، وأنشدوا فى هذا المعنى :

وقد تُخرِجُ الحاجاتُ يا أمّ مالكٍ علائقَ من ربٍّ بهنّ ضَنينِ

خلْقه القويم : المعتدل القامة . الصميم : الخالِص ، وهو فعيل ، من صمّ الشىء إذا لم يكن فيه فُرْجة ولا خلَل . خِلْتُه : حسبته .

[ذكر الغلمان وأخبار عشّاقهم]

وننشد فى هذه المقامة فى الغلمان ماله سبب وتعلّق بذكر يوسف عليه السلام ، أو يكون الغُلام مملوكًا حتى يوافقَ غرَضَ المقامة .

كان شفيعٌ غلامُ المتوكل أحسنَ الفتيان وأظرفهم ، وكان المتوكلّ يُجَنّ به جنونا ، فأحبّ يوما أن ينادم حسين بن الضحاك ، وأن يرى ما بقىَ من شهوته – وكان قد أسنّ – فأحضره وسقاه حتى سَكِرَ ، وقال لشفيع : اسقه ، فسقاه وحيّاه بوردة ، وكانت على شفيع ثياب مورّدة . فمدّ حسين يده إلى ذراع شفيع ، فقال المتوكل : أتخمِش أخصّ خدمِى بحضرتى ، فكيف لو خلوْتَ به ! ما أحوجك إلى الأدب ! وكان قد غمز شفيعا على العبَث به ، فدعا بدواة فكتب :

وكالوردة الحمراء حيَّا بوردةٍ من الورد يمشى فى قَراطقَ كالوَرْدِ[1]

(١) ديوانه ٤٣ ، والأغانى ٧ : ١٧١ ، وفيه : « وكالدرة البيضاء حيا بعنبر » .

له عبثات عند كل تحيّةٍ بكفّيه تستدعى الحليم إلى الوجدِ[١]
تمنّيت أن أُسْقَى بعينيه شَرْبةً تُذَ كّرنى ماقد نسيتُ من العهدِ
سقَى الله دهراً لم أبِتْ فيه ليلةً خليًا ولكن من حبيبٍ على وَعْدِ

ثم دفعها لشفيع فأعطاها المتوكل : فاستملَحها وقال : أحسنت والله ياحسين ! ولوكان شفيع ممّن تجوز هبته لوهبتُه لك؛ ولكن بحياتى ياشفيع إلاّ كنتَ ساقيَه بقيّة يومنا . وأمر له بمال كثير .

وكان لمعز الدولة غلام تركىّ ، وكان وضيء الوجه ، منهمكًا فى الشراب ، ولفرْط ميل مولاه إليه جعله رئيس سريّة جرّدها لحرب بنى حمدان ، وكان المهلبىّ[٢] يستظرفه ويستحسنه ، فقال :

ظبىٌ يُروق الماءُ فِى وجَنَاته ويروقُ عودُهْ[٣]
ويكادُ من شبَه العذا رى فيه أن تبدُو نهودُهْ
ناطوا بمعقِدِ خَصْرِهِ سيفًا ومِنطقة تئودُهْ[٤]
جعلوه قائدَ عسكرٍ ضاع الرّعيلُ ومَنْ يقودُهْ[٥]

فكانت الدائرة على جيش الغلام ، كما أشار إليه ، ولوغزاهم بالسّلاح الذى أمر به الببغاء غلاماً غازياً وهو :

يا غازياً أتت الأحزانُ غازيةً إلى فؤادىَ والأحشاء حين غزَا[٦]
إن بارزتْك رماةُ الرّوم فارمهمُ بسهم عينيْك تقتُلْ كلَّ مَنْ برزا

لكان الظافر الغالب .

وكان[٧] بديع غلام عمير[٩] المأمورىّ أحسن خلق الله وجهاً ، وكان

---

(١) الديوان : « بعينيه لستدعى الحلى » .
(٢) هو الحسن بن محمد ، من ولد قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة . له ترجمة فى اليتيمة ٢ : ١٠٢
(٣) اليتيمة ٢ : ٢٠٣ ، وفيها : « يرق » (٤) يئوده أى يثقله .
(٥) الرعيل : الجيش (٦) يتيمة الدهر ١ : ٢٢٤ .
(٧) الخبر والشعر فى الأغانى ٢٠ : ٥٦ ـ ساسى ، ومختار الأغانى ٧ : ٢٨٧ .
(٩) فى المختار : « عمر » .

الوزير ابن الزّيات مفتوناً به ، فاجتاز عليه راكباً بآلة الحرب ، فقال فيه :

راحَ علينا راكباً طِرْفَهُ أغيدُ مثل الرّشأ الآنسِ
قد لبسَ القرطقَ واستمسكتْ كفّاه من ذِى بَدَنٍ مائسِ
وقُلِّدَ السيف على غُنْجِهِ كأنه فى وقعةِ الدّاحِسِ
أقول لمّا أن بدا مقبلاً : ياليتنى فارسُ ذا الفارِسِ !

وقال ابنُ الزقاق :

ومهنّدٍ عَضْبٍ براحةِ أغيَدٍ فى جفنه عضبٌ يَقُدُّ مفاصِلِى[١]
يسطو بذاك وذا فيغدُو قِرْنُهُ بهما صريعَ لواحظٍ ومناصِلِ
ماضٍ كلا السّيْفين لـكنْ لحظُه أمضى وإلاّ فاسألنْ مَقَاتِلِى

وكان لأبى عيسى بن الرشيد غلام اسمه يُسْر[٢] ، وكان آيةً فى الجمال ، وكان صالح أخوه يتعشّقه ، فبلغت لأبى عيسى قصةٌ جرت بينهما ، فحجبه ومنعه أن يخرج من داره إلا بمحافظ ، وكاد حسين بن الضحاك يموت فيه عِشْقاً ، فقال فيه :

ظنّ من لا كان ظَنًّا بحبيبى فحمَاهُ[٣]
أرصَد البابَ رقيبيْـ ـن له فاكتنفاهُ
فإذا ما اشتاق قربى ولقائِى منَعاهُ
جعل الله رقيبيـ ـهِ من السّوء فِدَاهُ

وقال فيه :

إنّ مَنْ لا يرى وليس لا يرانِى نُصْبَ عينى ممثَّلٌ بالأمانِى[٤]

(١) ملحق ديوانه : ٢٩٧ .
(٢) الخبر والشعر فى الأغانى ٧ : ٢٢٠ ، وديوانه ١٢١ ، وفى ط : « بشير » .
(٣) الأغاني ٧ : ١٨٧ ، ديوانه ١١٢
(٤) الأغاني ٧ : ١٩٢ ، ديوانه ١٢٢ .

بأبى مَنْ ضميرُه وضميرِى أبدا بالمغيب يَنْتجِيانِ

نحن شخصانِ إن نظرتَ وروحَا ن إذا ما اختبرت ممتزجانِ

فإذا ما هممت بالأمر أو همّ بشىء بَدَأْتَه وبدَانِى

كان وِفقًا ما كان منه ومنِّى فكأنِّى حكيته وحكانِى

خطراتُ النفوس منّا سواء وسواء تحرُّك الأبدانِ

وجاءه يوما فتحدّث معه، فأشار لتقبيله، فقال له بشير: إياك والتعرّض لى وانجُ بنفسك، وكانت فيه عَرْبدة، فقال فيه حسين:

أيها النفّاث فى العُقَدِ أنا مطوىٌّ على الكَمَدِ

إنما زخرفْتَ لى خُدَعًا قدحَتْ فى الرّوح والجسدِ

ما لِأُنسٍ كان مبتذَلاً منك لى بالأمسِ لم يعُدِ(1)

يوم تعطينى وتأخذُها دونَ نَدْمانى يدًا بِيَدِ

ذاك يومٌ كان حاسدُنا فيه معذورًا على الحسَدِ

* * *

ثمّ استنطقتُه عن اسمِهِ، لا لِرغبَةٍ فى عِلْمِهِ؛ بل لأنظُرَ أيْنَ فَصَاحتُه من صَبَاحَتِهِ، وكَيْفَ لَهْجَتُهُ مِنْ بَهْجَتِهِ؛ فلمْ يَنْطِقْ بحُلْوةٍ ولا مُرَّةٍ، ولا فَاهَ فَوْهةَ ابنِ أَمَةٍ ولا حُرَّةٍ. فضربتُ عَنْهُ صفحًا، وقلتُ له: قُبْحًا لِمِيِّك وشُقْحا، ففارَ فى الضحْكِ

(١) ديوانه ٤٨ الأغانى ٧ : ١٩٢، وبعده فى الأغانى والديوان:

هاتِ يا خُدَّاعُ واحِدَةً من كثيرٍ قُلْتَه وقَدِى

ليتَ شِعرى بعد حَلْفِك لِى بوفاء العهْدِ بعد غدِ

ما الذى بالله صَيّره بعد قُرْبٍ فى مدى الأبدِ

وأنجد ، ثمَّ أنغض رأسَهُ إلَيّ وأنشد :

يا مَنْ تلهّبَ غيظـهُ إذْ لم أبُحْ
باسْمِي له ، ما هكذَا مَنْ يُنْصِفُ

إنْ كانَ لا يُرْضيكَ إلاَّ كَشْفُهُ
فأصِـخْ لَهُ ، أنَا يوسُفُ أنا يوسفُ

ولَقدْ كشفتُ لكَ الغِطاءَ فإن تـكُنْ
فَطِنًا عَرَفْتَ وما إخالُكَ تعرِفُ

قال : فسرَّى عَنّي بشِعْرِه ، واستبَى لُبِّي بسِحْرِه ؛ حتَّى شُدِهْتُ عن التحقيق ، وأُنْسيتُ قِصَّةَ يوسفَ الصِّدِّيق ؛ ولم يَكُنْ لِي همٌّ إلاَّ مساومَةَ مَوْلاَه فيه ، واستطْلاَعَ طِلْعَ الثَّمَنِ لأُوَفّيه . وكنتُ أَحسِبُ أنَّهُ سيَنْظُرُ شَزْرًا إلىّ ، ويُغْلِي السِّيمةَ عَلَيّ ؛ فمَا حَاقَ إلىّ حيثُ حَلّقْتُ ، ولا اعْتَلَقَ بما به اعْتَلَقْتُ ؛ بل قال : إنَّ الغلام إذا نَزُرَ ثمنه ، وخَفَّتْ مُؤَنُه ، تبرَّكَ بِهِ مولاه ، والْتَحفَ عَلَيْهِ هَواه ، وإنِّى لأوثِرُ تحبيبَ هَذَا الغلامِ إليك ، بأن أخفِّفَ ثمَنه عَلَيْك ، فزِنْ مائتى درهمٍ إن شيتَ ، واشكُرْ لى ما حبيتُ . فنَقَدتُه المَبْلَغَ فى الحال ، كما يُنقَدُ فى الرَّخيصِ الحلال ، ولم يَخْطرْ لى ببالٍ ، أنَّ كُلَّ مُرْخَصٍ غال .

* * *

قوله : استنطقته ، أى سألته أن ينطق . صَبَاحته : حُسْنه . لهجته : لفظه ، وأصلها طرف اللسان ، فكنى بها عن حلاوته . بهجته : حسنه ونضارته ،

وأصلها حسن اللون . لم ينطق بحلوةٍ ولا مرةٍ ، أى بكلمة جيدة ولا رديئة . فَاهَ : نطق . ضربتُ عنه : أعرضت عنه . صفحاً ، أى أوليته صفحةوجهى، وهى جانبه . شُقْحاً ، إتباع لقبح ، وقيل: هى من شَقَح البُسْر ، إذا تغيّرت خضرته بحمرة أو صفرة ، وهو أقبح ما يكون فى رأى العين ، وقيل : هو من شَقَحْتُ العود إذا كسرتَه ، وقال : هو من أشقاح الكلاب ، وهى أدبارها ، ويقال : قُبحا وشُقحا بضم أولهما وفتحه . غارَ : أتى الغوْر ، وهو المنخفض من الأرض. أنجد : أتى نجداً ، ومعناه بالغ فى الضحك وذهب فى جهاته . أنغض رأسه ، أى حرّكه ؛ كأنه يهدّد ويستخفّ به . تلهّب : اشتعل . أبُحْ : أتكلم . أصِخْ : استمع . أنا يوسف ، أى أنا حرّمثل يوسف صلوات الله عليه ، إذْ باعَه إخوته . سرّى عَنّى : أزال لومى استبى لبّى : أى تملّك عقلى بسِحْره وحلاوةِ كلامه . شُدِهت: تحيَّرت ، وهو مقلوب دهشت. التحقيق : التمييز ، وهذا كما قال الشاعر:

والله ما فتنتْ نفسى محاسنُه إلاّ وقد سحرتْ ألفاظُه أُذنى

ما تُصدِرُ العينُ عنه لحظةً مالاً كأنه كلّ شيء مرتَضًى حَسَنِ

استطلاع طلعه : استخبار خبره ، والسؤال عَنْ قدره . لأوَفِّيَه : لأعطيَه كاملًا وافياً . شزرًا : نظر فيه إعراض . السّيمة : السَّوْم ، وهو السؤال عن الثمن . ما حَلّق إلىَّ حيثُ حلقّتُ ، أى ما دار إلىَّ حيث دُرْت ، أى ما كان عنده شيء مما ظننتُ به من طلبه سوْماً غالياً . نَزُر:قلّ. مُؤَنه : لوازمه ومايحتاج إليه . تبرّك : رآه مباركا ، والبركة: الكثرة والسعة . التحف : انضمّ . هواه : حبّه . أوثر : أفضّل .

* * *

فَلَمَّا تحققَّتِ الصّفقة ، وحقّتِ الفُرْقه ، همَلتْ عَيْنَا الغلام، ولا هُمُولَ دَمْعِ الغمام ، ثم أقبل على صاحِه وقال بـ:

لحاكَ اللهُ هَلْ مثلى يباعُ ... لـكيما تشبعَ الكِرشُ الجياع
وهل فى شِرعَةِ الإنصافِ أَنِّى ... أُكَلَّفُ خُطَّةً لا تُستطاعُ
وأَنْ أُبْلَى بروْعٍ بعد روْعٍ ... ومِثلى حينَ يُبْلَى لا يُرَاعُ
أمَا جرَّبتَنِى فخَبرْتَ مِنِّى ... نَصَائحَ لم يمازجْهَا خِداعُ
وكم أرْصَدْتنِى شَرَكًا لصَيدٍ ... فمدتُ وفى حبائِلِى السِّبَاعُ
وَلُطْتَ بِى المصاعِبَ فاسْتَقَادتْ
مطاوِعةً وكان بِهاَ امتنـاعُ

* * *

تحقّقت الصفقة : تمّ البيع . هَمَلت : سالَتْ . الغَمام : السحاب لحاه الله : لعنه وأبعده ، ولحيت الرجل: لمتُه ، وأصله منلحوْت العود ألحوه ولحيته ألحاه ، إذا قشرته ، وأنشد ابن الأعرابىّ فى نوادره :

لَحَوْتُ شَمّاساً كما تُلحَى العصـا ... سبًّا لو انّ السبّ يُدْمِى لَدَمِى(١)

ويقال : لاحَاه ملاحاة ولحاً ، أصلها المبالغة ، ثم كثرت حتى جُعلت كلّ ممانعة ومدافعة ملاحاة . الـكِرش : العيال ، وكرش الرجل عيالُهُ وصغار ولده ، ويقال فى المعيل : عليه كِرش منثورة ، وإذا أكثرت المرأة أولادَها قيل: نثرتَ كَرِشَها ، وقد قدّم أن صبيته جوّع . الشِّرعة : الطريق . والخطّة ، مثل القصة : الأمر يقع بين القوم . أبلَى : أمتحَن . الرّوع : الفزع ، لأنه يصيب الرّوْع وهو القلب . يمازجها : يخالطها . أرصدتنى : جعلتنى رصداً ، والرصد : مَنْ يرقبك وأنت لا تعلم فإذا جئتَه هجم عليك . والشَّرَك : آلة الصيد . حبائلى : شبا كى نطت : علقت . المصاعب : الأمور الشاقّة . استقادت: انقادت .

---

(١) البيت فى اللسان ـ لحا . وفى ط : لحيت » وما أثبته من اللسان .

وأيُّ كريهةٍ لمْ أُبْلِ فيها ... وغُنْمٍ لم يكُنْ لِي فيه باعُ
وما أبْدَتْ لِيَ الأيامُ جُرْمًا ... فيُكْشفَ فى مصارَمتِي القناعُ
ولم تمتر - بحمد الله - مِنِّى ... على عَيبٍ يُكَتَّمُ أو يُذَاعُ
فأَنَّى ساغَ عِندكَ نبذُ عَهْدِى ... كما نَبذتْ بُرايتَها الصُّناعُ
ولِمْ سَمَحَتْ قرونُكَ بامتهانِى ... وأنْ أُشْرَى كما يُشْرَى المتاعُ
وهَلاَّ صُنْتَ عِرْضِى عنه صَوْنِى ... حَدِيثَكَ يوم جَدَّ بِنَا الْوَدَاعُ
وقلت لمن يُسَاوِمَ فىّ هذا ... سَكَابِ فما يُعارُ ولا يباعُ
فما أَنا دُونَ ذاكَ الطِّرفَ لـكِنْ ... طباعُكَ فوقَهاَ تِلْكَ الطِّبَاعُ
على أنِّى سأُنشِدُ حين بَيْعِى ... أضاعُونِي وأىّ فتًى أضاعُوا

* * *

أبل: أبالغ وأجهد نفسى فيه. غُنْم: غنيمة. جُرْم: ذنب. مصارمتى: مقاطعتى، وكشفت فى الأمر القناع، إذا جاهدت فيه وبالغت. تمتّر: تطلع: يكتّم: يستر. يذاع: يفشى و« بحمد الله » فى البيت، وقعتْ اعتراضا بين العامل والمعمول، كما وقعت فى التاسعة والأربعين اعتراضاً بين المبتدأ وخبره فى قوله: « وأنت - بحمد الله - ولىّ عهدى » وتعلقها بمحذوف تقديره: أبتدئ بحمد الله، أو أفتتح بحمد الله الذى خلّصنى من عيب يُعثر لى عليه، أو الذى جعلك ولىّ عهدى، ومنه: سبحان الله وبحمده، معناه أنزّه الله وابتدئ بحمده، أو أفتتح بحمده، ودخلت الواو هنا لغير معنى العطف، ألا ترى أنك لو قلت: سبحان الله وحمده، لـكان المعنى:

أسبحه تسبيحًا وأحمده حمدًا ، هكذا يقتضى ماجاء من المصادر منصوبًا فى هذا الباب ، وفى قولنا : وبحمده لا يكون المعنى ماتقدم فى المنصوب ، ولكن الباء آذنت بمعنى ابتدأت ، أو أبدأ بحمد الله ، كأنك قلت : حمدت الله على إلهامه إياىَ تسبيحه ، وتأمّل قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُون بحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ .

قوله ساغ : أى سهل . نبذ : ترك . البُراية : مايتساقط من العود إذا نُجِر ، ومن القلم إذا بُرِى ، وكذا يأتى فى مثل البُرَادة والنُّحاتة ونحوها . الصَّنَاع : الحاذقة بالصَّنعة ، والرجل صَنَع بغير ألف . قَرونك : نفسه . سمحتْ : جادت. أشرَى : أُباع . عنه ، أى عن البيع . صونى حديثك ، أى صيانتى للحديث الذى أحدَثت من بيعى وأنا حرّ . يوم جَدّ بنَا الوداع ، أى فى هذه الساعة التى تريد أن تودّعنى فيها . سكَابِ : اسم فرس لرجل من العرب من بنى تميم ، سأله بعض الملوك أن يبيعَها منه ، فأبى عليه وقال :

أبيتَ اللعن إن سَكَابِ عِلْقٌ ... كريمٌ لا يُعَـار ولا يباعُ[1]
مفَـدّاة مكرّمـة علينـا ... يُجاع لهـا العِيال ولانجاعُ

الطِّرف : الفرس الكريم ، يقول : لست أنا دون الفرس ، لكن طباع مالكه أفضل من طباعك ، حيث كان يجيع عياله ويشبعه ، ولم يهنه بالبيع كما أهنتَنى به .

[ذكر العرْجى وإيراد بعض شعره]

وعَجُز البيت الأخير صدر بيت لعبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان رضى الله عنهم ، وهو العرْجِىّ ، سُمِّىَ بذلك لأنه وُلد بالعَرْج[2] من مكة ، وقيل : بل كان له بها مال ، وكان يُكثر الاختلافَ إليه ، فنُسب إليه . يكنى أباعمرو ، وهو شاعر

(١) البيت الأول فى اللسان ، والصحاح وتاج العروس ــ سكب .
(٢) ياقوت : العرج : قرية جامعة فى واد من نواحى الطائف .

مطبوع بالغزل مجيد ويشبّه فى غزله ومقصده بعمر بن أبى ربيعة ، وكان يهوى جيداء أم إبراهيم بن هشام المخزومى، ولها يقول :

أبصرتُ وجهاً لها فى جيده تلعٌ ... تحتَ العقود وفى القُرْطين تشهير[1]

وجهٌ تحيّر فيه الماء فى بشَرٍ ... صافٍ له حين أبدته لنا نورُ

ولها يقول :

إلى جَيْداء قد بعثوا رسولاً ... ليخبرَها فلاَ صَحِبَ الرّسولُ[2]

كأنّ العام ليس بعام حجٍّ ... تغيّرت المواسمُ والشُّكُولُ

ولها يقول :

عوجى علينا ربّةَ الهودَجِ ... إنك إن لا تَفْعلى تحرَجِى[3]

فالحجّ إن حَجّتْ وماذا منًى ... وأهله إنْ هى لم تحجج !

فما استطاعت غير أن أومأتْ ... نحوى بعينىْ شادنٍ أدْعَجِ

وقال أيضاً :

باتَا بأنعم ليلةٍ حتّى بَدَا ... صبح يلوّح كالأغرِّ الأشقرِ[4]

فتلازَما عند الفراق صبابةً ... أَخْذَ الغريم بفضل ثوب المعسرِ

فلمّا شاع نسيبُه بها قبض عليه ابنها محمد عند ولايته الحجاز ، بسبب طَلِبة عليه ، فضربه بالسياط وألقى الزّيتَ على رأسه ، وأوقفه للناس فى الشمس ، حتى غُشِىَ عليه ، وسجنه بضع سنين حتى مات فى سجنه ، فقال فى السجن :

أضاعونى وأىَّ فَتًى أضاعُوا ... ليوم كريهةٍ وسِدادِ ثغرِ[5]

---

(١) ديوانه ١٠٥ ، وفيه : « تشمير » .

(٢) ديوانه ١٩٠ ، الأغانى ١ : ٣٩٧ ، وفيه: « ليحزنها »

(٣) ديوانه ١٧ ، الأغانى ١ : ٤٠٧ .

(٤) الأغانى ١ : ٣٩٧ ، الديوان ١٧٨

(٥) الأغانى ١ : ٤١٣ ، ديوانه ٣٤٥

وخَلّوْنى ومعتَرَكَ المنـايا وقد شرعتْ أسنَّتُهم لنحرِى
كأنِّى لم أكنْ فيهم وسيطاً ولم تكُ نسبتى فى آل عمرو
أُجَرَّر فى الجامع كلَّ يوم فيـاللّه مظلمِتى وقَسْرِى !
عسىَ الملك المجيب لمن دعاه ينجيِّنى ويعـلم كيف شكرى
فأجزِى بالـكرامة أهلَ ودِّى وأجزِى بالعَداوة أهل وِترى

فلما أفضت الخلافة إلى الوليدبن يزيد بن عبدالملك ، قبض على محمد بن هشام وأخيه إبراهيم ودعا لهما بالسّياط ، فقال له محمد : أسألك بالقرابة! قال: وأىّ قرابة بينى وبينك ؟ قال : فاسألك بصهر عبد الملك ! فقال : لم تحفظه ، فقال : يا أميرَ المؤمنين إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يُضْرب قرشِىٌّ إلا فى حدّ ،فقال: ففى حدّ أضربُك وقودٍ ، قال :وماذاك ؟ قال : أنت أوّل من سَنَّ ذلك على العَرْجى وهوابن عمى وابن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، فما رعيت [حَقّ][1] جَدّه ولا نسبَه بهشام من قِبَل أمِّه ، اضربْهما[2] ياغلامُ ، فضربهما ضرباً مبرِّحًا ، وأثقلا بالحديد ووجّهبهما إلى يوسف بن عمر ، وأمره بتعذ يبهما ، فضربهما حتى ماتا .

وغنى إسحاق الموصلى الرشيدَ قوله :

* أضاعونى وأىَّ فتى أضاعوا *

فسأل عن سبب هذا الشعر ، فأخبره بحديث العرْجى، قال إسحاق : فرأيته يتغيّظ ، فلما أخبرته بما فُعل بابنىْ هشام ، جعل وجهه يُسفر وغيظه يسكن ، ثم قال: ياإسحاق ، لولا ماحدّثتنى به من فعل الوليد ،لما تركت أحداً من أمائل[3] بنى مخزوم إلا قتلتُه بالعرْجىّ .

ومن جيدّ شعر العَرْجى :

فهل أنت آتٍ أهل ليلى فناظرٌ لذنب جفونى، أم جفونى تجرّمَا[4]

(١) من الأغانى (٢) الأغانى : « اضرب ياغلام »
(٣) كذا فى الأغانى ، وفى ط : « أمثال » (٤) ديوانه ٣٦ ، وفيه : « تمرما » .

فإن يكُ من ذنبٍ(١) ففى ذاك حكمهم — وحسب امرئ فى حقه(٢) أن يحكّما
كمثلِ شهاب النار فى كف قابسٍ(٣) — إذا الريح هبّتْ وهو كابٍ أضرما

ومن جيده :

أخبرتُ أنكِ قلتِ نقتله — لا تفعلنّ ، فدتكمُ نفسى(٤)
والله لا آتى لكم سَخَطًا — حتى أغيّب فى ثَرَى رمسى
والله لا أنسى تطوّفها — تهتز بين كواعب خمس
كالبدر صورتها إذا انتقبت — وإذا سفَرت فأنت كالشمس

ومنه :

حُورٌ بعثنَ رسولاً فى ملاطفة — ثَبْتًا إذا أسقط النسّاءةُ الوَهِمُ(٥)
فجئت أمشى على هولٍ أجشّمه — تجشّمُ المرء هَوْلاً فى الهوى كَرَمُ
أمشى كما حرّكتْ ريحٌ يمانيةٌ — غصناً من البانِ رطباً طَلّهُ الرِّهَمُ(٦)
حتى جلستُ إزاءَ البيْتِ مكتتِمًا(٧) — وطالبُ الحاج تحت الليل يكتتم
فبت أُسقَى بأكواسٍ أعلُّ بها — من باردٍ طاب منه الطعم والنَّسَمُ

وفى معنى قوله : أمشى كما حرّكت . . البيت يقول ابن دعبل :

قالتْ لقد أعييتنا حُجّةً — فأتِ إذا ماهجَعَ السّامِرُ(٨)

---

(١) الديوان : « فى ذنبى » .
(٢) الديوان : فى « حقنا » .
(٣) كذا فى الديوان ، وفى ط : « فارس » (٤) ديوانه ١٤٨ وفيه : قلت : نهجره .
(٥) ديوانه ٢ ، وفيه : « ثقفا »
(٦) الديوان : « طله الرهم » . والرهم . المطر الخفيف .
(٧) الديوان :

* لما بلغتُ إزاء البابِ مكتتما *

(٨) كذا فى الأصول ، والبيت الثانى ينسب إلى عمر بن أبى ربيعة ، ملحق ديوانه ٤٩٥

واسقُطْ علينا كسُقوط النَّدَى ليـلة لاناهٍ ولا آمرُ

وقال الواثق :

قالت إذا الليل دَجَا فأتِنا فجئتُهـا حين دجا الليلُ
خفّى وطء الرِّجل من حارسٍ ولو دنا حـلّ به الويْلُ

ومن ظَرْف العرجىّ ، أنه وعدهوىله أن تزوره فى منتزهٍ ، فجاءته على أتان ومعها جارية لها ، وجاء العرْجىّ على عَيْرٍ ومعه غلام ، فواقعها العرجىّ ، ثم خرج فرأى الغلام يواقع الجارية والعَير على الأتان ، فلما نظر الحال قال : هذا يوم غاب عُذّاله .

* * *

[فصل فى التضمين]

ويسمَّى أخذ الحريرىّ شطر بيت العرْجىّ التّضمين ، وليس بسرقة .
والتّضمينُ يكون فى بيت وفى شطر بيت ، والشُّعراء تتولّع به كثيراً ، وهو من صنعة البديع ، فمن الثانى قول الأخطل :

واقدْ سما للخرّمىّ فلم تقلْ بعد الوغى لـكن تضايقَ مقدَمِى(١)

ومثله قول الآخر :

وجُزْتُ عـلى باب الأميرِ كأننى
قفا نَبْكِ من ذِكْرى حبيب ومَنْزِلِ

ومن تضمين بيت بكماله قول الحسن بن هانىّ :

إنّى عجبت وفى الأيام معتبرٌ والدّهر يأتى بألوان الأعاجيبِ

(١) البيت فى العمْدة ٢ : ٧٨ والبديع لابن المعتز ١١٤ ، ونسبه إلى الأخيطل ، ولم أجده في ديوان الأخطل .

من صاحبٍ كان دنياى وآخرتى عدًا علىّ جهارًا عَدْوَةَ الذّيبِ
قد كان لى مثلٌ لو كنتُ أعقِلُه من رأى غالب أمرٍ غير مغلوبِ
لاتَمْدَحنّ امرأً حتى تجرِّبَهُ ولا تذمّنّه من غير تجريبِ

فضمّن هذا البيت .

قال ابن حجاج :

قد قلت لما أنْ رجعتُ مُوَلِّيًا ومعِى مدَابيرٌ من الكُتّابِ[1]
نحن الذّين لهم يقال وكلّنا فَلّ العصا وطريدة الحجاب
قومٌ إذا قصدوا الملوك لمطالبٍ نُتِفتْ شواربُهمْ على الأبواب

وقال ابن رشيق : سألنى بعض أصحابى أن أضمّن له قول الشاعر :

فإن فخرتَ بآباء لهمْ شرفٌ قلنا صدقت،ولكن بئسَ ماوَلَدُوا[2]

ولا أزيد على بيت واحد ، فقلت :

أصبحت من جملة الأشراف إن ذُكِرُوا
كواحد الآس لايزكُو له عــدَدُ

والتضمين كثير .

* * *

[خبر النضر بن شميل مع المأمون]

وعلى بيت العرْجىّ :

* أضاعونى وأىّ فتًى أضاعوا *

حديث النضر بن شميل،قال:[3] كنتُ أدخل على المأمون فى سَمَرِه فدخلتُ

(١) يتيمة الدهر ٣ : ٧٩ . (٢) التتف ٢٤
(٣) نزهة الألباء ٨٥ ـ ٨٧ ، درة الغواص ٦٤ معجم الأدباء ١٩ : ٢٢٩

ذات ليلةٍ وعليّ أطمار أخلاق ، فقال : يانَضْر ، ماهذا التقشّف ! تدخل على أمير المؤمنين فى هذه الُخلقان ؟ فقلت : أنا شيْخٌ ضعيف ، وحَرّ مَرْوَ شديد ، فأتبرد بهذه الُخلْقان ، قال : لا ، ولكنك قشِف ، فيُحمَل منك هذا على التقشف . ثم أجرينا الحديث ، فقال : حدّثنا هشيم ، عن مجاهد ، عن الشعبيّ عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا تزوج الرجل المرأةَ لدينها ولجمالها وكمالها ، كان فيها سَدادٌ من عَوَز » فأورده بفتح السين ، قلتُ : يا أمير المؤمنين ، حدّثنا عوف بن أبى جَميلة الأعرابيّ ، عن الحسن عن عليّ بن أبى طالب رضوان الله عليهما ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا تزوج الرّجل المرأة لدينها ولجمالها وكمالها كان فيها سِدادٌ من عوز » ، وكان المأمون متكئا فاستوى جالسا ، وقال : كيف قلت يانضر «سِداد » ؟ قلت: سِداد لأنّ « السَّداد» هنا لحن، قال: أو تلحّننى ! قلت: إنما لحنَ هشيم ـ وكان لحّانة ـ فتبع أمير المؤمنين لفظَه ، فقال: فما الفرق بين السَّداد والسِّداد؟ قلت : السَّداد القصد فى الدين والسبيل والسِّداد بالكسرْ البلغة فى الشىء ، وكلّ ماسددتَ به شيئا فهو سِداد ، قال : أو تعرف العرب ذلك ؟ قلت : نعم هذا العرْجى من ولد عثمان ، يقول :

أضاعونى وأىّ فتى أضاعوا ليوم كريهةٍ وسِداد ثغرِ

ثم أطرق مليًّا ، وقال: قبح الله من لا أدب له ! ثم تجارينا الحديث ، فقال: كيف روايتك للشعر؟ قلت: قد رويت الكثير منه ، قال: فأنشدنى أحسنَ ماقالته العرب فى الحِلْم فأنشدته :

إذا كانَ دُونى مَنْ بُليتُ بجهلِه
أبيْتُ لنفسى أنْ أقابل بالجهلِ

وإن كان مثلى فى محلٍ من العلا هويت إذاً حلمًا وصفحًا عن المِثْلِ

وإن كنتُ أدنى منه فى الفَضْل والحِجا رأيتُ له حقّ التّقــدّم والفضلِ

فقال : ما أحسن ما قال ! فأنشدْنى أحسن ما قالته العرب فى الحزم »
فأنشدته :

على كلّ حالٍ فاجعل الحزم عُدّة لِمَا أنت باغيه وعونًا على الدّهرِ
فإن نلتَ أمرًا نِلتَه عن عزيمةٍ وإن قصّرت عنه الحقوق فمن عُذْرِ

قال : فما أحسن ما قال ! فأنشِدْنى أحسنَ ما قالته العرب فى إصلاح العدوّ
حتى يكون صديقًا ، فأنشَدته :

وذِى غيلة ســاءلتُه فقهرتُهُ فأوقرته منّى بعيب التحمّلِ
ومَنْ لا يدافع سيئات عــدوّه بإحسانه لم يأخذ الطّول من عَلِ
ولم أر فى الأشياء أسرعَ مهلكًا لضغنٍ قديمٍ مِنْ ودادٍ معجّلِ

فقال : ما أحسن ما قال ! فأنشدنى أحسن ما قالته العرب فى السّكوت
فأنشدته :

إنى ليهجرُنى الصديق تجنّبًا فأريه أن لهجره أسبابا
وأراه إن عاتبته أغريْتُه فيكون تركى للعتاب عتابا
وإذا بليتُ بجاهلٍ متحكّمٍ يجد المحال من الأمور صَوابا
أوليتُه منّى السكوتَ وربّما كان السكوت عن الجواب جوابا

فقال: ما أحسن ما قال! ثم قال: ما مالُك يا نضر ؟ قلت: أريضَةٌ بمرو الرّوذ أتَصابّها[1] وأتمزّزها ، قال : أفلا نفيدك مالاً معها ؟ قلت : إن رأى ذلك أمير المؤمنين ، فإنى لذلك لمحتاج .

فأخذ القرطاس وكتب وأنا لا أدرى ما يكتب ، ثم قال : كيف تأمر إذا

(١) اتصابها ، أى أشرب صبابتها .

أردت أن تُترب الكتاب، قلت : يا غلام أَتْرِب الكتاب ، قال : فهو ماذا ؟ قلت : متَرَّب ، قال : فمن السَّحاة ، قلت : يا غلام اسحُ الكتاب ، قال : فهو ماذا ؟ قلت: مسحَّى[1] ، قال : فمن الطين ، قلت: يا غلام طِنِ الكتاب ، قال : فهو ماذا ؟ قلت :مَطين ومُطان ، فقال: هذه أحسن من الأولى ، ثم قال: ياغلام أتربه واسحه وطِنْه . ثم صلّى بنا العشاء، ثم قال لغلامه: امض معه إلى الفضل بن سهل بهذا الكتاب ، فلمّا قرأه قال : بمَ استأهلت أن يأمر لك أمير المؤمنين بخمسين ألف درهم ؟ وما سبب ذلك؟ فأخبرته الحديثَ على جهته ، فقال : لحّنتَ أميرَ المؤمنين ، فقلت: كلاّ إنما لحن هشيم — وكان لَحَّانة — فتبع أميرُ المؤمنين ألفاظه ، وقد تتبع ألفاظ الفقهاء ورواة الأخبار . فعجّل لي ما فى الكتاب ، وأمر لى من عنده بأربعين ألف درهم ، فانصرفت بتسعين ألف درهم بحرف استفاده منى .

وهذا الخبر جاء فى أخبار النحويين . وذكره الحريرى فى درّة الغواص بأخصر مما ذكرناه ، ثم قال بإثر الخبر : وقد أذكرنى هذا المثل أبياتا أنشدنيها أحد أشياخى رحمهم الله لأبى الهيذام :

لى صديق هو عندى عَوَزْ ... من سداد لا سِداد مِنْ عَوَزْ
وجهه يذكّرنى دار البلى ... كلمَّا أقبل نحوى وضَمَزْ[2]
وإذا جالسنى جرّعنى ... غُصص الموت بكَرْبٍ وعَلَزْ[3]
يصف الودّ إذا شاهدنى ... وإذا غاب وشَى بى وهَمَزْ
كحمار السّوء يبدى مرحاً ... فإذا سيق إلى الحمْل غَمَزْ
ليتنى أعطِيتُ منه بدلاً ... بنصيبى شرّ أولاد المَعِزْ

---

(١) مجالس العلماء : و « مسحو » .

(٢) ضمز : سكت ولم يتكلم .

(٣) العلز : محركة : القلق والهلع .

قــد رضينا بيضةَ فاسدةً عِوَضاً منه إذ البيع نَجَزْ

* * *

[حكاية أبي حنيفة والإسكاف]

وكان لأبي حنيفة رحمه الله جارٌ إسكاف بالكوفة، يعمل نهاره أجمع، فإذا أجنّه الليل رجع إلى منزله بالخمر ولحم أو سمك، فيطبخ اللحم أو يشوي السمك، حتى إذا دبّ الشراب فيه رفع عقيرَته يُنشد:

أضاعُوني وأيّ فتى أضاعُوا ليوم كريهة وسِدَاد ثَغْرِ

فلا يزال يشرب ويردّد هذا البيت، حتى يغلبَه النوم.

وكان أبو حنيفة رحمه الله يصلِّي الليل كلّه، ويسمع جلبته وإنشاده، ففقد صوته ليالي، فسأل عنه فقيل له: أخذه العسس منذ ثلاث ليال، وهو محبوس، فصلّى الفجر وركب بغلته، ومشى فاستأذن على الأمير، فقال: ائذنوا له، وأقبِلوا به راكباً، ولا تدَعوه ينزل حتى يطأ البساط، ففُعِل به ذلك، فوسَّع له الأمير مجلسَه، وقال له: ما حاجتك؟ فقال: لي جارٌ إسكاف أخذه العسس منذ ثلاث ليال، فتأمر بتخليَته؟ فقال: نعم، وكلّ مَنْ أخِذَ من تلك الليلة إلى يومنا هذا، ثم أمر بتخليتهم أجمعين. فركب أبو حنيفة وتبعه جاره الإسكاف، فلما أوصله داره، قال له أبو حنيفة: أتُرانا يا فتى أضعناك؟ قال: لا بل حفظت ورعيت جزاك الله خيراً عن صحبة الجوار ورعاية الحق، ولله عليّ ألاّ أشرب الخمر أبداً، فتاب ولم يَعُد إلى ما كان عليه[1].

[من حكايات الجواري والغلمان]

ومما يوافق هذا الموضع في المقامات من ظرف الحكايات التي تضمنت بيع

---

(١) الخبر في الأغاني ١ : ٤١٤.

المماليك عند الضرورات ، وما للأجواد من جزيل الهبات ، مما ذكروا من أحسن أخبار الغلمان أن جعفر بن يحيى عرض عليه في بعض متوجّهاته مملوك من مماليك رجل جفاه السلطان ، فقبض ماله ، وأمر ببيع مماليكه ، فعُرض عليه من جملتهم غلام كأ طرّ شاربه ، أجمل الناس ، يديرُ بين فكّيه لسانا أبيَن من الصبح . قال جعفر : فقلت له : ما اسمك ؟ قال : ماهر ، فقلت له : وما صنعتك ؟ قال : الأدب والغناء والشعر وما شئت من بعد ، فسألته عن ثمنه ، فقال : خمسمائة دينار للضرورة ، قال : فأدّيت ثمنه ، وسألته أن يُسْمِعَنِي شيئاً من غنائه ، فأخذ العُود وغنّى :

حملتمْ جبالَ الحبّ فوقي وإنّني لأعجز عن حمل القميص وأضعُفُ
ظفرتمْ بكتمانِ اللسان فمن لكمْ بكتمان عين دمعُها الدّهرَ يذرِفُ !

فأطربني غناؤه ، وشجاني فأجزته ، ووهبت له وخلعت عليه ، وأمرته بمعادلتي . فلما اجتزتُ منزل مولاه بمقدار ميل ، أنشأ يقول :

وما كنت أخشى معبدا أن يبيعَني بشيء ولو أضحتْ أناملُه صِفرا
أخوهم ومولاهمْ وحاملُ سرّهمْ ومن قد ثوى فيهمْ وعاشرهم دهرًا
أشوقًا ولمّا تمض لي غير ساعةٍ فكيف إذا خبّ المطيّ بنا شهرا !

فقلت : يا غلام ، أتعرف منزل مولاك من ها هنا ؟ فقال : هيهات ، وهل تخفى معالم الصبّ ! فقلت : اذهب فأنت حرّ لوجه الله تعالى ، ووهبت له ألف دينار ، فقال لي زميلي : أمثل هذا يُعتق ؟ فقلت : أوَمثله يُملَك ! فولّى وهو يقول :

لا يوجدُ الخيرُ إلا في معادنه والشرّ حيث طلبت الشرّ موجودُ

وحدّث ابن عائشة قال : كان لرجل من قَيْس عَيْلان جارية ، وكان

بها معجبًا ، ولها مكرِمًا فأصابته حاجة وجهد ، فقالت له : لو بعتنى فإن نلت طائلا عدت به عليك ، فعرضها للبيع ، فعرضت على عمر بن عبد الله بن مَعْمر المذحجى ، فأعجبته فاشتراها بمائة ألف درهم ، فلما مضت لتدخل القصر ودّعت مولاها وأنشدته :

هنيئاً لك المالُ الذى قد أصبتَه ... ولم يبق فى كفى إلا تفكرى
أقول لنفسى وهى فى كرب غشيةٍ ... أقلى فقد بان الحبيب أو اكثرى
إذا لم يكن للوصل عندك حيلة ... ولم تجدى بدّا من الصّبْر فاصبرى

فأجابها مولاها :

فلولا قعود الدهر بى عنك لم يكنْ ... لفرقتنا شىء سوى الموت فاعذرى
أءوبُ بحزنٍ من فراقك موجعٍ ... أناجى به قلباً طويل التفكّر
عليك ســـــلام لا زيارة بيننا ... ولا وَصْلَ إلا أن يشاء ابنُ مَعْمَرِ

فقال ابن معمر : قد شئت ، خذ بيدها فهى لك وثمنها .

* * *

قال : فلمّا وَعى الشَّيْخ أَبيـاتَهُ ، وعَقَل مُناغَـاتَهُ ، تنفّسَ الصُّعَداء ، وَبكَى حتّى أَبْـكَى البُعَدَاء ؛ ثمّ قال لى: إنّى أُحِلُّ هذا الغلامَ محلّ ولَدِى ، وَلاَ أُمَيّزهُ عن أفلاذِ كَبِدِى ؛ ولولا خلُوّ مُراحِى ، وخبوّ مصْباحِى ؛ لَمَا دَرجَ عن عُشّى ، إلَى أن يُشيّع نعشى ، وقَدْ رأَيتُ ما نَزل به من لَوْعَةِ البَيْن ، والمؤمِنُ هَيْنٌ لَيْن ، فهلْ لك فى تَسْلِيَةِ قَلْبِه ، وتَسْرِيَةِ كَرْبِهِ ؛ بأن تعاهِدَنى عَلَى الإقالةِ فيه مَتى استَقَلْتُ ؛ وألاّ تَسْتَثْقِلَنِى إذا ثقُلت ؛ فى الآثارِ

المُنْتَقاة ، المَرْوِيةِ عن الثِّقاةِ : مَنْ أَقالَ نادمًا بيعَتَه ، أَقالَه اللهُ عَثْرَته .

قال الحارثُ بن هَمام : فوعَدْتُه وَعْدًا أَبْرزَهُ الحَيَاء ، وفى القلبِ أشْياء ، فاستَدْنى حينئذ الغُلامَ إليْه ، وقَبَّلَ ما بَيْنَ عيْنَيْه ، وأنشدَ والدَّمْعُ يَرْفَضُّ من جَفْنَيهِ :

خَفِّضْ فَدَتْكَ النَّفسُ ما تُلاَقِي

مِنْ بُرَحاء الوجْدِ والإشفاقِ

فَمَا تَطولُ مُدّةُ الفِراقِ ولا تني ركائب التَّـــلاَقِي

* بحُسْنِ عوْنِ القادرِ الخلاّقِ *

• • •

قوله : هقل مناغاتَه ، أى فهم كلامَه ، والمناغاة تكليم الطفل بما يهوَى ويفرح به، فإذا ردّدَ الصبىّ كلامك أوحا كاك فقد ناغاك. الصُّعَداء : ارتفاع نَفَس المهموم . أفلاذ : قِطَع ، يريد أولاده ، والفَلْذَة : قطعة من الكبد ، ولِفَرْط الإشفاق به والمحبة فى الولد ، يخاطبه أبواه بقلبى وكبدى . وقالوا : أولادُنا أكبادُنا ، وقال الشاعر :

وإنما أولادُنا بيننَا أكبادُنا تمشى على الأرْضِ

مُراحى : موضع إبلى ودوابِّى ، وكنى بخلوّ المراح عن الفقر وذهاب المال . درج : مشى . لوعة البين : حُرْقة الفراق . هَيْن لَيْن ، هما مع الازدواج مخففتان ،

فإن أفردتنا شددتنا . قوله : لمَّا دَرَج عن عُشِّى ، يقول: لولا الفقر ما بعثه مادمتُ حيًّا. وتسرية كربه : إزالة همّه . المنتقاة : المختارة. المدوّنة: المكتوبة المجموعة ، والحديث معروف من طريق أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَنْ أقال نادماً بيعته أقاله الله عثرته» ، أى عفا عن زلّته . أبرزه : أظهره ، ويريد بقوله : وفى القلب أشياء : أنه أضمر ألاّ يقيله أبدا . يرفضّ : يسقط متفرّقا . خَنَّض : سَكّن . بُرَحاء : شدّة . الوجد : الحزن . الإشفاق : الخوف . تَني : تَفْتُر .

• • •

ثمّ قال له : أَستَوْدِعكَ مَنْ هُوَ نِعْمَ المولَى . وشمَّرَ ذَيْلَه وَوَلَّى . فلبِثَ الغُلامُ فِي زفيرٍ وعَويل ، رَيْثَما يَقْطَعُ مَدَى ميل. فلما استَفَاق ، وكفكفَ دَمْعَه المُهْرَاق ، قال: أتَدْرى لِمَ أعوَلْتُ وعلامَ عوَّلْتُ ؟ فقلتُ : أظُنُّ فِراق مَوْلاك ، هو الذى أَبْكاكَ . فقال : إنَّكَ لَفِي وادٍ ، وأنا فى وادٍ ، ولَكَمْ بين مُريدٍ ومُراد ، ثم أنشد :

لَمْ أَبْكِ واللهِ عَلَى إلفٍ نَزَحْ
وَلاَ عَلَى فوتِ نعيمٍ وفرَحْ
وإنَّما مَدْمَعُ أجفانِى سَفَحْ عَلَى غَبِيٍّ لحَظْهُ حِينَ طمحْ
وَرَّطَهُ حَتَّى تعنَّى وافتَضَحْ
وضَيَّعَ المنقُوشَةَ البِيضَ الوَضَحْ

وَيْكَ أَمَا نَاجَتْكَ هَاتِيكَ الْمُلَحْ

بِأَنَّنِي حُرٌّ وَبِيعِي لَمْ يُبَحْ

* إِذْ كَانَ فِي يُوسُفَ مَعْنًى قَدْ وَضَحْ *

* * *

زَفِير: أنفاس مرتفعة . عويل: بكاء . ريث: قَدْرَ. مدَى : غاية . والمِيل : قَدْر مدّ البَصر من الأرض ، ويقال إنه ألفْ خطوة من خُطا البعير ، والفرسخ: ثلاثة أميال، والبريد أربعة فراسخ. استفاق: استراح وخفّ مايجده . كفكف : ردّ وأذهب . المُهَراق : المصبوب . أعولت : بكيت بصوت عالٍ ، وأعول إعوالاً : صاح ، ورفَع صوته ، وعوّلت على كذا اتّكلت عليه ، وعلى الله معوّلى اتّكالى ، وقال الشاعر :

* ولَيْسَ على رَيْب الزّمان معوّلُ *

كم بين مُريد ومُراد ، يريد أنّهما متقاربان فى اللفظ ، متباعدان فى المعنى ، لأنّ المريد فى الشىء المحبّ فيه ، والمُراد الشىء المطلوب ، وهو المحبوبُ ، فأنت قد تُرِيد الشىء فتُمنَعه،وغيُرك قد يراد له فيأباه ولا يريده ، فاللفظان متضادّان ، فيقول: التبس عليك سرّ بكائى فظننتَ أنه على فراق مولاى . فتفطن الآن أنّه على سُخْف عقلك ، كما التبس اللفظان على غير ناقد ، فإذا تفطّن لهما تباعدا عليه ، والمريد عند أهل الإرادة المبتدى ، والمُراد المنتهى ، فالمريد هو الذى نُصب للتعب والمقاساة ، والمراد الّذى لقِىَ الأمر من غير مشقة ، فهو مرفوق به مرفّه ، وقيل : المريد متحمِّل والمراد : محمول .

الجنيد: المريد تتولاّه سياسة العلم، والمراد تتولاّه رعاية الحق، لأن المُريد يسير، والمراد يطير ، فمتى يلحق السائر الطائر !

القُشيرىّ : كلّ مريد فى الحقيقة مُراد، لأنه إذا أراده الحق للخصوصية ، وفقه للإرادة ، ولـكنهم فرقوا بينهما .

قوله : إلف ،أى صاحب . نَزَح : بَعُد . سَفَح : جرى . غبىّ : جاهل . لَحظه : نظره .طمح : ارتفع. ورّطه : أنشبه ، والوَرْطه: أهوِية تـكون فى رأس الجَبَل يشقّ على مَنْ وقع فيها الخروجُ منها. وتورّطت الماشية: وقعتْ فى الوَرْطة ، قال طُفيل :

تهابُ طريقَ الحق تحسب أنه وُعُورٌ وِراطٌ وهو بَيْدَاء بلْقَعُ(١)

وقيل :الورطة : الوحْل تقع فيه الغنم، فلا يمكنها التخلّص، ثم ضرب مثلاً فى كلّ شدّة يقع فيها الإنسان،وأورطت فلانا فتورّط هو ، أى وقع فيما يعسُر التخلّص منه .

أبو عمرو : الوَرْطة الهلـكة ، قال الرّاجز :

إن تأت يومًا مثلَ هذى الُخطّهْ تلاقِ من ضَرْبِ نميرٍ وَرْطَهْ(٢)

قوله :تعنّى ، أى تعب . افتضح: اشتهر،والوَضَح :الشديدة البياض النقية ، أى ضيّع الدراهم المنقوشة البيض ، والوَضَحُ : البيان والضوء والغُرّة والفضة والدرهم الصحيح ، وقيل : إنه وصف الدراهم بالمصدر ، كما يقال : امرأة زُورٌ وكَرَم . ويك: عَجَبًا لك. وقوله: هاتيك، يقال للمذكّر: ذا ، وهو للقريب،وذاك لما هو أبعد ، وذلك لأبعد الثلاثة ، وللمؤنث ذه وذى وذ ، بلاياء ، وتاوتى وهى للقريبة،وتيك للتى هى أبعد منه ، وتلك وتالِك لأبعدهنّ ، وتدخل ها التنبيه على كلّ ماليس فيه لام ، لأن اللام موضوعة للبعيد ، وها موضوعة للقريب ، فلا يجمع

(١) البيت فى اللسان ــ ورط .

(٢) اللسان (ورط) وفى ط « يمير » ، وصوابه من اللسان .

بينهما ، نحو هذا وهذاك وهاتا ، وشاهده :

* ولَيْستْ دارُنا هاتا بدارِ *

وهذه وهذى وهذِ وهاتيك ، وشاهده قولُ ذى الرُّمة :

قد احتَمَلتْ مىٌّ فهاتِيك دارُها بها السُّحم تَرْدى والحَمامُ المطوَّقُ[1]

قوله : لم يبح ، أى لم يجعل مباحاً .

أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « ثلاثة أنا خصمُهم ، ومَنْ كنت خصمَه خصمتُه : رجل عاهد ثم غدر ، ورجل باع حراً ، ورجل استأجر أجيراً فلم يوفّه أجره » . وَضَح : تبيّن .

. . .

قال : فتمثَّلتُ مقالَهُ فى مِرْآة المُداعِب ، ومعرِض المُلاعِب ، فتصلّب تَصلُّبَ المُحِقّ ، وتبرّأ مِنْ طينة الرِّقّ . فجُلْنا فى مُخاصَمة ، واتّصلَتْ بمُلاكَمة ، وأفضتْ إلي مُحاكَمة : فلما أوْضَحْنا لِلقَاضِى الصُّورةَ ، وتَلَوْنا عَلَيْه السُّورَةَ ، قال : ألاَ إنَّ مَنْ أنْذَرَ ، فقدْ أعذَر ، ومَنْ حَذّرَ كَمَنْ بَشّر . ومَنْ بَصّر فما قَصّر ؛ وإنّ فيما شَرَحْتُماه لَدَليلاً عَلَى أنّ هذا الغلامَ قدْ نَبّهك فَمَا ارعَوَيْتَ ، ونَصحَ لَكَ فماَ وَعَيْت . فاسْتُرْ دَاء بَلَهِك واكتُمْهُ ، ولُمْ نَفْسَكَ ولاَ تَلمْهُ ، وحَذَارِ من اعتِلاَقِهِ ، والطَّمَع فى استِرْقَاقه ، فإنّهُ حُرُّ الأدِيم ، غيرُ معرَّض لِلتّقوِيم .

(١) ديوانه ٣٩٠ . قال فى شرحه : « السحم : السود ، يعنى الغربان . تردى ، أى تذهب . والغراب لا يستطيع المشى . ويروى : « بها السحم فوضى » .

وقد كان أبوه أحضره أمس ، قُبَيْلَ أُفولِ الشمس ، واعترف بأنه فَرْعُهُ الذي أنشأهُ ، وألاّ وارثَ سواه ، فقلت للقاضي : أَوَ تعرفُ أباه ، أخزاه الله ! ، فقال : وهَلْ يُجْهَلُ أبو زيدٍ الَّذِي جُرْحُهُ جُبَارَ ، وعند كُلِّ قاضٍ له أخبارٌ وإخبار ، فتحرقتُ حينئذٍ وحَوْلَقت ، وأفقتُ ولكِنْ حِينَ فاتَ الوقتُ ، وأيقنتُ أنَّ لِثَامَهُ كَانَ شَرَكَ مكيدَتِهِ ، وبيتَ قَصيدَتِهِ . فنكَّسَ طرفي ما لَقِيت ، وآليت أَلَّا أعامِلَ ملثَّمًا ما بقيت .

* * *

تمثّلت: تصوّرت . الداعب : المازح . والمَعرَض بفتح الميم : الموضع الذى تُعرَض فيه الأشياء ، والمِعْرض الثوب تُعْرَض فيه الجارية. تصلّبَ : تقوّى، وهو « تَفَعّل » من الصّلابة وهى الشدة. والأرض الصُّلبة :القوية . ولا أعلم أحداً خالف فى هذه الرواية إلا ابنُ ظَفَر فإنه رواه : « تصلّت » بالتاء بنقطتين ، وفسره بتجرّد وجدّ ، وكل جادّ مجاهد مسرع فى أمره: فهو مُتَصلّت فيه ، فذكروا أنه تصحف عليه اللفظ ، فشرحه على تصحيفه . المحقّ: صاحب الحق. الرّق: العبودية : وذكر الطينة لأنها أصل الخلق. وتبرّأ منها، تباعد . جُلْنا : تصرّفنا . ملاكَمة : مدافعة ومُضاربة ، واللّكم : الضرب بجُمْع الكفّ . أفضت : اتّصلت . أوضحنا : بيّنّا . الصُّورة : القصة . تَلَوْنا : قرأنا وذكرناها له . أنذر : أعلم . أعذر : أتى بعُذْر ، ويقال: قد أعذر من أنذر ، أى قد بلغ أقصى العذر مَنْ أنذرك ، وعذّر الرجل فهو معذّر، إذا اعتذر ولم يأت بعذر . ومنه قوله تعالى:﴿ وَجَاء المعذّرون من الأعراب ﴾ . ارعويت : رجعت عن جهلك وانكففت . بلهك ، غفلتك وجهلك . حَذَارِ ، أى احذر أنْ تتعلق به . استرقاقه : تملّكه وتعبّده ، ومنه

قولهم : سوق الرقيق ، ومنه سُمِّيَ العبد رقيقاً ، لأنهم يرقّون لمالكهم ويخضعون له ويذلّون : والأديم : الجلد · للتقويم : لمعرفة قيمته . أفول : غروب · أنشاه : أحدثه وولّده . جُبَار : باطل . إخبار : إعلام · وأخبار : جمع خبَر ، وأخبره : أعلمه . تحرّقت : عضضت أسناني حتى صوّتت من شدة الغيظ · حَوْلقت : قلتُ: لاحول ولاقوة إلا بالله . أفقت : انتبهت ، وأنشد الفنجديهيّ في معنى هذا :

يفتضِحُ الجاهلُ لكنّهُ من بعد ماغرّبه الناصحُ
ويصلح ابنُ السوء لكنّه من بعد مامات الأبُ الصالحُ

قوله : وأيقنت أن لثامه كان شَرَكَ مكيدته ، أى شبكة حيلته . وبيت القصيدة : أحسن بيت فيها ، فأراد أن حيلته كانت لثامه ، نكّس طرفي : أى كسر عيني ، وأمال نظري .

• • •

ولَمْ أزَلْ أتأوّه لخسرِ صَفْقَتِي ، وافْتضاحِي بين رُفْقَتِي · فقال لى القاضي ، حينَ رأى امتِعاضي، وتبيَّنَ حرَّ ارْتِماضي : ياهَذا ، ما ذَهَبَ من مالِكَ ما وَعَظَك ، ولا أجْرَمَ إليْكَ مَنْ أيقظَك . فاتّعظْ بما نابَك ، وكاتِمْ أصْحابَكَ ما أصابَك ؛ وتذكَّرْ أبدًا ما دَهَمَك . لتقِيَ الذِّكْرَى دَراهِمَك ، وتخلّقْ بتخلُّق مَنِ ابْتُلِيَ فصَبرَ ، وتجلّت له العِبرُ فاعتبرَ .

قال الحارث بن همّام : فودّعتُه لابساً ثوبَ الخجل والحَزَن ، ساحبًا ذيلَي الغَبْن والغَبن ، ونويتُ مكاشفة أبى زيد بالهَجْر ، ومصارمتَه يدَ الدهر . فجعلتُ أتنكّبُ عَنْ ذَراه ، وأتجنّب أنْ

أَرَاهُ ؛ إلى أنْ غَشِيَنِي فى طريقٍ ضَيِّق ، فحيَّانى تحيَّةَ شَيِّق ، فما زِدتُ على أن عَبَسْتَ وما نبسْتُ ، فقال لى : ما بالُكَ شَمَخْتَ بأنفكَ على إلفكَ ! فقلت : أنسيتَ أنَّكَ اختَلْتَ وَخَتَلْت ، و فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتى فَعَلْت ! فأضرطَ بى مُتَهازِيا ، ثم أنشد متلافيا :

• • •

أتأوّه : أتوجّع . رفقتى : أصحابى . امتعاضى : توجّعى . ارتماضى : حرقة قلبى من شدّة الهمّ ، ولا يكون المتمِض كاظماً ، فلابدّ من ظهور الكرْب عليه ، وأمرٌ ممِض وماعضٌ ، أى ممِضّ كارب .

قوله : ماذهب من مالك ماوعظك ، هو مثل ، ومعناه إذا ذهب من مالك شىء حذرك أن يحلّ بك مثله ، فتأديبه إياك عِوَض من ذهابه . أجرم : أذنب . نابك : نزل بك . دهمك : غَشِيَك . تجلّت : ظهرت . العبَر : العلامات المخوّفة ، واعتبرت بالشىء إذا اتّعظت به . الخجل : الحياء . ساحبا : جارًّا . الغبْن : بسكون الباء فى البيع ، وبفتحها فى الرأى ، يريد أنه غبن فى رأيه وبيعه ، قال فى الدّرة : الغبْن بإسكان الباء فى المال ، وبفتحها فى الرأى والعقل . نويت : أضمرت . مصارمته : مقاطعتُه ، وصرمتُ فلانًا : قطعت ما بينى وبينه من المودّة . والصّرْم : القطع ، وقيل لليل : صريم ، لانقطاعه عن النهار ، وهو فى تأويل مَصرُوم أى مقطوع ، وكذلك الصّريم من الرمل ، وهو الذى انقطع من معظَمه .

يد الدهر : أى أبدَ الدهر .

أبوهريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لايحلّ للمسلم أن يهجُرَ أخاه فوق ثلاثة أيام والسابق السابق إلى الجنة » .

ذَراه :جهته . غَشِيَنى : قصدنى وأتانى على غفلة · شيّق : شديد الحبّ، مانبستُ : ماتكلّمت . شمخت : رفعت أنفك كبراً ، وشمخ : تكبّر · ختلت : خدعت ، وخاتل فى معنى ختَل ، وأصل المخاتلة المشى للصيد قليلا قليلا خفية لِئلاّ يُسمع حسّك ، ثم جُعلت مثلا لكل شىء وُرِّى به وستِّر على صاحبه · متلافيا : متداركا للألفة .

• • •

يامَنْ بَدَا مِنـهُ صُـدُو دٌ مُوحِشٌ وَتجهُّـمُ
وغَدا يريشُ مَلاَوِمًا مِنْ دونهن الأسْهُمْ
وَيقول : هل حرٌّ يُبا عُ كما يُباعُ الأدهُمُ
أقصِرْ فما أنا فيـهِ بِدْ عًا مثل ما تَتَوَهَّمُ
قـدْ باعت الأسباطُ قبـلِى يوسفًا وهمُ همُ
هذا وَأقسِمُ بالّتِى يَسْرِى إِلَيها المُتْهِمُ
وَالطّائفين بِها وهم شُعْث النّوَاصِى سُهَّمُ
ما قمتُ ذاكَ الموقفَ الـ مُخزِى وَعِنْدِى دِرْهَمُ
فاعذرْ أخاكَ وكُفَّ عَنْـهُ مَلاَمَ مَنْ لاَيَفهَمُ

• • •

تجهّم : عُبوس . مَلاَوما : جمع مَلام أو ملاومة ، وهى اللوم والعتاب ، يريد أنّ لومه أنفذ من السّهام · الأدهم ، قيل :أراد به الفرس وقصد لونه للقافية ، وقيل :أراد العبد الأسود . بِدْعًا ، أى أوّلا أى ماأنا أوّل من فعل ذلك . الأسباط :

إخوة يوسف عليه السلام . وهم هم : أى وهم أنبياء لم يتغيّروا عن مراتبهم ، ويقال : هو هو ، أى هو كما عهدتَه لم يتغير .

[قصة يوسف عليه السلام]

وقد جرى ذكرُ يعقوب والأسباط فى المقامات فى مواضع، وبنى هذه المقامة على ذكر يوسف وجماله وبيع إخوته إياه . ونريد أن نلمّ بطرَف من أخبارهم على شرط الكتاب .

ذكر أهلُ الأخبار أنّ يعقوب ـ وهو إسرائيل عليه السلام ـ تزوّج بنت خاله ليا بنت ليّان بن بتويل، فولدتْ له رُوبيل وشمعون ولاوى ويهوذا وغيرهم ، ثم تُوفِّيَتْ وخلَفَ على أختها راحيل ، فولدت له يوسف وبنيامين . وكان يوسفُ وأمه قد قُسِم لهما من الحسن شطْرُه ، فكفلتْ يوسفَ عمّتُه . وكانت أكبرَ ولد إسحاق ، وكانت عندها مِنْطقة لإسحاق يتوارثونها على قدر أسنانهم. فلمّا ترعرع يوسف أراد يعقوب أخذَه منها ، وقال لها :والله لاأقدر على الصّبر عنه، فقالت له: والله لا أقدر على صَرْفِهِ إليك .فلما رأت عزمه على أخذه ، حزمت المنطقة تحت ثياب يوسف وهو نائم ، ثم ادّعت فقدَها فطُلِب فوجدت عنده ، وكان من سنّتهم أن مَنْ سرق شيئاً أخذ فيه ، فتركه لها حتى ماتت . فلمّا رجع إلى أبيه شُغِل به عن سائر بنيه ، فحَسَدُوه ، فسألوا أباهم إرساله معهم للنزهة ، بعد أن ضَمِنوا حفظَه ، فأخرجوه إلى البريّة ، وأخذوا يضربونه ، وكُلّما ضربه واحدٌ استغاث بآخر ، فيضربه الآخر . فلما كادوا يقتلونه منعهم يهوذا ، وذكّرهم بما ضمنوا لأبيه من حفظه ، فانطلقوا فأدلَوْه فى الجبّ ، وهو يقول : يا أباه لوتعلم مايصنع بابنك بنو الآباء ! وكان بعض إخوته لأمّه ، فجعل يتعلّق بشفير الجبّ ، فربطوا يديه ، وألقَوْه فيه ، فقالوا له : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً ينجُّوك . ثم أرادوا أن يَرْضخوه بصخرة ، فمنعهم يهوذا ، وكان يأتيه بالطعام خِفْيَةً منهم .

ثم مرّت سيارة فأدلى واردُهم دلْوَه فتعلّق به ، فلما رآه بشّر به السيارة .
وقال السُّدىّ: إنّ الذى أخرجه إنما دعا صاحباً له اسمه بشرى ، فأتى إخوته الذين أخرجوه وقالوا: إنه عبد لنا ، فباعوه منهم بعشرين درهما على أن يُخرجوه من أرض الشأم، فشرطوا لإخوته أن يغرّبوه ، ويذهبوا به إلى مصر ، فحينئذ رجعوا إلى أبيهم عشاء يبكون .

فهذه قصة بيع الأسباط يوسف على اختصار .

ثم إنّه لمّا بلغ مصرَ من العزيز ، وكان فرعون ـ وهو الريّان بن الوليد ـ قد ولاّه خزائنها ، فكان من قصّته مع امرأة العزيز ومن حبّها فيه ومن دعائها إياه لنفسها ، ومِنْ تأبّيه من ذلك واستنزالها إياه ؛ حتى همّ بها ، ورؤيته برهان ربّه ـ وهو رؤيته صورةَ يعقوب يعضّ على إصبعه ، وقيل : إنه رأى فى الحائط مكتوبا : « ولا تقربوا الزنا ـ ومبادرته الباب فارّامنها ، وقدّها قميصَه من دُبر ، ووجوده العزيز على باب الدّار جالساًمع ابن عمّ له، وهو الشاهد من أهلها ـ وقيل: إنه كان صبيًّا فى المهد ـ واشتهار أمرها بمصر ، حتى تحدّثت به نسوة فى المدينة ، وقلن :امرأة العزيز تُرَاود فتاها عن نفسه، وإحضارها لهنّ وإعدادها لهنّ مايتّكئن عليه ـ وقيل: المتّكأ الأترجّ ـ وأمرها له أن يخرج عليهنّ ، وإعظامهنّ إياه حتى شغلن به عن أنفسهن ، وقطّعن أيديَهُنّ وقلن : حاش لله ماهذا بشراً ، تنزيهاً له عن أن يأتىَ ـ مثله ريبة ، فكان من هذا الخبر ماقص الله فى القرآن ونطَقَتْ به التّفاسير والأخبار .

ثم إن امرأة العزيز قالت للعزيز: إن عبدكَ فضَحنى فى النّاس فإمّا سجنتَه ، وإمّا برزتُ للناس أعتذر عن نفسى ، فحبسه ، فدخل معه رجلان أحدُهما خبّاز الملك والآخر نديمه . وكانَ لمّا بلغ الحلم آتاه الله حُكْمًا وعلمًا من العبارة ، فكان

فى السّجن يفسر الرؤيا للمسجونين ، ويمرّض مرضاهم ، ويُوَسّع على من ضاق عليه مكانه ، فقال أحدالفتَيين لصاحبه : هلمّ نُجرّب هذا العبد . فسألاه من غير أن يَرَيا شيئاً ، وقالا له : إنا نراك من المحسنين فى معاشرتك أهلَ السجن ، فقال لهما : أمّا أحدُكما فيندم الملك، وأما الآخرُ فيصلَب ، فقالا له : مارأينا شيئا، فقال لهما : قُضِيَ الأمر فيكما . ثم قال للذى ظن أنه ناجٍ منهما : اذكُرْنى عند ربّك ، وأخبِرْه أنى محبوس ظلماً . فأوحى الله تعالى إليه : إن اتخذتَ من دونى وكيلا لأطيلنّ سجنَك ، فعوقب بالسجن حيث همّ بامرأة العزيز ، وبإطالته حيث اتّكل فى أمره على غير ربه .

ثم كان من رؤيا الملك وجَهْل أهلِ دولته وتفسير يوسف لها، وقول الملك : ائتُونى به وتأبّيه الخروج حتى يسأل النّسوة عن شأنه وشهادتهن عند الملك بتبرئته واعتراف امرأة العزيز بأنها راودته ، وقوله فى العزيز : ﴿ليَعْلَمَ أنّى لم أخُنْه بالغيب﴾ .

ويقال إن جبريل قال له عند ذلك : ولا يوم هممتَ بما همَمْتَ به ! فقال : ﴿وما أبرّئ نفسى إنّ النّفس لأمّارة بالسّوء إلاّ مارَحِم ربى..﴾ الآية . واستخلاص الملك إياه لنفسه ، وجعْله على خزائن أرضه ؛ ما اشتهر قرآنا وتفسيراً .

ويقال إن العزيز مات فى تلك المدة ، وإن يوسف تزوّجها ، وقال لها : أليْسَ هَذَا خيرًا ؟ فقالت: لاتلمنى ، كنت امرأة حسناء فى مُلْكٍ ودُنيا ، وكان صاحبى لا يأتى النساء ، وكنتَ كما جعلك الله فى حُسْنك ، فغلبَتْنى نفسى على مارأيت . فيزعمون أنّه وجدها عذراء ، وأنها ولدت له ابنين .

ثم أجدبت الأرض، فأتاه إخوته منتجعين، فكان من أمره معهم ،وإحسانه إليهم فى الكيل، وطلبه لهم أنَ يأتوه بشقيقه بنيامين، ورجوعهم موقَرين، ورغبته إياهم فى إرساله معهم ، وأخذه بسرقة الصُّواع وتأذّيهم بذلك ، ورجُوعهم إلى

أبيهم وتوالى الحزن على يعقوب بفقد ابنيه ، وأمره لبنيه أن يرجعوا طالبين ليوسف وأخيه ، ودخولهم على يوسف أذلاء صاغرين ، وتعريفه إياهم بمكانه ، وبعثه بالقميص إلى أبيه ، وجمع شملهم بعد طول مدة الفراق مانصّ الله تعالى أنه عبرةٌ لأولى الألباب . ولولا أنّ الأمر فى كتب التفسير أشهر من أن يجهل ، لفسّرناه فصلاً فصلاً .

* * *

قوله : وأقسم بالتى يسْرِى إليها المُتْهِم ـ يعنى مكة ـ والمُتهم الآتى تِهامة ، وتِهامة اسم مكة ، قال الأصمعىّ : سمعت العرب تقول : إذا انحدرتَ من ذات عِرْق فقد أتْهمت . شَعِثٌ سُهُم : أى متغيِّرة ألوانهم وشعورهم .

قوله : اعذر أخاك ، قال زيد بن علىّ : ثلاثة لايجتمعْنَ إلا فى كريم : حُسْن المحضر ، واحتمالُ زلّاتِ الإخوان ، وقلة الملالة للصديق .

* * *

ثمّ قال : أمّا مَعْـذرَتِى فقدْ لاحتْ ، وأمّا دراهمُك فقدْ طاحتْ ؛ فإنَ كان اقشِعْرارُك مِنِّى ، وازْوِرارُك عَنِّى ، لفرْطِ شَفقتِكَ عَلَى غُبَّرِ نَفَقتِك ، فلسْتُ مِمَّنْ يَلسَعُ مَرَّتيْن ، وَيُوطِىُ عَلَى جَمْرَتيْن . وإن كنتَ طويتَ كَشْحَكَ ، وأطَعْتَ شُحَّكَ ، لِتَسْتنْقِذَ ما عَلِق بأشْراكِي ، فَلْتَبْكِ عَلَى عَقْلِكَ البَواكى .

قال الحارث بن همَّام : فاضطرّنى بلفظه الخالب ، وسِحْره الغَالب ، إلى أن عُدْت له صَفيًّا ، وبه حَفِيًّا ، ونبذْتُ فعلتَهُ ظِهْرِيًّا ، وإن كانتْ شيئًا فَرِيًّا

لاحت : ظهرت . طاحت : هلكت اقشمرارُك : انقباضك . والقُشعريرة : رِعْدة وانقباض . ازورارك : انقباضك وَميلك . لفرط شفقتك ، لكثرة خوفك . غبّر نفقتك : أىَ تخاف على مَا بَقِى من نفقتك وإن أخذها . يُوطِىء ، أى يجعل غيرَه يطأ الجمر ، أى لاأضُرّ مرتين . والكَشح : الخَصْر ، وقيل: الجنْب ، وقيل : هواسم لما بَين الأضلاع ، ورأس الوَرِك ، وكلُّها متقاربة، وطوى كشحه على أمر ، استمرّ عليه ، وطوى كَشْحَه ، مثل يضرب للمجانبة والمكاتمة ، قال الشاعر :

طَوَى كشحاً خليلُك والجناحا لبينٍ منك ثُمّ غـدَا وراحَا[1]

والشحّ : البخل مع الحِرْص ، واضطرنى : ألجأنى ، الخالب : الخادع . صفيًا:صاحباً مخلصا. حفيًا : معينا . كريمًا : مكرِماً ، نبذت : رميت . وطرحت ظِهريًّا ، أى خلف ظهرى ، واتّخذه ظهريا ، أى عُدة يستظهر بها ، أى يجعلها خَلْف ظهره حتى متى احتاجها استعملها فَرِيًّا : عجباً ومنكرًا ، والفرىّ : الأمر العظيم ، والفرىّ الكذب .

ومما جاء فى الشعر على أخبار يوسف عليه السلام

قال ابن الزقاق :

بأبى وغير أبى أغنُّ مُهَفْهَفٌ مهضوم ماخَلْف الوِشاحِ خَمِيصُهُ[2]
لبِس الفؤادَ فمزّقَتْهُ جفونُه فأتى كيوسف حين قُدّ قميصهُ

وقال أيضاً :

وسـافرٍ عن قمرٍ مبتسمٍ عن دُرَرِ[3]

---

(١) اللسان (كشح)
(٢) ديوانه ١٩٦ ، والخميص : الضامر البطن .
(٣) ملحق ديوانه ٢٩٣

لولاح الحور وقـد سلّ حُسامَ الحَوَرِ
لقُدّ منـه شغفاً قَميصُه مِنْ دُبُرِ

ومن المُلح فى ذلك قول ابن حجاج فى بختيار :

فديت وجه الأمير من قَمَرِ يجلو القَذى نُورُه عن البَصَرِ (١)
إنّ زليخا لو أبصرتْكَ لما ملّت إلى الحشر لذة النّظر
بل وحياتى لو كنتَ يوسفَها لم تكُ من تهمة العزيز بَرِى
فإننى عـالم بأنك لو شَمِمْتَ ريّا نسيمِها العَطِرِ
سبقتَهـا واندلقْتَ تتبعُهـا من بين تلك البيوت والحجر
ولم تزل بالـكدّين تنقرُها (٢) من قبل وقت العشا إلى السّحَرِ
طبعك كالماء فى سُهولتِه لـكن أبو الزّبْرِقان من حَجَرِ
إنّ الملوك الشّباب ما خُلِقُوا إلاّ صلابَ القياش والـكَمَرِ

وقال آخر :

قميص يوسف لمّا قُدّ من دُبرٍ كانت براءته فيه من الـكذب
وفى قميصك لمّا قد من دُبرٍ ممّا يدلّ على الفحشاء والرِّيَبِ

وقال آخر فى الحسن بن وهب :

إذا لقيتَ بنى وهب بمنزلةٍ لم تدر أيّهما الأنثى من الذّكَرِ
مؤدّبون على الفحشاء من صِغَرٍ مدرّبون على النّـكْراء من كِبَرِ
قميص أنثاهمُ ينشقّ من قُبلٍ وقمص ذُكْرانهـم تنقدّ من دُبُرِ
معتَـكونَ ولم تقطع سرائرُهمْ بين الحواضِنِ والدّايات بالـكَمرِ

---

(١) اليتيمة ٣ : ٤٠ (٢) اليتيمة : « تقصرها » .

المقامة الثالثة والثلاثون وتعرف بالتفليسية

حكى الحارث بن همام قال : مَرَرْتُ فى تَطْوافِى بِشِيراز ، على نادٍ يَسْتَوْقِفُ المُجْتاز ، ولو كان على أَوْفاز ؛ فلم أَسْتَطِعْ تَعَدِّيه ، ولا خَطَتْ قَدَمِى فى تَخَطِّيه ؛ فَعُجْتُ إليه لأَسْبُكَ سِرَّ جَوْهَرِه ؛ وأَنْظُرَ كَيْفَ ثَمَرُهُ من زَهَرِه ، فإذا أهلُه أفراد ، والعائِجُ إليهم مُفَاد . وبينما نحنُ فى فكاهةٍ أطربَ من الأغارِيد ، وأطيبَ من حَلَبِ العَناقيد ؛ إذ اخْتَفَّ بنا ذو طِمْرَيْن ، قد كاد يُنَاهِزُ العُمْرَيْن ، فحيَّا بلِسَانٍ طليق ، وأبان إبانَةَ مِنْطِيق ، ثم احتَبَى حُبْوَةَ المُنْتَدِين ، وقال : اللهمَّ اجْعَلْنا من المهتدين . فازْدَرَاهُ القومُ لِطِمْرَيْه ، وَنَسُوا أنّ المرء بأصغَرَيْه

* * *

التَّطواف : مصدر طوَّفت حول الشيء ، إذا أكثرتَ المشيَ حولَه ، وقد طفتُ به وأطفتُ ، وإذا درت وأكثرت ذلك قلت : طوَّفت .

وشيراز : مدينة فارس العظمى ، وهى مدينة جليلة عظيمة ، ينزلها الولاة ، ولها سعة حتى إنه ليس فيها منزل ، إلاّ وفيه لصاحبه بُستان فيه جميع الثِّمار والرياحين والبُقول ، وكلّ ما يكون فى البساتين . وشُرْب أهلها من عيون تجرى فى أنهارٍ تأتى من جبالٍ يسقط عليها الثلج .

قوله : ناد : مجلس . يستوقِف : يحبس ويجعله يَقِف . المجتاز : خاطر الطريق المارّ عليه .

أوفاز : انحفاز وعجلة ، ومنه قولهم : قعد مستوفزًا ، معناه قعد على وَفْزٍ من الأرض ، والأوفاز : جمع وَفْز وهو ألاّ يطمئن فى قعوده . قال الجوهرى رحمه الله تعالى : تقول نحن على أوْفاز ، ولاتقول على وفَز ، ومعناه ألاّ تلقاه مُعَدًّا .

الأزهرىّ : الوفْزة :الوثبة بعَجلة ، وقَعَد مستوفزًا ، إذا رفع أليَتَيْه ووضع رُكبتيه ولم يطمئن .

تعدّيه : تخطّيه وجوازه . وخَطَتْ : مشت . عُجْتُ : مِلْت . أسبُك . أجرّب سِرّ جوهره : أراد باطن أهله إذ كانوا فى الظاهر ذوى مناظر ، فأراد أن يعرف : هل هم أهل علوم وآداب ، حتى يكملوا فى الظاهر والباطن ، أم أمرهم على خلاف ذلك . وبيّن ذلك بقوله : كيف ثمره من زهره ، فكنى بالزّهر عن ظاهرهم ، وبالثّمر عن سرّهم الباطن ، وسرّ كل شىء : باطنه وخالصه ، وقال المعرّى :

فلا يغرّنْك بِشرٌ من سواه بدا ولو أنار ، فكم نَوْرٌ بلا ثَمَرِ (١)

قوله : أفراد ، أى كبراء لا نظير لهم ، فمن مال إليهم استفاد ، وأفراد : نجوم الدّرَارى . والعائج : المائل . فكاهة : حديث مطرب . الأغاريد : أصوات الطير ، ويُطلقون على ما كان فيه حنان ورقة منها اسم التّغريد والغناء ، إلا الحمام فإنهم يسمّونَ أصواتَهَا غناء وتغريدا وبكاء ونياحًا ، ويأخذونه من حال السامع لها . وقرئ على أبى الحسن بن السراج قولُ سُوَيد بن الأعلم :

لقد تركتْ فؤادَك مستجنًّا مطوّقةٌ علــى فَنَنٍ تَغَنّى
يَميــل بهــا وتركبه بلحنٍ إذا ما عنّ للمحــزون أنّا

(١) سقط الزند ١٣٩ ، وفى ط : « سر » موضع : « بشر » .

فقال : إنما تكون أصوات الحمام على ما فى نفس المستمع ، فإذا سمعها مَنْ يطرب سمّاها غناء ، وإذا سمعها مَنْ يحزن سماها بكاء .

وقال ابن قاضى ميلة مصدّقا لما قاله ابنُ السرّاج :

لقد عَرَض الحمام لنا بسجْعٍ إذا أصغى له ركبٌ تلاحَى
شجا قلب الخلّى فقال غنّى وبرّح بالشجىّ فقال ناحا[1]

وسبقه المعرّى بقوله :

بأرضٍ للحَمامة أنْ تغنّى بها ولمن تأسّف أن تنوحا[2]

وقد قدّمنا فى شرح الصدر فصلاً للحمام . وما أحسَن قول البحترىّ :

حَيّتْكِ عَنّا شَمال طافَ طائفُها فى جنة نفحَتْ روْحًا وريحانا
غنّت سُحَيراً فناجى الغصن صاحبَه سِرًّا بها ، وتَداعى الطير إعلانا
وُرقٌ تغنّى على غصُن مهدّلةٍ تسمُو بها وتمسّ الأرض أحْيانا
تخال طائرها نشوانَ من طرَبٍ والغصن من هزّةٍ عِطفَيْهِ نَشْوانا

وهذه ديباجة أبى عبادة . وحلَب المناقيد : الخمر . احتفت : انتظم . طِمْرين ، أى ثوبين خَلَقين . يناهز : يقارب . المُمْرين : ثمانين سنة ، وذلك أن الإنسان من الشبيبة إلى الأربعين فى نماء وزيادة وقوّة ، ومن الأربعين إلى الثمانين فى نقص ، فالبالغ الثمانين قد استوفَى عُمْرَيِ الزيادة والنقص . وسئل ذو الرُّمة عن سنّه ، فقال : بلغتُ نصف عمر الهَرِم أربعين سنة ، وقيل : العمر ستون سنة ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين » .

(١) نثار الأزهار ٧٩ ، ونسبه للمنازى.
(٢) سقط الزند ٢٤٥ .
(٣) من زيادات ديوانه .

ومن حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : «مَنْ أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله إليه» ، فالعمران على هذا مائة وعشرون سنة . والحكماء يزعمون أنه منتهى ما يبلغ عُمر ابن آدم ، والأظهر من سياق المقامة أنه أراد الأول ، لأن مَنْ قارب مائة وعشرين سنة لا يلتذ بخمر ولا بغيره وهو يزعم فى المقامة أنه يحاول شربها لغناه وغير ذلك .

قوله : أبانَ : بيَّن . مِنطيق : فصيح . احتبَى حبوتَهم ، أى جلس مثل جلوسهم المنتدين : أهل المجلس . ازدراه : احتقره .

أصغريه : قلبه ولسانه ، وقيل لهما الأصغران لصغر حجمهما مِنْ بين الأعضاء لفضلهما وشرفهما على الأعضاء ، قال علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : ولكنّى مدرّب الأصغرين، وجلبهما القيام والكمال ، كأنه قال: المرء يقوّم أموره بلسانه وقلبه ، ويكمل المرء بهما ، قال الأصمعىّ رحمه الله تعالى : كان ضمرة بن أبى ضمرة قصيرًا ، وكان يقول : للمرء بأصغريه ، بقلبه ولسانه .

* * *

وأخذوا يتداعَوْنَ فَضْلَ الخطاب ، ويَعتدُّون عُـودَهُ من الأحطاب ، وهو لا يُفيضُ بكلِمَةٍ ، ولا يُبينُ عن سِمَة ، إلى أن سَبَر قَرائحَهُمْ ، وخبَر شائلَهُمْ وراجِحَهُمْ . فحين استخرَج دَفائِنَهمْ ، واستنثَلَ كَنائِنَهُمْ ، قال : ياقومِ لو علِمْتُم أنّ وراءَ الفِدَام ، صَفْوَ المُدَام ، لَما احتقرتُمْ ذا أَخلاَق ، وقُلتُم ما لَهُ مِنْ خَلاَق . ثمّ فجّر مِنْ يَنابيعِ الأدب ، والنّكَتِ النُّخَب ، ما جلَب بِهِ بدائعَ العَجب ،

واستوجَبَ أن يُكتَبَ بذَوْب الذَّهَب . فلمَّا خَلَبَ كُلَّ خِلْبٍ ، وقَلَّبَ إليه كُلَّ قَلْب ، تحلحَل ، ليرْحَلَ ، وتأهَّب ، ليذهَب ، فعلقَتِ الجماعَةُ بذيْـلِهِ ، وعاقتْ مَسْرَب سَيْلِهِ ، وقالت له : قدْ أريتَنَا وَسْمَ قِدْحِك ، فخبِّرنا عَنْ قَيْضِكَ وَمُحِّك . فصمَتَ صُمُوت من أُفحِم ، ثم أعْوَلَ حتَّى رُحِم .

قال الرّاوى : فلمّا رأيتُ شَوْبَ أبي زيدٍ ورَوْبَهُ ، وأسلُوبَه المألوفَ وصَوْبَه ، تأمّلتُ الشيخ على سُهُومَةِ مُحيَّاه ، وسُهُوكَةِ ريّاه ، فإذا هُو إيّاه .

* * *

يتداعَوْن : يدعو بعضُهم بعضا إلى ذكر الفصاحة ، والأشبَه أن يكون من الأدعيّة ؛ وهي الأحجيّة والأغلوطة ، كأنهم يتحاجَوْن . وفصل الخطاب ، كناية عن الفصاحة . يعتدّون : يحسبون ، الأحطاب : جمع حَطَب ، ولا يقال للعود حطب حتى يجفّ ماؤه وييبس ، فأراد أنهم حسبوا أبا زيد من جنس الحطب لا نضارة فيه ، كأنه لا عِلْم عنده . وقال الشاعر :

إذا العود لم يثمرْ وإن كان شعبةً   من المثمرات اعتدّه الناسُ للحطبِ

يُفيض : يتكلم ويندفع فى القول ، وفاضَ لسانه وأفاض ، أى أبان . يبين : يبيّن . سِمَة : علامة . سَبَرَ : قاس وجرّب . قرائحهم : أذهانهم . خَبَرَ : جرّب . شائلهم : ناقصهم . راجحهم : وافيهم ، والشائل من الدراهم : الناقص الذى يشول به الميزان ، أى يرتفع ، والراجح ضده . وقال فى الدّرة : الشائل : المرتفع ، وأنشد:

يا قوم مَنْ يعذر فى عجرد القاتل المرء على الدانق[1]
لما رأى ميزانه شائلاً وجاه بين الأذن والعاتق

استنثل كنائنهم : استخرج ماعندهم ، والكنانةُ : جعبة السهام . الفِدام: خرقة تُجعل على فم الإبريق ليصفوَ الخمر بها . أخلاق : ثياب بالية . خَلاَق : نصيب وافر من الخير . ينابيع : مخارج الماء من العيون . النّكت : المعانى الغامضة، والنكتة : نقطة فى شىء تخالف لونه ، فإذا كانت فى الكلام فهى عيونه . النُّخَب : المختارة . بدائع : غرائب . ذوب الذهب : ما ذاب منه ، ولو أنشدهم شعراً يوافق مجلسهم لم يكن إلا أبيات الناشى :

كأنهمْ فى صدورِ الناس أفئدةٌ تُحِسّ ما أخطروا فيها وماعتمدُوا
يُبْدُون للنّاس ماتخفِى ضمائرُهمْ كأنهم وجدوا منها الّذى وَجَدُوا
دلّوا على باطن الدنيا بظاهرِها وعلْم ما غاب عنهمْ بالّذى شهِدُوا
مطالع الحق ما مِنْ شبهة غسقتْ إلا ومنهمْ لديْها كوكبٌ يَقِدُ

أو أبيات ابن شهيد حيث قال :

وفتيةٍ كالنجوم حسنًا كأنّهمْ شاعرٌ نبيلُ[2]
متقلد الجانبين ماضٍ كأنّه الصارم الصقيلُ
رامُوا انصرامِى[3] عن المعالِى والقرب من دونها كليلُ
فاشتدّ فى إثرها مِسَحٌّ كلّ كثير به قليلُ

---

(١) درة الغواص ٨٥ ، ٧٦ .
(٢) ديوانه ١٣٩ .
(٣) الديوان « انصراف » .

فى مجلس شانه التّصافى   تطيش فى وصفه العُقــول[1]

قوله : خلَب ، أى خدع . والخِلْب: الحجاب الذى بين سَواد القلب وسواد البطن . تَحَلْحَل : تحرّك ، وأصله للبعير إذا حرّكته للقيام تقول له : حل حل . عاقتْ : منعتْ وحَبَسَتْ. مَسْرب : طريق مَسِيل الماء ، وسرب يسرُب سروباً: مضى على وجهه فى سفر بعيد ، وسرب الماء يَسْرُب سَرَبا وسربا فهو سَرِب : سال ، والمعنى منعته المشى . وَسْم قِدْحِك : عَلامة سهمك ، والقِدْح السهم قبْل أن يُراش ويركّب نصله . وأرْويتَنا من نضحك ، أى أسقيتنا من بَلَلِك ، والنضح : الرشّ الخفيف : قَيْضك وُمحّك ، أى ظاهرك وباطنك ، لأنّ القَيْض قشرة البيضة العليا وقلبها الأصفر هو المحّ ، بحاء غير منقوطة .

الفنجديهى : عن قَيْضِك ومُحِّك أى عن نسبك وبلدك . صَمَتُ : سكت . أفحم : غلبَ وقطع عن الكلام . أعول : بكى . وشَوْب أبى زيد وَرَوْبه ، أى تخليطه فى حِيَله ، والشوْب: الخلط ، تقول: شُبْت الماء باللبن ، أى خلطتهما والرّوْب: اتخاذ الرائب ، والشّوْب: اللبن الممزوج بالماء هنا ، والرّوْب : الخالص . ويقال : ما عنده شوْب ولا روْب ، أى لا مرقَ ولا لبن ، وقيل : الشوْب العسل ، والرّوْب اللبن : وفلان يَشُوب ويرُوب ، أى يخلط ويصفّى ، وأصله يَرِيب، قلبت «يروب» طلبا للازدواج ، يضرب مثلا لمن يخلط فى القول والعمل والشّوْب والرّوْب جميعا : الخلط ، وراب الرجل روْباً : اختلط عقله ورأيه . أسلوبه: طريقه . المألوف.الملتزَم. صَوْبه:قصده وجانبه وصوابه . سهومة محيّاه: تغيّر وجهه . سُهُوكة ريّاه : نتن رائحته من النحر وغيره . وقوله: فإذا هُو إياه :

---

(١) البيت فى الديوان :

فِى مَجْلِس شابه التصابى   وطَارَدَتْ وَصْفَهُ العقول

استعمل إيّاه ، وهو ضمير منصوب في موضع الرفع ، وهو غير جائز عند سيبويه ، وجوّزه الكسائيّ في مسألة مشهورة جرت بينهما :

[ذكر مسألة نحويّة]

قال الفنجديهيّ : سألت شيخنَا العلاّمة إمام النحاة جمال العلماء ، أبا محمّد عبد الوهاب بن برّى بن عبد الجبّار المقدسى عن شرحها ، فقال أيده الله : سألتَ شرح الله صَدْرَك ، وأعلى في منازل الشرف قَدْرَك ، عن المسألة التى جرت بين سيبويه والكسائيّ ، وهى قوله : « كنت أظنّ أن العقربَ أشدُّ لسعةً من الزنبور فإذا هو إياها » ، وسألتَ عن وجْه النصب فى « إياها » عند من أجاز ذلك . فاعلم أن مذهب النحويين البصريين فى مثل هذه المسألة أن يكون ما بعد إذا مرفوعاً بالابتداء والخبر ، فيقال : فإذا هو هى ، على حدّ ما فى الكتاب العزيز : ﴿ فإذا هى بَيْضاء للناظرين ﴾[1] وقوله : ﴿ فإذا هِيَ ثُعبانٌ مبين ﴾[2] ، فإذا هنا ظرف مكان وليست كالزمانيّة ، وسأفرّق بينهما . وتقديرها فى نحو : خرجت فإذا زيد قائم : خرجت فبالحضرة زيد قائم ، والعامل فى إذا «قائم» ، وإن شئت نصبتَ قائما على الحال ، وجعلت الخبر فى إذا ، كما تقول : خرجت فإذا زيدٌ القائم فالقائم بالرفع على الخبر والنصب على الحال ، ومذهب الكوفيين فى الحال أن تكون نكرةً ومعرفة ، ومن هنا منع سيبويه من إيّاها فى المسألة ، لأن المضمر لا يقع حالاً لتعريفه وعدم الاشتقاق فيه ، والحال تكون نكرة مشتقّة ، والكوفيون يجيزُون النصب على معنى : خرجت فإذا زيد قائما . والأقرب عندى أن يريدوا فإذا هو موجود إياها ، فحذف الخبر وهو موجود لدلالة الكلام عليه ، ومثل هذا عندهم : لئن ضربته ليضربنّه السيّد الشريف ، فينصبون السيّد بإضمار ، فإذا حملته على هذا تخرّج .

---

(١) سورة الأعراف ١٠٨ .

(٢) سورة الشعراء ٣٢ ، الأعراف ١٠٧ .

وحكى عن أبى زيد أنه سمع هذه المسألة من العرب ، بنصب « إياها » ، فإن صحّ أنه سمعها فهذا وجه، ويجوز فى قياس قولهم: أن يكون على إسقاط الكاف ، وهم يروُون فى الخبر : « ذَكاة الجنين ذَكاةَ أمه[1] » ، بنصب « ذكاة » يقدّرون كذكاة أمّه ، فتقديرها فإذا هو كَهَا ، أى فإذا الزنبور كالعقرب ، وهم يجيزون إدخال الكاف على الضمير ، وسيبويه يمنعه إلاّ فى الشعر كقول العجّاج :

* وأم أوعالٍ كها أو أقربا *

وقال رؤبة :

فلا أرى بعلاً ولا حلائلا[2] كَهُو ولا كَهُنّ إلا حاظلا

وأجاز بعضُ النحويين أن يكون « إياها » كنايةً عن الجملة ،التقدير: فإذا هو لسعتُه كلسعتها، فكنى عن الجملة بقوله : « إياها » وينصب على الحال، لأنها كناية عن الجملة ، وهي نكرة فتصير فى حُكْم النكرة ، كما صارت الهاء فى : ربّه رجلاً نكرة فى المعنى ، لكونها كناية عن نكرة ، ولذا دخلت « رُبّ » عليها، وهى لا تدخل إلاّ على نكرة ، فهذا مايقتضيه وجه النصب فى « إياها » على ما ذكره الكوفيون ، والفرقُ بين إذا الزمانية والمكانية من أوْجُهٍ :

أحدها أنّ الزمانية تقتضى الجملة الفعلية لما فيها من معنى الشّرْط ، والمكانية تقع بعدها الجملة الابتدائية أو المبتدأ وحده .

والثانى:أنّ الزمانية تقتضى جوابا والمكانية لا تقتضيه .

والثالث : أنّ الزمانية مضافة إلى الجملة التى بعدها ، والمكانية ليست مضافة إلى ما بعدها ، بدليل خرجت فإذا زيد ، فزيد مبتدأ وإذا خبره .

---

(١) الخبر فى النهاية لابن الأثير ٢ : ١٦٤ . قال : والتذكية الذبح والنحر ...
(٢) ديوانه ١٢٨ .

والرابع : أنّ الزمانية تكون في صدر الكلام ، نحو إذا جاء زيد فأكرمه، والمكانية لا يُبتدأ بها إلا أن تكون جوابا للشرط ، كالفاء في قوله :﴿ وإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئة بما قدمت أيديهم إذا هُمْ يقنطون ﴾ .

والخامس: أنّ الزمانية تقتضي الاستقبال والمكانية تقتضي معنى الحضور ، لأنها للمفاجأة ، والمفاجأة للحاضر دون المستقبل .

انقضى الكلام عليهما على جهة الاختصار .

• • •

فكتمتُ سِرَّه كما يُكتَمُ الدَّاءُ الدخيل ، وسترتُ مكرَه وإن لم يكن يُخيل ؛ حتّى إذا نَزَعَ عن إعوالِه ، وقد عَرف عُثورى على حالِه ، رمَقني بعينِ مِضحاكٍ ، ثمَّ طفِق يُنْشِدُ بِلِسانِ مُتَباكٍ .

أستغفرُ اللهَ وأعنُو لَهُ — من فَرَطاتٍ أثقلَتْ ظَهْرِيَهْ

يا قـــومِ كم من عاتقٍ عانسٍ — مَمْـــدوحةِ الأوصاف في الأنديَهْ

قتلتُهـــا لا أتَّقِي وارثًا — يطلُبُ منِّي قَوَدًا أوديَهْ

وكلَّ ما استُذنِبْتُ في قتلِها — أَحَلْت بالذَّنب على الأقضيَهْ

ولم تَزَلْ نفسِيَ في غيِّهَا — وقَتْلِها الأبكارَ مُستشرِيَهْ

قوله : الدّاء الدخيل ، هو الذى لا يُتكلّم به استقباحا له أو لحاله . يُخيل : يشتبه ويشكل ، وخال يَخيل: اشتبه. نزع : كفّ ، إعْوالِه : بكائه . عُثورى: اطلاعي. رمقني : نظر إليّ . بعين مِضحاكٍ ، أي كثير الضحك . مُتَباكٍ :

مستعمل للبكاء بتكلّف . أعنو : أذلّ . فرطات : سقطات وزلّات . عاتق : شابة قد أدركَتْ ولم يَبِنْ بها زوجها ، بل هى بِكْر ، ويريد بها الخمر التى لم يفضّ أحدٌ خاتَمها . وعانس : طالت إقامتها فى بيت أبيها . الأندية : المجالس . القَوَد : قتل النفس بالنفس . استُذنبتُ : نُسبت إلى الذنب : الأقضية : جمع قضاء ، أى كلما قيل لى : فما هذا الذنب ؟ قلت : إنما هو قضاء الله وقَدَره ، وأخذ هذا المعنى من قول الحُسَين بن الضحاك :

واتركى العَذْل على مَنْ قالَهُ وانسبى جَوْرى إلى حكم القَضا(١)

ولهذا البيت حكاية أدبية ، قال الحسينُ : كانت لى نَوْبة فى دار الواثق ، فبينا أنا نائم ذات ليلة ، إذْ جاءنى خادم من خدّام الحَرَم ، فقال لى : إن أمير المؤمنين يدعوك ، فقلت له : وما الخبر ؟ قال : إنه كان نائما إلى جَنْب حظيّته فقام وهو يظنّها قائمة ، فألمّ بجارية أخرى ، وعاد إلى فراشه ، فغضبت حظيّته وتركته حتى نام ، ثم قامت ، ودخلت حجرتَها فانتبه وهو يظنّها عنده ، فطلبها فلم يجدْها ، فقال : مَنِ اختلس كريمتى ، ويحكم أين هى ! فأخبرناه أنها قامت غَضْبَى ومضت إلى حجرتها . فدعا بك ، قال : فمضيت مع الرّسول وروّيت أبياتا فى طريقى ، فلما جئته خبّرنى القصة ، وقال لى : قل فى هذا شيئاً ، ففكّرت هُنيْهة كأنى أقول شعراً ، ثم أنشدته الأبيات :

غَضِبَتْ أن زرتُ أخرى غضبةً فلها العُتْبى علينا والرِّضا(١)
يا فدتْك النفس كانت هفوةً فاغفريها واصفحى عمّا مَضَى
واتركى العَذْل على مَنْ قاله وانسبى جَوْرِى إلى حكم القضا
فلقد نبّهتِنى من رقدتى وعلى قلبى كنيران الغضى

(١) ٧٠ ، وفى ط : « الحسن » تحريف .

فقال : أحسنتِ بحياتى ، أعدها علىّ يا حُسين ، فأعدتها عليه حتى حفظها . وأمر لى بخمسمائة درهم . فقام ومضى إلى الجارية فأنشدها الأبيات فتراضيا ، فكان بعدُ إذا رآنى تبسّم لموقع الأبيات ونجحِها عند الجارية ، والإحالة على القضاء بالذّنب هو مذهب الجَبْرية فمن فعل منهم ذنبا قال : لا ذنب لى ، إنما قُدّر علىّ ومذهب القدريّة خلافه ، قال الشاعر فى ردّه :

إذا أذنبوا قالوا مقاديرُ قُدِّرَتْ وما العار إلا ما تجرُّ المقادِرُ

وقوله : غيّها ، أى فسادها . مستشرية : لاحية مصمّمة ، واستشرَى الشىء : انتشر ، واستشرَى فى أمره : لجّ فيه .

[وَأد البَنات]

والقتل الذى ذكره للبنات هو الوأد الذى كانت تفعله الجاهلية ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وإذا الْمَوْءودةُ سُئِلَتْ . بأىّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾

والموءودة: التى تُدفَن حيّة ، فتثقل بالتراب، والوأد : القَتْل .

وورد قيس بن عاصم المِنْقَرِىّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له بعض الأنصار عن وأده البنات ، فقال قيس : ما ولدتْ لى بنتٌ إلاّ وأدتها ، وما رحمت منهنّ إلاّ واحدة ولَدَتْها أمها ، وأنا فى سَفَرٍ ، فدفعتْها إلى أخوالها ، وقدِمتْ فسألت عن الحمل ، فأخبِرت أنها ولدت ميتاً . ومضت سنون ، حتى ترعرعت ، فزارت أمّها ذات يوم، فدخلتُ فرأيتُها قد ضَفَرَتْ شَعْرها ، وجعلت فى قرونها شيئاً من الخَلُوق ، ونظّمت عليها ودَعاً ، وألبستها قلادة ، وجعلت فى عنقها مخنقة ، فقلت : مَنْ هذه الصبيّة فقد أعجبنِى حسنُها ؟ فبكتْ ثم قالت: هذه ابنتك ، كنت خبّرتك أنّى ولدت ميتاً ، وهذه التى ولَدْت ، فجعلتها عند خالها ، وبلغتْ لهذا المبلغ . فأمسكتُ عنها حتى اشتغلتْ أمها ، ثم أخرجتها يوما ، فحفرتُ

حفرة فجعلتها فيها ، وهى تقول : ياأبت أتغطِّينى بالتراب ! حتى واريتُها وانقطع صوتُها ، فما رحمت واحدة منهنّ ممن وأدتُ غيرَها . فدمعتْ عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إنّ مَنْ لا يَرْحَم لا يُرحَم[١] » .

وذُكِرَ[٢] أن قيساً وأدَ بيده بضع عشرة ابنة ، وكان السبب فى وأد البنات أن المشمرج[٣] اليَشْكَرِىّ أغار على قوم قيس ، فسبا نساء فيهنّ ابنته وابنة أخيه ، فدخل قيس إليهم فسألهمْ أن يهبوهما له ، فوجد المشمرج قد اصطفاهما لنفسه ، فسأله إياها ، فقال : قد جعلت أمرهما إليهما ، فإن اختارتاك فخذهما ، فاختارتا المُشَمْرِج ، فانصرف فوأدَ كلّ ابنة له خوفا من الفضيحة ، فاقتدت به العرب فى ذلك .

قال الهيثم : إن الوأد كان مستعمَلا فى قبائل العرب قاطبة ، وكان يستعمله واحد ويتركه عشرة ، فجاء الإسلام ، وقد قلّ إلاّ فى تميم .

وقيل : كان الوأد فى تميم وقيس وبكر وهوازن وأسد ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اشدد وطأتك على مُضَر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » ، فأجدبوا سبع سنين حتى أكلوا الوبر بالدم ، ولهذا جاء تحريم الدم ، وهذا خبر بيِّن أنّ الوأد كان للحاجة لا للأَنفة ، وبه نزل القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلوا أولادَكُمْ خَشْيَةَ إملاق ﴾، وقال : ﴿ ولايقتُلْنَ أولادهنّ ﴾.

ومن ذَكَرَ أنه كان أَنفةً وأنه كان فى تميم ، ومَنْ جاورهم فيحتج بحديث أبى عبيدة ، أن تميما منعت النعمان الإتاوة ، فوجّه إليهم أخاه الريان ، وجُلّ من معه من بكر بن وائل ، فاستاق النَّعم وسبَى الذّرارى . وفى ذلك يقول المشمرج اليشكرىّ :

---

(١) الخبر فى الأغانى ١٤ : ٦٩ ، ٧٠ (٢) الخبر فى الكامل ٢ : ٨٢

(٣) ط : « المستخرج » تصحيف ، وفى الأغانى ونهاية الأرب ٤ : ١٢٧ : « عمرو بن المشمرج » .

لمّا رأوا راية النعمان مُقْبِـلةً قالوا ألا ليتَ أدنى دارِنا عدَنُ
ياليت أمّ تميم لم تـكن عرَفَتْ مُرًّا[١] وكانت كَمَن أودى به الزَّمنُ

وقال النعمان فى جوابه :

لله بكرٌ غداةَ الرَّوْعِ لو بِهِمُ يُرْمَى ذُرا حضَنٍ زالت بهم حضَنُ
إذلا أرى أحداً فى الناس يُشبههم[٢] إلا فوارس خامت عنهمُ اليمنُ

فوفدت إليه تميم ، فأناب إليهم ، وأحب البُقيا . وقال:

ما كان ضرّ تميما لو تغمّدهـا من فضلنا ما عليه قَيْسُ عَيْلانِ

فسألوه النساء ، فقال: كلّ امرأة اختارت أباها رُدّت إليه ، وإن اختارت صاحبها تُركت عنده فـكلّهن اخترنّ آباءهنّ إلاّ ابنة قيس بن عاصم ، اختارت صاحبها عمرو بن المشرج ، فنذَر قيس : ألاّ تولد له ابنة إلا قتلها .

فهذا شيء يَعْتَلّ به من وأدالبنات ، ويقول : فعلناه أَنفة ، وقد كذّب بما أنزل الله تعالى فى القرآن المجيد . وأين فعلُ قيس فى الوأد وقساوة قلبه من فعل صعصعة بن ناجية بن عقال جدّ الفرزدق ! فإنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، إنى كنت أعمل عملا فى الجاهلية لنفسى ، أينفعنى ذلك اليوم ؟ قال : وما عملك ؟ قال . أضللتُ ناقتين عُشَرَاوَيْن[٣] ، فركبت جملا ومضيت فى بُغائهما ، فرُفع لي بيت فقصدته ، فإذا شيخ جالس بفناء الدار ، فسألته عنهما ، فقال : هما عندى ، وقد أحيا الله تعالى بهما قوماً من أهلك مُضَر ، فجلستُ عنده ليَخرُجا إلىّ ، فإذا عجوز قد خرجت من كِسْر البيت ، فقال لها : ما وَضَعَتْ ؟ فإن كان ذَكَراً شاركناه فى أموالنـا ، وإن كان أنثى وأدْناها !

(١) ط : « مروا » تصحيف . (٢) الـكامل : « أشبههم » .
(٣) العشراء : الناقة التى أتى عليها مذ حملت عشرة أشهر .

فقالت : وضعتْ أنثى ، فقلت : أتبيعنيها ؟ فقال : وهل تبيع العرب أولادَها ! قال : فقلت : إنما أشترى حياتَها لارِقّها ، فقال : بكم ؟ فقلت : احتكم ، قال : الناقتين والجمل ، قلت : ذلك لك ، على أن يبلّغني وإياها الجمل ، ففعل . فآمنتُ بك يا رسول الله ، وقد صارتْ لى سنّة فى العرب ، أشترى كلّ موءودة بناقتين وجمل ، فعندى إلى هذه الغاية ثمانون ومائة موءودة ، قد أنقذتها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ينفعك ذلك ، لأنك لم تبغ ِ وجه الله ، وإن تعمل فى إسلامك عملا صالحاً تُثَبْ عليه » .

وقال الفرزدق يفتخر بفعل جدّه على جرير :

ألم تر أنـا بنـودارمٍ زُرارة منّا أبو مَعْبَـدِ[١]
ومنّا الذى منع الوائداتِ وأحيا الوئيد فلم تُوأدِ
أيطاب مجـدَ بنى دارمٍ عطيـةُ كالجَمَـل الأسوَدِ
قرَنْبى يحكّ قفا مُقْرِف لئـيمٌ مآثره قُعـدُدِ
ومجـد بنى دارمٍ دونه[٢] مكانَ السماكين والفرْقد

وعطية هو أبو جرير ، ويأتى فى الأربعين .

وجاء فى الحديث الترغيب فى إكرام البنات ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « مَن ابتُلى بشىء من هذه البنات ، فأحسنَ إليهنّ كنّ له ستراً من النار » . وفى طريق آخر « مَنْ كان له ثلاث بنات ، وثلاث أخوات أو بنتان ، أو أختان ، فأحسنَ صحبتهنّ واتّقى الله فيهنّ ، فله الجنّة » .

ولبعضهم تهنئة بمولودة : اتّصل بى خبر المولودة ، كرّم الله غرّتها ، وأنبتها نباتاً حسنًا ؛ وقد علمتُ أنهن أقربُ إلى القلوب ، وإن الله عز وجل قد بدأ بهنّ

(١) ديوانه : ٢٠٥
(٢) الديوان : « فوقه » .

فى الترتيب، فقال سبحانه: ﴿ يَهَبُ لمنْ يَشاءُ إناثا وَيَهَبُ لِمَنْ يشاء الذُّكُور ﴾ وماسمّاه الله تعالى هبةً فهو بالشكر أولَى ، وبحسنِ التقبّل أحرى .

وقال بعض الشعراء :

أحِبّ البنات وحُبّ البنا ... تِ فَرْضٌ على كلّ نفسٍ كريمَهْ
فإنّ شعيبا من أجل ابنتَيـــه أخْدَمه الله موسَى كليمَهْ

وفى الحديث : « دَفْن البنات من المَكْرُمات » .

عزّى رجلٌ يحيى بن خالد فى حُرْمة له ، فقال: أيّها الوزير دَفْنُ الحُرَم من النِّعم ، ثم قال :

تَعزَّ إذا رُزِئْتَ فَخَيْرُ درعٍ ... يسربَل للمصائب دِرْعُ صَبْرِ
فلم أر نعمةً شملتْ كريما ... كعورَة مسلم سُتِرَتْ بِقَبْرِ

وقال عمر بن أبى علقمة المرىّ :

إنىّ وإن سِيق إلى المَهْرُ ... ألفٌ وعَبْدان وذَوْدٌ عَشْرُ
* أحَبُّ أصهارى إلىّ القبرُ *

وقال إسحاق بن خَلَف :

لولا أُميمةُ لم أجزعْ من العَدَمِ ... ولم أجُبْ فى الليالى حِنْدسَ الظُلَمِ (١)
تهوَى حياتِى وأهوى موتَها شفقاً ... والموتُ أكرم نزّالٍ على الحُرَمِ (٢)

(١) ط : « أبو اسحاق » ، وهو خطأ .
(٢) ديوان الحماسة بشرح التبريزى ١ : ٢٧٤ ، وبعده هناك :

وزادنى رغبة فى العيش معرفتى ... ذلّ اليتيمة يجفوها ذوو الرَّحِمِ
أحاذِرُ الفقر يوماً أن يُلِمَّ بها ... فيهتك السِّتر عن لحمٍ على وَضَمِ

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

لكلِّ أبى بنتٍ يراعِى شئونَها ثلاثة أصهارٍ إذا ذُكِرَ الصِّهْرُ
فبيتٌ يغطِّيها وبعلٌ يصونُها وقَبْرٌ يُواريها وخيرُهُمُ القَبْرُ

وقال آخر :

لاتيأسنْ منها فقد زوّجتُها كفؤا وضَمِنْتَ الصَّدَاق مَلِيكَا

* * *

حتّى نَهَانِى الشَّيْبُ لمَّا بَدَا فى مَفرِقى عن تِلكُمُ المَعْصِيَهْ
فلم أرقْ مذْ شاب فَوْدِى دمًا من عاتِقٍ يَوْمًا ولا مُصْبِيَهْ
وها أنذا الآنَ على ما تُرَى منِّى ومِنْ حِرْفتى المُكْدِيَه
أُرَبُّ بِكرًا طَالَ تَعْنِيسُها وحَجْبُهَا حتَّى عن الأهوِيَه
وهى علي التَّعْنِيس مَخْطُوبَةٌ كخِطبَةِ الغانيةِ المُغنِيَه
ولَيْسَ يَكفِينِى لتجهيزها على الرِّضا بالدُّونِ إلاَّ مِيَهْ
واليدُ لا تُوَكى على دِرْهَمٍ والأرْضُ قفرٌ والسَّماء مُصْحِيَهْ
فهلْ معِينٌ لى على نَقْلِهَا مصحوبةً بالقَيْنَةِ المُلْهِيَهْ
فيغسِلَ الهمَّ بصابونِهِ والقَلْبَ من أفكارِه المضنيَه
ويقتنى منِّى الثناء الَّذى تَضُوعُ رَيَّاهُ مع الأدعيَهْ

* * *

قوله : فَوْدِى ، أى ناحية رأسى . مُصبِية : لها صَبْوة ، أو يصبو إليها مَنْ رآها ، وجعل الخمر مُصْبِيَة ، لأنّها تغلب شرّابها فتصيِّرهم سكارى ، عقولهم

عقول الصبيان ، فهى تلعبُ بهم كما تلعب الأمّ بصبيانها . حِرْفَتِى : صنعتى . الكدية : الصعبة ، وأكدى الحافرُ : بلغ كدية ، فرفع عن الحفر آيساً من الماء ثم استُعير لغير ذلك أرُبّ : أصلح . تعنيسها : إقامتها بغير زوج .

قال عمر رضى الله تعالى عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مكتوب فى التّوراة : مَنْ بلغت ابنته اثنتى عشرة سنة ، فلم يزوّجها فأصابت إثماً فإثم ذلك عليه » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ بلغَ له ولد النكاح وعنده ماينكحه به فلم ينكحه ، فأصاب إثماً فالإثم بينهما » . ويَعْنى بها خمراً قديمة حجبها عن الأهوية ، لئلا يُفْسدها الهواء .

قوله : مخطوبة : مطلوبة . الغانية : البارعة الجمال التى غَنِيتْ بحسنها عن الزينة ، قال الرستمى : أصلها فى ذات الزوج الّتى استغنت بزوجها ، ثم قيل فى غير ذات الزوج . قال عمارة : هى الشابّة التى تعجب الرجال ويعجبونها . المُغْنية : التى نشأت فى الغِنى ، وأغنَى بمعنى استغنى ، والمغنية أيضاً : التى تغنى زوجها عن غيرها لكمال خصالها . توكأ : تشدّ وتربط ، والوِكاء : الخيط يشدّ به فم الوعاء .

وراود عبدٌ فى الجاهلية ابنةَ سيّده عن نفسها ، فأمكنته حتى بلغ أربه منها ، ثم عمِدتْ إليه فجبّته . فقال لها أبوها فى ذلك ، فقالت : مَنْ ورد غير مائه ، صدَر بمثل حالِه ، إنّ العبد لمن نوكه قد ابتذل إناء لم يوكِهِ ، فقال أبوها : يابنيّه لاشالا ولا همى .

وميّه : محذوفة اللام ، ولا يدرى أواو لامُها أم ياء ، قاله صاحب العين . وقال ابنُ الأعرابىّ : امأيت القومَ ، وأمأيتُهم : صاروا بى مائة ، ففى مأيت دليل قاطع على أن اللام ياء .

وقال الفراء رحمه الله تعالى وكُراع : أصلها مِئية ، وأنشد :

فقلتُ والرَّكب قد تَخْطِيه منيّته   أدنى عطيات آبائى مثياتُ

قوله : قَفْر: غير عامرة. مُصحية : زال سحابها، ضرب به مثلا للخُلوّ من المال ، فلا فى أرضه خصب فتعمر من أجله ، ولا فى سمائه سحاب فيرجَى خيرُها . وقد تقدّم لغيمى مطر .

القَيْنة الملهية : الجارية المغنّية ، وهى فى كلام العرب الأمَة ، مغنِّية كانت أو غيرَ مغنّية ، قال زهير :

* ردّ القيان جِمالَ القوم فاحتملوا[١] *

واشتقاقها من قُنتُ الشيء أقينه قَيْناً ؛ إذا لممته ، قال الشاعر :

ولى كَبِدٌ مجروحةٌ قد بدا بها   صدُوع الهوى لو أن قيناً يَقِينُها[٢]

ولهذا سمِّىَ الصّواغ والحداد قَيْنًا ، والماشطة قَيْنة .

قوله : فيغسل الهمّ بصابونه : يعنى فيغنى هَمِّى بالخمر لأنها تنفى الهمّ والحزن والغم كما يغسل الصابون وسخ الثوب . المضنية : الممْرّضة . يقتنى : يكتسب . نضوّعَ ريّاه : تتحرك رائحته ، يريد أنه يكتسب منه السامع الدعاء فيثنى عليه ثناء حسنا فى الدنيا ويدعو له بالآخرة ، ويقال: ضاعَ المسك يضُوع، أى انتشرت رائحته ، وقال الشاعر :

وما هو إلاّ المِسْكُ عند ذوِى الحجى
يَضُوع وعنـــد الجاهلينَ يضيعُ

---

(١) ديوانه ١٦٤ ، وبقيته:

* إلى الظهيرة أمرٌ بينهمْ لَبِكُ *

(٢) اللسان ــ قين

قال الراوى : فلمْ يَبْقَ فى الجماعة إلاَّ مَنْ نَديتْ له كفُّهُ ، وانباعَ إليه عُرْفه فمّا نجحتْ بغيتُه ، وَكَمُلَت مِئَتُه ، أخذ يُثنى عليهمْ بصالحٍ ، ويُشمِّر عن ساقٍ سارح ؛ فتبعته لأستْعرِفَ رَبيبَةَ خِدْرِه ، ومَنْ قتل فى حِدْثان أمره ، فكأنَّ وَشْكَ قيامِى ، مثَّلَ له مَرامى . فازدلَف منّى ، وقال : افقَه عنِّى :

قتْل مِثلي يا صاحِ مَزْجُ المُدام لَيْسَ قَتْلِي بلَهْذَمٍ أو حُسامِ

والَّتِي عُنِّسَتْ هى البِكرُ بنتُ الـــكَرْمِ لا البِكْرُ بنتُ الكرامِ

ولتجهيزها إلى الكأْسِ والطّا سِ قيامى الَّذِي تَرَى ومُقَامِي

فتفَّهمْ ما قلتُــه وتحكَّمْ فى التّغاضِي إنْ شئت أو فى المَلاَمِ

ثم قال : أنا عِرْبيدٌ ، وأنت رِغْديد ، وبيننَا بَوْنٌ بعيد . ثمَّ ودَّعنى وانطَلَقَ ، وزوَّدنِي نظْرةً من ذى عَلَق .

* * *

نديت : كرمت . انباع : سال . عُرْفه : معروفه . نجحت : انقضت وتمت ، بُغيته : طَلِبته . طَفِق : أخذ وجعل . سارح : ذاهب ، يريد أنه شمرّ للسير ، وأضاف ساقا لسارح ، وهو يريد : عن ساق رجل سارح ، أى ذاهب . ربيبة خدره ، أى التى رباها فى بيته ، ورَبيبة الرجل بنت امرأته من غيره ، قيل لها ذلك لأنه يربّيها فهى «فعيلة» بمعنى مفعولة ، فأصلها مربوبة ، ويقال : ربّ فلان فلانا وربّاه وربَّبَه وتربّبه بمعنى واحد . حدْثان : أول . وَشْك : سرعة . مرامى : مرادى ومطلبى . ازدلف : قرُب ، ويقال : قتلت الخمر ، إذا مزجتها ، وقد فسره بقوله : مزج المدام .

[حكايات وأشعار حول الخمر]

قال الأخطل :

فقلت اقتلُوها عنكمُ بِمزَاجها وأحبِبْ بها مقتولةً حين تُقتَلُ[١]

وكان الأخطل خليعاً ، فأثنى هنا على الممزوجة . وقال فى التى لم تمزج :

وكأسٍ مثل عين الديك صرفٍ تُنسى الشاربينَ لها العُقُولاَ[٢]
إذا شرب الفتى منها ثلاثاً بغير الماء حاوَل أن يَطُولاَ
مشَى قرشيَّةً لاشكَّ فيها وأرخى من مآزره الفُضُولا

• • •

وأصبح عبد الملك يوما فى غَداةٍ باردة ، فأنشد هذه الأبيات ، ثم قال : كأنّ الأخطل الآن فى حانوت خمار محلّل الإزار ، مستقبلَ الشمس . ثم بعَث منْ يطلبه بدمشق ، فوجده كما وصف .

وقال له يوما: ألا تُسْلِم فنفرِض لك فى الفىء ونعطيك عشرة آلاف درهم ؟ قال: فكيف بالخمر ؟ فقال له عبد الملك : وما تصنع بها ، وإنّ أوّلها مُرّ وآخرها سُكْر ! قال الأخطل : وفيما بين هاتين منزلة ما يسرنى لك بها .

وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه وقد أُعطِىَ كأس خمر ممزوجة :

إنّ التى ناولتِنى فرددتُها قُتِلَتْ - قُتِلتَ - فهاتهالم تقتل[٣]
كِلتاهما حلَب العصير فعاطِنى بزجاجة أرخاهما للمَفْصَلِ

فدعا بالقتل على الذى أعطاها له ممزوجة .

(١) ديوانه ٤ ، وروايته : « فأطيب بها » .
(٢) ديوانه ٣٧١ (٣) ديوانه ٣١١

وذكر الحريرى فى الدرة[1] البيتين ، وقال فى قوله : « أرخاها » القياس : أشدّها إرخاء للمفصل ، لأنّ أصل هذا الفعل أرخى ، فبناؤه ليس مقيساً كما قالوا : « ما أحوجه إلى كذا فبنوه من حوج ، وإن كان قياسه : ما أشدّ حاجته .

ولهذين البيتين حكاية يحسن أن نعقبهما بروايتها ، ونضوع نشرها بنشر مُلَحِها ، وهى ما رواه أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارىّ عن أبيه ، قال : حدّثنا الحسن بن عبد الرحمن الربَعىّ قال: حدّثنا أحمد بن عبد الملك بن السَّماك السعدىّ قال : حدّثنا أحمد بن ظبيان الحائز ، قال : اجتمع قوم على شراب لهم ، فغنّاهم مغنّيهم بشعر حسان : « إن التى » البيتين . فقال بعضهم : امرأتى طالق إن لم أسأل الليلة عبيد الله بن الحسن القاضى عن عِلّة هذا الشعر ، لم قال : « إن التى » ، فوحّد ، ثم قال : كلتاهما ، فثنّى ؟ فأشفقوا على صاحبهم وتركوا ما كانوا عليه ، ومضوا يتخطَّوْن القبائل ، حتى انتهوا إلى بنى شُقْرة وعُبيد الله ابن الحسن يصلّى ، فلمّا فرَغ من صلاته قالوا : قد جئناك فى أمرٍ قد دعتْنا إليه ضرورة ، وشرحوا له خبَرَهُم ، وسألوه الجواب ، فقال :

« إنّ التى ناولتِنِى فرددتها »

عَنَى بها الممزوجة بالماء ، ثم قال : من بعد : كِلتاهما حلَب العصير ، يريد الخمر المحتلبة من العنب ، والماء المتحلب من السحاب ، المكنّى عنها بالمعصِرَات فى قوله تعالى : ﴿وأنزلنا من المُعْصرات ماء ثَجَّاجا﴾ ، قال الشيخ الإمام الأجلّ الأوحد العالم أبو محمد أدام الله سعادته : فهذا ما فسره به عبيد الله بن الحسن .

وقد بقى فى الشعر ما يحتاج إلى كشف سرّه ، وتبيان نُكَته ، أما قوله :

إن التى ناولتنى فرددتها قتلت قتلت . . .

فإنه خاطب به السّاقى الذى كان ناوله كأساً ممزوجة ، لأنه يقال : قتلتُ الخمر إذا امزجتَها ، فكأنه أراد أن يعلمه أنه قد فطن لما قدْ فعله ثم ما اقتنع منه بذلك

(١) درة الغواص ٧٣

حتى دعا عليه بالقتل فى مقابلة المزج . وقد أحسن كل الإحسان فى تجنيس اللفظ ، ثم إنه عقب الدعاء عليه بأن استعطى منه ما لم تقتل ـ يعنى الصرف ـ التى لم تمزج .

وقوله : أرخاها للفصل ، يعنى اللسان ، وسمى مفصلاً بكسر الميم ، لأنه به يفصل بين الحق والباطل ، وليس فيما اعتمده عبيد الله بن الحسن من الإسماح وخفض الجناح ، ما يقذف فى نزاهته أو يغض من نبله وبراعته .

ويضارع هذه الحكاية فى وطأة القضاة المتقشفين للمستفتين وتلاينهم فى مواطن اللين ، ما يحكى أن حامد بن العباس ، سأل على بن عيسى فى ديوان الوزارة عن داء الخمار ، وعن دوائه ، فأعرض عن كلامه ، وقال : ما أنا وهذا للمسألة انخجل حامد منه ، ثم التفت إلى قاضى القضاة أبى عمرو ، فسأله عن ذلك فتنحنح القاضى لإصلاح صوته ، ثم قال : قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (١) ، وقال النبى عليه الصلاة والسلام : « استعينوا على الصناعات بأهلها » . والأعشى هو المشهور فى الجاهلية بهذه الصناعة ، قال :

وكأسٍ شَرِبْتُ على لذَّةٍ وأخرى تَدَوَيْتُ مِنْها بِهَا (٢)
لكى يعلمَ النّاسُ أنّى امرؤ أتيت المروءة من بابِهَا

ثم تلاه أبو نواس فى الإسلام ، فقال :

دعْ عنك لومى فإنّ اللوم إغراء وداوِنى بالّتى كانتْ هى الدّاءُ (٣)

فأسفر حينئذ وجه حامد ، وقال لعلى بن عيسى : ما ضرك يابارد أن تجيب

(١) سورة المائدة ٤١
(٢) دايونه ١٧٣
(٣) ديوانه ٢٣٤

ببعض ما أجابَ به قاضي القضاة ؛ وقد استظهر في جواب المسألة بقوله سبحانه أولا ، ثم بقول الرسول عليه الصلاة والسلام ثانياً ، وبيّن الفتيا وأدّى المعنى ، وتفصّى من المهدة . فكان خجل عليّ بن عيسى من حامد بهذا الكلام أكثر من خجل حامد منه ، لِمَا ابتدأه بالمسألة وتبع حسانَ مسلمُ بن الوليد ، فقال وأحسن :

إذا شئتما أن تسقياني مُدامةً ... فلا تقتلاها كلّ ميتٍ محرّمُ[1]
خلطْنا دماً من كَرْمةٍ بدمائِنا ... فأظهرَ في الألوان منّا الدمَ الدمُ

وقال أبو نواس في الصِّرف :

وكُمَيْتٍ أرقَّها وهَجُ الشمـ ... ـس وصيفٌ يفنَى بها وشتاءُ
لم يَشِنْها الطاهي بطبخ ولا غيّـ ... ـرها عن طبيعةِ الكرْم ماءُ

وقال فيه أيضاً :

توارتْ عن الأبصار من عهد آدمٍ ... حِذاراً لِكون الماء يوماً قرينَها[2]
فصُنْهَا عن الماء القراح وأسقِني ... فإنك إن لم تسقِني متّ دُونَها

على أنه القائل :

ألاَ دارِها بالماء حتى تلينَها ... فلن تكرمَ الصَّهباء حتى تهينَها

وقال أبو نواس لإخوانه في مرض موته : إياكم والخمر صرفاً فإنها أحرقت كبدي ، قال ابن رشيق :

قِدْرُ المُدامة فوق قِدْر الماء ... فارغَبْ بكأسك عن سوَى الأكفاء[3]

---

(١) ديوانه ١٧٩ .
(٢) ديوانه ٣٤٩ .
(٣) النتف ٥ .

مالى ومَزْجَ الرّاح إلاّ فى فمى ... بالرّيق مِن فم غادةٍ حسناء
ذاك المِزاج وإن تمدّانى الّذى ... فى لمُزنْ من ذى رقّةٍ وصفاء
أشهى وأبلغ فى الفؤاد مَسَرّةً ... من غيره وأدبّ فى الأعضاءِ
لِي الصِّرْفُ إن مَزَجَ النّديم ولم أكُنْ ... مستأثراً فيها عن النُّدَماءِ

وقال أيضاً :

قلت لمن ناوَأني مُوَبّخٍ ... ما بِيَ حُبّ الفيدِ بل حُبّها[1]
لا تسقنى راحَكَ ممزوجة ... واشرب فما يمكننى شربُها
ما راحتى فى الرّاح إن غُيّرَتْ ... دعها كما جاء بها رَبُّها

ونصلُ بهذا النّمط ، ما قيل فى نبيذ الزبيب ، قال أبو الأسود الدؤلىّ :

دع الخمر يشربها الغواةُ فإنّنى ... رأيتُ أخاها مغنياً بمكانِها
فإن لا يكنها أو تكنه فإنّه ... أخوها غذَتْهُ أمُّهُ بلبانها

يقول : إن لا يكن الزبيب الخمر أو الخمر الزبيب ، فإنهما أخوان غذيا بابن واحد وهى الحبّة التى هى أصل العنب والزبيب ؛ فأحدهما ينوب مناب الآخر ، وأنشد الحامضىّ :

تركتُ الحُمَيّا لستُ أختار شربَهَا ... وما حاجتى فى أن أُمِرّ الأعاديا
ولكنّ أخرَى من نبيذٍ معتّق ... يمنّيك إن أكثرت منه الأمانيا
أخو الخمرِ من عنقودها غير أنهمْ ... إذا قطعوها جَفّفُوه لياليا

قال المأمون : نقلت هذا المعنى بأبيات ملوكية لا تحضر السوقة بمثلها :

---

(١) التنف ٧

صلّى النّدْمان يوم المهرجانِ بكأسٍ من معتّقةِ الدِّنانِ
بكأس خمرٍ وإنّى عتيقٌ فإنّ العبد عبد خمروانِي
وجنّبنى الزّبيبين طرًّا فشأن ذوى الزّبيب خلاف شانِي
فأشربُها وأزعمها حراماً وأرجو عفو ربٍّ ذى امتنانِ
ويشربها ويزعُمها حلالاً وتلك على الشّقِىّ خَسارتان

سأل رجل شريحاً القاضى : هَلِ النبيذ حلال أم حرام؟ فقال : حلال،فقال: قليله خيرٌ أم كثيره ؟ قال : قليله ، قال الرجل: مارأيت حلالاً وقليله خير من كثيره إلا هذا .

وقال قُتيبة بن مسلم لقاضى مَرْو : بلغَنى أنك شربتَ النبيذ ، قال : نعم أصلحك الله ! أشربُ منه ما يسلّى العقل ويُطيبُ النفس ، ويُغنِى عن الماء،ويهضم الطعام ، قال : فما أبقيت ؟ قال : أبقيت أخبَثَه وأرداه ، الاتّكاء على الشمال ، ومنادمة الرجال ، والاختلاف إلى المبَالِ .

وترك رجل النبيذ فقيل له:لِمَ تركتَه وهورسول السرور إلى القلب ؟فقال: ولكنه بئس الرسولُ ! يُبعثُ إلى الجوْف فيذهب إلى الرأس .

• • •

قوله لَهْذم : هو سِنان الرُّمْح . بنت الكرم : الخمر ، وتجهيزها : حلها . والطاس : إناء الخمر كالإبريق يصبّ منه الشراب فى الكأس ، وجمعه طاسات ، قال الناشى :

وكأنّما الطاسات ممّا حَوْلَها من نورها يَسْبَحْنَ فى ضَحْضَاحِ
لو بُثّ فى غسق الظلام ضياؤها طلع المساء بغُرّة الإصباح

[مما قيل فى ذم الغناء ومدحه]

وقدّم فى المقامة أنه لا يجهّزها إلا مصحوبة بالقيْنة، أى لا يشربها إلا بالغناء .

وقد ذمّوا الغناء ومدحوه ، فأما ذمّه ، فقال الكِندىّ : الغناء بِرْسام حادّ ، لأن المرء يسمع فيطرَب ، فيسمح فيفتقر ، فيغتمّ فيمرض فيموت .

وقال يزيد بن الوليد: إياكم والغناء فإنه يُسقط المروءة ، وينقص الحياء ، ويبدى العَوْرة ، ويزيد فى الشهوة ، وإنه لينوب عن الخمر ، ويصنع بالعقل ما يصنع به السّكر وإن كان ولا بد فجنّبوه النساء ، فإنّ الغناء داعية الزنا .

وأما مدحه فقال ربيعة بن عبد الرحمن : السماع مطربة ، وهو من نتيجة العقل ، فمَنْ كَرِه السماع ، دلّ بذلك على قلة عقله .

وقال بعض الفلاسفة ، جُعلت اللّذات خمسا فى خمس، فجعل اللمس لليدين، والشمّ للمنخرين، والسمع للأذنين، والذوق للسان، واللون للعينين ، وعلى كلّ جارحة تعب من اللذات إلا النّغمة ، فإنه لا تعب على الأذنين فيها ، ولذلك صار النّاس كلُّهم عربيُّهم وعجميّهم ، صغيرهم وكبيرهم مشتركين فى الإصاخة إلى النّغمة الحسنة ، والصوت المستمتع ، متباينين فى غير ذلك . وقد يوجد أكثرها فى أكثر الحيوان كالخيل يصفر لها عند الشرب ، فتشرب والإبل يحدَى لها فتنقاد ، قال الشاعر :

فليس الشّراب إلاّ بالملاهِى وبالحركَاتِ فى بَمٍّ وزِيرِ
فلا تشربْ بلا طَربٍ فإنى رأيتُ الخيلَ تشربُ بالصّفِيرِ

وقال آخر :

فانظر إلى الإبِلِ الّتى هى - وَيْكَ - أغلظُ منك طَبْعا

تُصغِى إلى صوت الحدا ... ةِ فتقطع الفَلَواتِ قطعا

قوله : التغاضى أى التغافل . عِرْبيد : سيِّء الأخلاق عند سُكْرِه ، وهو الّذى يؤذِى بيده ولسانه أصحابه . رِعْدِيد : جَبان فزّاع . بَوْن : فضل ومزّية من ذى عَلَقٍ ، أى من صاحب محبّة ؛ هو مثل يضرب لمن ينظر بودّ ومحبّة ابن طريف : العلَق: الحبّ ، وعلِق فلانٌ فلانةَ ، أى أحبّها . والله الموفق .

المقامة السادسة والثلاثون الملطية

أخبر الحارث بن همّام قال : أَنَخْتُ بِمَلَطيَّة مَطِيّة البَيْن ، وَحَقِيبَتِى مَلْأَى من الْعَين ؛ فجعَلْتُ هِجِّيرَاىَ ، مُذْ أُلقيتُ بِهَا عَصَاى ؛ أن أَتَوَرَّدَ مواردَ الْمَرَح ، وأتَصَيَّدَ شَوارِدَ الْمُلَح ؛ فَلَمْ يَفُتْنِى بِهَا مَنْظَرٌ ولاَ مَسْمَع ؛ ولاَ خَلاَ مِنِّى مَلْعَبٌ وَلاَ مَرْتَع ؛ حَتَّى إذا لم يَبْقَ لِى فِيها مأرب ، وَلاَ فى الثَّواء بِهَا مَرْغَبٌ ، عَمَدْتُ لإنفاق الذَّهَب فى ابتياعِ الأُهَب . فلمَّا أَكْمَلْتُ الأعداد ، وتَهَيَّأَ الظَّعْنُ فيها أَوْ كادَ ، وَجَدْتُ بِهَا تِسْعَة رَهْطٍ قد سبئوا قَهْوَة ، وارتبئوا رَبْوَة ، ودَمَاثَتُهُمْ قَيْدُ الأَلْحَاظ ، وفُكَاهَتُهُمْ حُلْوَةُ الأَلْفَاظ ، فنحوتُهُمْ طَلَبًا لِمُنَادَمَتِهِمْ لاَ لِمُدَامَتِهِمْ ، وشَغَفًا بِمُمَازَجَتِهِمْ لا بِزُجَاجَتِهِمْ .

• • •

أنَخْتَ المطِيّة : صيّرتَها باركة بالأرض .

[ذكر ملطية]

مَلَطِيَّة : بلد بالجزيرة ذات أنظار وقُرى ، بينها وبين الرَّقّة خمسون فرسخاً ، والرَّقّة: أمّ قرى الجزيرة ، وذكرها المسعودى فى شعره فقال :

ولم يجلبوها من وراء مَلَطْيَةٍ تصدّع أجبالٌ بها وآكامُ

(١) ضبطها ياقوت : « بفتح أوله وثانيه وتخفيف الياء » قال : والعامة تقول بتشديد الياء وكسر الطاء » .

وقيل : مَلَطْية فى ثغر الشأم .

قال اليعقوبىّ : ملطية هى المدينة العظمى ، وكانت قديمة فأخربها الرُّوم ، فبناها المنصور سنة تسع وثلاثين ومائة ، وجعل عليها سورًا واحداً ، ونقل إليها عدّة قبائل من العرب ، قال : وهى فى مستوٍ من الأرض يحيط بها جبال الروم ، وماؤها من عيون وأودية من الفرات ، وخفّفها المتنبي ضرورةً فقال :

وكرّتْ فدّرت فى دماء مَلَطْيَةٍ ··· مَلَطْيَةُ أمٌّ للبنين ثَـكُولُ[١]

قوله : مطيّة البين ، يريد ناقة السفر ، أى أقام بها وترك السفر . الحقيبة : وعاء الرحل . والمَيْن : الذهب . هجّيرَاى : عادَتى . وألقى بها عصاه ، أى أقام بها وترك السفر . أتورّد : أطلب وأدخل ، وتورّدَت الإبل الماء : دَخلته قِطعةً قطعة . والمرح : النشاط . شوارد : نوافر ، وأراد أنه أتبَع نفسَه جميعَ اللذات بملطيّة وشاهدَها . مرتع : موضعٌ خصيب كثير الطعام . مأرب : حاجة . الثّواء : الإقامة . عمدت : قصدت . ابتياع الأهب : اشتراء العُدد للسّفر . الظّعن : الارتحال. الرّهْط. الجماعة من ثلاثة إلى عشرة . سبَئُوا قهوةً : اشتروا ، ارتبئوا ربوة : طلعوا كُدْيةً ، وقال الحسن :

وفتيانِ صِدْقٍ قد صرفتُ مطيَّهمْ ··· إلى بَيْتِ خَمّارٍ نزلْنا به ظُهرَا[٢]

أتيْنـــا يهوديا تجمّل ظاهرًا

ويُضمِرُ فى المـكنون من سِرِّه الشّرّا

فجاء بهـــا زَيْنَبيَّةً ذهبيّةً ··· فلم نستطعْ دون السُّجود لها صَبْرَا

خَرجْنا عِلى أنّ المُقام ثلاثةٌ ··· فطابتْ لنا حتى أقمنا بها شهرَا

---

(١) ديوانه ٣ : ١٠٢ .

(٢) ديوانه ٢٧٢ مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات .

وقال فى شراء الخمر بثيابه :

نجوتَ من اللص المغيرِ بسيفهِ إذا مارماه بالتِّجار سَبيلُ[1]

وواصَلْتُ[2] خمّارا علىّ بخمرة فراح بأثوابى[3] ورُحْتُ أميل

وقال الأمير تميم بن المعز :

شَرِبْنا على نَوْح المطوّقة الوُرْقِ وأرْديةِ الرَّوْضِ الملفّفَةِ البُلْقِ[4]

معتَّقة أفنى الزمانُ وجودَها فجاءت كفوْتِ اللَّحْظِ أو رِقّةِ العِشْقِ

كأنّ السحاب الغرّ أصبَحْن أكْؤُساً

لنـا وكأنّ الرّاحَ فيها سَنَا البرق

فبتنا نحثّ الـكأس حثًّا وإننا لنشربُها بالحثّ صِرْفًا ونَسْتَسْقى

إلى أن رأيت النّجْم وهو مغرِّبٌ

وإقبال[5] رايات الصَّباح من الشَّرْقِ

كأنّ سوادَ الليل والفجر طالعٌ

بقيّة لَطْخِ الـكُحْل فى الأعين الزُّرْقِ[6]

وأحسن فى هذا المعنى ماشاء ، إلاّ أنه جعل شربنا فى الرّوض على نوح الحمام ، ولو عوّض من لفظ « النوح » لفظ الغناء أو التغريد لـكان أتمّ لِلذّته ، كما قال ابن الرومىّ :

وأذكى نسيم الروض ريعانَ ظِلِّهِ وغنّى مغنِّى الطَّيْرِ فيه فَرَجّعَا[7]

---

(١) ديوانه ٣٢٣ (٢) ديوانه : « وساطت »

(٣) الديوان : « بأسلابى »

(٤) ديوانه ٢٩٦ وفيه : « الملفوفة » .

(٥) الديوان : « وأقبل »

(٦) الديوان : « بقايا مجال الـكحل فى الأعين الزرق » .

(٧) نقله البارودى فى مختاراته ٤ : ٧٥ .

وكانت أهازيج الذّباب هنا كمُ على شدوات الطير صوتا موقّما

وقال آخر :

وكأسٍ كريق الإلف شَعْشَعها به

وعيْشِيَ مِنْ هذا الشّراب المُشَعْشَعِ

إذا ماشَرِبنَا كأسَهَا صبّ فضلَها على رَوْضِنَا للمُسِمع المُتَخلّعِ

المسمع : المغنّى ، يعنى به الذباب الذى ذكره عنترة فى قوله :

فترَى الذباب بها يُغنّى وحده هَزِجًا كفعل الشّارب المترنّم[1]

وإنما ذكر الحريرىّ الرّبوة ، لأنّ النّبات فيها أحسن وأسلم من نبات الانخفاض ، لأن نَبات الانخفاض وَخِم ، قال الله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ جنَّةٍ برْبوَةٍ أصابها وابلٌ فآتَتْ أُكُلَها ضعفين ﴾[2] . وقال المتنبي[3] :

* نحنُ نَبْتُ الرُّبَا وأنت الغمام *

قوله : دماثتهم قيدُ الألحاظ ، أى سهولة أخلاقهم تقيّد عيون الناظرين إليهم حتى لا ينظروا إلى غيرهم ، قال ابن المعتز :

مَنْظَرهُ قَيْد عُيونِ الوَرَى فليس خَلْقٌ يتلقّاهُ

نحوتهم : قصدتهم . شغفا : حُبًّا .

* * *

---

(١) من المعلقة ص ١٨١ – بشرح التبريزى ، ورواية البيت هناك .

وَخَلاَ الذُّبابُ بِهاَ فليْسَ ببارِحٍ غَرِدٍ كفِعْلِ الشاربِ المترَنّمِ

(٢) سورة البقرة ٢٦٥ (٣) ديوانه ٣ : ٣٤٣ ،وصدره :

أينَ أزْمَعْتَ أيُّهذا الهمامُ

(٤) ديوانه

فلمّـا انتَظَمتُ عاشِرَهُمْ ، وأَضْحَيْتُ معاشِرَهم ، أَلفيتُهم أبناء عَلاّتٍ ، وقَذائفَ فَلَواتٍ ؛ إلاّ أنّ لُحْمَةَ الأدب ، قد أَلَفتْ شَمْلَهُمْ أُلفةَ النّسب ؛ وساوَتْ بينهم فى الرُّتَبِ ؛ حتّى لاَحُوا مِثْلَ كواكبِ الجوْزاء ، وبَدَوْا كالجملةِ المتناسبةِ الأجزاء ، فأبهجنى الاهتداء إليهم ، وأَحْمَدْتُ الطّالِعَ الّذِى أَطْلَعَنِى عَلَيْهِمْ ، وطَفِقْتُ أُفيضُ بِقِدْحِى مع قِداحِهِمْ ، وأَسْتَشْفِى بريِاحِهِمْ لا براحِهِمْ ، حَتّى أَدّتنَا شُجُونُ المُفاوضة ، إلى التّحاجى بالمُقَايَضَة ، كقولك إذا عنيت بِهِ الكرامات : ماثَلْ النّوْم فات ؛ فأنشأنا نَجْلو السُّها والْقَمَر ، ونجنى الشّوْكَ والثّمر .

* * *

انتظمت : صرت معهم فى نظام واحد ، والنظام الجوهر . معاشرهم : مصاحبهم . ألفيتُهم : وجدتُهم . أبناء عَلاّتٍ ، أى غرباء من بلاد مختلفة ، وبنو العَلاّت : الذين أبوهم واحد وأمّهاتهم شتى . قذائف فَلوَات ، أى قد رمت بهم القفار ، والطرق المختلفة واحدتها قذيفة ، وهى التى يُقذف أى يرمى بها . لحمة ، أى قرابة . ألفت شملَهم : أى جمعت متفرّقهم ، وجعل الأدب لحمة مجازا ، وجعل الأدب يجمعهم كما يجمع بنى العَلاّت الأب ، والبلاد تفرّقهم ، كما تفرّق بنى العَلاّت الأمّهات .

[مما قيل فى المودة بين الشعراء]

وهذا نحو مايُحكى[1] أنّ دِعْبِلاً ذُكِرَ عند علىّ بن الجهم فكفّره ولعنه ، وقال : كان يَظْهر على أبى تمام وهو خير منه ، دِيناً وشِعْرًا ، فقال له بعض من حضر : لو أن أبا تمام أخوك مازِدْت على مدحك له ، فقال : إن لم يكنْ

(١) الخبر فى أخبار أبي تمام للصولى ٦١ ، ٦٢ .

أخى فى النَّسَب ، فهو أخى فى المودّة والأدَب ، أما سمعتَ ماخاطبنى به »
وأنشد لأبى تمّام :

إن كان يجمعنا الإخاء فإننا نَغْدُو ونَسْرِى فى إخاء تالدِ[1]
أو يَفترق نسبٌ يؤلف بيننا أدب أقمْنَاه مقــامَ الوالدِ

وكرّر أبو تمام هذا المعنى ، فأحسَن بقوله :

ذُو الُودّ منى وذو القربى بمنزلةٍ وإخوتى أسوةٌ عندِى وخِلاَّنِى[2]
عصابة جاورتْ آدابُهم أدبِى فهم وإن فُرِّقوا فى الأرض جيرانِى[3]
أرواحُنا فى مكانٍ واحدٍ وغدت أجسامنا فى عِرَاقٍ أو خُرَاسَانِ

وأنشد إسحاق الموصلى :

يقولونَ لى هَلْ من أخٍ أو قَرَابةٍ فقلت لهم إن الشُّكول أقاربُ
نَسيبِىَ فى رأيى وعزمى ومَذْهبى وإنْ باعدَتنَا فى الولاءِ المناسبُ
وليس أخِى إلا الصحيحُ ودادهُ ومَنْ هو فى وَصْلِى وقُرْبِىَ راغبُ

وكان لسليمان بن وهب نديمٌ يأنس به، فعربَدَ عليه ليلةً فاطّرحه وجفاه فوقف له بالطريق ، فلمّا مرّ به وثب إليه ، ثم قال : أيّها الوزير ، لاتكُنْ فى أمرى إلاّ كما قال علىّ بن الجَهم :

القوم أخدانُ صِدْقٍ بينهمْ نسبٌ من المودّة لم يُعدَلْ به نسبُ[4]
تراضعوا دِرّةَ الصّهباء بينهمُ فأوجبوا لِرَضِيع الكأس مايجبُ
لا يحفظون على السّكْرانِ زَلَّتَهُ ولايريبكَ من أخلاقهم رِيَبُ

فقال : قد رضيت عنك رضا صحيحا ، فعُدْ لشأنك .

---

(١) ديوانه ٨٦ ، وبعده :

أوْ يختلفْ ماء الوِصالِ فماؤنا عَذبٌ تحدّر من غمامٍ واحدِ

(٢) وفيه : «وإخوانى» .
(٣) الديوان : « بشآم أو خرسان »
(٤) ديوانه ١٠٥ ، ١٠٦ ، الأغانى ١٠ : ٢٤٣

قوله الرتب : أى المنازل الرفيعة . مثل كواكب الجوزاء ، أى فى الإضاءة والرفعة . والجملة المتناسبة الأجزاء ، أى المتفقة ، بمعنى مقاديرهم فى الفضل وغيره متساوية لاتفاضل بينهم ، كالجملة آلتى لامزية لبعضها على بعض ، وأقل جملة حسابية أجزاؤها متناسبة لا كسر فى بعضها ولها النّصف والثلث والربع والخمس والسدس والسبع والثمن والتسع والعشر هى ألفان وخمسمائة وعشرون ، نصفها ألف ومائتان وستون وثلثها ثمانمائة وأربعون ، وربعها ستمائة وثلاثون ، وخمسها خمسمائة وأربعة ، وسدسها أربعمائة وعشرون وسبعها ثلثمائة وستون ، وثمنها ثلثمائة وخمسة عشر ، وتسعها مائتان وثمانون وعشرها مائتان واثنان وخمسون .

قوله : أبهجَنى، أى أفرحنى أحمدْت: وجدته محمودا . الطّالع: النجم الذى يسعد به صاحبه وينحس على زعمهم . طفقت : أخذْت . أفيض بقِدْحِى : أضرب بسهمى ، وهذا من فعل الميسر . وأراد أنه يمشى كلامُه مع كلامهم ويدْخل مداخلهم . أدّتنا : أوصلتنا . شجون المفاوضة . طرق المراجعة فى الكلام ، والشجون فى الكلام ، تداخله، واختلاط بعضه ببعض ، والتفاوض : الاندفاع فى الحديث ، وفى المثل : الحديث ذو شجون ، أى ذو فنون وأصلُه من الشجر المشجون ، وهو الشّجر الذى التفّ بعضُه ببعض . التّحاجِى : التفاطن . المقايضة : المعاوضة والمقارضة . الكرَى : النوم . فات ، بمعنى مات ، وأراد أنّ هذا النوع من الألغاز هو أن يُؤتَى بلفظٍ عوضا من لفظ آخر يتوارد معه على معنى واحد ، والمماثلة الّتى بينهما إنما هى موافقة المدى . نجلو : نكشف . السها : نجم خفِىّ، وقرن السها فى خفائه مع القمر فى ظهوره ، وإنما يشير إلى قولهم فى المثل : أريها السها وتريني القمر ، وأراد أنهم يأتون بلفظة ظاهرة المعنى ، وأخرى خفية ، فلا يتمّ لهم شىء .

* * *

وبينما نحنُ ننشرُ القَشيبَ والرَّثَّ ، وننشُلُ السَّمينَ والغَثَّ ، وغَلَ علَيْنَا شيخٌ قدْ ذَهَبَ حِبْرُه وسِبْرُه ، وبقِيَ خُبْرُهُ وسَبْرُه ؛ فمَثَلَ مُثولَ مَنْ يَسْمَعُ ويَنْظُرُ ، ويلتقِطُ ما تَنْثُر ، إلى أن نُفِضَتِ الأكياسُ ، وحَصْحَصَ اليَاسُ .

فلمّا رأى إجبالَ القرائح ، وإكداءَ الماتحِ والمائحِ ، جَمَعَ أذيالَهُ ، وولاّنا قَذالَه ، وقال : ما كُلُّ سَوْداءَ تَمْرَة ، ولا كُلُّ صَهْبَاءَ خَمْرَة ، فاعْتَلَقْنَا بِهِ اعْتِلاقَ الحِرباءِ بالأعْوادِ ، وَضَرَبْنَا دون وِجْهَتِهِ بالأسْدَاد ، وقلنا له : إنّ داءَ الشّقِّ أن يُحَاصَ ، وإلاّ فالقِصَاصَ القِصَاصَ ؛ فلاَ تَطْمَعْ أنْ تَجْرَحْ وتَطْرَحَ ، وتُنْهِرَ الفَتق وتَسْرَح . فلَوَى عِنَانَهُ راجِعًا ، ثُمَّ جَثَمَ بمكانِهِ راصِمًا ، وقال : أمّا إذا استثَرْتُمُونِي بالبحث ، فَلأَحْكُمُ حُكْمَ سُلَيْمَان في الحَرْث .

* * *

القشيب : الثوب الجديد. الرّثّ : الخَلَق . ننشُل : نخرج النشيل ، وهو لحم يطبخ بلا تابل ثم يُنشل ، أى يُخرج بالمِنْشَل ، وهو حديدة معقّفة . ذهب حبره وسبره : هيئته ولونه ، قال الفراء : من قولهم : جاءت الإبل حسنة الإحبار والإسبار ، قال الأصمعى رحمه الله : هى الجمال والبهاء وآثار النعمة ، يقال : فلان حسن الحَبْر والسَّبْر ، إذا كان جميلاً حسن الهيئة ، وفى الحديث : يخرج من النار رجل قد ذهب حَبْره وسَبْره ، أى قد ذهب جماله وبهاؤه ، وسُمّى الحَبْر حَبْرًا لأنه يزين الكتاب ، ويحسن القرطاس ، وحَبّرت الشيء زيّنته ، وقيل إنه سُمِّيَ حَبْرًا لأنه يؤثر فى القرطاس ، فيكون علامة فيما يقع فيه ، ويقال للأثر : حبرة وحُبار ،

والسَّبْر: الأصل واللون والهيئة والمنظر، والسَّبْر مايدلّ به على لون الدابة وكرمها، ويروى حِبره وسِبره، بكسر أوّلهما وفتحه، فإذا كسرا كانا اسمين، وإذا فتحا كانا مصدرين، وحَبْره علمه، وسَبْره قياسه. مثل: تمثّل قائما. الأكياس: أوعية الدراهم، ونفضت: ألقى مافيها، وأراد فراغ كلامهم. وحَصْحص: تبيّن، اليأس: ضد الرّجاء. إجبال القرائح: انقطاعها عن الكلام. إكداء: صعوبة، وأصل هذا فى البئر، فأوّل مايرشُح من مائها هو القريحة، ثم نقل إلي الطبيعة والذهن، وأجْبَل الحافر: إذا حال بينه وبين الماء جبل، وأكْدَى: حال بينه وبينه كُدْية، والجبل والكدية حجارة وصلابة تَعرِض فى البئر، لايمكن حَفْرها معها، ثم يقال: أكدى أى قلّ خَيْرُه وأجبل الشاعر، أى انقطع شعره. وأكدى فلان عطائى، أى قطعه وقلّل خيره، ومنه قوله تعالى ﴿وأعْطَى قليلاً وأكْدَى﴾[1]. والماتح: المستسقى على فم البئر. والمائح: النازل إلي قَعرِها ليملأ الدّلاء ويفرّق بينهما بنقطتى الحرف الّذى قبل آخرها، فمتى كانتا فوق الحرف، فالمستسقى فوق البئر لكثرة الماء، ومتى كانتا تحته فالمستسقى فى قعر البئر ليملأ الدلو بيده، وذلك لقلّة الماء، وإذا تكاثرت الدِّلاء عليه، وكَثُر صياح النّاس عليه من رأس البئر، وكل يرغبه ليملأ دلوه، فيأخذَ دلوَ مَنْ لامال له فيضرب به رجا البئر، أى جانبه ليرتدع النّاس عنه، ثم يضرب مثلا للمُهان، قال الشاعر:

فلا يُرمَى بى الرَّجَوانِ إنّى أقلّ القوم مَنْ يُغْنِى مَكَانِى[2]

وقالت جارية من العرب تستعطفه:

يأيّها المائحُ دلوِى دُونَكَا إنّى رأيْتُ النّاس يَحْمَدُونَكَا[3]

(١) سورة النجم ٣٤.
(٢) اللسان ـ رجا
(٣) اللسان ـ ميح.

ومن أمثالهم : أبصر من المائح باستّ الماتح .

وأنشد الفنجديهىّ :

يا مائح العين عُدِمْتَ الرّدَى
من حوض هذى العين كَمْ تَستَقِى
مِنْ شيمةِ المـاء انحدارٌ فِمْ ماء جفـونى أبدًا يرْتَقِى

قوله : جمع أذياله : شمر ثيابه للقيام . قذاله : قفاه .

ما كلّ سوداء تمرة ، مَثَل . والسوْداء تستعمل للتمرة والفحمة فيقول : ما كل الكلام سهل فتتعاطونه وما كلّ ماجئتم به بفائق فيدخل فى باب المقايضة ، وهو مثلٌ يضرب فى موضع التهمة .

والصهباء : من أسماء الخمر ، والصُّهبة أن تعلوَ الحمرَة شُقْرة وأصوله سود .

[الحرباء وما ورد فيها من الشّعر]

الحِرْباء : دوّيبّة تستقبل الشمس بوجهها إذا استوتْ فى كبد السماء ، وإنْ لم يتأتّ لها الفرصة بوجهها تململتْ وتقَلّبَتْ ، ولم تزل فى قلق حتى تميل الشمس ، فتستقبلَها ـ أعنى قُرْصَها ـ بوجهها حتى تغرب وهى فى طول يومها ، لاتأكل شيئا ، فإذا جاء الليلُ ذهبت تبغى ماتأكل ، والأنثى منها حرباءة .

وقال أبو عبيدة : الحرباء تستقبل الشمس برأسها أبدا ، يقال : إنما تفعل ذلك لتقيَ جَسَدَها برأسها ، وقيل: الحرباء ذكَر أمّ حُبين، وفى صدره استرخاء وقُرْب من الأرض ، فإذا حميت الأرض بالشمس خاف على صدره أن تحرِقه الأرض للزوقه بها ، فيصعد على عود شجرة ، فليتزمه بيديه ، ويجعله بينه وبين الشمس ، ويضرب به المثل فى التّشبث بماتعلّق به ، وذلك أنّه إذا تعلق بعود التزمه ، وقبضَ عليه فلا يفارقه ، حتى يستوثِقَ من آخر ، فيضُرب المثل به ، فيقال : أحزم من الحرباء . وقال قيس بن الحدادية :

بانت سعادُ فأمسى القلبُ مشتاقَا وأقلقتها نوى الإزماع إقلاقَا[1]
واحتثَّ حاديهمُ بزلاً مخيّسةً كُوم الذّرا مدد الأعضاد أفياقَا
أنَّى أُتيحَ لهــا حِرباء تَنْضُبَةٍ لا يرسل الساق إلا مُمْسكا ساقَا

والساق : ساق الشجرة ، والتَّنْضب : شجر يتعلّق بأعواده الحرباء ، فيقال حرباء تنضبه ، كما يقال : ذئب غَضَى . وقال الأزهرى رحمه الله تعالى : الحرباء دويّبة على خِلْقَةِ سام أبرص ، ذات أربع قوائم دقيقة الرأس مخطّطة الظهر ، وأكثر الشعراء من ذكر الحرباء وتشبيهها ، ومن جيّد ذلك قول ذى الرّمّة :

ودوّيّةٍ جَرْدَاء جَـــدّاء خيّمت
بها هفوات الصيف من كلّ جانبِ[2]
كأنّ يدىْ حربائها متشمّسًا يدَا مذنبٍ يستغفر الله تائبِ

وقال آخر :

وقد جعل الحرباءُ يصفرّ لونُه ويخضرّ من لفح الهجير غَباغبُه[3]
ويشبَح بالكفّين حتى كأنه أخو فجوة عالَى به الجِذْعَ صالبُه[4]

وقال أيضاً :

يظلّ بها الحرباء للشمس مُاثلاً على الجذْلِ إلاّ أنه لا يُكبِّرُ[5]
إذا حوّل الظلُّ العشىّ رأيتَهُ حنيفاً وفى قرن الضّحَى ينتصّرُ

(١) البيت الثالث ، من أبيات ثلاثة فى ديوان أبى دواد الإيادى ٣٢٦ .
(٢) ديوانه ٧٨ .
(٣) ديوانه ٤٧ ، وفى ط : «عباعبه» ، وصوابه من الديوان ، والغباغب : الجلد ، واحده غبغب .
(٤) يشبح : يمد كفيه ، كأنه مصلوب .
(٥) ديوانه ٢٢٥ ، وحماسة ابن الشجرى ٢٢٦ ، وفى ط : « الجذع » ، وما أثبته من الديوان .

غدا أكهب الأعلَى وراحَ كأنه
من الضِّحّ واستقباله الشمس أخضر(١)

أخبر أنه يدور مع الشمس فى وقت الزوال ، حتى تكون الشمس فى حذاء القبلة ، فكأنّه باستقباله لها فى ذلك الوقت مُسْلِمٌ يصلّى لها ، وفى الضّحى تكون فى وجه المشرق ، فكأنّه نصرانىّ فيستقبلها بصلاته .

قال ابن الرومىّ :

ما بالُها قد حَسُنَتْ ورقيبُها أبداً قبيحٌ قبح الرُّقباء
ماذاك إلاّ أنّها شمسُ الضحى أبدا يكون رقيبها الحرباء

قوله : وجهته ، أى جهته . والسّدّ : الحاجز بين الشيئين . يحاص: يخاط ، ويقال : حاص ثوبَه وعين صقره وشقوق رجليه حَوْصاً وحياصة : خاطها ، وقيل : الحوص : الخياطة بعد رقعة ، ولا يكون إلا فى جلد ، وأنشد يعقوب :

ترى برجليه شُقُوقا فى كَلَعْ من بارئٍ حِيصَ ودامٍ مُنْسَلِع(٢)

الكَلَع : الوسخ ، ومنسلع : متشقق . القصاص : أخذ الحق فى الجنايات . وتنهر : توسّع فترده كالنّهر . الفَتْق : الخرق . وتسْرَح : تذهب . لوى عنانه : أماله وعَطفه . جثم : برك . راصعا : لاصقا بالأرض والرّصَع : تباعد مابين الركبتين ، ورصع بالشىء يرصَع رُصوعاً إذا لازمه . استثرتمونى : طَلبتمونى واستخرَجتُم ماعندى . والبحث : المناقشة فى السؤال ، وأصله الصّيد تقول : استثرتُ الصيدَ ؛ إذا بحثتُ عليه حتى تقيمه من مرقده .

[قصة سليمان فى الحرث]

قوله : حكم سليمان فى الحرث . كان سليمان عليه السلام ، فيما ذكروا

(١) أكهب : أغبر الى السواد . والضح : الشمس ، وقيل الضح : ما طلعت عليه الشمس
(٢) اللسان ـ كلع ، ونسبه وآخر الى حكيم بن معية الربعى .

أبيض ، وضيئاً ، جسيما كثير الشّعر ، يلبس من الثياب البياض . فلما بلغَ مبلغَ الرجال ، كان أبوه فى أيام مُلكه يُشاوره فى أموره ، وكان هذا الحكم ـ فيما ذكر من ابن عباس رضى الله عنهما ـ أن رجلين دخلاً علىداود عليه السلام ، أحدهما صاحب حرث ، والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الحرث : يانبيّ الله ، انفلتَتْ غنم هذا فى زرعى ليلا ، فرتَعَت فى حرثى ، فلم تستبق منه شيئا ، فقال له داود : اذهب ، فإن الغنم لك ، فملّكه رقابها بما أكلت من حَرْثه ، فلما خرجا من عنده خطرا على سليمان عليه السلام ، فأخبراه بقضاء أبيه ، فقال : لو وُلِّيتُ أمركما لقضيت بغير هذا . فأخبر داود عليه السلام ، فدعاه وقال له : كيف كنت تقضى بينهما ؟ فقال : أدفع الغنم إلى صاحب الحرْث ، فيكون له رِسْلها ونَسلُها وصوفُها ، ويبذر صاحبها لصاحب الحرث مثل حرثه ، فإذا صار الزرع كهيئته يوم أكل ، أخذ غنَمه . فقال دواد : القضاء ماقضيتَ به ، وحكم بقضاء سليمان عليهما السلام .

وقال ابن مسعود وشريح ومقاتل : أراد بالحرْث الكرْم ، وأن الغنم أكلت قضبانه ، فأفسدته ، فحكم بها داود لصاحب الكرْم ، ولم يكن بين الغنم والكرم تفاوت ، فرءُوا بسليمان عليه السلام ، وهو ابن إحدى عشرة سنة ، فقال : يعمل الراعى فى إصلاح الكرْم حتى يعود كهيئته ، ثم يأخذ غنمه .

ومن عجائب حكم سليمان عليه السلام مارواه مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : بينا امرأتان معهما ابناهما ، إذ جاء الذئب ، فذهب بأحدهما ، فقالت : هذه إنماذهب بابنك ، وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك ، فاختصما إلىداود عليهالسلام ، فقضى به للكبرى فمرّتا على سليمان ، فأخبرتاه ، فقال عليه السلام : « ائتيانى بسكين أشقّه بينكما » ، فقالت الصغرى :

لاويرحك الله ، هو ابنها ، فقضى به للصُّغرى » . قال أبو هريرة رضى الله عنه : والله إن كنت سمعت بالسكين قبل ذلك ، ما كنت أقول إلا المُدْية .

قوله : الشمائل : الخلائق والطباع . والشّمول الذهبية : الخمر الحمراء .

* * *

[من وصف الشعراء للخمر]

وذكر فى هذه المقامة أنهم سبئوا قهوة ، وذكر هاهنا أنها فى لونها حمراء ، والعرب تتمدّح بشرب الخمر السبيئة ، وتصفها بالحمرة ، كقول الأعشى ، وهو فى أوصافها فى الجاهليّين ، كالحسن فى الإسلاميين ، وحبُّه فيها صدّه عن الإسلام :

وَسَبِيْئَةٍ مما تعتّق بابلٌ كدمِ الذبيح سلبْتُها جِرْيالَهَا[1]

وقوله :

فقمنَا ولمّا يَصِحْ دِيكُنَا إلى خمرة عند حَدَّادِهَا[2]

فقلت له : هذه هاتِهَا بأدْماء فى حَبْلِ مُقْتَادِهَا[3]

فقامَ فصبَّ لنا قهوةً تسكّنُنَا بعد إرعادِهَا

كُمَيْتٌ تكشّف عن حُمْرَةٍ إذا صُرِّحَتْ بعد إزبادها[4]

فجال علينا بإبريقه مخضّبُ كفٍّ بفِرْصَادِهَا[5]

---

(١) ديوانه ٢٧ . والجريال : صبغ أحمر .

(٢) ديوانه ٦٩ ، ٧١ وفيه : « إلى جونة » ، وهى خابية الخمر . والحداد صاحب الخمر، يحد الناس عنها لنفاستها .

(٣) الأدماء : صادقة البياض.

(٤) كميت : تضرب إلى السواد ، فإذا مزجت ذهب سوادها وصارت حمراء . صرحت : ذهب زبدها .

(٥) الفرصاد : التوت ؛ إذا كان أحمر اللون

فَرُحْنَا تقمّمنا نَشْــوَةٌ تجُور بنــا بعد إقصادها[1]

وقال أبو ذؤيب :

ولاالرّاح راحُ الشام جاءت سَبِيّةً لها غاية تهدِى الـكريمَ عُقَابُهَا[2]
عقارُها كما التِّبر ليستْ بِخَمْطَةٍ ولا خَلّةٍ يكوِى الشروبَ شِهَابُهَا[3]

وقال الحسن :

وخَمّارٍ أَنختُ عليــه ليلاً قلائصَ قد تَعِبْنَ من السِّفار[4]
فجمجم والـكرَى فى مُقْلَتَيْهِ كمخمورٍ شــكَا ألم الُخمَارِ
أَبِنْ لى كيفَ صِرْتَ إلى حريمى وثوبُ اللّيلِ مصبوغٌ بقَارِ
فقلتُ له ترفَّقْ بى فإنى رأيتُ الصُّبح من خَلَلِ الدِّيارِ
فـكان جوابُه أن قَال كلاّ وما صُبْحٌ سوى صُبْحِ العُقارِ
وقام إلى الدِّنان فسدَّ فاها فعــاد الليلُ مسدولَ الإزَارِ

وقال عبد الصمد :

وخيمةِ نَاطُورٍ تحُفُّ برَوْضةٍ يُحَيِّيكَ منها وردُها والبَنَفْسَجُ
وأشْمَطِ أعلَى وسطِها بعد هجعةٍ تراهُ بها من قــره يتشنّجُ
دعوتُ فلبّى وهو بالصوتِ عارفٌ وأقبل نحو البابِ يزْهُو ويبرجُ

---

(١) تجور : تميل . وفى ط : « قصادها » تحريف ، والصواب ما أثبته من الديوان .
(٢) ديوان الهذليين ٧٢ والعقاب : الراية . وفى الديوان : « تهدى الـكرام » .
(٣) فى الديوان : كماء النىء » ، قال فى شرحه : أراد فى صفائها ، وهو ماقطر من اللحم . والخمطة : التى أخذت ريحاً ولم تدرك . وفى ط : « ليست بحمضة » ، تصحيف ، والخلة : الحامضة . وقوله : يكوى الشروب ، أى لها ومض شديد مثل النار . والشروب : الندامى .
(٤) ديوانه ٢٧٥

فقلت له المصباح إن كنت مسرجاً   فقال: قفوا فالخمر فى الكأس تُسْرِجُ

* * *

اعلَمُوا يا ذَوِى الشَّمائِلِ الأَدَبيّة ، وَالشُّمُوعِ الذهبيّة ، أَنَّ وَضعَ الأُحْجِيَّة ، لامتحانِ الألمعِيّة ، واستِخْرَاجِ الخبِيّة الخَفيّة ، وشَرْطُهَا أن تَكُونَ ذاتَ مُماثلةٍ حَقِيقيّة ، وألفاظٍ معنويّة ، ولطيفةٍ أَدَبيّةٍ ؛ فَتَى نافَتْ هَذَا النَّمط ، ضَاهتِ السَّقَط ، ولَمْ تَدْخُلِ السَّفَطَ ؛ ولم أرَكُمْ حافَظتُمْ عَلَى هَذِهِ الحُدُودَ ، ولا مِزْتُمْ بين المقبولِ والمَرْدُودِ . فقلنا له : صَدَقْتَ ، وبالحقِّ نَطَقْتَ ؛ فَكِلْ لَنَا مِنْ لُبابِكَ ، وأَفِضْ عَلَيْنَا مِنْ عُبابِكَ ؛ فقال : أَفْعَلُ لِئَلاَّ يَرْتابَ المبطِلُونَ ، ويَظُنُّوا بِى الظُّنون .

* * *

قوله: «لامتحان الألمعية» ، أى لاختبار الفطنة . نافتْ: باعدت . النّمط : النوع ، يقال : الزم هذا النَّمط ، أى هذا المذهَب والفنّ والطريق . ضاهت : شابهت . السَّقَط : ردىء المتاع وما لا يُعبأ به . والسّفط : وعاء لجميع الثياب الرفيعة ، وسفط العلوم: الكُتُب، أى لم تكتب ولم تدوّنْ فى الكتب . مِزْتم : فرّقتم . لُبابك : خالص ما عندك . أفِضْ : صُبّ . عبابك : بحرك، وعبّ البحر عُبَاباً هاجَ واضطرب : يرتاب : يَشُكّ .

* * *

ثمّ قابلَ ناظورةَ القوم ، وقال :

يا مَنْ سَمَا بذكاء ... في الفضلِ وارِي الزِّنادِ
ماذا يماثلُ قولي: ... جُوعٌ أَمِدٌ بزادِ

ثم ضحك إلى الثاني وأنشد :

ياذا الّذي فاق فَضْلاً ... ولم يُدَنِّسْهُ شَيْنُ
ما مثلُ قولِ المحاجِي: ... ظَهْرٌ أَصابتْهُ عَيْنُ

ثم لحظ الثالث وأنشأ يقول :

يا مَنْ نتائج فِكْرِه ... مثل النقود الجائزهْ
ما مثلُ قولك للّذي ... حاجَيْتَ: صادف جائزهْ

ثم أتلَعَ إلي الرابع وقال :

أيا مُسْتَنْبِطَ الغامـ ... ـضِ مِنْ لُغْزٍ وإضمارِ
ألا اكشِفْ لِيَ ما مثلُ: ... تناوَلْ أَلفَ دينارِ

ثم رمى إلى الخامس ببصره، وقال :

يأيهذا الألمعيّ ... أَخُو الذّكاء المنجلِي
ما مثل أَهْمَلَ حِلْيَةً ... بَيِّنْ هُدِيتَ وعَجِّلِ

* * *

ناظورة القوم : كبيرُهم الّذِي ينظرون إليه . سما : ارتفع . ذكاء : جَوْدة الذّهن . واري: مبدي النار ، أي زنده متى ضرب أوْرَى نارا . فاق : فضَلَ غيرَه . النتائج : مايولّده الفكر من الكلام . النقود : الدراهم . أتلع : مدّ

عنقه ونصبه ، وتلع الرجل يتلع تلعا : أخرج رأسه من شيء كان فيه . مستنبط : مستخرج . الغامض : الخفيّ ، وغمض غموضا : دقّ وأحوج إلى النظر ، والألمعيّ : هو الذّكي ، أي صاحب الفطنة .

* * *

ثم التفت لِفْتَ السادس وقال :

يا مَنْ تُقَصِّرُ عن مدا ... هُ خطا مُجارِيهِ وتضعُف

ما مثــل قـــــولِك للّذي

أَضْحَى يُحَاجِيك: اكفُفِ اكفُفِ

ثم خَلَج السابعَ بحاجبه وقال :

يا مَنْ له فِطْنَةٌ تَجلَّتْ ... ورُتبَةٌ في الذَّكاء جلَّتْ

بَيِّنْ فما زِلْتَ ذا بيـان ... ما مثل قولي: الشَّقيق أفلتْ

ثم اسْتَنْصَت الثّامِنَ وأنشد :

يا مَنْ حدائق فضــــلِه ... مَطْلُولَةُ الأزهارِ غَضَّهْ

ما مِثلُ قولِكَ لِلْمُحاجِي ... ذِي الحِجَى: ما اختار فِضّهْ

ثم حدج التاسع ببصره ، وقال :

يا مَنْ يشارُ إِلَيْهِ في الـــقَلْبِ الذّكِيِّ وفي البراعَهْ

أَوضِـحْ لنا ما مثلُ قوْ ... لِكَ للمحاجي: دُسْ جماعَهْ

قال الرّاوي : فلمّا انتهى إليّ ، هزّ مَنْكِبيّ ، وقال :

يا مَنْ له النُّكتُ التي ... يُشجِي الخصوم وينكُتْ

أنت المبينُ فقل لنـا ... ما مثل قولي: خالِيَ اسكُتْ

التفت لفت ، أى قصد قصده بالنظر ، ولفت عنقه إلىّ ، أى لواها ناظرًا إلىّ . مداه : غايته . خلج : غمز ، وقال الراجز .

* قد خلجتْ بحاجبٍ وعينِ *

تجلت : ظهرت . جلت : عظمت . واستنصت: سكت . حدائق : بساتين. مطلولة : أصابها الطلّ . غضة : ناعمة . الحجا : العقل . حدج : رمى. البراعة : الفصاحة ووفور العقل . يشجى : يغص ، والغصص :الاختناق . ينكت: يقلبهم على رءوسهم ، وطعنه فنكته :ألقاه على رأسه ،وعند القضاعىّ يشجى،وينكت، أي يسكت على ذلك .

* * *

ثمّ قال : قدْ أَنْهلتُكمْ وأمْهلْتُكمْ ، وإنْ شِئتمْ أن أُعلّكمْ عَللْتُكمْ .

قال : فَألجأنا لَهَبُ الْغُلَلِ ، إلى اسْتِسْقاءِ الْعَلَلِ ؛ فقال : لَسْتُ كَمَنْ يَسْتأثِرُ على نَدِيمِهِ ، وَلاَ مِمَّنْ سَمْنُهُ فى أديمِهِ . ثم كرّ على الأول وقال :

يا مَنْ إذا أشْكَلَ المعمّى جَلتْهُ أفكارُه الدقيقهْ
إنقالَ يوماً لكَ المحاجِي : خذ تِلْكَ ما مثلُهُ حقيقهْ

ثمّ ثنى جيدَه إلى الثانى ، وقال :

يا مَنْ بَدَا بيانُهُ عن فضلِهِ مبيّناَ
ماذا مثالُ قولِهم : حمارُ الوحش زُيّناَ

ثم أوحى إلى الثالث بِلَحْظِهِ ، وقال :

يا مَنْ غدا في فضلِهِ وذكائِهِ كالأصْمَعِي

ما مثل قولك الّذِي حاجاك : أنفق تَقْمَعِ

ثم حَلق إلى الرابع وأنشد :

يا من إذا ما عويصٌ دجا أنار ظلامَهْ

ماذا يماثل قولي : استنْشِ ريحَ مُدامَهْ

ثم أومض إلى الخامس ، وقال :

يا مَنْ تنزّه فهمه عن أن يُرَوِّيَ أو يُشكّا

ما مثل قولك الذى

أضحى يُحاجى : غَطّ هَلْكَى

* * *

أنهلتكم : أسقيتُكم ، والنَّهَلَ : الشرب الأول ، والعَلَل : الشرب الثاني أعُلُكم : أسقيكم عَلَلاً . لهبُ الغَلَل ، أى حرّ العطش . يستأثر ، أى يخصّ نفسه بشيء دون أصحابه . سَمْنُه في أديمه : أى خَيْره موقوف عليه ، والأديم هنا : زقّ السمن ، وأصل المثل : سمنكمُ هُريقَ في أديمكم ، أى خيركم موقوف عليكم ؛ قاله أبو عبيدة . وخطأ البكريّ في تفسير الأديم بالزّقّ ، وقال : إنما الأديم هنا طعامكم المأدوم ، فعيل بمعنى مفعول ، أى خيرهم راجع إليهم ، وهو قول الأزهريّ رحمه الله ولم ينكر الأوّل ، وهو مثلٌ يُضرب للبخيل ولمن لا يتعدّاه خيرُه ، وينفق على نفسه دون غيره . وقمعه يقمَعُه : ضربه بالمِقمعة ، أى قهره وكفّه ، وقمع الشرابُ وأقمع : مرّ في الحلق مرًّا بغير جرْع . كرّ :

عطف · جيده : عنقه · أوحى : أشار . حلق : أحدّ النظر · عويص : صعب . دَجَا : اسودّ. أنار : جعل فيه النور. تنزه : تباعد . يروّى : يفكر ، وقد روّأت الحديث ، إذا دبّرتَهُ وهيّأته .

* * *

ثم أقبل إلى السادس ، وأنشد :

يا أخا الفِطْنةِ التى بانَ فيه كمالُهُ
سار باللَّيلِ مُدّةً أىّ شىء مِثالُه

ثم نحا بصره إلى السابع، وقال :

يا مَنْ تحلَّى بفهمٍ أقامَ فى النّاسِ سُوقَهْ
لك البيان فبيِّنْ ما مثلُ :أحْبِبْ فرُوقَهْ

ثمّ قصدَ قصْدَ الثامنِ، وأنشد :

يا مَنْ تبوَّأ ذِرْوةً فى المجدِ فاقتْ كُلَّ ذِرْوهْ
ما مثل قولك: أَعطِ إبْـ ـرِيقًا يلوحُ بِغَيْرِ عُرْوة

ثم ابتسم إلى التاسع ، وقال:

يا مَنْ حوَى حسن الدِّرا يةِ والبيان بغير شَكٍّ
ما مثل قولك للمُحا جى ذي الذَّكاءِ:الثورُ مِلْكى

ثم قبض بجُمعه على رُدْنى،وقال :

يا مَنْ سما بثقوبِ فِطنَتِه فى المُشكِلاتِ ونورِ كَوْكَبِه
ماذا مثال صَفِير جَحْفَلَةٍ بَيِّنْهُ تِبيانا نُتِمّ بِهِ

* * *

بان : تبين . تحلّى : تزيّن . تبوّأ : نزل . والذّروة : أعلى الشى .
ثُقوب : نفوذ .

* * *

قال الحارثُ بن همّام : فلمّا أطرَبنا بِما سمعناه ، وطالَبنا مكاشفةَ مَعْناه . قلنا له : لسنا من خيْلِ هذا الميْدان ، ولا لنا بحلّ هذه العُقَد يَدان ، فإن أَبَنْت مَنَنْت ، وإن كتمتَ غممْت . فظَلّ يُشاوِرُ نَفْسَيْهِ ، ويُقلّبُ قِدْحَيْهِ ، حتى هان بذل الماعون عليه .

فأقبل حينئذٍ على الجماعَة وقال : يا أهْلَ البَلاغةِ والبَراعة ، سأُعلّمُكُمْ ما لم تكونوا تَعلَمُونَ ، ولا ظننتُمْ أنّكُمْ تُعلّمُونَ . فأوكُوا عليه الأوْعِيـة ، وروِّضوا بِهِ الأندِية . ثم أخـذ فى تفسير صَقَلَ بِهِ الأذهان ، واستفْرَغ مَعَه الأردان ، حتّى آضتِ الأفهامُ أنْوَر من الشّمْس ، والأكمامُ كأنْ لم تَغْنَ بالأمْسِ .

* * *

أبنت : بَيّنت . مننت : أفضلك علينا . نفسيه : أراد أنّه يردّد رأيه : هل يفعل أولا يفعل ؟ فكأنّ له نفسين ، يردّد المشورة عليهما حتى يظهر لهما الرأى الأرجح فيهما فيبنى عليه . وقال حويرث العبدىّ :

لكلّ امرئٍ نفسان نفسٌ كريمة ونفس فيعصيها الفتى أو يطيعها

وقد تقدّم معنى يقلّب قدحيه . الماعون : المعروف ، وقال يونس :

الماعون فى الجاهليّة : كلّ عطيّة ومنفعة ، وفى الإسلام الزكاة والطاعة . وقال ابنُ عباس : الماعون المعروف كلّه حتى ذكَرَ القِدْر والقَصْعة والفأس .

وحكى الفَنجديهىّ عن ابن عباس : الماعون العاريّة ، وقال الماعون : اسم جامع لمنافع البيت ، كالقِدْر والفأس والماء والمِلح ونحوها ، وقال الأعشى :

بأجود منه بمَاعونِهِ　　إذا ما سماؤهم لم تَغِمْ (١)

والأظهر فيه ، أنّه من العون ، وأصله معوون بوزن « مفعول » ، فقدّمت الواو التى بعد العين ، فصار موعون ، ثم قلبت ألفا كما قيل : يا جل (٢). وحكى الفراء عن بعض العرب : الماعون الماء ، فيكون على هذا مفعولاً من العين ، ويُقلّ كاعلّ من العون ، أو يكون فاعولاً ، من مَعَن الماءُ ، إذا سال . وهو أيضاً قول مَن اشتقه من قولهم : مُمْعِنٌ هربا ، أو من قولهم : عين مَعين . قال قُطرب : ماعون فاعُول من المعن ، وهو الشىء اليسير ، ومنهم من قال : أصله معونة ، والألف بدل الهاء .

قوله : أوْكُوا : أى شدّوا . روّضوا : زيّنوا ، واجعلوها مثل الرياض . الأردان : الأكمام . آضت : رجعت أذهانهم مضيئة بالفهم وزال عنها الالتباس . تغْنَ بالأمس ، يريد أنّ أكمامهم كانتْ بالأمس ممتلئة بالدراهم ، فتفرّغت اليوم إذ وهبوا له ما فيها .

* * *

ولما همّ بالمَفَرّ ، سُئِل : أين المفرّ ؟ فتنفّس كما تَتَنفّسُ الثَّكُول ، ثم أنشأ يقول :

---

(١) ديوانه ٣٩ .　　(٢) ياجل ، أصله يوجل .

كُلّ شِعب لِيَ شِرْبُ وبه رَبْعِيَ رَحْبُ
غَيْرَ أَنِّي بِسَرُوجٍ مُسْتَهَامُ الْقَلْبِ صَبُّ
هي أرضي البِكْرُ والجوُّ الذي مِنْهُ المهبُّ
وإلى روضتِها الغنّا ءِ دُونَ الرَّوضِ أَصْبو
ما حَلاَ لي بعدَها حُلْوٌ ولا اعْذَوذبَ عَذْبُ

قال الرّاوي : فقلت لأصحابي : هذا أبو زيدٍ السَّرُوجي ، الّذي أذْنَى مُلَحِهِ الأحاجي ، وأخذتُ أصِفُ لَهُمْ حُسْنَ تَوْشِيَتِهِ . ثُمَّ التفتُّ فإذا بِهِ قَدْ طَمَر ، وناء بما قَمَر ؛ فعجِبْنا مما صَنع إذْ وَقَع ، وَلَم نَدْرِ أين سَكَعَ وصَقَعَ .

* * *

المفرّ : المهرب . المقرّ : المنزل والبلد . الثّكول : المرأة الثّكلى الفاقدة لأحبابها . شِعْب ، أي طريق ، أي كلّ بلد لي بلد . ربعي رَحْب ، أي منزلي متّسع . المستهام : الذي غلب الحبّ على قلبه فخرج هائما على وجهه لا يَدْري أين يتوجّه ، وهام يَهِيمُ : ذهب عقله فخرج في غير الطريق ، وقيل : الهائم : العليل القلب ، الّذي يجد في قلبه هُياماً ، وهو وجَعٌ يَجِدُه البعير ، فلا يروَى من شرب الماء : قال عروة بن حزام :

بي اليأس أو داء الهُيَام أصابني فإيّاكِ عنّي لا يكنْ بكِ مابيا[1]

---

(١) اللآلي ٢٢٦ .

أو يكون من التهويم ، وهو هجوم النوم ، وهو فى الأوجه الثلاثة اسم مفعول ، وكان قياسه مستهيماً إلاّ أنه لما كان كأنه مغلوب على ذلك ، جاء على هذا وحذف « به » لدلالة المعنى . والصبّ : العاشق . البِكْر : التى ولدت بها . الجوّ : اسم لنواحى السماء . مهبّ الريح : موضع هُبوبها من الجوّ ، وأراد بلدته التى يجىء منها ويخرج عنها للبلاد . الغنّاء : الكثيرة الأشجار ، وتقدّمت علّتها . أصبو : أميل . أدنى : أقل . توشيته : تزيينه كلامه . مشيئه : إرادته . طَمَرَ : وثب ، وهو من الأضداد يقال : طمرتُ الشىء : سترتُه ، وطمر الجرح سَفُل وعَلاَ أيضاً ، ومنه قيل للبرغوث طامر ، لنزوه وارتفاعه . ناء : نهض . قَمَرَ : حازه بالقمار . سكع : مشى مَشْىَ المتعسّف . صقع : ذهب ، وقيل : لم يدر أين ذهب . والسَّكْع : الذهاب على غير هداية ، والصُّقع : الناحية من الأرض ، وما أدرى أين صَقَع ، أى أىّ ناحية قصد من الأرض .

* * *

[فصل فى تفسير الأحاجى]

إذا أردت أن تعرف المماثلة فى هذه الأحاجى فتنظر « جوعٌ أمِدّ بزاد » فتقابله بطوامير ، فتقسم هذه اللفظة ، فتقابل القسم الأول وهو « طوا » بقولك : « جوع » فتجده مثله فى المعنى ، وتقابل بالقسم الثانى ، وهو « مير » قولك : «أمد بزاد» ، فتجدة مثله فى المعنى ،والمَيْر الإمداد بالزاد ، ومير الرجل: أعطى نفقة وقوتا لعياله ،فهذه المماثلة الحقيقية التى قدّم ، وكذلك تقابل « ظهر أصابته عين» بقولك : «مطاعين» ، فتجد المَطَا الظهر ، وعِينَ الرجل:أصيب بالعين ، وكذلك صادف جائزة ، هى ألفىْ صلة ، وألفى هى : صادف ، والجائزة هى الصِّلة ، تصل

بها مَنْ قصدك . وإن تركت الألفاظ منظومة بغير تفسيم ، ينتج منها معنًى آخر فيقال لك : ما الطوامير ؟ فتقول : الكتب ، الواحد طُومار ، والمطاعين : جمع مِطْعَان ، وهو الكثير الطعن ، والفاصلة ، الّتى تقع بين شيئين فتفصل هذا من هذا والفاصلة فى العروض : توالى أربعة أحرف أو ثلاثة متحركة بعدها ساكن ، وهكذا هى المقايضة فى هذه المقامة ، تصل اللفظة فيكون لها معنى ، وتفصلها فيكون لها معنًى آخر .

وأنا أفسّر معنى المتصلة إذ المنفصلة قد وقع تفسيرها فى المقامة . قوله : هادية ، أى مرشدة ، تقول : هدَتْنِى الطريق فهى هادية . والغاشية : ما يغشَى القلب ، أى يغطيه من الهمّ والسّقَم ، والغاشية أيضاً القوم يَغْشَوْنك ، أى يقصدونك ويزورونك ، والغاشية : القيامة ، والغاشية : المرأة تغشاك وتزورك ، والغاشية غشاء القلب ، والغاشية : غشاء السَّرْج .

والمهمه : القفر ، والأخطار : جمع خَطَر ، وهو الغَرَر ، والأخطار : المنازل الشريفة . والأبارقة : جمع إبريق ، وهو إناء معروف ، والأبارقة أيضاً : السُّيوف الصقيلة ، واحدها إبريق ، والطافية : الجيفة تطفو على وجه الماء ، أى تطلع عليه .

الفرازين : وزراء الفُرْس الواحِد فرْزان ، ومنه فرزان الشطرنج ، الذى تسمّيه العامه « فرزا » ، لأنه وزير الشاه ، والشاه فى كلام الفرس المَلِك . وقفت : معناه كففت .

والمنتقم : الفرح بمصيبة غيره . والرَّحْراح من الأوانى : الواسع القصير الحديد ، ورَحْراح : موضع معروف . والصُّنْبُور : النخلة الطويلة العُنُق القليلة الحمل ، والصُّنبور أيضاً : المفاص الذى يجعله السّقاء فى فم القربة ، ويشدّ

عليه ويفرغ منه الماء ، والصُّنبور أيضاً : اللئيم ، والصُّنبور من الناس مَنْ ليس له نسْل .

والسَّرَاحِين : الذئاب الواحد سِرْحان . الأُسكوب : المطر الكثير الصب والأُسكوب والأسكاب : قطعة خشب فيها قرص تُجعل فى خرْق الزّق .
والمقلاع : آلة يُقلع بها الشىء . والله الموفق .

تفسير الأحاجي المودعة هذه المقامة

أمّا جوعٌ أمِدّ بزادٍ ، فمثله طَوامير ، وأما ظَهْرٌ أصابَتْه عين ، فمثله مَطاعِين ، وأما صادف جائزة فمثله الفاصلة . وأمّا تناول ألف دينار ، فمثله هادية . وأمّا أُهمِل حَلْية فمثلُه الفاشِية .

وأمّا اكفُف اكفُف ، فمثله مَهْمَه ، وأما الشقيق أفلت فمثله أخطار .

وأمّا ما اختار فضة فمثله أبارقة ؛ لأن الرِّقَة من أسماء الفضة ، وقد نطق بها النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « الرِّقَة ربع العشر » .

وأما دس جماعة فمثله طافية . وأمّا خالى اسكت فمثله خالصة ؛ لأنك إذا ناديت مضافاً إلى نفسك جاز لك حذف الياء ، وإثباتها ساكنة ومتحرّكة ؛ وقد حُذف هاهنا حرف النّداء ، كما حذفه فى أصل الأحجيّة . وصَهْ بمعنى اسكت ، وأما خُذْ تلك فمثله هاتيك .

وأمّا حمار وحش زَيَّنا ، فمثله فَرَازين ، لأن الفرأ حمار الوحش ، ومنه الحديث : « كلّ الصيد فى جوف الفرا » .

وأما قوله : « أنفق تقمع ، فمثله منتقم ؛ لأنّ الأمر مَنَ مان يَمُون مُنْ . ومضارع وَقَمت تقِم .

وأمّا استنشِ ريح مدامه ، فمثله رَحْراح ؛ لأن الأمْرَ من استدعاء الرائحة رُحْ . وأما غطّ هَلْكى فمثله صنبُور ؛ لأنّ البورهُم الهَلْكى ، وفى القرآن ﴿ وَكُنتُمْ قوماً بُوراً ﴾ .

وأمّا سارَ بالليل مدة ؛ فمثله سَراحين .

وأما أحْبب فَرُوقة ؛ فمثله مِقْلاَع ، لأنّ الأمر من وَمق يمق مُق . واللاع : الجبان ؛ يقال : فلان هَاعٌ لاعٌ ؛ إذا كان جبانا جَزُوعاً .

وأما أعط أبريقاً يلُوح بغير عرُوة ، فمثله أسْكُوب ؛ لأن الأوس الإعطاء والأمر منه أس . والسكوب : الأبريق بغير عُرْوة .

وأمّا الثّور ملكى ، فمثله اللآلى ؛ لأن اللآى على وزن القنا هو ثور الوحش.

وأما صفير جَحْفلة ، فمثله مكاشفة ؛ لأن المُكاء الصّفير ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا كان صَلاَتُهُمْ عِنْدَ البيت إلاّ مُكَاءً وتَصْدِية ﴾ ، والأصل فى المكاء المدّ ؛ ولكنه قصَرَه فى هذه الأحجية ، كما حذف همزة الفرا فى أحجيته ، وكلا الأمرين من قصْر الممدود ، وحذف همزة المهموز جائز .

المقامة السابعة والثلاثون وتعرف بالصَّعْدِيَّة

حكى الحارثُ بن همّام قال: أَصْعَدْتُ إلى صَعْدة، وأنا ذُو شَطاطٍ يحكي الصَّعْدة، واشتدادٍ يبدُر بناتِ صَعْدة؛ فلمّا رأيتُ نُضْرَتَها، ورَعَيْتُ خُضْرَتَها، سألتُ نَحارير الرُّوَاة، عمّا تَحْويه من السَّرَاة، ومعادِنِ الخيرات؛ لأتَّخِذَه جَذْوَةً في الظُّلُمات، ونَجْدةً في الظُّلامات. فنُعِتَ لي قاضٍ بها رحيبُ الْباع، خَصِيبُ الرِّباع، تيميّ النَّسبِ والطِّباع؛ فلم أزَلْ أَتقرَّبُ إليه بالإلْمَامِ، وأَتَنَفَّقُ عليه بالإجْمَام؛ حتّى صرتُ صَدَى صَوْته، وسَلْمَانَ بيتِه.

* * *

أصعدت: طلعتُ وارتفعتُ، قال يعقوب: الإصعاد إلى نجد واليمن والحجاز، والانحدار إلى العراق والشام وعُمَان. وقال الأخفش: أصعد في البلاد: سار فيها ومضى، وأصله الذهاب في الصعود وهو الارتقاع، ثم توسّعوا في ذلك. قال الفرّاء رحمه الله في ابتداء الأسفار والمخارج، تقول: أصعدنا من مكّة إلى بغداد، وأصعدنا من بغداد إلى خراسان، فأما في السُّلّم فتقول: صعدت فيه لا أصعدت. قال يعقوب رحمه الله: صعّد في الجبل وأصعد في البلاد: انحدر فيها، وصَعِد: ارتقى.

وصَعْدة: مدينة عظيمة باليمن، بينها وبين صنعاء ستون فرسخاً، وتحـكمُ

فيهـا صنعةُ الجلود ، والجلد الصّمدِيّ فى غاية الجودة ، ويضرب المثل بحسن نسائها .

الشّطاط : طول القامة . والصَّعْدة : الرمح . اشتداد : جرى . يبدُر : يسبق . بنات صَعْدة : حمر الوحش. نُضرتها : خصبها ونعمتها ، والنضرة : صفاء اللون وبريقه . نحارير : علماء ، والنِّحرير ، الماهر والحاذق الّذى جرّب الأمور وعرفها ، وهو اسم يجمع وجوها من المدح ، فيفسّر النحرير بالعالم والمفلق والحاذق والماهر والعادل . والسَّرَاة : السادة ، وهو جمع سَرِىّ ، وهو السيد الشريف ، وجمع فَعِيل على فَعَلة عزيز لايُعرف غير هذا . الجَذوة : الجمرة الغليظة العظيمة ، وجيمها بثلاث حركات ، ويجمع ثلاثتها ، نحو جَذا وجُذا وجِذا نجدة : قوّة وعونا . الظُّلامات : جمع ظُلامة ، وهو ما يشتكيه المظلوم ، رَحيب الباع : واسع العطاء ، فكَنَى بالباع عن ذلك . والعرب إذا وصفَت الرجل بالسّخاء ، قالوا : هو رحيب الباع ، وطويل الباع ، وكريم الباع ، والباع والبوع بَسْط اليد بالمعروف ، وقد باع يبوع منه ، ويقال للبخيل: قصير الباع . خصيب الرّباع ، أى هو كثير المال فجمع له كرمه كثرة ماله ، فالنّاس يجدون فى كَنَفِه الخِصْب وقد يراد بخصيب الرباع نافق سوق الأحكام فالمتعلّق به يجد الخصب .

تميمىّ النّسب ، أى من بنى تميم وشرك الطباع مع النّسب ، وهو يريد أنه كامل تام فى خلقــه ، فنسب قبيلته لتميم ، وطباعه للتّمام والـكمال فقلّب أحدهما، وشرك بينهما للقرب . قال ابن شرف: فيما يلِمّ بهذا التّشريك ،ويحسن أن يمدح قاضى المقامة به لجوده :

جاوِرْ عليّا ولا تحفِلْ بحادِثَةٍ إذا ادّرعتَ فلاتسألْ عن الأَسَلِ (١)

(١) نقله فى النتف ١٠٩ .

اسم حكاه المُسمَّى فى الفَعال فقدْ حاز العليَّيْنِ من قولٍ ومن عَمَلِ
فالماجد السيّد الحرّ الكريم له كالنعت والعطف والتوكيد والبدلِ
زانَ العُلا وسواه شانَها، وكذا تميّز الشَّمسُ فى الميزان والحَمَلِ
وربّمـــا عابَهُ ما يفخـــرُون به
يُشْنَا من الخصْر ما يُهْوَى من الكَفَلِ
سلْ عنه وانطِقْ به وانظر إليه تجدْ ملءَ المسامع، والأفْواهِ والمُقَلِ

فإنه أراد بقوله: «حاز العليّين»، أى حاز عليًّا بالاسمية، والعلوّ بالفعلية، وهذا مثل ما تقدم للحريرىّ:

جاد بالعين حين أعمى هَواه عينَــه فانثنَى بلا عَيْنَيْنِ

فقد أوقع التشبيه على شيئين، يتفقان فى اللفظ، ويختلفان فى المعنى. وقد أنشدنا فيما تقدّم لبعض المتأخرين:

فكيف أصبر عنهـــا اليوم إذ جَمَعَتْ
طيب الهواءين ممـــدودٍ ومقصورِ

فالمقصود هوى النفس، والممدود الهواء الذى بين السماء والأرض، وقد قدّمنا فى تفسير قول الحريرى، وحيّا المسجد بالتّسليمتيْن، أنّ السلام الواحد على مَنْ فى المسجد عند دخوله، والثانى تحليل الصلاة.

وقوله: هنا تميمىّ النسب والطباع من هذا القبيل، وأكثره فى كلام المولّدين، وهو مستعمل فى كلام العرب، ولا يبعد أن يكون من هذا قولهم: التقى الثريان، فإنهم يُريدون بذلك كثرة المطر، وأنه يبلغ فى الأرض إلى التراب الندى، فالثرى الواحد المطر، والثانى التراب النّدىّ، على أنه يحتمل أن يريد

بذلك أنّ التراب اليابس لمّا بلّهُ المطر ، حتى لحق بالتراب النّدى ، صار اليابس منهما يسمّى « ثرى » ، فقيل : التقى الثريان ، وقال النابغة :

وقد أبقَتْ صُروف الدّهر منّى ... كما أبقت من السّيْف اليمانِى[1]

يُصَمِّمُ وهو مأثور جُرازٌ ... إذا جُمعت بقائمهِ اليدان

فسّره أبو عبيد البكرى[2] وغيره : بأنه أراد بذلك الجارحة ، والأيْد الذى هو القوّة ، فجمع على الأخفّ ، فهذا من قبيل ماقدمناه ، ولا يحضرنى الآن غير هذا من كلام العرب .

قوله : الإلمام ، أى تخفيف الزيارة . أنفق ، أنخرج ، والنّفاق ضدّ الكساد . الإجام : الزيارة . صدى صوته ، أى متى دعاه وجده حاضراً مجيباً له ، والصدى : صوت الجبل الذى يردّ عليك إذا صحتَ .

وابن همام فى هذا المقامة شُرَيطِىّ القاضى .

[ذكر مناقب سلمان الفارسىّ]

وسَلْمان الذى ذكره ، هو سلمان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وخادمه ، ويعرف بسلمان الخير ، قالت عائشة رضى الله عنها : كان لسلمان رضى الله عنه مجلس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفرد به فى الليل ، حتى كاد يغلبنا عليه .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أمرنى ربى بحُبِّ أربعة ، وأعلمنى أنه يحبّهم : علىّ ، وأبو ذرّ ، والمقداد ، وسَلْمان » ، رضى الله تعالى عنهم .

وأتى أبو سفيان على سلمان وصهيب وبلال ، فقالوا : ماأخَذتْ سيوفُ الله من عُنق عدوّ الله مأخذَها ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : أتقولون هذا لشَيخ قريش

(١) هو النابغة الجعدى والبيتان فى أمالى القالى ١ : ٧١ . واللآلى ٢٤٦ والخزانة ١ : ٥١٣ . والمأثور : الباقى أثره ، والجراز : الماضى النافذ .
(٢) فصل المقال ١٤٨ .

وسيدهم ! وأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : يا أبا بكر ، لعلّك أغضبتهم ، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبتَ ربّك . فأتاهم أبو بكر رضى الله عنه فقال : يا أخوتاه ، أأغضبتكم ؟ فقالوا : لا ، ويغفر الله لك .

وكان من أبناء أساورة فارس ، وأصله من رامهرمز ، وقيل : كان من أصبهان ، وكان يطلب دينَ الله ويتبع مَنْ يرجو ذلك عنده ، فدان بالنصرانية وغيرها ، وقرأ الكتب ، وصبَر فى ذلك على مشقات نالته ، وكلّها مذكورة فى إسلامه فى كتب السِّيَر .

وقيل : تداوله فى ذلك بضعة عشر ربًّا ، حتى أفضى إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فاشتراه من قوم من اليهود .

وأوّل مشاهدِه الخندق ، وهو الذى أشار بحفرِه ، فقال أبو سفيان وأصحابه : هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدُها .

وسئل علىّ عنه فقال: علم العلم(١) الأول ، بحر لا ينزف ، هو منّا أهل البيت ، وفى رواية : هو مثل لقمان الحكيم ، وكان فاضلاً حبْرًا زاهداً عالمًا متقشفاً .

وتعلّم عملَ الخوص ، فقيل له : لم تعمل هذا وأنت أمير! وقد أُجرِيَ عليك رزق ، فقال : إنى أحببت أن آكل من عمل يدى . وكان يتصدّق بما يرزَق من بيت المال ، وكانت له عباءة يفترش بعضها ويلبس بعضها .

وقال صلى الله عليه وسلم : «لو كان الدِّين فى الثريّا لناله سلمان» .

أبو هريرة رضى الله عنه ، كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ سورة الجمعة ، فلما قرأ: ﴿وآخرين مِنهُمْ لمّا يلحقوابهِمْ﴾(٢) ـ وفينا سلمان ـ وضع يده على سلمان ، ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجل من هؤلاء» .

---

(١) ط : «علم» وما أثبته من الاستيعاب ص ٦٣٧ .

(٢) سورة الجمعة ٣

وتوفيَ في آخر خلافة عثمان رضي الله عنه ، وما ترك شيئاً يورَث عنه . وفضائله كثيرة .

وعلى قولهم لأبي بكر « لا ، ويغفر الله لك » . قال أبو محمد في الدّرة : وربما أجاب المستخبر بلا النافية ، ثم عقبها بالدعاء له ، فيستحيل الكلام إلى الدعاء عليه ، كما روى أنّ أبا بكر رضي الله عنه رأى رجلا ، بيده ثوب ، فقال: أتبيع هذا ؟ فقال لا عافاك الله، فقال أبو بكر رضي الله عنه : لقد علمتم لو تعلمون! فهلا قلت : لا وعافاك الله !

قال أبو محمد :والمستحسَن ما قال يحيي بن أكثم للمأمون، وقد سأله عن أمر، فقال : لا ؛ وأيد الله أمر أمير المؤمنين .

وحكى أنّ الصاحبَ بن عباد لما سمع هـذه الحكاية ، قال : والله لهَذه الواو أحسنُ من واوت الأصداغ ، في خدود المُرْد الملاح .

* * *

وكنت مع اشتيارِ شُهْدِه ، وَانتِشَاق رَنْدِه ، أشْهَدُ مشاجر الخصوم ، وأسفِرُ بين المَعصُوم منهم والموْصُوم . فبينَما القاضِي جالسٌ لِلإسجال، في يَوْمِ المَحفِل والاحْتِفَال ؛ إذ دَخَلَ شَيْخٌ بالِي الرِّياش ، بادِي الارْتِعَاش ؛ فتبصّرَ الحَفْلَ تبصُّرَ نَقّـاد ، ثم زعم أنَّ لهُ خَصْما غيرَ منقاد ؛ فلم يكن إلاَّ كَضَوْء شرارة، أَو وَحْي إشارَة ؛ حتَّى أُحْضِرَ غلام ، كأنَّهُ ضِرْغام فقال الشيخ : أيّدَ اللهُ القاضِي ، وعَصَمَهُ من التغـاضِي ؛ إن ابني هذا كالقلم الرّدِي ، والسَّيفِ الصَّدِي ، يجهل أوصاف الإنصاف ، ويَرْضَعُ أخلافَ الخِلاَفِ ، إن أَقْدَمْتُ أَحْجَمَ ، وإذا أعْرَبتُ أعْجَم ،

وإن أذكيتُ أخمد ، ومتى شويت رمّد ؛ مع أنى كفلته مذ دبّ ، إلى أن شبّ ، وكنت له ألطف من ربّى وربّ .
فأكبر القاضى ما شكا إليه ، وأطرف به من حواليه ، ثم قال : أشهد أنّ العقوق أحد الثكلين ، ولرُبّ عُقم أقرّ للعين .

* * *

قوله : اشتيار شهده ؛ أى استخراج عسله ، وأراد اجتناء منفعته . انتشاق : شمّ ، يقال : نشق الريح الطيبة نشقاً وانتشق : وتنشّق : شمّها . الرّند : شجر طيّب الرائحة ، قال ابن دريد رحمه الله : هو الآس ، وقال الجوهرى رحمه الله : ربما سُمّى العود رندا . مشاجر الخصوم : مواضع الخصام التى يتشاجر فيها الخصمان ؛ أى يمتزج كلام هذا بكلام هذا ، من الشّجْر ، واحدها مَشْجَر ، وقد يراد بها المصدر ، وجمع لاختلاف أنواعه . أسفر : أمشى بينهم بالصلح المعصوم : المحفوظ من الوقوع فيما يحذر ، وأصل العصمة فى كلامهم المنع ، وعصمته من كذا ، إذا منعته . ﴿والله يعصمك من الناس﴾[1] ، أى يمنعك . الموصوم : ذو الوصم ، وهو العيب ، فأراد أنه يُصلح بين أهل الخير والشرّ . للإسجال : للحكم ، وأسجل القاضى على نفسه بالحكم ، وسجّل ، إذا كتب على نفسه ، فأراد أنه جلس للحكم فى العقود والسجلات . ومحفل القوم : مجتمعهم . والاحتفال : كثرة النّاس واجتماعهم ، ومعنى احتفل الرجل : جمع ، وأراد : يكثر من الشىء الذى قصد ، وجمع المحفل محافل ، ومنه الشاة المحفّلة ، وهى التى يحبس لبنها أياماً فى ضرعها لا تحلب . الرياش : الثياب . تبصّر الحفل : نظر الجمع وشخص فيهم . نقّاد : مفتش ، كأنه ينقد بصره الرجال ، ويريد أنه نظر من شرط القاضى أهل الحزم

(١) سورة المائدة ٦٧ .

والجراءة، فأخبرهم بقصّة ابنه، فانطلقوا فأتوا به، ونقّاد الدراهم: الذى يُمعِن النظر فيها والتقليب لها ، ليميّزَ جيِّدها من رديئها . وحى إشارة ، يريد إشارة العين ، إذا غمزت مَنْ تريد أن يفهم إشارتك دون غيره ، والوحى: الإيماء الخفىّ . ضِرْغام: أسد فى عِظَم خلقته وشدّته . التغاضى : التّغافل والسكوت عن الظلم . الصَّدِى : الذى علاه الصّدأ ، وهو وسخ السيْف . والأخلاف جمع خِلْف ، وهو مايحلب منه اللبن ويقبِض عليه الحالب . قال ابن دريد : وقيل : الخِلْف للناقة كالضَّرْع للبقرة . أحجم : تأخر . أعربت : أوضحت . أعجم : أبهم ولبّس . أذكيت : أوقدت . أخمد : أطفأ ، وخمدَت النار : طُفِئ لهبُها . كفلته : ربّيته . دبّ . مشى مشىَ صغيرعلى يديه ورجليه . شبّ : صار شاباً ألطف: أشفق وأرق . ربّ: أصلح ، يريد أنه أصلح أحوالَه ، وأحسن تربيتَه تحرُّزا من أن ينسبه القاضى إلى تقصير . أكبر : رآه كبيراً . أطرف : أعجب ، وجعلهم يستطرفون خبره . الثّكلين : الفقدين ، يريد أنّ الرجل إذا عقّه ولده ولم يبرّه فكأنه قد فقده .

[ذمّ العقوق]

ومما جاء فى العقوق : كان جرير الشاعر أعقّ النّاس بأبيه ، وكان بلال ابنه كذلك ، فراجع جرير بلالاً فى الكلاَم ، فقال له بلال : الكاذب بينى وبينك ناك أمّه ، فأقبلت أمّه عليه ، وقالت : ياعدوّ الله ، تقول هذا لأبيك ! فقال جرير: دعيه ، فكأنه سمعها منى وأنا أقولها لأبى .

وممّن شُهِر عنه العقوق بوالديه الحُطيئة الشاعر ، قال يهجو أباه :

لحاكَ اللهُ ثمّ لحَاكَ حقًّا ... أبًا ولحَاكَ من عمٍّ وخَالِ(١)

(١) ديوانه ١١٩

فبئس الشيخ أنت لدى المخازى وبئس الشيخ أنت لدى المعالى
جمعتَ اللؤم لاحيّاك ربى وأبوابَ السّماهة والضّلال

وقد تندّم هجو نفسه وأمّه .

وممن هجا أباه وغيره علىّ بن بسام ، وماسلم من هجائه أمير ولا وزير ، ولا كبير ولا صغير ، ومما قال فى أبيه :

هبك عُمِّرتَ عُمرَ عشرين نسْرًا أترى أننى أموت وتبقى[1]
فلَئن عشتُ بعد موتك يوما لأشقّن جيب مالك شقّا

وقال فيه أيضاً :

بعثتُ لأستهديك عَيْرًا ولم أكن عَلِمتُ بأنّ العَيرَ صار لنا صِهْرا
فوجِّه به كى نشترك فى ركوبه فتركبه بَطْناً وأركَبُه ظهرا

وقال فيه أيضاً :

شِدْت داراً خلتَها مكرمَةً سلّط الله عليهـا الْغرَقا
وأرانيكَ صريعاً وسْطها وأرانيهـا صعيدا زَلَقَا

وقال فيه أيضاً :

بنَى أبو جعفر داراً فشيّدَها ومثله لخيـار الدّور بنّـاءُ
فالجوع داخلها والذلّ خارجها وفى جوانبها بؤسٌ وضرّاءُ
مايتفع الدار من تشييد حائطها وليس داخلَها خبزٌ ولا ماء

وكذب ، كان أبو جعفر محمد بن نصر بن منصور بن بسام فى نهاية التودّد والمروءة والنظافة ، رجل مترَفٌ نبيل المركب ، مليح الملبس ، ظريف الغلمان ، له همة فى تشييد البنيان ، ومارثاه ابن الرومى به يدلّ على كذب ابنه ، قال ابن الرومى فيه :

---

(١) ابن خلكان ١ : ٣٩٢ .

أودَى محمد ابن نصرٍ بعدما ضُرِبَتْ به في جوده الأمثال[1]
ملكٌ تنافست العلا في عمره وتنافستْ في موتِه الآجالُ
مَنْ لم يعاين سيرَ نعش محمدٍ لم يدر كيف تُسيَّر الأجبالُ
ودَخرته للدهر أعلم أنهُ كالحصْنِ فيه لمن يئولُ مآل
وتمتعتْ نفسي بروح رجائه زمنًا طويلا والتمتع مالُ
ورأيتُه كالشمس إن هي لم تُنَلْ فالرِّفق منها والضِّياء ينالُ
امِنِي لفقدك يا محمّد إنه فُقِدَتْ بك النفحات والأنفالُ
بالله أُقسمُ إنّ عمركِ ما انقضَى حتى انقضى الإحسانُ والإجمال

ولابن بسام يعزّى أبا القاسم بن وهب في ابن مات له :

قل لأبي القاسم بن وهبٍ أتى بك الدّهر بالعجائبْ[2]
ماتَ لك ابنٌ وكان زينًا وعاش ذو الشَّين والمعايبْ
حوشاةُ هذا كموت هذا فليس تخلو من المصائب

وقد تقدّم هجوه في أخيه .

ومن حسن التعطف على الابن العاق، قول إبراهيم الصابي ، وكان ابنه يعقّه :

أرضَى عن ابني إذا ماعقّني حذَرًا عليه أن يغضبَ الرحمنُ من غضَبِي
ولستُ أدري بم استحققتُ من وَلدِي إسخانَ عيني وقد أقررتُ عينَ أبي!

* * *

قوله : ولرب عُقْم ، العقم ألاّ تلد المرأة .

(١) مختارات البارودي ٣ : ٣٢٤
(٢) خاص الخاص ١٠٩

فقال الغُلاَم ؛ وقد أمْعَضَه هذا الكلام : والذي نصب القُضَاة لِلعَدْل ، ومَلَّكهُمْ أَعِنَّةَ الفَضْلِ والفَصْل ، إنّه مادَعاَ قطّ إلاَّ أَمّنت ، ولاَ ادَّعَى إلاَّ آمنتُ ، ولاَ لَبَّى إلاَّ وأَحْرَمْتُ ، وَلاَ أَوْرَى إلاَّ وأَضْرَمْت ؛ بَيْدَ أنَّهُ كَمَنْ يَبْغِي بَيْضَ الأَنُوق ، ويَطلُبُ الطَّيَرانَ مِنَ النُّوق . فقال له القاضى : وبِمَ أَعْنَتَكَ ، وامْتَحَنَ طَاعَتَكَ ؟ قَالَ : إنَّهُ مُذْ صَفِرَ من المـال ، ومُنِيَ بالإمحـال ، يَسُومنى أن أتَلَمَّظَ بالسُّؤال ، وأَسْتَمْطِرَ سُحْبَ النَّوَالَ ؛ ليَفيضَ شِرْبُه الَّذى غاض ، ويَنْجَبِر من حَالِهِ ماَ انْهاضَ ، وقَدْ كانَ حِينَ أَخَـذَنى بالدَّرْس ، وعَلَّمَنِي أَدَبَ النَّفْس ، أَشْرَبَ قَلْبِي أَنَّ الحِرْص مَتْعَبة ، والطَّمَعَ مَعْتبة ، والشَّرَه مَتْخَمة ، والمسْأَلَة مَلاْمَة .

* * *

أمعضه : أوجعه وأغضبه ، وأمعض من ذلك وامتعض : غضب وشقّ عليه وأوجعه . ادّعى : نسب لنفسه ماشاء ، وفلان مُدَّعٍ وفعله الدعوى . آمنت : صدقت ما ادّعاه لبّى : من تلبية الحاج إذا صاح : لبَّيْك لبَّيْك . أحرمت : صرت محرماً . أورى : أظهرله النار من الزند . أضرمت : أوقدت . بيد : غير الأنوق : ذكر الرّخَم ، ولا يبيض له ، فكأنه طلب أمراً لايكون أبدا ، ومثله : طلب الأبلق العقوق ، والأبلق الذكر والعقوق من الخيل : التى امتلأ بطنها من حملها ؛ يقال للأنثى : قد أعقت وهى معقّ وعقوق ؛ فكأنه طلب أمراً لا يكون أبداً ، لأنه لا يكون الأبلق عقوقاً .

ويقال : إن رجلا سأل معاوية أن يزوّجه أمه هنداً ، فقال : أمرُها إليها ، وقد أبتْ أن تتزوّج ، قال : فولّنى مكان كذا وكذا ، فقال معاوية متمثّلاً :

طلب الأبلق العقوق فلمّا لم ينله أراد بيضَ الأنوقِ

والأَنُوق : طائر أبيض فى شواهق الجبال ، فبيضها فى حرْز لا يُطامَع فيه ، فمعناه طلب مالا يكون ، وأما طلب الطّيَران من النوق فمثل الأول، وهو لا يمكن. قوله : أعنتك ، أى أتعبَكَ ،وكلّفك مايشقّ عليك،من عَنتَ البعير يعنِت عنتا، إذا حَدَث فى رجله كَسْر بعد الجبر ، فلا يمكنه التّصرّف إلاّ بمشقة . قال أبوعبيد رحمه الله:عنّته: أضرّبه، والعَنَت : الضرر،قال: وأعنتَه أيضا ، أهلكه . وقال أحمد بن عبيد : أعنَتَه:شدّد عليه ،والعنت : التّشديد .

ابن عَزيز: عَنت : هلاك ، وأصله المشقّة والصعوبة ، ومنه قولهم : أَكَمة عَنُوت ، إذا كانت صعبة المَسالك ، وقوله تعالى : ﴿ لَأَعْنَتَكُم[1] ﴾ ، أى لأهلككم ، ويجوز أن يكون المعنى لشدّد عليكم وتعبّدكم بما يصعب أداؤه عليكُم ، كما فعل بمَنْ قبلكم . امتُحِن : ابتُلِىَ . صَفِر : خلا . مُنِىَ : بُلِىَ . الإمحال : الجدْب والفقر . يسومنى : يكلّفنى . أتلمّظُ بالسؤال ، أى أكثر الكلام به ، والتلمُّظ : تتبُّع مابقىَ فى الفم من الطعام باللّسان بعد الأكل. سُحُب: جمع سَحابة . النوال : العطاء ، قال ابن الأنبارى رحمه الله : النّوْل والنّوال : المنفعة والحظّ ، ونِلْت الرجل : إذا نفعتُه ، وأنلته حظًّا ونالنى فلان : نفعنى ، وقولهم : ما كان نَوْلك أن تفعل كذا ؛ أى ما كان لك منفعة فى هذا الفعل ، ونولك :منصوب خبر كان وأنْ تفعل اسم كان أو بالعكس. يفيض : يسيل ويكثر. شِربه : ماؤه ، وأراد به ماله : غَاض : جَفّ . انهاض : انكسر . أشرَب : روى وسقى . الحرص : كثرة الطمع والطلب للدنيا ، والشّرَه : الحرص الكثير . مَتْخمة : مفسدة ، والمسألة : سؤال مافى أيدى الناس . مَلأَمة : لؤم.

* * *

(١) سورة البقرة ٢٢ .

ثم أنشدنى من فِلقِ فيه ، ونَحْتِ قوافيه :

إرْضَ بأدْنَى العَيْشِ واشكُرْ عليه شكر مَن القُلُّ كثيرٌ لدَيْه

وجانِبِ الحرْصِ الذى لَمْ يَزَلْ يَحُطُّ قَدْرَ المتراقى إليْه

وحَامِ عَنْ عِرْضِكَ واسْتَبْقِهِ كَمَا يحامِى اللَّيْثُ عن لِبْدَتَيْه

واصْبِرْ عَلَى ما نابَ من فاقةٍ صَبْرَ أُولِى العَزْمِ وأغْمِضْ عَلَيْه

ولا تُرِقْ ماءَ المحيَّا ولَوْ خوَّلَكَ المسئولُ ما فِى يَدَيْه

فالحرُّ مَنْ إن قَذِيَتْ عَيْنُهُ أخفى قَذَى جَفْنَيْهِ عن ناظِرَيْه

ومَنْ إذا أَخلَقَ ديباجُهُ لَمْ يَرَ أنْ يُخْلِقَ دِيباجَتَيْه

• • •

فِلْق : شِقّ من بين شفتيه . نحت : نجر ، أراد إنشاء قصائده . والقوافى ، من قفوت الشىء ، إذا تتبعته ، وسُمِّيت بذلك الاتباع بعضها بعضا . القُلّ : القِلة . المتراق : المرتفع . لِبْدَتية . شعر متلبّد على كَفَله وبين كتفيه . ناب : نزل . فاقة : فقر . أغمِضْ ، أى استره واغفل عنه ، والمحيّا : الوجه . خوّلك : ملّكك . الناظر : سواد العين ، فيريد أنه إذا وقع فى عينيه قذى وهو السقط على شدّة إذايته ، احتمله الحرّ الكريم وصبر عليه ، وأخفاه من ناظريه ؛ تجلّد ، أى أخفى أذى بعض العينين من بعض ، وهذا غاية فى المبالغة . ديباجه : ثوبه ، والديباج : ثوب رفيع . ديباجتيه : خدّيه ، وقيل ديباجة الخدّ حسن بشرته ، وأخلق الشىء ، وأخلقه غيرُه لازم ومتعدّ ، يقول : إذا افتقرتَ وبلِىَ ثوبك فلا تبذل وجهك لأحد ، ولا تَهِنْه بالسؤال ، وهذا من قول حبيب :

ذلّ السؤال شجاً في حَلْقِ معترِضٍ ... من دونه شَرَقٌ من خلفه جَرَضُ[١]
ما ماء كفك إن جادت وإن بخلت ... من ماء وجهى إذا أفنيتُه عِوَضُ

وقال في ابن الزيات :

أعطى ونطفة وجهى في قراراتها ... يَصُونها الوَجَناتُ الفضّة القُشُبُ[٢]

يقول : لم يخلق وجهى سؤال ، فوجْهِى غضّ جديد ، والنطفة : ماء الوجه الذى نهى الحريرىّ عن إراقته حين قال :

ولا تُرِق ماء المحيّـا ولو ... خوّلك المسئولُ ما فِي يَدَيْهِ

[بين أبى تمام وعبد الصمد بن المعذل]

قال الصولىّ : كان حبيب رحمه الله لا يجيب هاجيا ، ترفُّعاً عنه ، فانحدر إلى البصرة والأهواز يمدح من بهما ، فكتب إليه عبد الصمد بن المعذّل :

أنت بين اثنتين تبرز للنّا ... س[٣] بكلتيهما بوجهٍ مُذَالِ[٤]
لستَ تنفَـكّ طالباً لِوِصَالٍ ... من حبيب أو طالباً لِنَـوالِ
أىّ ماء لحرّ[٥] وجهك يبقَى ... بين ذلّ الهوى وذلّ السؤال

فلما قرأ الشعر قال : قد شغل هذا ما يليه ، ولا أَرَبَ لنا فيه[٦] .

وحكى الأصبهانىّ قال : جمع مجلسٌ أبا تمام وعبد الصمد ، وكان عبدُ الصمد

(١) ديوانه ١٤٩
(٢) ديوانه ٤٨ .
(٣) في أخبار أبى تمام للصولى : « تغدو مع الناس » .
(٤) المذال : المهان .
(٥) « الصولى : لماء وجهك » .
(٦) أخبار أبى تمام للصولى ٢٤١، ٢٤٢

صريحَ القول ، وفى أبى تمام بطء ، فأخذ عبد الصمد قرطاسا ، وكتب : أنت بين اثنتين .. الأبيات ، ورمى بها إلى أبى تمام ، فأخذه وخلاَ به طويلا ، وجاء وقد كتب فيه :

أفىَّ تنظم قولَ الزُّور والفَنَدِ وأنت أنزرُ مِنْ لا شىء فى العَدَدِ
أشْرجتَ قلبك من بغض على حُرَقٍ(١) كأنها حَرَكاتُ الرُّوحِ فى الجَسَد

فقال له عبد الصمد : يا ماصّ بظر أمه(٢) ، أخبرنى عن «لا شىء» فى العدد كيف يكون ؟ وعن قولك : «أشْرَجْتَ(٣) قلبك» ، أعيبة أو خُرْج ، فأشرجه ، عليك لعنة الله(٤) .

فانقطع أبو تمام انقطاعاً ما رُئِىَ مثله .

وحكاية الصولىّ أوْلَى بالصحة من هذه ، وليس عبد الصمد من رجال أبى تمام ، ولا له من التصرّف فى أنواع الشعر ما لأبى تمام ، وصنعُ البديع وَقْفٌ عليه ، ولو صحّت الحكاية فلا يحكم بالندرة ، لكن يحكم بالجملة ، واستعمال ديوان حبيب فى مجالس العلماء شاهد على فضله ، على أنّ ما جمعنا لعبد الصمد فى هذا الكتاب غاية فى بابه . فلنرجع إلى ما قيل فى ذل السؤال .

[مما قيل فى ذل السؤال]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سأل وعنده ما يغدّيه أو يعشّيه ، فإنما يستكثر من جَمْرِ جهنّم » .

---

(١) ط : « أسرجت » بالسين تصحيف .
(٢) بعدها فى الأغانى : « يافث » . وأشرجت العيبة : أو شددتها بخيط أو نحوه
(٣) أشرجت العيبة : شددتها بخيط .
(٤) الخبر فى الأغانى ١٣ : ٢٥٣ ، ٢٥٤ يرويه عن ابن مهرويه . وفى آخر الخبر : قال أبو الفرج الأصفهانى : « كان فى ابن مهرويه تحامل على أبى تمام لا يضر أبا تمام هذا منه ، وما أقل ما يقدح مثل هذا فى أبى تمام » .

وقال الحسن بن عليّ رضي الله عنهما : حسبك من السؤال أنه يضعف لسانَ المتكلِّم ، ويكسر قلب الشجاع البطل ، ويوقف الحرّ الكريم موقفَ العبد الذليل ، ويذهب بنضْرة اللون ، ويمحو الحسب ، ويحبِّب الموت ، ويمقت الحياة .

الأصمعي رحمه الله : سمعت أعرابيًّا يقول : المسألة طريق الذلّة ، تسلب الشريف عزّه والحسيب حسبه .

وقال معاوية لعبد الله بن الزبير : أنشِدْني ثلاثة أبيات غريبة ، فقال أنشدكها بثلاثين ألفاً تدفعها إليّ ، فقال : حتى تنشد فأسمع ، فأنشده أبياتَ الأفوه الأودي[1] :

بلوتُ النّاسَ قرناً بعد قرنٍ ... فلم أرَ غير خَتْلٍ أو قتالِ[2]
ولم أرَ في الخطوب أشدّ ضرًّا ... وأذى مِنْ مُعاداة الرِّجال[3]
وذقت مرارة الأشياء طرًّا ... فما شيء أمرُّ من السؤال

ثم قال له : أسمعتُك وأنت الحكَم ، فحكَم له ، وأمر له بثلاثين ألفا .

وينظر إلى ما نسبه ابن المعذل لحبيب من إضافة ذل السؤال ، ما أضافه له عليّ بن الجهم من ذل الاعتذار ، وقال يعتذر للمتوكل :

إنّ ذلَّ السؤال والإعتـذارِ ... خُطّةٌ صَعْبَةٌ على الأحْرَارِ[4]
ليس من باطلٍ تورَّدها المر ... ء ولكن سوابقُ الأقدَارِ
فارْض للسائل الخضوعَ وللقا ... رِف ذنباً بذلّة[5] الإعتذار

(١) ديوانه ٢٢ (مجموعة الطرائف الأدبية) ، عيون الأخبار ٣ : ١١٣ .
(٢) الديوان : « غير خلاب وقال » .
(٣) رواية الديوان : « فما طعم الخطوب »
(٤) ديوانه ١٤٩ .
(٥) الديوان « مضاضة » .

إن تجافيتَ منعما كنتَ أولَى ... مَنْ تجافَى عن الذنوب الكبارِ
أو تعــاقبْ فأنت أعرف بالله وليس العقــابُ منك بعارِ

وقال أيضاً :

هى النفس ما حمَّلتَها تتحمَّلُ ... وللدهر أيامٌ تجورُ وتعدِلُ[(١)]
وعاقبة الصبر الجميــل جميلةٌ ... وأكملُ أخلاق الرجال التفضلُ
ولا عارَ أن زالت عن المرء[(٢)] نعمة ... ولكنَّ عارا أن يزول التجمُّلُ
وما المال إلا حسرةٌ إن تركتَه ... وغُنْم إذا قــدَّمْتَه متعجِّلُ

* * *

قالَ : فعبَس الشيــخُ واكفهرَّ ، وَانْدَرَأَ على ابنِه وهرَّ ، وقال له : صَهْ يا عُقَق ، يا مَنْ هو الشَّجَى والشَّرَق . ويلَكَ ، أتعلَمُ أمَّكَ البِضَاع ، وظِئْرَكَ الإرْضَاع ! لقدْ تحكَّكتِ العقربُ بالأفعَى ، واستنَّتِ الفِصَالُ حتَّى القرْعَى . ثمَّ كأنَّهُ ندِم على مافرَط مِنْ فيه ، وحَدَتْهُ المِقَةُ على تلافيه ، فرَنَا إليْه بعَين عاطفٍ ، وخفَضَ له جَنَاحَ مُلاطِف ، وقال له : وَيلكَ يا بُنيَّ ، إنَّ مَنْ أُمِرَ بالقناعَة ، وزُجِرَ عن الضَّرَاعة ، همْ أربابُ البِضاعَة ، وأولُو المكْسَبة بالصِّناعة ؛ فأمَّا ذَوُو الضَّرُورات ، فقد استُثْنِيَ بهِمْ فى المحظوراتِ ؛ وهَبْكَ جهِلْتَ هَذَا التأويل ، ولم يَبْلُغكَ ما قيل ، ألَسْتَ الَّذِى عارَضَ أباه ، فيما قالَ وما حاباه !

---

(١) ديوانه ١٦٢ ، ١٦٣ ... (٢) الديوان : « عن الحر »

قوله : اكفهر ، اشتدّ عبوسه ، ووجهٌ مكفهِرّ : منقبض كالح ، لا يُرى فيه أثرُ بِشْر ولا فرح . اندرأ : اندفع على ابنه بالشتم . هرّ : كشّر وجهه وعبّسه . صه: اسكت . ياعُقَق : يا كثير العقوق ، ويقال :عَقّ أباه يعقّه عقوقا ، فهو عاقّ ، و يُعدَل إلى عُقَق للمبالغة ، كعامر وعمر ؛ وعَقّ أباه : لم يطعه وقطع رحمه . ولما قُتِل حمزة عمُّ النبي صلى الله عليه وسلم ورضى الله عن عمه ، مرّ به أبو سفيان ، فطعنه بالرمح فى شِدْقِه ، وقال : ذق عُقَق ، أى ذق جزاء فعالِك يا عُقَق ، والعَقُّ : القطع والشق .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : العاقُّ لوالديه ، والدّيُّوثُ ، وَرَجُلة[1] النساء » .

قوله : الشَّجا : الاختناق بالطعام ، الشَّرَق بالماء والطعام والشراب ، بهما قوام العيش ، فإذا عرض فيهما ذلك فقد عرضت مشقّة وأذيّة فى موضع الالتذاذ ، وكذلك الولد العاق ، وهو أذيّة فى موضع راحة ، وما أحسن قول القائل :

قَرابة السوء داء سُوء ... فاحمل أذاهمْ تَعِشْ حميدَا

فمن تكن قَرْحةٌ بفيه ... يَصْبِرْ على مَصِّه الصَّديدا

الوُضاع : النكاح والجماع . ظئرك : مرضعتك . تحكّكت : لصقت بها وحلّقتَ حواليها . استنّت: جرَتْ متتابعة فى سَنَن، وهو الطريق والمذهب ، ومنه فلان يستنّ ، أى يجرى على أىّ أمر شاء ، لايزجره عنه زاجر . وقيل : استنّت ، أى سمنت ، من قولهم: سنّ الراعى إبله ؛ إذا أحسن رَعْيَها فأسمنها ، فكأنه حسّنها وصقلها . القرعى[2]: التى يصيبها القرَع فى رأسها ، والقرْعى : جمع قريع ، مثل مَرْضى ومريض ، وهذه أمثال تضرب لمن يتشبّه بغيره ، ولا يقوى قوّته .

---

(١) الرجلة (بالضم) من النساء المترجلة . ابن الأثير .

(٢) لفظ المثل: استنت الفصال حتى القرعى ، ذكره الميدانى ف ١ : ٣٣٣ ، وقال: « يضرب للذى يتكلم مع من لا ينبغى أن يتكلم بين يديه لجلالة قدره » .

فرّط : سبق. حدته : سافته . المِقَة : المحبة . تلافيه: تداركه بالعطف عليه. رنا : نظر : عاطف : راحم . ملاطف ، أى رفيق به،أى حسّن كلامه وأنسه. وخفض الجناح ؛ يكنَى به عن لين الجانب ويك : عجبا لك ! زجر : نهى . الضّراعة: التذلل، وضرع ضراعة فهوضارع ، تضرّع: تذلل وتخشع .البضاعة : التجارة . المحظورات : الممنوعات ، وأراد بالاستثناء ما أحلّ الله من المحرّمات لأهل الضرائر ، ويروى : سوّغوا فى المحظورات ، أى رخّصوا لهم فيها. هبك: أحسبك . التأويل : التفسير . ولم يبلغك ماقيل، يعنى فى إباحة السؤال للمضطر ، وهو قول الناس : الضرورات تبيح المحظورات ، ويصدّقه قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ اضطُرَ فى مخمصة ﴾[1] الآية،وقال عليه الصلاة والسلام: « إنما المسألة كُدوح يكدح بها أحدكم وجهه إلاّ مسألة من ذى سلطان أوفى أمر لابدّ منه » . عارضه : قابله بنقيض ماقاله . حاباه : اختصّه بهذه الوصية ، أى جعل هذا الشعر وصية لمن ضممه ، ويقال : حابى فلان فلانا ، إذا مال إليه واتّصل به ، أخذ من حَبِيّ السحاب ، وهو السحاب الذى يدنُو بعضه من بعض وقيل . حَباه : خصّة بالنيل ، أخذه من الحَبْوَة ، وهى العطية يحبُوها الرجل صاحبَه ، ويخصّه بها ، قال اليزيدى : ثلاثة إن لم تظلمهم ظلموك : ابنك ، وزوجك ، وخادمك .

* * *

لا تَقْعُدَنّ على ضُرٍّ ومَسْغَبَةٍ ... لِـكَى يقال عَزيزُ النّفْسِ مُصْطبِرُ

وانظُرْ بِعَيْنِكَ هَلْ أَرضٌ مُعَطّلَةٌ ... من النّباتِ كأرضٍ حَفّهَا الشّجَرُ

فَعَـدٌ عمّا تُشِيرُ الأغْبيـاءُ بِهِ ... فأىُّ فضلٍ لعُودٍ مالَهُ ثَمَرُ

وَارْحَلْ رِكَابَكَ عن ربْعٍ ظمِئْتَ بِهِ

إلى الجنابِ الّذِى يَهْمِي بِهِ المطرُ

(١) سورة المائدة ٣ .

واسْتَنْزِلِ الرِّىّ من دَرِّ السَّحَابِ فإِنْ
بُلَّتْ يَدَاكَ به فَلْيَهْنِكَ الظَّفَرُ
وإنْ رُدِدْتَ فمَا فى الرَّدِّ مَنْقَصَةٌ
عليكَ ، قد رُدَّ موسَى قَبْلُ والخَضِرُ

* * *

مسغبة : جوع . حفَّها : حلّقها ، يريد أنّ الأرض ذات الخصب تُقصَد لمـا فيها من الأرزاق ، والأرض المُعَطّلة من النبات ـ وهى الجدبة ـ يفرّ عنها ، وكذلك الغنىّ يُكرَم لمالِه ، والفقير يهجر ويهان .

[فضل المـال]

ومما جاء فى فضل المال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمجاشعىّ : « إنْ كان لك مالٌ فلك حسب ، وإن كان لك خُلُق فلك مروءة ، وإن كان لك دينٌ فلك كرم » .

وقال حكيم لابنه : يا بنىّ أوصيك ، عليك بطلب المـال ، فلو لم يكن إلا أنه عزّ فى قلبك ، وذلّ فى قلب عدوّك[1] .

وقال آخر لابنه : يا بنىّ أُوصيك باثنتين لن تزال بخير ما تمسّكت بهما : درهمك لمعاشك ، ودينك لمعادك .

وكان سعد بن عبادة يقول : اللهمّ ارزقنى حمداً ومجداً ، فإنه لا مجدَ إلاّ بفَعَال ، ولا فعال إلاّ بمال .

وقالوا : المال آلة للمكارم ، وعون على الزمان ، ومتألّف للإخوان ، ومَنْ فقدَه قلّت الرغبة إليه والرهبة منه .

قال سفيان الثورىّ : المـال سلاح المؤمن فى هذا الزمان .

(١) هامش ط : « قوله : « فلولم يكن إلا أنه » جواب لو محذوف ، أى لكفاك أونحوه » .

وكان لأحيحة بن الجُلَاح بالزَّوراء ثلاثمائة ناضح ، فدخل بستاناً له ، فمرَّ بتمرة فلقطها ، فَلِيمَ على ذلك ، فقال : تمْرة إلى تمرة تمرات ، وَجَمل إلى جمل ذَوْد . ثم أنشد يقول :

إنّى مقيمٌ على الزَّوراء أعمُرُها	إن الحبيب إلى الإخوان ذو المال[1]
استغن أومت ولا يغرُرْك ذو نشَبٍ	من ابن عمٍّ ومن عمٍّ ومن خال[2]
كلّ الفداء إذا ناديتُ يخذُلُنى	إلاّ الفداء إذا ناديتُ يا مالى

وقال عروة بن الورد :

ذرينى للغنَى أسعَى فإنّى	رأيتُ النّاسَ شرُّهُم الفقيرُ[3]
وأدناهم وأهونُهُمْ عليهم	وإن أمسى له حَسَبٌ وخِيرُ
يُباعده القريب وتَزْدَريه	حليلتُه ويقهره الصغير
ويلقى ذو الغنى وله جلال	يكاد فؤادُ لاقيه يطيرُ
قليل ذنْبه والذّنب جمٌّ	ولكنْ للغنى ربٌّ غفور

ومن أمثال بغداد : المال المال ، وما سواه محال .

قوله : الأغبياء : الجهال ، وأراد بهم الّذين يأمرون بالبخل . ظمئت : عطشت . والركاب : الإبل . والجناب : الجانب والناحية . يهمى : يسيل . والرِّىّ : الشبَع من الماء ، والصَّوْب وقع الماء . والظفر : الفوز بالحاجة ، يقول : فارق أرضك واغترب فى طلب المال ، واسأل الكرماء يعطوك .

وقال الشاعر :

سأعمِل نصَّ العيس يوماً ليكنِنى	غِنَى المال يوما أو غِنَى الحدَثانِ
فَلَلموتُ خيرٌ من حياة يُرَى بها	على المرء بالإقلالِ وَسْمُ هَوانِ

---

(١) الاغانى ١٥ : ٣٧ ، وفيه : « على الإخوان » (٢) الأغانى : « ولامم »
(٣) البيان والتبيين ١ : ٢٣٤ ، ولم ترد الأبيات فى ديوانه .

إذا قال لم يُسْمَعْ لحسن مقالهِ وإن لم يقل قالوا عديمُ بيانِ
كأنّ الغنى في أهله يجعل الفتى بغير لسانٍ ناطقاً بلسان

وأشار بقوله : « قد رد موسى قبل والخضر » إلى قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا ﴾[1] .

وفي نسب الخضر اختلاف ، منهم مَنْ جعله من قابيل بن آدم ، ومنهم من يجعل بينه وبين سام بن نوح خمسة آباء ، ويجعله من ذريّة سام ، وقال عليه الصلاة والسلام : « إنما سُمِّيَ خضراً لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هي تهتزّ خضرة » . والفروة : الأرض البيضاء ، وقصته مع موسى مشهورة . وقيل إن موسى صاحبه غير موسى بن عمران . وقال موسى للخضر حين فارقه : عظني فقال : لا يراك الله حيث نهاك ، ولا يفقدُك حيث أمرك ، فكما تذهب بأمل صادق فتخيب ، قد تذهب بأملٍ كاذب فتصيب ، وتذهب للحقير ، وتدرك الجليل . وقد ذهب موسى ليقتبِس ناراً ، فكلّمه ربه . وقد تقدّم هذا .

قال ابن عبد ربه : مما جُبِل[3] عليه الحرّ الكريم ، ألاّ يقنع من شرف الدنيا والآخرة بشيء مما انبسط له من أمر الدنيا ، بل يكون أمله فيما هو أسنى درجة وأرفع مرتبة ، ولذلك قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو عامل بالمدينة لدُكين[2] الراجز: إن لي نفساً توّاقة ، فإذا بلغك أني صرت إلى أشرف من منزلتي فأتني . فلما صار خليفة أتاه ، فقال : أنا أعلمتك أن لي نفسا توّاقة ، وأنّ نفسي تاقت إلى أشرف منازل الدنيا منزلة ، فلما بلغتُها وجدتها تتوق إلى أشرف منازل الآخرة منزلة .

ومن الشاهد لهذا المعنى أنّ موسى عليه السلام لمّا كلّمه ربه تكليماً سأله ،

---

(١) سورة الكهف ٧٧ (٢) ط : « الرعين » تحريف (٣) العقد ٣ : ٢٠ ، ٢١

النظر إليه إذْ كان ذلك ـ لو وصل إليه ـ أشرف من المنزلة التى نالها ؛ فالحرّ الكريم لا يقنع بمنزلة إلا رجا أشرف منها قال : ومن قولنا فى هذا المعنى :

والحرّ لا يكتفى أبداً من نيل منزلةٍ ... حتى ينال الّتى من دونها العطبُ

يسعى به أملٌ من دونه أجلٌ ... إن كفَّه رهبٌ يدعو به رغبُ

لذاك ما سال موسى ربّه : أرنى ... أنظرْ إليك وفى تسآله عجبُ

يبغى التزيّد فيما نالَ من كرم ... وهو النجىّ لديه الوحْىُ والكُتُبُ

وقال حبيب :

ذرينى وأهوالَ الزمان أقاسِها ... فأهواله العظمى تليها رغائبه[1]

* * *

قال : فلمَّـــا أن رأى القاضى تنافِىَ قولِ الفتى وفعلِه ، وتَحَلِّيَهُ بما لَيْسَ من أَهله ، نَظَرَ إليه بعينِ غَضَبَى ، وقال : أَ تميميًّا مرةً وقيسيًّا أخرى ! أفٍّ لمن ينقُضُ ما يقول ، ويتلوّنُ كما تتلوّن الغُولُ . فقال الغلام : والذى جَعلك مفتاحاً لِلْحقّ ، وفتَّاحًا بين الخلق ؛ لقد أُنسِيتُ مذ أَسِيت ، وَصَدِىءَ ذهنى مذ صَدِيت ؛ على أَنّهُ أَيْنَ البابُ الفتْح ، والعَطاَءِ السَّرْح ! وهَلْ بين مَنْ يتبرعُ باللُّهَـاَ ، وإذا استُطعِم يقول : ها !

قال له القاضى : مَهْ فمع الخواطىءِ سَهْمٌ صائبٌ ، وما كل بَرْقٍ خالِب ، فمِزِ البُرُوق إذا شِمْتِ ، ولا تَشْهَدْ إلاَّ بما عَلِمْت .

---

(١) ديوانه ٤٤ .

قوله تحلّيه : تزيّنه ، وقوله : أتميميًّا مرة وقيسيًّا أخرى ، مثل يضرب لمن يتناقض فيما يقول ، تقديره : أتنسّب مرةً لتميم وتنسّب مرّةً لقيس ! وتميم وقيس قبيلتان عظيمتان ، وبينهما أبداً مكافحات ومقاتل ، وتميم هذا ابن مرّة بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر ، وقيس ابن الياس ، قال أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا الدرداء ، إذا فاخرت ففاخرْ بقُرَيْش ، وإذا كاثرت فكاثر بتميم ، وإذا حاربت فحارب بقيس ، إلاّ أن وجهها كنانة ، ولسانها أسد ، وفرسانها قيس ، ألاَ إن لله فرسانا فى سمائه وهم الملائكة ، وفرسانا فى الأرض وهم قيس ، وإنّ آخر من يقاتل على الإسلام حين لا يبقى إلا ذكره ، ومن القرآن إلا رسمه ، رجل من قيس » ، قلت : يا رسول الله ، من أىّ قيس ؟ قال : من سُلَيم . وفى البديعية :

إنّ حالى مع الزما ن كحالى مع "نَسَب"[1]

أنا أضحى مع النَّبيـطِ وأمْسِى مَعَ العربْ

نسبى فى يد الزما ن إذا سامه انقلبْ

وقال زفر بن الحارث لعمران بن حِطّان : أزيديًّا مرة ، وأوزاعيًّا أخرى ! وقال عمران بن حِطّان :

فاعذِر أخاك ابن زنباعٍ فإنّ له فى النائبات خطوباً ذات ألوانِ[2]

يوماً يمانٍ إذا لاقيتُ ذا يمنٍ وإن لقيتُ مَعَدِّيًّا فعدنانى

وقال آخر :

أفى الولائد أولادٌ لواحدةٍ وفى العيادة أولادٌ لعَلاّتِ

قوله : يتلوّن ، أى يتغير ويتنوّع . والغُول : ساحرة الجن ، وهو يتصوّر

(١) مقامات الهمذانى ١٠٥ (٢) الكامل ٣ : ١٧٠

فى صور شتى . وأخذه من قول كعب بن زهير :

فما تدومُ على حالٍ تكونُ بها إلاّ كما تلوّنُ فى أثوابها الغُولُ(١)

وتزعم العرب أنه إذا انفرد رجل فى الصحراء ظهرت له فى خِلْقة إنسان ، ولا يزال يتبعها حتى يضلّ الطريق ، فتدنو منه ، وتتمثل فى صور مختلفة فتهلكه رَوْعاً . وإذا أرادت أن تضلّ الناس أوقدت نارا فيُبصرها السارى فيقصدها ، فتفعل ذلك وتروّعه ، فإن كان الذى يأتيها شجاعا مِقْدَاماً تحامل وتبعها ، فإذا رأت ذلك لم تضرّه ، وجلس يصطلى بنارها وهى معه . وقال تأبّط شرا :

وأدهَمَ قد جبتُ جِلبابه كما اجتابت الكاعب الخَيْعَلاَ(٢)
إلى ضوء نارٍ تنوّرتُها(٣) فبتّ لها مدبراً مُقْبِلاَ
فأمسيتُ والغُول لى جارةٌ فيا جارنا أنت ما أهْوَلا
فمن يك عن جارتى سائلاً فإنّ لها باللّوى منزلا

قال أبو عمرو رحمه الله بات تأبّط شرًّا ليلة ذات ظلمة ورعد وبرق بواد يقال له : رحَى بطان ، فلقيَه الغول - وهو سبعٌ من سباع الجنّ - فما زال يقاتلها حتى قتلها ، فقال :

ألاَ مَنْ مبلغٌ فتيان فَهْمٍ بما لاقيتُ عند رحَى بطانِ(٤)
فإنّى قد رأيت الغُول تهوِى بسَهْب كالصّحيفة صَحْصحانِ(٥)
فشدّت شدّة نحوى فأهوَى لها كفّى بمصقولٍ يمانِى
لها عينان فى رأسٍ قبيح كرأس الهرّ مشقوق اللسان
وساقا مخدَجٍ وشَواةِ كلب وثوبٌ من عباء أو شِنَانِ(٦)

---

(١) ديوانه ٨ (٢) الشعر والشعراء ٣١٣ . والخيعل : الفرو ، واجتابته : لبسته .
(٣) الشعراء : « على شيم نار » (٤) مختار الأغانى ٢ : ١٥١ .
(٥) السهب : الفلاة . والصحصحان : ما استوى من الأرض .
(٦) المخدج : الناقص الخلق . والشواة : قحف الرأس . والشنان : القربة الخلقة .

قالوا : وخِلقَتُهَا خاقة إنسان ورجْلاها رجلا حمار ، فإذا صاح بها الرَّجُل : رجلى حمار ! نهقت نهيقا لا تخطىء السَّبسب والطريق ، وفرّت منه .

وانظر فى التاسعة والأربعين ذكر القطرب وفيه شىء مستطرَف .

قوله: فَتَّاحًا ، أى حاكما . وافتح بيننا ، أى احكم بيننا ، والفتّاح : الناصر ، والفتح : النصر . والحاكم ينصر المظلوم . أسيت: حزنت صدئ ذهنى ، أى تغطى بالغفلة ، من الصَّدأ ، وهو ما يعلوه من الدَّرَن . وصَديتُ ، غير مهموز أصدى صدًى ، وأراد مذ افتقرت علانى الوسخ ، وصحبنى النسيان . الفُتُح : الكثير الفَتْح الواسع الذى لا يغلق فى وجه قاصده . السُّرُج : الكثير الذى يسرح صاحبه فى أنواع الجود ، والسرح : السهل السريع ، وناقة سَرُوح : مسرعة فى سيرها . يتبرع : يتفضّل بجوده متطوعاً ، وتبرّع : تطوّع . اللها : العطايا . ها . معناها : خذ وتناول . وذكر أبو محمد هذه اللفظة فى الدّرة[1] فقال : ويقولون لمن يُناول شيئاً ها ، بقصر الألف ، فيلحنون فيها ، لأن الألف ممدودة كما جاء فى الحديث: « الذهب بالذهب ربًا إلا هاء وهاء » . ويجوز فيه فتح الهمزة وكسرها مع المدّ ولا تقصر إلا إذا اتصلت بها كاف الخطاب ، فيقال : هاك ؛ كما يروى أن عليا رضى الله عنه آب إلى فاطمة رضى الله عنها من بعض مواطن الحرب ، وسيفه يقطر دما ، فقال :

* أفاطمَ هاكِ السيف غيرَ مذمَّمِ *

وعند النحويين أنّ المد فيها بدل من كاف الخطاب ، لأنّ أصل وضعها أن تقترن كاف الخطاب بها . فساقها أبو محمد هنا مقصورة بغير كاف ، ووقع فيما زعم أنه لحن . فإن قيل : لعلّها لما وقعت فى فقرة موقوف عليها ، يحتمل فيها ذلك ، فنقول : إنه قد أردفها على فقرة قبلها مقصورة بإجماع ، وهى اللها فسوّاها معها ؛ على أن أهل اللغة حكوا فى اللفظة أربع لغات : ها مقصورة كما فى المقامة ، وهاء

(١) درة الغواص ٨٦

بالمدّمع فتح الهمزة وكسرها . وسمع رجل أبا العتاهية ينشد :

فانظر بطرفك حيث شئـــت فلن ترَى إلا بخيلا

فقال : قد بخّلت الناس كلّهم ، فقال : كذّبني أنت بواحد منهم سخيّ .

قوله : مه : اكفف . الخواطئ : السهام تخطئ الغرض، وهذا مثل يضرب لمن يكثر الخطأ ويأتي أحياناً بالصواب . خالب : خادع شِمْت البرق : نظرت سحابه أينَ يمطر . أعظم : جعله عظيما .

* * *

فلمّا تبيّن للشّيخ أنّ القاضيَ قد غضبَ للكِرَام ، وأَعْظَمَ تَبْخيل جَميعِ الأنام ؛ علم أنه سَيَنْصُرُ كلمتَه ، ويُظْهِرُ أكرُومتَه ، فما كذّب أن نَصَبَ شَبَكتَهُ ، وشَوَى في الْحَريق سَمَكتَه ، وأنشأ يقول :

يأَيُّها القاضي ألّذي عِلْمُهُ وحِلْمُهُ أَرْسَخُ مِنْ رَضْوَى

قدِ ادّعى هذا عَلَى جَهْلِهِ أَنْ لَيس في الدُّنيا أخو جَدْوى

وما دَرَى أنّك من مَعْشرٍ عطاؤهمْ كالمَنِّ والسَّلْوى

فجُدْ بما يَثْنِيه مُسْتَخْزِيًا ممّا افترى مِن كذِبِ الدَّعْوَى

وأَنْثَنِي جَذْلانَ أُثْنِي بما

أَوْلَيْتَ من جَدْوَى ومن عَدْوَى

* * *

والحريق : ما تحرقه النار من الحشيش والعيدان ، وناره ضعيفة لا تدوم . السمك : كبش الماء ، فلا يستوي إلاّ على نارٍ قوية فربّما شوى سمكته ما دام لهب النار موجوداً ، فإذا سكن اللهب لم يتمكن من شيّها لعدم الجمر في الحريق ، فيريد أنه حرّض القاضي بالشعر على الكرم ، حين اهتزّ للكرام ، وغضب

من تبخيلهم . فهزّه بهذا الشعر ليجود عليه قبل أن يسكن ، فربّما يبدو له ألاّ يجود . أرسخ : أثبت رضوى : جبل بالمدينة سَهْل مشتق من الرضوان ، كأنّ الذى يصعده راض عنه لقلة المشقة فى صعوده . أخو جدوى : صاحب عطية وكَرَم. المنّ والسلوى : طعام كان يَنْزِل على بنى إسرائيل، وقيل: المنّ الترنجبين والسلوى السمانى ، وهو طائر. يثنيه : يردّه. مستخزيا : صاغرا خاضعاً . ويروى «مستخذيا» ، والخذية : الاستحياء ، أو يكون بمعنى مهانا ، والخزى : الهوان افترى : كذب واستبعد أنثنى جذلان : أرجع فرحاً . أوليت : أعطيت . جدوى: إعانة ، أى أرجع بالجدوى ، وبإعانتك لى عليه حتى يتوب من عقوقه .

* * *

قال : فهشَّ القاضى لقولِهِ ، وأَجْزَلَ له من طَوْلِهِ ، ثمّ لفتَ وَجْهَهُ إلى الغُلام ، وقدْ نَصَلَ لَهُ أسهُمَ المَلاَم ، وقال لَهُ : أرأيْتَ بطْلَ زَعْمِك ، وخَطأَ وَهْمِك ! فلا تَعْجَلْ بَعْدها بذَمّ ، وَلاَ تَنْحَتْ عُوداً قبل عَجْم ، وإيَّاكَ وَتأَبِّيك ، عن مُطاَوعَةِ أبيك ، فإنَّك إن عُدْتَ تَعُقُّهُ ، حاقَ بك منِّى ما تستحِقُّه ، فسُقِط الفتَى فى يَدِهِ ، ولاذَ بحَقْوِ وَالِدِه ، ثم نَهَضَ يَحْفِد ، وتَبِعَهُ الشَّيْخُ يُنْشِد :

مَنْ ضامه أو ضَارَهُ دَهْرُهُ فليَقْصِد القاضِىَ فى صَعْدَهْ
سَمَاحُهُ أَزْرَى بِمَنْ قَبْلَهُ وعَدْلُهُ أَتْعَبَ مَنْ بعدَهْ

* * *

هشّ : فرح . أجزل : أكثر . طَوْله : إفضاله وهباته . ولفت : ردّ . نصل : جعل له نصالا ، وأنصلها : نزع نصالها ، والنَّصْل : حديدة السهم . بطل زعمك ، أى بطلان قولك . وهمُك : ظنك . تنحت : تنجر . عَجْم : اختبار،

أى حتى تعلم : هَلْ هو قوىٌّ أو ضعيف ، يقول : لا تعتب أحداً حتى تجرّبه . قوله: وإياك وتأبّيك عن مطاوعة أبيك ، أى احذر أن تمتنع عن مطاوعة والدك ، فإنك ومالك لأبيك.

جابر رضى الله عنه : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله ، إن أبى أخذ مالى ، فقال له: اذهب ، فأتنِى به ، فأوحى إلى النبى صلى الله عليه وسلم أن يسأل الشيخ عن شىء فى نفسه ، قاله فى شأن ابنه . فلمّا جاء الشيخ ، قال له النبىّ صلى الله عليه وسلم: ما بال ابنك يشكوك ؟ أتريد أن تأخذ ماله ! فقال : سله يا رسول الله ، هل أنفقتُه إلا على نفسى أو على إحدى عماته أو خالاته ! فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : دَعْنى من هذا ، أخبرنى عن شىء قلتَه فى نفسك ، ما سمعتْه أذناك ، فقال : يا رسول الله ، ما زال الله يزيدنا بك يقينا ، لقد قلتُ فى نفسى شيئاً ، ما سمعته أذناى ، وأنشد يقول :

غذوتُك مولوداً وعُلتُك يافعاً ... تُعَلّ بما أجنى عليك وتنهلُ
إذا ليلةٌ ضافتك بالسّقْم لم أبتْ ... لسقمك إلاّ ساهراً أتململُ
كأنى أنا المطروقُ دونَك بالذِى ... طُرِقت به دُونى فعيناى تَهمل
تخاف الرّدى نفسى عليك وإنها ... لتعلم أن الموت وقت مؤجّلُ
فلما بلغتَ السنّ والغاية التى ... إليها مدى ما كنتُ فيك أؤمّلُ
جعلتَ جزائى غلظةً وفظاظةً ... كأنك أنت المنعِم المتفضّل
فليتك إذْ لم ترعَ حق أبوّتى ... فعلتَ كما الجار المجاور يَفعَلُ

قال : فحينئذ أخذ النبى صلى الله عليه وسلم بتلابيب ابنه ، وقال : «أنت ومالك لأبيك» .

قوله : حاق ، أى نزل ، تقول : حاق به المكروه والشؤم يَحِيق حيْقا ، نزَلا به .

ابن عرفة: وجبا عليه وألزماه ، قال الأزهرى رحمه الله: الحيق ما يحيط بالإنسان من سوء عمله ومكروه فعله ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّء إلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ ، أى لا ترجع عاقبة مكرهم إلا عليهم . سُقِط فى يده ، يقال ذلك للنادم المتحيّر ، ويقال : سُقِط فى يده وأُسقِطَ فى يده ، إذا ندم على فعله ، وتحسَّر عليه ، واليَد هنا : الندم ، وقوله : سَقَط الذى فى يده ، قال جماعة من أهل اللغة : صوابه : سُقِط فى يده من غير تسمية الفاعل ، لأن الفعل مسند إلى المجرور . وقال الأزهرى رحمه الله : إنما حَسُنَ سُقِط فى يده بضم السين ، غير مسمَّى فاعِلُه الصلة ، وهى فى يده ، ومثله قول امرئ القيس :

* دع عنك نهبا صِيح فى حَجَرَاته *

أى صاحَ المنتهِب فى نواحيه ، وكذلك المراد سقط الندم فى يده . وقال أبو القاسم الزجاجى: سُقِط فى أيديهم نظم لم يُسمع قبل القرآن ، ولا عرفته العرب ، فيوجد فى أشعارها وخفى على الإسلاميين قال أبو نواس :

* ونشوة سقطت منها فى يدى *

وأخطأ فى استعمالها ، لأن فعلت لا يُبنى إلا مما يتعدّى ، لا يقال : رغبت ولا غضبت ، إنما يقال رغب فىّ وغضب علىّ . لاذ : لجأ وتستّر ، ولاذ فلان بفلان: تستر به ودار حوله ، وبعضهم يقول: ألاذ ، والأولى هى الغالبة ، واللواذ مصدر لاوَذ ، ولذا أثبتت الواو ، ولو كان مصدر « لاذ » لقلت لياذاً ، كقمت قياماً .

بحقو : بخصر ، وجمعه أحقاء وحقاء . وحفد يحفد أسرع . ضامه : أذله .

ضارّه : ضرّه : أزرى : قصّر . وتقدم معنى البيت في الرسالة السادسة والعشرين

* * *

قال الرّاوي : فحِرْتُ بين تعريف الشّيخ وتنكيرهِ ، إلى أن اخْرَوْرَفَ لمسيرهِ . فناجَيْتُ النَّفْسَ باتّباعه ، ولوْ إلى رِباعِه ، لعلّي أظْهَرُ عَلَى أسرارِهِ ، وأعرفُ شَجَرَةَ نارِهِ ، فنمذْتُ الْمَلَق ، وانطَلَقْتُ حيث انطَلَقَ ، ولم يزَلْ يخطُو وأعْتَقِبُ ، ويُبْعِدُ وأقترب ، إلى أن تَرَاءى الشّخصان ، وحقّ التَّعارُف على الخُلصان ، فأبْدَى حينئذٍ الاهتِشاش ، ورَفَعَ الارْتعاش ، وقال : مَنْ كاذبَ أخاه فلا عاشَ . فعرفت عِنْد ذلك أنّه السَّرُوجي بلا مَحالة ، ولا حُئول حالَة . فأسْرعْتُ إليه لأصافِحَهُ ، وأستعرفَ سانِحَهُ وبارحَهُ ؛ فقال : دونك ابنَ أخيكَ البَرّ ، وتركني ومَرّ . فلم يَعْدُ الفتى أن أَدْ افترّ ، ثمّ فرّ كما فرّ ، فمُذْتُ وقد استَبنتُ عَيْنَهُمَا ، ولكنْ أيْنَ هما !

* * *

احرورف : مال وانحرف . ناجيت : حدّثت . رباعه : دياره . شجرة ناره ، يريد أصل جبلّته . أعتقب : أمشي خلفه وأتبع عقبه . تراءى : ظهر ، وخُلصان الرجل : صديقه الّذي خلصت له مودّته . الاهتشاش : الطّرب والبِشر . الارتعاش : الرِّعدة ، يريد أن داءه كذب لا حقيقة له محاله : حيله . حئول : تغيّر . أصافحه : أعانقه وأسلّم عليه . أستعرف سانِحَه وبارحه ، أي أطلب منه

أن يعرّفني بخيره وشره . والسانح من الطير والوحش ما مرّ على ناحية يمينك ، والبارح ما مرّ على ناحية يسارك . وقيل : السانح ما أولاك ميامِنه ، والبارح : ما أولاك مياسره ، وأكثر العرب تتبرك بالسّانح وتتشاءم بالبارح ، وبعضهم يتبرّك بالبارح ، ويتشاءم بالسانح ، والسانح : الذى يمر عليك عن ميامنك إلى مياسرك ، فيمكن للطّاعن طعنه ، وللرامى رميه ، فالذى يتيمّن به يرى أنه رزْق حاصل ، والذى يُتَشاءم به يرى أنّه عاطب وهالك ، والبارح بالضدّ ، فالأَول يَرَى أنه فائت ، ورامِيه خاسر فيتشاءم به ، والثانى يرى أنه سالم غير عاطب ، فيتَيَمَّن به ، والذين يتيمّنون بالبارح ويتشاءمون بالسانح أهل نجد ، والذين يضادّونهم أهل العالية .

قوله : دونك ، أى خذه واقصده . البرّ : والبار: الكثير الإكرام لأبويه . افترّ : ضحك . استبنْت : عرفت . عينهما : شخصهما ، وجعله آخر المقامة برًّا له لموافقته له فى الحيَل ، وَجَرت العادة بأنّ الأب إذا كان نجيباً ، فالابن بالضدّ ولهذا قال الشاعر :

إذا أطاع الدّهر حرًّا نجيباً فكن فى ابنه سَيِّئَ الإعتقادْ
فلست ترى مِنْ نجيب نجيباً وهل تترك النّار إلا الرمادا

* * *

المقامة الثامنة والثلاثون وهي المروية

حكى الحارثُ بن همّام قال: حُبِّبَ إليّ مُذْ سَعَتْ قَدَمِي، ونفثَ قَلَمِي، أن أتّخذ الأدب شِرْعة، والاقتباس منه نُجْعَة؛ فكنتُ أنقبُ عن أخبارِه، وخَزَنَة أَسرارِه؛ فإذا ألفت منهم بُغيَةَ الملتمس، وجَذْوة المقتبِس، سَدَدْت يدي بَغَرْزِهِ، واستنزلتُ منه زَكاةَ كنزه؛ على أنّي لم ألقَ كالسَّرُوجيّ في غزارةِ السُّحْب، ووَضْعِ الهِناء مواضِعَ النُّقْب؛ إلاّ أنَّهُ كانَ أَسْيَرَ من المثل، وأَسْرَعَ من القَمرِ في النُّقَل، وكُنْتُ لِهَوَى مُلاقاتِه، واستحسان مَقاماتِهِ، أرغبُ في الاغترابِ، وأستعذب السَّفَرَ الّذِي هو قِطعة من العذابِ.

* * *

قوله: نفث، أي كتب، والنَّفْث ما تلقيه من فيك من البُصاق الغليظ، فشبّه ما يلقيه القلم من المداد بالنَّفْث، هذا ظاهر اللفظ، وإنما أراد في المعنى بالقلم ذَكَره، ونفثه منيّه، فكَنَى عن البلوغ بذلك، فهو يريد وقت الحلم، وهو الوقت يَقْوى فيه على المشي في الأسفار، والتصرف؛ كذا فسره لنا بعض حُذّاق أشياخنا، وفسرّه الفنجديهي على ظاهره، فقال: معنى مذ سعت قدمي نفث قلمي، مذ قدرْت على المشي والكتابة والنظم والنثر. شِرْعة: طريقة وشريعة وعادة، ومعناه: أصرف همتي إلى علم اللغة والعربية. قال الشافعي رضي الله عنه: مَنْ تعلّم القرآن عظمت قيمته، ومن نظر في الفقه نَبُل مقداره، ومَنْ تعلّم اللغة رقّ طبعه، ومنِ تعلّم الحساب جَزُل رأيه، ومن كتَب الحديث قويَت حجته

ومن لم يصنْ نفسَه ، لم ينفعه علمه .

الاقتباس : الاكتساب وهو افتعال ،من القَبس . نجعة : طلب المرعى ، أى جعلت طلب الأدب لى غذاء ورزقا . أنقّب: أبحث . أخْباره : علمائه . ألفيت: وجدت . بغية : حاجة . الملتمِس : الطالب للشىء . جَذْوة : جمرة عظيمة . والمقتبِس: الطالب للنار ، والغرْز : للرجْل ، كالرّكاب للسرْج ، ومعنى شددت بغرزه ،أى تمسكت بركابه وبالغت فى خدمته ، روى ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أخذ بركاب رَجُلٍ لايرجوه ولا يخافه غفر له » .

غزارة : كثرة ، والسّحب : جمع سحابة ، كَنَى بها عن كثرة العلم . الهناء : القَطِران . النُّقْب : جمع نُقْبة وهو أوّل ما يبدو من الجَرَب ، وهو مثلٌ لمَنْ وضع الشىء فى موضعه ، أراد أنه ماهر ، أى حاذق يعطى كلّ طالب مايستحقه ويشفيه من سؤاله ،لأن الجهل فى القلب بمنزلة الدّاء ، فهذا يوقع بيانه بموضع الجهل، فيبرأ صاحب ذلك من دائه ، ووضع الهناء مواضع النقب، عَجُزُ بيت لدريد بن الصمّة ، وكان خرج فرأى الخنْساء الشاعرة تهنأ ذَوداً لها، ثم نَضَتْ ثيابَها واغتسلت وهو يراها ولا تراه فقال :

حَيُّوا تُماضِرَ وارْبَعُوا صَحْبِى ... وقِفُوا فإنّ وقوفكم حَسْبِى[1]

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ به ... كاليوم طالىَ أينُقٍ جُرْبِ

متبذِّلاً تبـدُو محاسنُه ... يضع الهناء مَواضع النُّقْبِ

وتُماضِر اسم الخنساء . قوله : أسيَرمن المثل ، أى أنه لايستقرّ ببلد .

---

(١) الشعر والشعراء ٣٠٢ والأغانى ١٥ : ٧٦ وبعد هذا البيت هناك :

أخُنَاسَ قد هَامَ الفــؤاد بكمْ ... وأصابَه تَبْـلٌ من الحبِّ

النّقل ، يريد انتقاله فى المنازل فلا يقيم بمنزلة سوى ليلة ، وينتقل فى الثانية إلى أخرى ، فأراد أنّ أبا زيد لا يستقرّ ببلد إلاّ ما يستقرّ القمر بمنزله وهى ليلة واحدة ، بل هو أسرع من القمر فى ذلك ، وإنما خصّ القمر به لأنّه أسرع الكواكب نقلةً من بُرْج إلى بُرْج ، إذلا يمكث فى البرج إلا يومين أو ثلاثاً ، والبرج منزلتان وثلث ، والشمس تمكث فى البرج ثلاثين يوماً ، وعطارد يمكث فيه سبعة عشر يوماً ، والمشترى اثنى عشر شهراً وزُحَل ثلاثين شهراً ، والمرِّيخ شهراً ونصفا ، والزُّهرة ستة وعشرين يوماً ، والرأس والذنب ثمانية عشر شهراً ، ذلك تقدير العزيز العليم .

قوله : وأستعذب السفر الذى هو قطعة من العذاب : هو حديث صحيح ، رواه مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « السفر قطعة من العذاب ، يمنع أحدكم نومه وطعامه وشرابه ، فإذا قضى أحدكم نُهْمَتَهُ من وجهته فليعجّل الرجوعَ إلى أهله ». النُّهمة . بلوغ الهمة والشهوة والحاجة ، ورجل منهوم بكذا مولَع به .

* * *

فلمّا تطوّحتُ إلى مَرْو ، ولا غَرْوَ ، بشّرَنى بِمَلْقاهُ زَجْرُ الطَّيْر ، وَالفألُ الّذى هو بَريدُ الخَيْر؛ فلم أَزَلْ أُنشُده فى المحافل، وعند تلقِّى القوَافل. فلاَ أَجِدُ عنه مُخبِرًا ، ولاَ أَرَى له أَثراً ولا عِثْيَرًا ، حتى بلغ اليأسُ الطمعَ وَانْزَوَى التأميلُ وانقطَع ، فإنِّى لذاتَ يوم بحضْرة والى مَرْو ، وكان ممّن جمَع الفضلَ والسَّرْو ، إذْ طلَع أبو زَيْدٍ فى خَلَقٍ مِمْلاَق ، وَخُلُق مَلاّق. فحيّا الوالِيَ تحيَّةَ المُحْتاَجِ ، إذا لَقِى ربَّ التاج، ثم قال له:

اعلم وقيتَ الذّم ، وكفيتَ الهمّ ؛ أن من عُذِقت به الأعمال ، أعلِقت به الآمال، وَمَن رُفِعتْ له الدّرجات، رُفِعتْ إليه الحاجات. وَأنّ السعيد مَنْ إذا قَدَرَ ، وَوَاتاه القَدَر ، أدّى زكاة النّعم ، كما يؤدّى زكاة النَّعَمْ، والتزمَ لأهْل الحَرَم ، ما يُلتزمَ للأهل والحُرَم . وقد أصْبحتَ بحمد الله عَميدَ مِصْرِك ، وعمادَ عَصْرِك ، تزجَى الرّكائب إلى حَرَمِك ، وترْجَى الرّغائب من كَرَمِك ، وتُنزَل المطالبُ بساحتك ، وتُسْتَنْزَلُ الرّاحة من راحتِك ، وكان فضلُ الله عليك عظيما ، وإحسانُه لديك عميماً .

* * *

قوله : تطوّحت، يقال : تطوّح فى البلاد : ذهب به هاهنا وهاهنا ، فأراد بقوله : تطوّحت : رميت بنفسى إليها .

[ذكر مرو]

مَرْو : بلدة بخُراسان[1] ، جليلة لها قرى ومحِلّات ، وتسمّى أمّ خُراسان ، وهى دار خلافة المأمون ، ومنها خرج أبو مسلم صاحب الدعوة ، يُنسب إليها . الثوب مَرْوِىّ والرجل مَرْوزىّ ، وهو شاذ النسب، ومن مَرْو إلى مَرْو[2] خمس مراحل ، وعلى مرو نهر فوهته بالسّابيان، وهو جبل عظيم الارتفاع ، تسيل منه أنهار تخترق بلاد خُراسان ، منها وادى خُوارزم ، مسيرته أربعون يوماً، ووادى القندهار مسافته شهر، ونهر سجستان ، مسافته شهر، ونهر مَرْو ، مسافته شهر ، ونهر هَرَاة مسافته عشرون يوماً ، ونهر بَلْخ مسافته اثنا عشر

(١) يريد مرو الشاهجان ، وقصبتها نيسابور .
(٢) يريد من مرو الروذ إلى مرو الشاهجان ؛ ذكرها ياقوت .

يوما ، وبلخ هى متوسّطة خراسان ، منها إلى فرغانة ثلاثون مرحلة مغرّبا ، وإلى سجستان مما يلى القبلة كذلك وإلى كابول وقندهار كذلك ، وإلى خوارزم كذلك . وأهل مَرْو أطبع الناس على البُخْل ثم أهل خراسان ، قال ثمامة: مارأيت الدّيكَ يأكل فى بلد قطّ إلا وهو يدعو الدجاجة إلى الحبّ ، ويلفظ الحب إليها ، إلاّ بمَرْو ، فإننى رأيته يأكلُ وحده ، فعلمت أنّ لؤمهم كثير جدّا ، وهو فيهم طبع ، ورأيتُ بها طفلا صغيرا ، بيده بيضة ، فقلت له أعطنيها ، فقال لى : ليست تسَعُها فى يدك ، فعلمت أنّ المنع طبع مركّب فيهم .

لا غرو : لا عجب . زَجْر الطـــير . التفاؤل بها ، وفسّر الشافعىّ رضى الله عنه قوله النبىّ صلى الله عليه وسلم « أقرّوا الطيرَ على مكِنَاتِها[1] » . لأن الرجل كان فى الجاهلية ، إذا أراد الحاجة أتى الطائر فى وَكْرِه فنفّره ، فإن أخذ ذات اليمين مضى لحاجته ، وإن أخذ ذات الشمال رجع» . فنهى النبىّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : « لاعَدْوى ولا طِيَرة ، ويعجبنى الفأل » قيل : وما الفأل ؟ قال : « كلمة طيبة ».

[العيافة والزجر]

وزجْر الطير التّيامن بها، والتشاؤم . وكان عند العرب قوّة زائدة وإدراك ، فينظر الزّاجر منهم الطائر ، ولمّا يفعل ، فيستقرى من ذلك ما يتيامَن به ويتشاءم منه ، مثل ما يحكى عن أمية بن أبى الصّلت أنه كان يشرب مع إخوان له فى قصر غَيْلان بالطائف ؛ إذ سَقَط غراب على شرف القصر، فنعب نعبة ،فقال له أميّة : بفيك الـكَثْـكَث ـ وهو التّراب، فقال له إخوانه . مايقول؟ قال : يقول: إذا شربتَ الـكأس الذى فى يدك مِتّ . ثم نعب نعبة ، فقال أميّة نحو ذلك ، فقالوا له :

---

(١) ذكره ابن الأثير فى النهاية ٤ : ٢٠٠ ، وقال فى شرحه : «أى لاتزجروها وأقروها على مواضعها التى جعلها الله لها» .

وما يقول ؟ قال : زعم أنّ علامةَ ذلك أن يقع على هذه المزبلة تحت القَصْر، فيستثير عظما ، فيشجَى به فيموت . فبينما هم يتكلّمون ، إذوقع الغراب على هذه المزبلة ليلتقط ، فاستثار عظما ، فأراد أن يبتلعه ، فشجيَ به فمات ، فانكسر أميّة ، ووقع الكأس مِنْ يده ، وتغيّر لونه ، فجعلوا يعيِّرونه عليه ، ويقولون : ما أكثر ما سمعنا بمثل هذا ، وكان باطلا ! فألَحُّوا عليه ، حتى شرب الكأس ، فمال[1] في شِقٍّ فأغمى عليه ، ثم أفاق ، وقال : لابرئ فأعتذِر ، ولاقويّ فأنتصر ، ثم زهقت نفسه[2].

وحكى المدائني قال[3] : خرج كُثيِّر من الحجاز يريد مصر ، ليزور عَزّة ، فلما قرُب منها رأى غرابا على شجرة ينتف ريشه ، فتطيّر من ذلك ، فلقيَه رجل من بنى لِهْب[4] فقال : ياأخا الحجاز ، مالك كاسفَ اللون؟فذكرله ما رأى ، فقال : إنك تطلب حاجة لاتدرِكُها . فقدِم مصر ، والناس منصرفون من جنازة عزّة فقال :

---

(١) كذا في الأغاني ، وفي ط : « فبال » .

(٢) الخبر في مختار الأغاني ١ : ٨٢ ، ٨٣ .

(٣) وردالخبر في ديون كثير ٦١ ، هكذا : « قيل : وفدت عزة كثير على عبدالملك بن مروان فلما دخلت سلمت ، فرد عليها السلام ، ورحب بها وقال : ماأقدمك ياعزة ؟ قالت : شدة الزمان وكثرة الألوان واحتباس القطر وقلة المطر ، قال : هل تروين لكثير :

وقَدْ زَعَمَتْ أنّى تغيَّرتُ بعدها ... ومَنَ ذَا الَّذِى ياعزُّ لا يتغيّرُ

قالت لا ، ولكنى أورى له :

كأنى أنادى صخرةً حين أعرضتْ ... من الصمّ لوتمشى بها العُصْمُ زلّتِ

فقال : ماكنت لتصيرى إلى حاجة أو تهى نفسك لى فأزوجك منه . قالت : الأمر إليك ، ياأمير المؤمنين ؛ ما كنت لأزهد فى هذا الشرف الباقى لى مادامت الدنيا ؛ أن يكون أمير المؤمنين ولي . فعظم بذلك قدرها عنده ، وأمر لها بمال ، وكتب إلى كثير وهو بالكوفة أن اركب البريد وعجل فإنى مزوجك عزة ، فأتاه الكتاب وهو مضنى من الشوق إليها ؛ فرحل فأقبل نحوها ، فلما كان فى بعض الطريق . . » وساق بقية الخبر كما هنا .

(٤) بنو لهب ، من قبائل العرب الذين اشتهروا بالعيافة والزجر . وفي الديوان : « بنو نهد » تصحيف .

رأيتُ غُراباً ساقطاً فوق بانةٍ ينتّف أعلَى ريشه ويُطايِرُهْ
فقلت ولو أنّى أشاء زجرتُه بنفسىَ لِلّهبِىّ فهل أنت زاجره
فقال غرابٌ لاغترابٍ من النوى وفى البانِ بَيْنٌ من حبيب تجاوره
فما أعيَفَ اللّهبىّ لادَرّ دَرُّه وأزجَره للطّير ، لاطار طائِرُه(١)

وممّن زجر لنفسه بشرّ ذو الرُّمة فقال :

رأيتُ غراباً ساقطاً فوق قَضْبَةٍ من القُضْبِ لم يَنْبُتْ لها ورقٌ خضرُ(٢)
فقلتُ غرابٌ لاغترابٍ وقضبةٌ لقَضْب النوى ، تلك العيافَةُ والزّجْرُ

وممّن زجر بخير أبو حيّة ، حين قال(٣) :

وقال صِحابى هُدهدٌ فوق بانةٍ هدًى وبيان بالنَّجاح يلوحُ
وقالوا دمٌ ، دامت مواثيق بيننا ودَامُ لنا حلو الصفاء صَرِيحُ
وقالوا حمامات ، فحُمّ لقاؤها وطلحٌ فزيرت والمطىُّ طُلُوحُ

ومن مُلَح الزّجر زجر أبى نواس ، وذلك أنه استخفى عنه أصحابه ، وكان لا يفارقهم ، ووجّهوا رسولاً إليه ، فرمى له ظهر قرطاس من وراء الباب ، غير مكتوب ، وخرموه بزيرٍ ، وختموه بقار ، وأمروا الرسول أن يرمِيَ إليه الكتاب من وراء الباب ، فاستعلم موضعهم ، وتعرف حالهم ، وكتب إليهم :

زجرت كتابَكمْ لمّا أتانى بمرّ سوانحِ الطّيرِ الجوارى
نظرتُ إليه مخروما بزيرٍ على ظهرٍ ومختوما بقارِ
فعِفت الظّهر أعيف قُرْطَقيّا بحارُ الطّرْف منه باخوِرَارِ
وكان الزّيرُ ذَا شدْوٍ مصيب وقارُ الختم من قارِ العُقار

---

(١) ديوانه : « لاعز ناصره » .

(٢) ملحق ديوانه ٦٦٧

(٣) من قصيدة له فى الأمالى ١ : ٧٠ واللآلى ١ : ٢٤٣ ، وأبيات منها فى المحاسن والمساوى ٢ : ١٧ .

فطِرتْ إليكمُ يا أهلَ وُدِّى بقلب من هواكمْ مستطارِ
فكيف ترَوْنني وترَوْن زَجْرِى ألستُ من الفلاسفة الكبارِ!

وما أحسن قول ابن قاضى مِيلة[1] وجمع الوصفين :

ولمّا التقينا مُحرِمين وسيرُنا بلَبّيك يطوى والرّكائبُ تَعسِفُ
فقلت اِبْرَنْبيها أبلغاها بأننى بها مستهامٌ قالتا : نتلطّفُ
تفاءلتُ فى أن يطوى طارقُ الهوَى بأنْ عنّ لى منها البَنان المطرّفُ
وأمّا دماء الهَدْىِ فهو تواصُلٌ يدومُ ورأىٌ فى الهوَى يتألّفُ
وفى عرَفاتٍ ما يخبّر أننى بعارفةٍ من نَيْلِ وصلِكِ أُسعَفُ
وتقبيل ركنِ البيت إقبالُ دَوْلةٍ لنا وزمانٌ بالمودّة يعطِفُ
وأبلغتُها ما قلتُه فتنهّدَتْ وقالتْ أحاديثُ العيافة زُخْرُفُ
لئن كنتَ ترجُو فى مِنىً الفوزَ بالمُنَى فبالخَيْفِ من أعراضنا نتخوّفُ
وقد أنذر الإحرام أنّ وصالنا حرامٌ وأنّا عن مرادِك نُصْرَفُ
فهذا وَقَذْفى بالحصا لك منذرٌ بأنّ النوى لى عن ديارك تَقْذفُ
فبادِرْ نفارِى ليلةَ النّفر إنّه سريع وقُلْ مَنْ بالعيافة أعرَفُ

* * *

قوله: أنشُده ، أى أطلبه والمحافل: الجموع . والقوافل : الرفاق الرواجع . عثيرا : غبارا . اليأس : قطع الرجاء . انزوى: انقبض . التأميل: الترجّى، وهو مصدر أمّل الخير ،أى ترجّاه . انقمع: انكفّ . السَّرْو: السيادة . مملاق : فقير. ملاّق : متلطّف فى كلامه. عُذِقت: عُلّقتْ وشدِّدت به ،وعذق شاته بعذقها، إذا ربط فى صوفها خرقة تخالف لونها . الدرجات : المنازل الشريفة .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

[1] ميلة : مدينة صغيرة بأقصى إفريقية ، بينها وبين بجاية ثلاثة أيام . ياقوت

«خُلُقان يحبُّهما الله ، وهما السخاء والسماحة، وخلقان يُبغِضهما الله ، وهما البخل وسوء الخلق . وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله على قضاء حوائج الناس » .

وقال خالد بن صفوان : لا تسأل الحوائج ثلاثة لا تُسألها : كذوباً ، فيقرّب بعيداً ويبعّد قريباً ، ولا أحمق فإنّه يريد أن ينفعك فيضرّك ، ولا رجلا له إلى صاحبك حاجة ، فإنه يصيِّر حاجتك بطانة لحاجته .

واتاه : وافقه وطاوعه . أدّى : أعطى . زكاة النَّعم : الإبل والشاء ، أى أعطى الصنائع والمعروف .

الحُرَم : جمع حرْمة ، أراد بذلك أهلَ الصِّيانةِ والعفاف .

الفنجديهى : الحرَم أقوام محترَمون ، والحرَم الثانى :الأهل والقرابة ، ومَن يحرُم على الإنسان نكاحُه أو تركه لضياعه . عميد : سيّد .

مصرك : بلدك ، والمِصْر : الحدّ ، ويكتب أهل نجد : اشترى فلان من فلان الدار بمُصورِها ، أى بحدودها.

قطرب : هو مأخوذ من مَصَرْت الناقة أمصُرها مَصراً ، إذا حلَبْتَها ، وجعلتَ ضَرْعَها بين إصبعين ، فخرج من اللبن شىء قليل ، فيسمّى مِصْراً ، لأن الناس يجيئون إليه ثم يثبتون ، أوّلَ فأوّلَ وقيل : المصر العلامة .

العماد : ما يقوم عليه الخِباء ، شبّهه فى قيامه بالأمور بالعماد .

تُزْجَى : تساق . الرّكائب : الإبل . حرمك : بلدك وموضعك الذى تحميه . الرغائب : العطايا . ساحتك : فناء دارك . راحتك : كفّك .

ونذكر من الأحاديث ما يوافق هذا الفصل الذى قدّمنا تفسيره .

قال النبىّ صلى الله عليه وسلم «مَنْ عظُمت نعمة الله عليه عَظُمت مئونة الناس

إليه ، فإن لم يَقُمْ بتلك المثونة عرّض النّعمة للزوال » .

عمرو بن العاص : والله لَرَجُلٌ ذكَرني، ينام على شِقّة مرّة، وعلى الأخرى أخرى ، يرانى موضعا لحاجته لَهُوَ أوجب علىّ حقا ؛ إذا سألها منى أن أقضيها له.

وقف العتّابى بباب المأمون ، فجاء يحيى بن أكثم ، فقال له : إن رأيتَ أن تُعلِم أمير المؤمنين بموضعى ! قال : لست بحاجب قال : لقد علمتُ ، ولكنك ذو فضل وذو الفضل مِعْوان ، قال: سلكت بى غير طريق ، قال: إنّ الله تعالى ألحقك بجاه ونعمة فهما مقيمان عليك بالزيادة إن شكرتَ ، وبالتغيّر إن كفرت ، وأنا اليوم لك خير منك لنفسك ، أدعوك إلى ما فيه زيادة نعمتك ، وأنت تأبَى ذلك ، ولكل شىء زكاة ، وزكاة الجاه بذله للمستعين .

[من غرر المدائح]

وأما قوله : تزجى الركائب إلى حرَمك ، فهو كثير فى الشعر ، ونذكر منه شيئاً يبين حالة القصد لهذا الاسم ، وقال الحسن يمدح الأمين[1] :

أقولُ والعيس تعروْرِى الفلاةَ بنا ... صعْر الأزمّة من مَثْنَى وَوُحْدان[2]

يا ناقُ لا تسأمِى أو تبلُغِى مِلكاً ... تقبيلُ راحته والركن سِيّانِ

محمدٌ خير مَنْ يمشى على قدمٍ ... مِمّن برا الله من إنسٍ ومِنْ جانِ

محمد بين أمـــلاكٍ تفضّله ... وِلادتَان من المنصور ثنتان

تنازع الأحمدان الشِّبْه فاشتبها ... خَلْقًا وَخُلقًا كما قُدّ الشِّراكان

سيّان لا فرق فى المعقول بينهما ... معناهما واحدٌ والعِدّة اثنان

وقال حبيب :

إلى أحمدَ المحمود أمّتْ بنا السُّرَى ... نواعبُ فى عُرْضِ الفَلاَ ورواسمُ[3]

---

(١) هو الحسن بن هانئ المعروف بأبي نواس ، والأبيات فى ديوانه ٦٥ .

(٢) المرورى : سار فى الأرض وحده . والصعر: جمع أصعر وصعراء ، من الصعر وهو الميل.

(٣) ديوانه ٢٨٦ ، وأمت : قصدت . نواعب: مسرعات. ورواسم: ترسم الأرض بأخفافها .

إلى سالمِ الأخلاقِ من كلِّ عائبٍ ... وليس له مالٌ من الجود سالمُ
جديرٍ بألاَّ يصبح المالُ عنده ... جديراً بأن يبقى وفى الأرض غارم[(١)]

وقال آخر[(٢)] :

سأجْهِدُ عَزْمِى والمطايا فإنَّنى ... أرى العَفْوَ لا يُمْتاحُ إلا من الجُهْدِ
مَرَيْنَ بنا رهْوًا ووخْداً وإنما ... يظلُّ ويُمسى النُّجح فى كنف الوخْدِ[(٣)]
قواصدُ بالسير الحثيث إلى أبى الـ ... ـمغيث فما تنفك ترْقُلُ أو تُخْدِى[(٤)]
إلى مُشرق الأخلاق للجود ما حوَى ... ويحوى وما يخفى من الأمر أو يُبْدِى
فتًى لم يزل تُقْضَى به طاعة الندَى ... إلى العيشة الغراء والسُّؤدد الرغْدِ[(٥)]

وقال فيها معتذراً :

أتانى مع الركبان ظنٌّ ظننتُه ... لَفَفْتُ له رأسى حياءً من المجْدِ[(٦)]
ومن زمنٍ ألبستَنِيه كأنّه ... إذا ذكرتْ أيامُه زمنُ الوَرْدِ
أَسَرْبِلُ هجرًا القولِ مَنْ لو هجرْته ... إذاً لهجانى عنه معروفه عندى
كريمٌ متى أمدحْه أمدحْه والورى ... معى ومتى ما لمْتُه لمْتُه وَحْدِى[(٧)]

وقال أبو الطيب :

فلم تلقَ ابنَ إبراهيم عَنْسِى ... وفيها قوتُ يومٍ للقُرادِ[(٨)]

---

(١) غارم : خاسر.

(٢) هو أبو تمام والأبيات فى ديوانه ١٢٨ ، ١٢٩

(٣) فى ط : « زهوا » تصحيف . والرهو : السير السهل . والوخد السير السريع .

(٤) الحثيث : السريع . وترقل : تسرع » .

(٥) فى الديوان : « العيشة الخضراء » .

(٦) ط : « رأساً » .

(٧) هذا البيت من شواهد البلاغة ، وانظر معاهد التنصيص ١ : ٢٥ .

(٨) ديوانه ١ : ٣٥٧ . وفى ط . « عيسى » والعنس : الناقة الصلبة .

فلمّا جئته أعلى محلّي ... وأجلسني على السّبع الشداد[1]
تهلّل قبلَ تسليمي عليه ... وألقى ماله قبلَ الوِسادِ
كأنّ الهامَ في الهيجا عيونٌ ... وقد طُبِعت سيوفك من رقادِ
وقد صغْتَ الأسنّة من هموم ... فما يخطِرن إلا في فؤادي

وقال أبو الهندىّ :

سألناه الجزيلَ فما تأنّى ... وأعطى فوق مُنْيَتِنا وزادا
وأحسنَ ثم أحسنَ ثم عُدْنا ... فأحسن ثم عدتُ له فعادَا
مراراً ما قصدتُ إليه إلاّ ... تبسّم ضاحكا وَثَنَى الوسادا

وقال أبو الطيب :

ولمّا قلّت الإبلُ امتطينا ... إلى ابن أبي سليمانَ الخطوبا[2]
مطايا لا تَذِلّ لِمَنْ عليها ... ولا يبغِي لها أحَدٌ رُكوبا
وترتع دُون نبتِ الأرض فينا ... فما فارقتُها إلا جديباً[3]
إذا نُكِبَتْ كِنَانتُه استبنّا ... بأنصُلها لأنصلِهاَ نُدُوبا[4]
يُصِيب ببعضها أفواق بعضٍ ... فلولا الكَسْرُ لاتّصلت قَضيبا[5]

---

(١) قال شارحه: السبع الشداد، يريد السنوات السبع، والشداد هنا: المتقنة الصنع، قال تعالى: ﴿ وبنينا فوقكم سبعاً شداداً ﴾

(٢) ديوانه ١ : ١٤٠ .

(٣) الديوان : « حريبا » .

(٤) نكبت : قلبت على رأسها . والكنانة : الجعبة . قال الشارح « المعنى : إذا ألقى ما في كنانته رأينا لنصوله آثارا في نصوله لأنه يرميها على طريقة واحدة، فتصيب النصول بعضها بعضا » .

(٥) الفوق من السهم : موضع الوتر والجمع أفواق . قال شارحه : « المعنى يريد أنه حسن الرمي ، وأنه يصيب ببعض نصوله أفواق السهام التي رماها ، وأنه لولا كسر السهام لاتصلت حتى تصير قضيباً مستوياً ، أي غصنا » .

ألستَ ابنَ الأولى سعِدُوا وَسادُوا
ولم يلدُوا امرأً إلاَّ نَجِيبا[1]

ونالوا ما اشتهوْا بالحزم هَوْناً وصاد الوحشَ نملهُمُ دَبِيبا

وما ريحُ الرِّياضِ لها ولكنْ كساها دفنهمْ في التُّربِ طيبَا

ومن المدح قول السَّرِيّ في أبي الحصين القاضي :

لقد أضحتْ خِلالُ أبي حُصَينٍ حصونا في الملمّات الصعابِ[2]

كسانى ذيلَ[3] نائِلهِ وآوَى غرائب منطقى بَعْدَ اغترب

فكنتُ كروضةٍ سُقيت سحاباً فأثنت بالنَّسيم على السّحاب

وقال بديع الزمان وشاعر الأوان :

يا سيّد الأمَرا فخراً فما مِلكٌ إلاَّ تمنّاك مولًى واشتهاك أبا[4]

وكاد يحكيك صوبُ الغيث منسكبا لو كان طلق المحيَّا يُمطِرُ الذَّهبَا

والدّهر لو لم يخُنْ والشمس لو نطقتْ واللّيث لو لم يصد[5] والبحرُ لو عَذُبا

هذه الجملة كافية وكأنها تفسير ما أجمل من ذكر ممدوحه .

* * *

ثمّ إنّى شيخٌ تَرِبَ بَعْدَ الإتراب، وعَدِمِ الإعْشاب، حين شاب. قصدتُك من مَحَلّةٍ نازحة ؛ وحالةٍ رَازِحة ، آملى من بَحْرِكَ دُفعة ، وَمِنْ جاهِكَ رفعة. والتأميلُ أفضل وسائِلِ السائل ، ونائلِ النائل ؛ فأوجبْ لى ما يجب عليك ، وأحسنْ كما أَحسَنَ اللهُ إليك . وإيّاك أن تَلْوِىَ

---

(١) ط : « وجادوا » .

(٢) ديوانه ٧٣

(٣) الديوان : « ظل نائله »

(٤) يتيمة الدهر ٤ : ٢٧٦

(٥) ط : « يصل » تحريف .

هِذَارك ، عمّن ازدارَك ، وأمّ دَارَك ، أو تَقبِضَ راحك ؛ عمّن امتاحَكَ ، وامتار سَماحك ؛ فوالله ما مَجد من جَمَد ، وَلا رَشَد من حَشَد ؛ بل اللبيب مَنْ إذا وَجَد جاد ، وَ إن بَدأَ بمائدةٍ عاد ؛ والكريمُ مَنْ إذا استُوهب الذَّهَب ، لم يهبْ أن يَهَب .

ثمّ أمسكَ يَرقبُ أُكلَ غَرْسِهِ ، ويرصُدُ مَطيبَةَ نَفسِهِ ، وأحب الوالِى أن يعلمَ : هل نُطفتُه ثمَد ، أم لقريحته مَدد ! فأطرَقَ يُرَوِّى فى استيراءِ زَنْدِهِ ، واستشفاف فِرِنْدِهِ ، والتبس على أَبى زيد سِرُّ صَمْتَتِهِ ، وإزجاءِ صِلَتِهِ ، فتوغّر غضبا ، وأنشد مقتضبا :

* * *

قوله : تَرِب ، افتقر فلم يبق له ما يقعدُ عليه غيرَ التراب . والإتراب : الاستغناء ، وأترب : صار له من المال بكثرة التراب . والإعشاب : إصابة العشب ، وأراد به المال . مَحَلّة : منزل يحلّ فيه .

نازحة : بعيدة . رازحة : كالّه من الهُزال ، ورزح رُزْحا : كلّ من العمل .

ابن الأنبارى : رزح فلان : ضَعُف ، وذهب ما فى يده ، وأصله من رَزَحَتْ إبلُ فلان وكلابه ، إذا ضعفت ، ولزقت بالأرض ، وقيل : هو من المرزَح ، وهوالمطمئن من الأرض ، فكأنّ الرّازح قد لزمه ، وضعف عن الارتقاء إلى العلوّ . آمل : أرجو . جاهك : عزّك . والوسائل : جمع وسيلة ، وهوَ الشّفيع ، فجعل نأموله أفضلَ وسيلة . نائل : عطاء ، والنّائل : المعطى ، ونِلتُ

له بالعطاء أنول وأنلت أنيلُ ، ورجل نالٌ[1] ورجلان نالان ، ورجال أنوال ، ونلتُه أنوله نَوْلا أعطيته ، قال الأعشى :

ينولُ العشيرةَ ما عنده ويغفر ما قال جُهّــالهُا[2]

تلوى عِذارك : تعرض بوجهك . ازدارك ، بمعنى زارك ، واستعمل قصدَك . راحك : جمع راحة ، وهى باطن الكف . امتاحك : استسقاك وأراد طلب معروفك ، قال الرّاجز :

أفلح ساق بيدَيْكَ امتاحَا وقرّ ههنا ورجا الفـلاحا

قوله : امتارَ : استجلب منك الرزق . سماحك : جودك . مَجُدَ : كَرُم ، وصار ماجدا ، أى شريفا، ومجُد يمجُد ، مجداً فهو ماجد، ومجد مجادة فهو مجيد . وقيل : المجد تـكرّم الآباء خاصة ، وقيل:الأخذ من الشرف والسؤدد ما يكفى . وقيل كَرم الفعل . جد : بخل . حشد : جمع المـال . اللبيب : العاقل . وجد : استغنى . جاد : تـكرّم . عاد : فَعلها مرة بعد أخرى ، وقد تقدم منظوما . لم يهب : لم يخف . أن يهب : أن يعطى ، وهذا كله قصد فيه التجنيس فجاء منه بكل بديع .

قوله : نطفته ثمَد ، أى قليل .

الأزهرى : النطفة تقال للماء القليل والـكثير ، ورأيت أعرابيا شرب من ركيَّة غزيرة الماء فقال : والله إنها لنُطْفة باردة ، والثمد : الماء القليل الذى لا مدَد له . قريحته : ذهنه . أطرق : أى أمال رأسه للفـكرة . فى استيراء زنده : فى استخراج ناره ، وأراد طلب ما عنده من العلم والاستشفاف : الاستقصاء فى

(١) فى القاموس : رجل نال : أى جواد كثير النائل .
(٢) ديوانه ١٦٩ .

النظر والتأمل فيما يبصر، واستشف الثوب : جعله طاقا واحدا ، أو رفعه فى ظل حتى ينظر: أكثيف هو أم رقيق ، واستشفه : رأى ماوراءه ، والاستشفاف : النظر إلى كل شىء صقيل . الفِرِنْد : جوهر السيف ، وأراد أن الوالى أعجب بكلامه ، فأراد أن يعلم هل كان فى حفظه لغيره أو ارتجله لنفسه . صَمْتَته : سكتته . إرجاء : تأخير . توغر : توقد . مقتضبا : مرتجلا .

* * *

لا تَحْقِرَنْ أَبيْتَ اللَّعْنَ ذَا أَدبٍ ... لِأَن بَدَا خَلَقَ السِّربالِ سُبْرُوتَا

ولا تَضِعْ لأخى التأميل حُرْمَتَهُ ... أَكانَ ذا لَسَنٍ أم كانَ سِكِّيتَا

وانْفَعْ بِعُرْفِكَ مَنْ وافَاكَ مُخْتبِطًا

وانْعَشْ بِغَوْثِكَ من أَلفيتَ مَنْكوتَا

فخيرُ مالِ الفتى مالٌ أشاد له ... ذِكراً تناقَلَهُ الرُّكبانُ أَوْصِيتَا

وما على المشترى حمداً بموهبةٍ ... غَبْنٌ ولو كان ما أَعْطاهُ ياقُوتَا

لَوْلاَ المروءةُ ضاقَ العُذْرُ عن فَطِنٍ

إذا اشْرَأَبَّ إلى ما جَاوَزَ القُوتَا

لكِنَّهُ لابتناءِ المجْدِ جَدَّ ومِنْ ... حُبِّ السَّمَاحِ ثَنَى نحو العُلاَ لِيتَا

* * *

قوله : أَبَيْتَ اللعن ، تحية ملوك الجاهلية ، قال ابن الأنبارى رحمه الله فى تفسيرها قولان : أحدهما أبيت أن تأتِىَ من الأشياء ما تستحق اللّعن عليه ، فاللّعن منصوب ، والآخر ـ وهو أردأ القولين ـ أن تكون الألف بمعنى «يا» ،

وبيت من البيوت مضاف إلى اللعن ، لأن بعضهم يخفض اللعن ، وتقديره : يا بيت اللّعنِ : سمة للملك ، نقل من الوجه الأول لكثرة الاستعمال ، ألا ترى أنها تعطى معنى النداء فى البيت ، وتقديره : يا ملك أو يا أمير ، ويتضمّن معناه الدعاء ، أى جعلك الله ممّن يكره اللعن ؛ ولذا وقع اعتراضا بين اللفظين ؛ الأول طالب للثانى ، كما قال ابن محلّمٍ :

إنّ الثّمانين — وبُلِّغتَها — قد أحوجتْ سمعى إلى ترْجمانْ (١)

سَبْرُوتا : فقيرا محتاجا ، والسَّبْروت : الفقير الذى لا ثياب له . ذا لَسَنٍ ، أى فصيحاً . سِكّيتا : عَيِيًّا كثير السكوت . انفَحْ بعُرْفك ، أى ارم بمعروفك . انعش بغوثك ، أى ارفع بعطيتك ، والغوْث الإغاثة ، وهى المبادرة بالنصرة لمن جاء يستغيثك . والإنعاش أن ترى رجلاقد أهوى للسقوط فترفعه ، أو افتقر فتجبره . منكوتا : ملقًى على رأسه ، ونُكِتَ الرجلُ فهو منكوت ، إذا ضُرِب فأسقِط على رأسه . قوله أشاد : أى رفع .

[الذكر الحسن]

صيتا : ذكرا حسنا . وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إذا أردتم أن تعلموا ما للعبد عند الله فانظروا ما يتْبعه من حسن الثناء » .

وقيل لبعض الحكماء : ما أحمد الأشياء ؟ قال : أن يبقى للانسان أحدوثة حسنة .

أكثم بن صَيْفىّ : إنما أنتم خَبر ، فطيِّبوا أخباركم ، أخذه حبيب فقال :

وما ابنُ آدم إلا ذكر صالحةٍ أو ذكر سيّئة يسرى بها الكَلِمُ

---

(١) من قصيدة له فى أمالى القالى ١ : ٥٠

أمَا سمعتَ بدهرٍ باد أمّتُــه   جاءت بأخبارها من بعدها أُمَمُ

الأحنف : ما ادّخرت الآباء للأبناء ، ولا أبقت الموتى للأحياء شيئاً أفضل من اصطناع المعروف عند ذوى الأحساب .

وقيل لمعاوية : أىّ الناس أحبّ إليك ؟ قال : مَنْ كانت له عندى يد صالحة ، قيل : فإن لم تـكن ؟ قال : فمَنْ كانت لى عنده يد صالحة .

قال بُزُرْجُمْهر : إذا أقبلتْ عليك الدنيا فأنفق منها فإنّها لا تفنى ، وإذا أدبرتْ عنك فأنفِقْ منها ، فإنها لا تبقى . أخذ هذا المعنى الشاعر فقال :

لا تبخلنّ بدُنْيـــا وهى مقبلةٌ   فليس ينقصها التبذيرُ وَالسَّرَفُ

فإنْ تولّت فأحرَى أن تجود بها   فالحمد منها إذا ما أدبرتْ خَلَفُ

وقال آخر :

إذا جادت الدّنيا عليك فجُدْ بها   على النّاس طُرّا قبل أن تتفلّتِ

فلا الجودُ يُفنيها إذا هى أقبلتْ   ولا الشحُّ يُبقيها إذا هى ولّتِ

وكان سعيد بن العاص يقول على المنبر : مَنْ رزقه الله رزقا حسنا ، فلْينفِقْ منه سرًّا وجهراً ، حتى يكونَ أسعد الناس به ؛ فإنما يترك ما يترك لأحَدُ رجلين؛ إمّا لمصلح فلا يقل عنده شىء ، وإمّا لمفسد فلا يبقى له شىء . أخذه الشاعر فقال :

اسعَدْ بمالِكَ فى الحيــاة فإنّما   يبقى خلافك مصلحٌ أو مفسدُ

فإذا جمعتَ لمفسدٍ لم تُغْنِــهِ   وأخــو الصلاح قليله يتزيَّدُ

[مما قيل فى المروءة]

قوله : لولا المروءة ، المروءة هى الأفعال الشريفة ، التى يجب أن يقال

للرجل بها مرء ، مثل الرّجولة للأفعال التى يستحقّ الرجل أن يقال له بها رجل .

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « لا دينَ إلاّ بمروءة » .

وقال عمر رضى الله عنه : المروءة مروءتان : ظاهرة وباطنة ، فالظّاهرة الرياش والباطنة العفاف .

قدم وفدٌ على معاوية رضى الله عنه ، فقال لهم : ما تعدون المروءة ؟ قالوا : العفاف وإصلاحُ المعيشة ، قال : اسمع يايزيد !

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « تجاوزُوا لذوى المروءات عثراتِهم ، فوالله إنّ أحدهم ليعثر وإنّ يده بيد الله » .

عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : إنّا معشرَ قريش ، نعدّ الحلم والجود سؤدُدا ، ونَعدّ العفاف وإصلاح المال مروءة .

أنوشِيرْوان : المروءة ألاّ تعمل عملا فى السرّ تستحيِى منه فى العلانية .

غيره : المروءة اسم جامع للمحاسن كلها .

وقالوا : المروءة العفّة والحُرْفة .

قوله : اشرأبّ : تشوّف ، والتّشوّف أن تسمع بالشىء وتتطلّع أن تراه ، وتمتدّ أن تنظر إليه ، يقول : لولا الأفعال الجميلة كان عذر الفطن الحاذق يضيق عليه إذا سئل . وقيل له : قد جاوز مالُك قوتَك ، وفضل عن مؤنتك ، فلِمَ تجهَد فى طلب المال ، وترغب فى الزيادة منه . قال : فالمروءة توسّع عليه عذرَه ، فيقول ذو المروءة . إنما اكتسِبه لأنفقَه فى البرّ ، وبيّن هذا بقوله : « ثَنَى نحوَ الغِنَى لِيتا » واللِّيت : صفحةُ العنق فيقول : إنما ثَنَى عنقَه ، وأمالهَا حبًّا فى السماح .

وقد سَبقه إلى هذا التّهامىّ بقوله :

ولولا المطايا أنها سُنَّةٌ له ... لما قال للدّنيا إذا عثرتْ : لعاً(١)
فإن باشر الدنيا فالجود نالَها(٢) ... وإن هجر الدنيا فمنها ترفَّعا

فزاد بقوله : « وإن هجر الدنيا » معنى حَسَناً .

وقالوا : نعم العون على المروءة المال .

وقال الأحنف بن قيس :

فلو مُدَّ سَرْوِى بمال كثيرٍ ... لجدتُ وكنتُ له باذلاَ(٣)
فإن المروءة لا تُستطاعُ ... إذا لم يكنْ مالُها فاضِلاَ

وقال آخر :

لولا شماتة أعداء ذوى حسدٍ ... أو أن أنال بنفعٍ مَنْ يُرَجّينى(٤)
لما خطبتُ إلى الدنيا مطالِبَها ... ولا بذلتُ لها عِرْضى ولا دِينى

* * *

وما تنشَّقَ نَشْرَ الشُّكْرِ ذو كرمٍ
إلاّ وأزْرَى بِنَشرِ المِسْكِ مفتوتا
والحمدُ والبُخلُ لم يُقْضَ اجتماعُهما
حتى لقدْ خِيلَ ذا ضبًّا وذا حُوتاَ

(١) ديوانه ١٧٣ ، ولعا : صوت معناه الدعاء للعاثر بأن يرتفع من عثرته .
(٢) ديوانه

* فإن يلْبس الدنيا فللجُودِ لالَمَا *

(٣) البيتان فى البيان والتبيين ٣ : ٢٩٢ .
(٤) البيتان فى العقد لابن عبد ربه ٣ : ١٤٠ ، وفيه : « وأن أنال » وبعدها :

لكنْ منافسة الأكفاء تحمِلُنِى ... على أمورٍ أراها سوف تُرْدِينِى
وقد خشيتُ بأن أبقى بمنزلةٍ ... لادين عندِى ولادنيا توافينِى

والسَّمحُ في الناسِ محبـــوبٌ خلائقه
والجامد الـكفِّ ما ينفكُّ ممقوتا

وللشَّحيح على أموالِهِ عِلَـلٌ
يوسمنَهُ أبداً ذمَّا وتبـكيتاَ

فَجُـــد بما جمعتْ كفَّاك من نشبٍ
حتَّى يُرَى مُجتَدِي جَـــــدْواك مَبْهُوتا

وَخُذْ نصيبك مِنْهُ قَبلَ رائِحَـــــةٍ
من الزَّمانِ تريكَ العُودَ مَنْحُوتاَ

فالدهرُ أنْـكَدَ من أن تَسْتَمِرَّ بهِ
حالٌ، تَـكرَّهْتَ تِلكَ الحالَ أم شِئتاَ

فقال له الوالي: تاللهِ لَقَدْ أَحْسَنْتَ، فأيّ ولد الرَّجُلِ أَنْتَ؟ فنظرَ إليه عَنْ عُرْض، وأنشد وهو مُغْضٍ:

لاَ تَسْألِ المرْء مَنْ أبوهُ ورُزْ
خلا لَهُ ثمَّ صِلْهُ أو فاصْرِمِ

فما يَشِينُ السُّلاَفَ حين حَلاَ
مذاقُهاَ كَوْنُهاَ ابنَـةَ الحِصْرِمِ

* * *

قوله: تنشّق، أي شم. نشر: رائحة. أزرى: عاب. مقتوتاً: مدقوقاً، يقول: لَشـكْرُ المعروف عند أهل الجود أعطرُ من ريح المسك إذا فتّ فانتشرت رائحته.

وقال إبراهيم الشيبانيّ: كنت أرى رجلا من وجوه أهل الـكوفة، لا يجفّ لِبْدُهُ، ولا يستريح قلبه في طلب حوائج الناس، وإدخال المرافق على الضعيف، فقلت له: أخبرني عن الحال التي هَوّنتْ عليك هذا التّعب في القيام بحوائج

الناس ، ماهى ؟ قال: قد والله سمعت تغريدَ الأطيار بالأسحار فى فروع الأشجار، وسمعتُ خفُوق أوتارِ العيدان وترجيع أصوات القِيان ، فما طربت من صوتٍ قطّ طرَبِى من ثناء حسن ، بلسانٍ حسن ، على رجل قد أحسن ، وما سمعتُ أحْسنَ من شكر حرّ لرجلُ حرّ، ومِن شفاعة محتسِبٍ لطالبٍ شاكر ، فقلت له : لله أبوك ! لقد حُشِيت كرماً ، فلذة السمع هنا بمنزلة الشم فى البيت .

خيّل : حسب ، والضبّ والحوت قد تقدّما فى الثامنة عشر .

قوله : الجامد الكفّ : هو البخيل، وهو ضدّ السّمح . ممقوتاً : مبغوضاً . هِمّل : أعذار . يُوسِعْنَه ذمًا ، أى يكثرن ذمه ، التبكيت : الهوان والتوبيخ . جُدْ : تكرّم . نشَب : مال. مجتدى جدواك : طالبعَطاياك. مبهوتاً: متحيّراً، يريد أنه يعجب من كثرة ماتعطيه فيتحيّر وما يدرى كيف يشكرك !

[مدح الكرم وذم البخل]

ومن مدح الكرم وذم البخل قالوا :

لو لم يكن فى الكرم إلا أنه من صفات الله عز وجل .

وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إنّ الله يحبّ الجود ومكارم الأخلاق ويذمّ سَفْسافها » .

وقيل لقوم من العرب : مَنْ سيّدكم ؟ فقالوا : فلانٌ على بخلٍ فيه ، فقال عليه الصلاة والسلام: « وأىّ داء أدْوى من البخل[1] »!

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحون ﴾[2].

وقال المأمون لمحمد بن عباد : أنت متْلاف ، فقال : مَنع الجود سوء ظن بالمعبود، يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهو خَيْرُ الرّازِقِينَ﴾[3]

(١) النهاية لابن الأثير ٢ : ١٤٣
(٢) سورة الحشر ٩
(٣) سوره سبأ ٣٩

وقال كسرى : عليكم بأهل السخاء والشجاعة ؛ فإنهم أهلُ حسن الظن بالله ، ولو أن أهل البخل لم يدخل عليهم من ضرّ بخلهم ومذمة الناس لهم وإطباقُ القلوب على بغضهم ، إلا سوء ظنّهم بربهم فى الخلف لكان عظيما ، أخذه محمود الوارق فقال :

مَنْ ظنّ بالله خيراً جاد مبتدئا والبخل مِنْ سوء ظنّ المرء بالله

وخوّف بخيلٌ سخيًّا الإملاق والفقر ، فردّ عليه السخىّ ، يقول: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً﴾(١) .

وقال الحسن والحسين لعبد الله بن جعفر : إنّك قد أسرفتَ فى بذل المال ، فقال : بأبى أنتما وأمىّ ! إن الله عوّدنى أن يتفضّل علىّ ، وعوّدته أن أتفضّل على عبيده ، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عنى عادته .

قوله : وخذ نصيبك منه قبل رائعة . الرائعة الشيبة ، لأنها تروّع الإنسان أى تفزعه ، وتعلمه أنها تأتيه بالكبَر والهرم . والعود المنحوت ، أراد به الجسم اليابس لأنّ الهرم يُذهِب نعمة الجسم ، وأصل المنحوت المنجُور .

وأراد بقوله : خُذ نصيبَك قولَهُ عليه الصلاة والسلام: «يقول ابن آدم: مالى مالى ، وما لَه مِنْ مالِهِ إلا ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فأمضى» .

[مما قيل فى الشيب]

وقال الشاعر فى الرائعة :

أهلاً برائعةِ للشيب واحدةٍ تفنى الشباب وتنهانا عن الغزَلِ(٢)

وقال أبو الطيب المتنبى :

راعتْك رائعةُ المشيب بعارضٍ ولَو انها الأولَى لراعَ الأسحمُ(٣)

---

(١) سورة البقرة ٢٦٨ .
(٢) شرح العكبرى ٤ : ١٢٣ .
(٣) ديوانه ٤ ، ١٢٣ . العارض ، مايلى الخد والأسحم : الأسود .

لو كانَ يُمْكِنُنِى سَفَرْتُ عن الصِّبا فالشَّيب من قَبلِ الأوان يُكتَّمُ[١]

وفى رواية ابن جنى: «رائعة البياض»، وقال: هى أول شعرة تطلع من الشيب. وأنشد ابن الأعرابى «أهلا برائعة للشيب» وأنشد غيره «برائعة بيضاء» أى بشعرة تطلع من المشيب بيضاء تروع الناظر، وهذا أصوب من الوجه الآخر، وقال كُثَيِّر:

كَذَب العواذل بل أردْنَ خِيانتى وبدتْ روائع لِمّتِى وقُتومُ[٢]

وقال الألبيرى:

بصُرتُ بشيبةٍ وخطت بِلَمَّتِى فقلت لها تأهَّبِى للرحيلِ[٣]
ولا يَهُنِ القليل عليـك منها فما الشيب وَيْحَك من قليلِ
فكَمْ قد أبصرتْ عيناك مُزْنا أصابك طلها قبلَ النّزولِ[٤]
فلا تحقِرْ بنوْر الشَّيب واعلمْ[٥] بأنَّ القطر يَبْعَثُ بالسُّيولِ

وقال أبو بكر البلوِىّ:

أُسكِنتِ فى شِعرى وشَعرى وما نفسىَ فى صبرى بمنكوبَهْ
إذا دنت بيضاء مكروهةٌ منّى نأت سوداء محبوبَهْ

وقال كُشاجم فأحسن:

نظرتُ إلى المراة فروَّعتنِى طلائع شيبتين لدَى المتابِ[٦]
فأمّا شيبة ففزعتُ منهـا إلى المقراضِ من حبّ التّصابِى
وأمّا شيبة فصفحتُ عنها لتشهد بالبراءة من خِضابِى

---

(١) الديوان: «تلثّم».
(٢) ديوانه ٢٠٦، والقتوم: الشحوب والتغير.
(٣) ديوانه ١٤٧، ١٤٨
(٤) الديوان: «الهمول»
(٥) ديوانه: «بنزر الشيب»
(٦) ديوانه ١٠

فوالكَ من مشيبٍ قد تبدَّى أقت به الدَّليل على شبابى[١]

وقال البحترىّ :

وأبتْ تركى الغديّاتُ والآ صالُ حتىْ قضيْن بالمقراضِ[٢]
شعراتٌ أُقصُّهنّ ويرجِعْ نَ رجوعَ السِّهام فى الأغراض[٣]

وقال ابن المعتزّ :

ألستَ ترى شيباً برأسِى شاملاً ونتْ حيلتى عنهُ وضاقَ به ذَرْعِى
كأنّ المقاريض التى يعتورْنَهُ مناقير طير تنتقِى سُنْبل الزّرْعِ

وقال رجل من الأزد :

ولقد أقولُ لشيبةٍ أبصرتُها فى مَفرِق فنحتُها إعراضِى
عنّى إليكِ فلستُ منتهياً لقدْ عَمَمْتُ منك مفارِق ببياضِ
هل لى سوَى عشرينَ عاماً قدْ مضَتْ مَعْ ستةٍ فى إثرهِنّ مواضى
ولقلّما أرتاع منكِ وإنّنى فيما هويتُ وإن وزعتِ لماضِى
فعليك ما استطَعْتِ الظّهورَ بلِمّتِى وعلىّ أن ألقاكِ بالمقْراضِ

وقال أبو نواس :

وإذَا عَدَدْتُ السنّ كم هِى لم أجدْ للشّيب عذراً أنْ يُلِمّ براسى

وقال أبو دلف :

فى كلّ يوم أرَى بيضاء قد طلعتْ كأنما نبقتْ فى ناظِر البَصَرِ[٤]
لئن قرضتُك بالمقراضِ عن بَصرى لمَا قَرضتُك عن همّى وعن فكرى

---

(١) الديوان :

فيا عجباً لذلك من مشيب أقتُ به الدليل على الذَّهابِ

(٢) ديوانه ٢ : ١٢٠٩ ، وفيه «خضبت بالمقراض» (٣) الأغراض : الأهداف .

(٤) أمالى المرتضى ١ : ٦٠٨ ، وفيه : « كأنما طلعت فى أسود البصر »

وقال كشاجم :

أخى قمْ فعاونِّى على شيبةٍ بغتْ ... فإنىَ منها فى عَذَاب وفى حَرْب[1]

إذا مامَضى المنقاش يأتى بهاأتَت ... وقدأخذت من دونهاجارةَ الجنب

كجانٍ على السّلطانُ يجزَى بذنبهِ ... تعلّق بالجيران من شدّة الرُّعبِ

ولأبى الفضل الدارمىّ :

شيبةٌ نغّصَتْ علىّ شبابى ... فتعمّدتُ نتفَهـــاَ غيرَ وانِ

قلتُ ماذا كذا العمرُ التّصابى ... لشبابى أجلْ عنـد الحسانِ

فأجابت جَرَى من الرّسْم للسلـ ... طان أخذ البراء مِثلِ الجانى

فإن ازددتَ فى الجفاء فلا تنـ ... ـكرْ قدومى عليك مَعْ إخوانى

وهذا مثل قول الآخر :

وزائرةٍ للشيب لاحتْ بعارضى ... فبادرتُها بالقطْفِ خوفاً من الحتْفِ

فقالت على ضعفِى استطلت ووحْدتى ... رويدَك حتى يلحق الجيشُ منخَلْفِى

فلم يك إلا عن قريبٍ فأقبلَتْ ... وعمّت جميعَ الرأس رَغماً على أنفِى

فوا أسفا لو كان يُغنِى تأسّفِى ... على زمنٍ ولّى ونحنُ على حرفِ

وقال الرّمانى :

وثلاثِ شَيْباتٍ طَلَعْنَ بمفرِق ... فظننتُ أن نزولهنّ رَحيلِى

طلعت ثلاثٌ فى طلوع ثلاثةٍ ... واشٍ ووجهُ مراقبٍ وعذولِ

فعزلْنَنِى عن صَبْوَتى فاشن ذلا ... تُ لقـد سمعتُ بذلّة المعزولِ

وفى معنى قول أبى نواس : « وإذا عددت السن كم هى » قال المعرى :

عجبتْ هنـدُ من تسرُّع شيبى ... قلت هذا عَقْبى فِطام السُّرورِ

عوّضتنى يد السّفاسف من مِسْ ... كٍ عِذارىَ ريشاً من الـكافورِ

---

(١) زهر الآداب ٢ : ٨٩٨ .

كأنّ لى فى انتظار شَيْبى حسابٌ غالطتْنِى فيه صُرُوفُ الدُّهُورِ

وقال ابن الملح الشِّبْلىّ :

طَلع المشيبُ بلّمتى فتعجّبوا من كدِّهِ وتعجبُّوا من مُهْلَتِهْ
ماشبت من كِبَرٍ ولكن مَنْ يبتْ دنفًا ومشتاقًا يشِبْ من ليلتهْ

وقال أبو عثمان الخالدىّ :

فديتكِ ما شبتُ من كَبْرةٍ وهذى سِنِّى وهذا الحسابُ[1]
ولكن هجرتِ فحلّ المشيْبُ ولو قد وصلتِ لحلّ الشَّباب[2]

وهذا القدر كاف .

* * *

قوله : فالدهر أنكد ... البيت يقول : إن كنت غنيًا أو فقيرًا فتلك حالٌ لاتدوم، كرهتَ أو رضيتها .

وقوله : أىّ ولد الرجل أنت ، هذا الكلام إنما يقع فى باب النفى ، قال يعقوب : تقول العرب : لاأدرى أىُّ ولد الرجل هو ؟ يعنون بالرّجل آدم وولده الناس ، فكأنه قال : ما أدرى أىّ الناس هو .

عُرْضٍ : جانب . مغضٍ : مغمض عينه ، يريد أنه لم يعجبه سؤاله ، فلم يقبل عليه بنظره ، ولا بإنشاده . ورُزْ ، بالراء قبل الزاى ، معناه اختبرْ واطلب . قال ابن الأنبارى : رزت ماعنده ، أى طلبتهُ وأردته ، قال الزُّبيدىّ : الرّوْز قريب من التحقيق ، والروز أن تأخذ الصنجة بيدك ، فترفعها لتختبر ثقلها ، قال الشاعر :

وإنّ الله رازَ حلوم قيسٍ فلما ذاق خِفّتها قلاها

وقال الأعشى :

فمشى ولم يخش الأنيـ ـس فرازها وخَلاَ بها

اصْرِم : اقطع الصحبة . الشُّلاف : الخمر الخالصة . الحصرم: الحامض ، لأنّ

---

(١) ديوانه ١٠٨ (٢) الديوان : « لعاد الشباب »

عود العنب حامض ، ويتولد عنه شيء لذيذ ، وتقدم معنى البيتين .

وأما وجود الأشياء مع أضدادها مثل الحلاوة مع ما أصله مرّ فله نظائر ، قال حبيب :

* والنار قد تُقتضَى من ناضِرِ السَّلَمِ *[1]

وقال المتنبي :

فإن الماء يَجْرِى من جمادٍ وإن النـار تخرج من زناد[2]

وقد يجرى أيضاً خلاف العادة فى الأشياء ، فقد يتشابه الشيئان من جهة ، ويتباعدان من أخرى .

قال المعرّى :

قد يَبْعدُ الشيءُ من شيء يُشابِهُه إنّ السماء نظير الماء فى الزَّرَقِ[3]

قال المتنبي وقد سبقه إليه :

وقـد يتقارب الوصفان جـدًّا وموصوفاهما مُتباعِـدان[4]

وما أحسن قول ابن صارة :

يا مَنْ يعذّبنى لمـا تملّـكَنى ماذا تريد بتعذيبى وإضرارى

تروقُ حسناً وفيك الموت أجمعُه كالصَّقلِ فى السَّيفِ أو كالنورِ فى النار

وقال ابن عبدون أستاذ بلنسية :

يا مَنْ محيّاهُ جنّات مفتّحةٌ وهجره لى ذنب غيرُ مغفورِ

لقد تناقضتَ فى خَلْقٍ وفى خُلُقٍ تناقضَ النّار بالتدخين والنّورِ

* * *

قال : فقرّبه الوالى لبيانه الفاتن ؛ حتى أحلّه مَقْعَدَ الخاتِن . ثم فَرَضَ له من سُيُوب نَيلِهِ ، ما آذن بطول ذَيْلِهِ ، وقِصَرِ ليلِهِ . فنَهَضَ

(١) ديوانه ٢٦٩ . تقتضى: تستخرج، وصدره :

* أخرجتموه بكرهٍ من سَجِيّتِهِ *

(٢) ديوانه ٢ : ٣٦٥ (٣) سقط الزند ٦٨٨ (٤) ديوانه ٤ : ٢٥٥ .

عنه بِرُدْنٍ مَلآن ، وقلبٍ جذلان ، وتبعتُه حاذِياً حَذْوَهُ ، وَقافياً خَطْوَهُ ، حتّى إذا خَرَجَ من بابِهِ ، وَفَصَلَ عن غابِهِ ، قلت له : هُنِّئتَ بما أوتيتَ ، ومُلِّيتَ بما أوتيتَ . فأسفرَ وَجْهُهُ وتَلالأ ، وَوالى شكراً لِلّهِ تعالى ، ثم خطَرَ اختيالا ، وأنشد ارتجالاً :

مَنْ يَكُنْ نال بالحماقــــةِ حظّاً   أو سَما قَدْرُه لطِيبِ الأصولِ

فبفضلى انتفعتُ لا بِفُضولى   وبقولى ارتفعتُ لا بقُبولِي

ثمّ قال : تعساً لِمَنْ جدَبَ الأدب ، وطُوبَى لمن جدَّ فيه ودَأب ، ثم ودّعنِي وذَهَب ، وَأوْدَعَنِي اللّهَب .

* * *

قوله : مقعد الخاتن : كناية عن القرب ، كما أن مَزْجَرَ الكلب كناية عن البعد . سيوب : عطايا ، وأصلها الكنوز والمعادن . نَيْلِه : ماله الموهوب ، وفى كتاب العَيْن : أنلت المعروف ونلته ونوّلته واسم ماتهب النّوال والنَّيْل . آذن: أعلم . طول ذيله : كثرة ماله . قصر ليله : يريد قلة همه ، لأنّ المهموم لا ينام فيطول ليله ، ووصف الليل بالطول والقصر ، وله باب مشهور فى كتب الأدب تركنا ذكره لشهرته وكثرته ، وعلّته راجعة لما ذُكِر من أن لَيْلَ السرور قصيرٌ ، وليل الهمّ طويل .

[مما قيل فى طول الليل]

وحدث إسحاق الموصليّ قال : دخلت على الرشيد وهو مُستلقٍ على قفاه وهو يقول : أحسن والله فتى قريش وظريفها وشاعرها ، قلت : فيمَ ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال فى قوله :

لا أسأل الله تغييراً لما فعلتْ　　نامت وقد أسهرتْ عينىّ عيناها
فالليل أطولُ شىء حين أفقدُها　　والليل أقصر شىءٍ حين ألقاها

ثم قال : أتعرفه ؟ قلت بصوت ضعيف : لا ، قال: بحقى عليك ؟ قلت: نعم هو الوليد بن يزيد ، فقال اسْتر ما سمعتَه منى ، وإنه ليستحق أكثرَ مما وصفته به(١)

ولبعضهم وأجاد :

إنّ الليالىَ للأنام مطيّـــةٌ　　تُطْوَى وتُنشر بينها الأعمارُ
فقِصارهُنّ مع الهموم طويلةٌ　　وطِوالهُنّ مع السرورِ قصارُ

وأنشد الفنجديهى للطراف :

أخو الهوى يستطيلُ الليلَ من سهرٍ　　والليل فى طوله جارٍ على قَدَرِ
لَيْلُ الهوى سَنَةٌ فى الهجر مدّتُه　　لـكنّه سنة فى الوصل من قِصَرِ

وأنشد السّلامى رحمه الله :

ليلى وليلى سَواءٌ فى اختلافهما　　قد صيّرانى جميعاً فى الهوى مثلا(١)
يجود بالطول ليلى كلّما بخِلَتْ　　بالطّول ليلَى وإن جادتْ به بَخِلا

وقال ابن أبى دباكل :

يطولُ اليومُ لا ألقـاكِ فيه　　وحولٌ نلتقى فيـه قَصيرُ

وتبعه بشار ، فقال وأحسن :

---

(١) الخبر والشعر فى شرح المختار من شعر بشار ٢١ ، والشعر أيضاً فى زهر الآداب ٩٤٩٠

لا أظلمُ الليلَ ولا أدّعِي ... أنّ نجوم الليل ليست تغورْ (١)
ليلى كما شاءت فإن لم تَزُرْ ... طال وإن زارتْ فليلي قصيرْ
تصرُّف الليل على حكمها ... فهو على ما صرَّفَتْهُ يَدُورْ

وزاد ابن العريف الزاهد على هذا المعنى ، فقال وأحسن :

لستُ أدرى أطال ليلىَ أم لا ... كيف يدرى بذاك مَنْ يتقَلّى
لو تفرغت لاستطالة ليلى ... ولرعْيِ النّجوم كنتُ مُخِلاّ
إن للعاشقين عن قصر الليـ ... ل وعن طوله من الهمّ شُغْلاَ

قوله : ردن ، أى كم . جذلان : مسرور . حاذياً حذوه ، أى متبعا له جاعلا قدمى موضع قدمه ، فيتّسع فيه ، فيقال : حذوت حَذْوَه ، أى عملت مثل فعله ، وأصله فى حَذْو النعل بالنعل ، وقد تقدم .

قافيا : متبعاً . فَصَل : زال وخرج . غابه : موضعه ، والغاب الشجر الملتفّ يتّخِذ الأسد فيه بيْتاً . مُلّيت : أطيل لك ومتّعت به ، من الملاوة ، وهو الحيْن . أوليت : أعطيت . أسفر : أضاء ، ومثله تلألأ ، إلاّ أن معناه أبلغ ، وأصل تلألأ : ابيضّ ، فأشبه بياض اللؤلؤ ، وصفاءه ، يريد أنّه انبسط وجهه وحسنت خلقته لما دعاله . والَى : كرّر . خطر اختيالا : جرّ أثوابه إعجاباً بنفسه. سما قدره : ارتفعت منزلته . طيب الأصول : شرف الجدود . الفُضُول : الحمق والدخول فيما لا يعنى . والقُيُول : مَنْ دون الملك ، واحدهم قَيْل ، وأراد بهم الأجداد الأشراف ، وطابق بين الحماقة والفضول ، وبين طيب الأصول والقيول ، وسلخه من قول المتنبى :

(١) نسب القالى فى الأمالى ١ : ١٠٠ هذا الشعر لعلى بن بسام وكذلك فى زهر الآداب ٨٤٩ والنويرى ٦ : ١٣٥ ، ونثار الأزهار ٢٣ ، وديوان المعاني ١ : ٣٤٩

ما بقومي شرفتُ بل شرُفوا بِي وبنفسي ارتفعتُ لا بجُدُودِي [1]

أشار إلى نسبه من ملوك كنده .

قال آخر :

أيهـا الفاخر جهلاً بالحسبْ إنّما النـاس لأمٍّ ولأبْ

إنمـا الفخـر بعـقل راجحٍ وبأخلاق حسانٍ وأدبْ

ذاك مَنْ قد فاخر النّاسُ به فاق مَنْ فاخر منهمْ وغلَبْ

وقال الحـكيم بن قنبر :

لاخـير فيمن له أصـلٌ بلا أدبٍ حتّى يكون على مانابه حَدِبَا

كم مِنْ حسيبٍ أخى عِيٍّ وطمطمةٍ فَدْمٍ لدى القوم معروفٍ إذا انتسبا

فى بيت مكرمةٍ آباؤه نُجُبٌ كانوا الرءوس فأضحى بعدهم ذَنَبَا

وقد تقدمت نظائره .

قوله: تَمْسا ، أى هلا كا . جدب: عاب ، وفى الحديث: «جدب ابن الأثير بالسمرَ بعد العِشاء»[2] أى عابه ، وقال ذو الرّمة .

إذا نازعتك القولَ مَيّةُ أو بَدَا لك الوجه منها أو نَضَا الدِّرْعَ سالِبُه[3]

فيالك من خدٍّ أسيلٍ ومنطقٍ رَخيمٍ ومِنْ خلق تعلل جادبُهْ[4]

قوله : دأب ، أى دام عليه . أودعنى : ضمننى ، وجعله فى قلبى . اللّهب : جَمْر النار .

ومما يتعلّق بما قدمناه من الشعر قول جحظة .

---

(١) ديوانه ١ : ٣٢٢ . (٢) النهاية لابن الأثير ، وقال : «أى ذمه وعابه »

(٣) ديوانه ٤٢

(٤) أسيل : سهل . رخيم : فيه لين . جادبه : عائبه .

أرى الأعياد تتركني وتمضِي وأوشك أنها تبقى وأمضِي
علامة ذاك شيبٌ قد علانِي وضعفِي عند إبرامي ونقضِي
وما كذبَ الذي قد قال قبلي إذا مامرّ يوم مرّ بعضِي
أرى الأيام قد ختمتْ كتابي وأحسبها ستتبعه بفضّ

وعلى قوله : « إذا مامرّ يوم مرّ بعضي » قال بعضُ بني حمدان :

المرء وقت له تناهٍ مقدّرٌ طوله وعرْضُهْ
فكلّما مرّ منه يوم فإنّما مرّ منه بعضُهْ

وجحظة مطبوع الشعر ، هو القائل في أبي بكر بن دريد :

فقدتُ بابن دريدٍ كلّ فائدةٍ لمّا غدا ثالثَ الأحجار والتُّرَبِ (١)
وكنت أبكي لفقد الجود مجتهداً فصرت أبكي لفقد الجودِ والأدبِ

أين هذا من قول الفرزدق يرثي سائسا ، أنشده أبو محمد في الدرة :

ليبك أبا الخنساء بغلٌ وبغلةٌ ومخلاة سوء قد أضيع شعيرُها (٢)
ومِجْرَفة مطروحة ومِحسّة ومقرعة صفراء بالٍ سيورُها

أخذه منْ قول زيد الخيل يرثي عبداً له :

أمّا تعاورَتك الرّماح فلا أبكيك إلا للدّلو والمرسِ

وقد قدّمنا فصلا في التشاؤم بالأدب في قوله ، فقد دهاني شؤمه وأنحى عليه هنا بقوله : تعساً لمن جَدَّب الأدب ، وطوبى لمنْ جدّ فيه وأدب .

---

(١) تاريخ بغداد ٢ : ١٩٧
(٢) درة الغواص ٩٧ .

[فصل فى مدح الأدب]

ونذكر هنا فصلا مقنعاً فى مَدحِه ، حسبما شرطنا من الجرى معه على أغراضه .

قال العلاء بن أيوب كان يقال : مَثَلُ الأديب ذى القريحة ، مثلُ دائرة تُدَار من خارجها ، فهى فى كلّ دارةٍ تدار تتّسع وتزداد عِظَماً ، ومثلُ الأديب غير ذى القريحة مثلُ دائرة تُدَار من داخلها ، فهى عن قليل تبلغ إلى باطنها .

أوصى بعض الحكماء بَنِيه ، فقال لهم : الأدب أكرمُ الجواهر طبيعةً ، وأنفَسُها قيمة ، يرفع الأحساب الوضيعة ، ويفيد الرغائب الجليلة ، ويُغْنِي من غير عشيرة ، ويكثر الأنصارَ من غير رزيّه ، فالبَسوه حُلّة ، وتزيّنوا به حِلْيَة ، يؤنسكم فى الوحشة ، ويجمع القلوب المختلفة .

وقال شبيب بن شبّة : اطلبوا الأدب فإنه مادّة للعقل ، دليل على المروءة صاحب فى الغربة ، مؤنس فى الوحشة ، حلية فى المجالس .

وقال الخليل : مَنْ لم يكتسب بالأدب مالاً اكتسب به جمالا .

وأنشد الأصمعىّ رحمه الله :

إن يك للعقل مولود فلست أرَى ... ذا العقل مستوحشاً من حادث الأدَبِ

إنى رأيتهما كالماء مختلطاً ... بالتّرب تظهر عنه زهرة العُشُبِ

وقال عبد الملك لبنيه : عليكم بالأدب ، فإنكم إذا احتجتم إليه كان لكم مالا ، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالا .

ابن المقفع : إذا أكرمك الناس لمالٍ أو لدنيا ، فلا يعجبنّك ، فإنّ تلكَ كرامةٌ تزول بزوالهما ، ولكن ليعجبنّك إذا أكرموك لدين أو أدب .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : كفاك من علم الدين أن تعرف مالا يسع جهله ، ومن علم الأدب أن تروِى الشاهد والمثل .

وقال بُزُرْجُمِهر : ماورَّثت الآباء الأبناء خيراً من الأدب ، لأن به يكسبون المال ، وبالجهل يتْلِفونه .

وقال: حسنُ الخُلق خير قرين ، والأدب خير ميراث ، والتقوى خيرُ زاد.

وقالوا : ثلاث لاغربة معهنّ. مجانبة الرِّيَب، وحسن الأدب ، وكفّ الأذى.

وقال بُزُرْجُمِهر : من كثر أدبه كثر شرفه ، وإن كان قبلُ وضيعاً ، وبعد صيته ، وإن كان خاملا ، وسادَ وإنْ كان غريباً، وكثرت الحاجة إليه وإن كان فقيراً

وقال عمر رضى الله عنه : من أفضل ما أعطِيَتْهُ العرب الأبيات ، يقدّمها الرجل بين يدى حاجته ، فيستعطف بها الكريم ويستنزل بها اللئيم .

وقالوا : الأدب أدبَان . أدب الغريزة ، وهو الأصل وأدب الرّواية وهو الفرع ، ولا يتفرّع الشيء إلا عن أصله ، ولا ينمو الأصل إلاّ باتصال المادّة .

وقال حبيب فأحسن:

وما السّيفُ إلاّ زَبْرَةٌ إن تركتَه ... على الخِلْقة الأولى لَمَا كان يقطعُ[1]

وقال آخر :

ما وهبَ الله لامرئٍ هِبَةً ... أفضلَ من عقله ومن أدَبِهْ

هُما كمال الفتى فإن فُقِدَا ... ففقْدُه للحياة أحْسَنُ بِهْ

وقالوا : إذا كان الرجل طاهر الأدب، طاهر المنبت ، تأدّب بأدبه ، وصلح بصلاح أهله وولده .

وقال الشاعر :

رأيت صلاح المرء يُصلِحُ أهلَهُ ... ويُعْديهمُ عند الفساد إذا فَسَدْ

يعظَّم فى الدنيا لأجل صلاحه ... ويُحْفَظُ بعد الموت فى الأهل والولَدْ

---

(١) ديوانه ١٢٨ . الزبرة : القطعة من الحديد .

المقامة التاسعة والثلاثون وهي العُمانيّة

حدّث الحارثُ بن همّام ، قال : لهِجتُ مُذ اخضرّ إزاري ، وبقَل عِذاري ، بأنْ أجُوبَ البَرَاري ، علَى ظهورِ المَهَاري ، أُنجدُ طوراً ، وأسلُكُ تارَةً غوراً ؛ حتّى فلَيْتُ المعالِمَ والمجاهلَ ، وبلَوْتَ المنازلَ وَالمنَاهِل ، وأدْمَيْتُ السَّنابكَ والمناسِمَ ، وَأنضيتُ السَّوابِقَ والرّواسم فلمّا مَللتُ الإصْحارَ ، وقدْ سَنَحَ لِي أَرَبٌ بِصُحار ، مِلْتُ إلى اجْتِيازِ التَّيّار ، واخْتِيارِ الفُلْكِ السَّيّار ، فنقَلْتُ إليْهِ أساودي ، واستصحبتُ زادِي ومزَاوِدِي ، ثم ركبتُ إليه ركوبَ حاذرٍ ناذر ، عاذلٍ لنفسه عاذِر . فلمَّا شرَعْنا في القُلْعَة ، ورفَعْنَا الشُّرُعَ للسُّرْعَةِ ، سَمِعْنَا مِنْ شاطِئِ المَرْسَى ، حينَ دَجا اللَّيْلُ وأغْسَى ، هاتفًا يقول : يا أَهْلَ ذا الفُلْكِ القَوِيم ، المزجّى في البَحْرِ العَظِيم ، بتَقْدِيرِ العَزِيزِ العَلِيم ، هَلْ أدُلّكُمْ على تجارة تُنْجِيكُمْ مِنْ عذابٍ أليمٍ ؟ فقلْنا : أقبِسْنا نارَكَ أيُّها الدّليلُ وأرْشِدْنا كما يُرْشِدُ الخليلَ الخليلُ .

* * *

لهجتُ ، أي اشتد حبي ، وأصله في الفصيل إذا رضع أمه ، يقال : لَهِج بضَرْع أمّه ، إذا لزمَه ليرضعه . اخضرّ إزاري ، كنى به عن الشباب ، وكانت العرب إذا بلغ منها الغلام الحلُمَ ، وأشعر لبس الإزار لِيَستُرَ عورته . بقل عذاري : اخضرّ شاربي ، وبدا الشعر في وجهي أخضر مثل البقل .

[مما قيل فى العذار]

ونذكر هنا شيئا مما قيل فى العِذار ، قال أبو نُواس :

مِنْ أينَ للرشأ الأغنّ الأحْوَرِ فى الخدّ مثل عِذاره المتحيّر
قمر كأنّ بعارضَيْه كليْهما مِسْكاً تساقطُ فوق وردٍ أحمر

وقال أيضاً :

قَدْ كَانَ بَدْرَ السَّماء حسناً فالنّاس فى حبِّه سواءُ
فزاده ربُّه عِذارا تمّ به الحسنُ والبهاءُ
لاتعجبوا ، رَبُّنا قديرٌ يزيدُ فى الخلق ما يشاءُ

وقال ابن رشيق :

همّتْ عذاراهُ بتقبيلهِ فاستلّ من عينيه سَيْفَيْنِ[1]
لذلك الحمْر من خدّه دمٌ جرى بين الفريقيْنِ

وقال غيره :

قمرٌ كأنّ قوامَه من قدّ غصنٍ مسترَقُ
وكأنّما قلم الزمرّ دفى عوارضِهِ مشقْ

ولأبى الفضل الدارمىّ :

ماذا الذى خطّ الجمالُ بوجهه خطّين هاجا لوعةً وبلابلا
ماصحّ عندى أنّ لحظك صارمٌ حتى رأيتُ بعارضيك حمائلاَ

وقال أيضاً :

قلتُ للملقِى على الخدّين مِنْ وردٍ خمارا
أسبل الصُّدغ على خدّيك من مسكٍ عِذارا

---

(١) نقله فى التنتف ٨١

أم أهان الليلَ حتَّى غلب الليلُ النّهـارا
قال ميدان جرى الحســنُ عليه فاستدارا
ركضتْ فيـه عيونٌ فأثارته غُبــارا

قوله : أجوب ، أى أقطع . البرارى : الصّحارى . المهارِى : إبل كرام . أنجد : أطلع ، والنَّجْد: المرتفع . والغور : ضدّه ، وقد أنجد وغار . أسلك : أدخل وأمشى . فليْت : قطعت . المعالم : المواضع المعلومة ، والمجاهل ، ضدّها . بلوْت : جرّبت . المناهل : مواضع المياه . السنابك : أطراف الحوافر . المناسم : جمع منسِم ، وهو مقدّم خُفّ البعير . أنضيت : أهزلت . السوابق : الخيل . الرواسم : الإبل السريعة ، ورسَمَت الناقة فهى رَاسمة ، إذا أثّرت فى الأرض من شدة وطئها، قال أبو عبيد رحمه الله : إذا ارتفع السير عن العَنَق قليلا ، فهو التّزيد ، فإذا ارتفع عن ذلك ، فهو الذّميل ، ثم الرَّسِيم . الإصحار : الدّخول الصحراء ، يريدَ مَللت من سفر البر . سنح : ظهر وعرض . أرَب : حاجة .

[ذكر صُحَار]

صُحَار : سوق عُمان ، وهى مدينة كبيرة على ساحل البحر ، مُرْساها فرسخ فى فرسخ ، وبلاد عُمان ثلاثون فرسخاً ، ماولى البحر سهول ورمال ، وما تباعد عنه حزون وجبال ، وهى مدن ، منها مدينة عمان وهى حصينة على الساحل ، ومن الجانب الآخر مياه تجرى إلى المدينة ، وفيها دكاكين التُّجار مفروشة بالنُّحاس مكان الآجرّ ، وهى كثيرة النخل والبساتين وضروب الفواكه والحنطة والشعير والأرز وقصب السكر، وفى الأمثال: مَنْ تعذّر عليه الرزق فعليه بعُمان، وفى أحوازها مغاص اللؤلؤ . وعُمان من أحواز اليمن سُمّيت بعمان بن سبأ .

الفنجديهىّ : صحار اسم بلدة بكورة عُمان وهى قصبتها مما يلى الجبل .

• • •

التيَّار : البحر . الفُلك : السفينة . التّيّار : الكثير المشى ، والفُلك يكون واحدا وجمعا ، ويذكّر ويؤنث .

أساودى : أمتاعى، لأنها تسوّد الأرض بظلها ، وهى جمع أسودة ، وأسودة جمع سَواد ، وسواد الأمير ثَقَلُه . أبو عبيد : كُلّ شخص سَواد ، من متاع أو إنسان أو غيره . الحاذِر : الخائف . ناذر : حالف ، وأراد به الذى ينذر بجهد إن سلمه الله تعالى من هَوْل البحر . عاذل وعاذر ، يريد أنه يعذِل نفسه عن التغرير بدخول البحر ومقاساة أهواله ، ويعذِرُها لكثرة المتاجر . شرَعنا فى القُلْعة : أخذنا فى قَلْع المراسى ، ورفع القلع وهى الشّرُع. قوله: أغشَى، أى أظل هاتِفًا ، أى صائحا . القويم : المستقيم . المُزْجَّى : المسوق المسير ، قال الله تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ الّذِى يُزْجِى لَكُمُ الفُلْكَ فِى البَحْرِ ﴾ أى يسيّرها ، وأزجاه : إذا ساقه . أقبسْنَا : أعطنا أرْشِدْنَا : دُلّنَا ، قاله الأزهرى رحمه الله .

* * *

فقال : أتَستَصحِبُونَ ابْنَ سَبيلٍ ، زَادُهُ فِى زَبِيلٍ ، وَظِلُّهُ غيرُ ثَقيلٍ ، وَما يَبْغِى سِوَى مقيل . فأجمعنا عَلَى الجُنُوحِ إليهِ وَألاَّ نَبْخَلَ بالماعُونِ عَليْهِ .

فَلمَّا استوى على الفُلْكِ ، قالَ : أعُوذ بِمالِك المُلْكِ ، مِنْ مَسالِكِ الهُلْكِ . ثُمَّ قالَ: إنّا رَوَيْنا فى الأخبار ، المنقولَةِ عن الأحْبارِ ، أنَّ الله تعالَى ما أخذَ على الجُهّالِ أَن يَتَعلَّمُوا ، حَتى أخذَ على العُلَماءِ أنْ يُعَلِّمُوا ، وإنْ مَعِى لَعُوذَةً ، عن الأنبياء مأخُوذة ، وعِندِى لكُمْ نصيحَة ، بَرَاهينُها صَحيحة ، وما وَسِعَنِى الكِتْمان ، وَلاَ مِنْ خِيمِى

الحِرْمان فتدَبَّرُوا القَـــــــوْلَ وتفهّموا ، واعْمَلُوا بِما تُعَلَّمُونَ وَعَلِّمُوا .

ثمّ صاحَ صَيْحَةَ المباهِي ، وقال : أَتَدْرُون ما هي ! هِيَ واللهِ حِرْزُ السَّفْر ، عِنْدَ مَسيرِهِمْ فى الْبَحْرِ ، وَالْجُنَّةُ مِن الْغَمّ ، إذا جاشَ مَوْجُ الْيَمّ ، وبِهَا اسْتَعْصَمَ نوحٌ مِن الطُّوفان ، ونَجا ومَنْ معه من الحيـــوان ؛ عَلَى ما صَدَعَتْ بِهِ آىُ القُرْآن . ثم قرأ بَعْدَ أَساطِيرَ تلاَها ، وزخارفَ جَلاَها ، وقال : ارْكبوا فيها باسم اللهِ مَجْرَاهَا ومُرْسَاهَا . ثمّ تنفّس تَنَفُّسَ الْمُغْرَمِين ، أَو عِبادِ اللهِ المُكْرَمِين .

وقَالَ : أَمَّا أَنا فقدْ قُمْتُ فيكُمْ مَقامَ المبلِّغين ، ونصحتُ لَـكُمْ نُصْحَ المبالِغين ، وسَلَـكْتُ بِكُمْ مَحَجَّةَ الرَّاشِدِينَ ، فاشْهَدِ اللَّهُمَّ وأَنتَ خيرُ الشاهدينَ .

* * *

ابن سبيل : هو المسافر الذى انقطع به ، وهو يريد الرجوعَ إلى بلده ، ولا يجد مايتبلّغ به ، فله سهم فى الصدقات . زَبيل : قُفّة من جلود ، وألغز به بعضهم فقال :

وذى أذنين لايفتات قوتًا وجوفٍ للحوائج واحتمالِ
يكلّف شغل أهل البيت طُرًّا وتُحمل فيه أقوات العيال
نُسِرُّ إليه فى الأسواق سِرًّا فلا يُفشيه إلا فى الرِّحالِ

خلله غير ثقيل ، أى هو خفيف الروح ، وقد تقدّم معنى استثقال ظلّه فى

الثانية والعشرين ، ويريد بظلّه شخصه ، كما يسمّى الشخص سواداً ، لأنه يسوّد الأرض بظلّه .

قال زياد بن عبد الله: قيل للشافعي رضى الله عنه:هل تمرض الرُّوح ؟ قال : نعم من ظلّ الثقلاء ، قال: فمررت به يوما وهو بين ثقيلين، فقلت كيف الروح؟ قال : فى النّزْع .

وقال الهيثم بن عدىّ : النظر إلى الثقيل حُمّى الروح . فقيل: موضع جلوس فى القائلة . الجنوح : الميل ، والماعون اسم المطر . وأنشد أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه :

يمجّ صبيره الماعون مجّا إذا نسم من الهيف اعتراه

والماعون الزكاة ، قال الرّاعى :

قومٌ على الإسلام لمّا يمنعوا ماعُونَهم ويضيّعوا التّهليلا

مسالك : طرق ابن عباس رضى الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمان لأمتى من الغرق إذا ركبوا فى السفن أن يقولوا : بسم الله الملك، ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ، الآية ﴿ بسم الله مجْرَاها وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لغفور رحيم ﴾ .

وقوله : إن الله تعالى ما أخذ على الجهّال أن يتعلّموا حتى أخذ على العلماء أن يعلّموا ، قيل : معنى أخذ : أوْجَب ، وأراد قوله تعالى : ﴿ وإذ أخَذَ اللهُ ميثاقَ الّذينَ أوتوا الكتاب لَيُبَيّنُنّه للناس ولا يَكْتُمُونَهُ ﴾

أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما آتى الله تعالى عالماً علما إلا أخذ عليه الميثاق ألاّ يكتمه » . قال الحسن بن عمر : أتيت الزُّهرىّ بعد أن ترك الحديث ، فألفيتُه على بابه ، فقلت : إمّا أن تحدّثنى وإما

أن أحدثك ، قال : حَدِّثني ، فقلت : حدثني الحكم بن عيينة ، عن يحيى بن الجزار ، قال : سمعتُ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقول : ما أخذ الله على الجهال أن يتعلّموا حتى أخذ على العلماء أن يعلّموا ، قال : فحدّثني بأربعين حديثاً.

قوله: عُوذة ، أي مايتعوّذ به الإنسان من الحِرْز وشبهه. براهينها : حُجَجها. خيمي : طبعي . الحرمان : منع الفوائد . المُباهي : الفاخِر الكثير الإعجاب . السَّفْر : المسافرون. الجُنّة ، الستر. جاش: تحرّك وهاج . اليمّ : البحر. استعصم : امتنع . الطوفان : الماء العامّ . صدَعَتْ : نطقت . آي : جمع آية ، وتقدمت . الأساطير ، هي الأباطيل . زخارف : أشياء مُزَيَّنة المغرمين : المعذبين ، والمُغْرَم المولع بالحب وغيره . الرّاشدين : الهادين للطريق .

* * *

قال الحارث بنُ همّام : فأعجَبَنا بيانُهُ البادي الطُّلاوة ، وعجّتْ له أصواتُنا بالتِّلاوةِ ، وأنِسَ قَلْبِي مِنْ جَرْسِهِ ، مَعْرِفَةَ عَيْنِ شَمْسِه ، فقُلْتُ لَهُ : بالَّذي سَخَّرَ البَحْرَ اللُّجّيّ ؛ ألَسْتَ السَّروجيّ ! فقال لي : بلى ، وَهَلْ يَخْفَى ابْنُ جَلاَ ! فأحمَدْتُ حينئذٍ السَّفَر ، وسَفَرْتُ عَنْ نَفْسِي إذْ سَفَر ، ولَمْ نَزَلْ نسيرُ والبَحْرُ رَهْوٌ ، والجــوُّ صَحْو ، والعيش صَفْو ، والزَّمانُ لَهْو، وأنَا أجِدُ للقيا نِه ، وَجْدَ المُثْرِي بعقيانِهِ ، وأفرحُ بمناجاتِهِ ، فرَحَ الغَرِيقِ بِمَنْجاتِهِ ، إلى أنْ عَصَفَتِ الجَنُوبِ، وعَسُفَت الخُطُوب ، ونَسِيَ السَّفْرُ ما كانَ . وجاءَهُمُ المَوْجُ مِنْ كُلِّ مكان؛فمِلْنا لِهَـذا الحَدَثِ السّائر،إلى إحْدَى الجزائِر،لنُريح ونَسْتَريح، رَيْثَما تُوآتِي الرِّيح .

فتمادَى اعتياصُ المَسير ؛ حتى نفِدَ الزّادُ غيرِ اليَسير ؛ فقال لى أبوزَيد : إنّهُ لن يُحْرَز جَنَى العُودِ بالقعود ، فهل لكَ فى استثارةِ السُّعُودِ بالصعودِ ؟ فقلتُ لهُ : إنِّى لأتبَعُ لكَ مِنْ ظِلّك ، وأطوَعُ مِنْ نَعلِكَ .

* * *

الطُّلاوة : الحسن والقبول . عُجْت : ارتفعت . آنس : أحسّ وأدرك . جرسه : صوته الخفىّ . عين شمسه : حقيقة نفسه ومعرفته . اللجّى : المظهم اللجّة وهى معظم الماء .

[ذكر الطوفان]

ونذكر هنا بعض ماحدث من طُوفان نوح عليه السلام :

ذكر أهلُ الأخبار أن نوحاً عليه السلام أوّلُ نبىّ بُعِثَ ، وأنّ قومه كانوا أهلَ أوثان ، يعبدونها من دون الله ، فبُعِثَ لهم نوح فدعاهم إلى الله ، فكانوا يبطشون به ، ويستخفون به ، وهو يقول : اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون . فلمّا كثر استخفافُهم به ، قال :﴿ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ ، فأوحى الله إليه أن اصنع الفلك فإنهم مغرقون . فأقبل على قَطْع الخشب وضَرْب الحديد وتهيئة العود بالقار وغيره ، فصنعه من خشب الساج ، وجعل طوله ثمانين ذراعا وعرضه خمسين ذراعا ، وطوله فى السماء ثلاثين ذراعا . وكان قومه فى خلال صنعة السفينة يأتونه أفواجاً ، يستخفّون عقله ، ويعدّون فِعْلَه من جنونه ، ويقولون له : عملت سفينة فى البرّ ، فيقول لهم : سوف تعلمون . فلما اطمأنوا فى الفلك فار التّنور من الهند ، وقال الشعبى رحمه الله

من الكوفة . وفتحت أبواب السماء بماء منهمر ، وتفجّرت الأرض عيوناً ، فكان بين إرسال الماء وارتفاعه أربعون يوماً ، فلما بلغ الماء إليهم أووْا إلى الجبال ، فكانت الجبال تستقبلهم بالحجارة ، وتغرِقُهمْ في الماء ، فماتوا غرق ، وارتفع الفُلك ، وجعل يجرى في موجٍ كالجبال ، ودار الأرضَ كلها في ستة أشهر وعشر ليال . ويقال : إنهم ركبوها لعشر ليال مَضيْنَ من رجب ، ونزلوا يوم عاشوراء من المحرّم ، فلذلك صام الناس يوم عاشوراء ، وأتت السفينة الحَرَم فدارت به أسبوعاً ، ولم يبق شيء من الخلائق ولا من الشجر إلاّ هلك ، إلا نوح ومَنْ معه ، وإلاّ عوج بن عنق ـ فيما يزعم أهل الكتاب ـ وانتهت آخرا إلى الجوديّ ، وهو جبل بالحصْنين من أرض الموْصل فنزلت عليه .

* * *

قوله : ابن جلا ، أى المشهور المعروف ، يقال للرجل إذا كان عالى الشرف واضح الأمر لايخفى مكانه : هو ابن جَلا ، أى هو الذى الأمور بنفسه ، وأوضحها ، قال سحُيَم بن وثيل :

أنا ابنُ جلاَ وطَلاَّعُ الثنايا   متى أضعِ العمامة تعرِفُونِى

وكان صاحبَ غارات ، يطلع فيها من ثَنِيَّة الجبل على قومه ؛ قال ثعلب : العمامة تُلْبس في الحرب وتُوضع في السِّلْم ؛ قال ابن الأعرابىّ : يقال للسّيِّد : ابن جلاء ، قال سيبويه رحمه الله : جَلاَ فعل ماض ، كأنه يعنى الذى جلا ، أى أوضح وكشف .

قوله : أحمدْت ، أى وجدته محمودا . سَفَرْت : كشفت وأزلْت الهم . سَفَر : عرّفنا بنفسه ، ويقال : سفرتُ عن نفسى كما سَفَر ، أى عرّفته شخصى كما عرفنى هو شخصه ونفسَه . رهو : ساكن ، ويقال : فعل ذلك رَهْوًا ، أى ساكناً من غير تشدّد ، قال تعالى : ﴿واتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً﴾ . والرّهْو عند العرب الساكن ، يقال : جاءت الريح رَهْوًا ، أى ساكنة ، ويجوز أن يكون رَهوا من

نعت موسى عليه السلام، أى اتركه على هيئتك ، أو يكون من نعت البحر ، أى دَعْه ياموسى ساكناً واقفاً ماؤه واعبره . الجوّ : ناحية . السماء صحو : نقىّ من السحاب . الثرى: الندى . والعِقْيان : الذهب ينبت نباتاً . عصفت الريح : اشتدّت. الجُنوب : الريح القبلية . عسفت : جاءت من كلّ جانب ، والعسفُ ركوب الأمر على جهالة . والخبوب ، بخاء معجمة ، جمع خِبّ، وهى الرواية الصحيحة عن ابن جَمْهور وغيره ، وهو هَيْج البحر واضطراب الماء، وهو الذى صحّحه الفنجديهىّ .

كأن أبا عمرو القَسْطَلىّ شاهدَ هذه الحالة من هول البحر فوصفه بقوله[1] :

إليك شحنّا الفُلْكَ تهوى كأنّها	وقد ذُعِرتْ من مغرب الشّمس غربانُ
على لُجَجٍ خضرٍ إذا هبّت الصَّبا	ترامَى بنا فيها ثَبيرٌ وثَهْلانُ
مواثلَ يرعى فى ذراها مواثلٌ[2]	كما عُبِدَتْ فى الجاهلية أوثانُ
تقاتلَ مَوْجُ البحرِ واليمّ والدُّجى[3]	تموجُ بنا فيها عيونٌ وآذانُ
ألا هلْ إلى الدنيا معادٌ وهل لنا	سوى البحر قبرٌ أو سوى الماء أكفانُ

وقال آخر :

وسماء فى الثّرى مخضلّةٍ	لازَوَرْدِيّةٍ ما فيها صفـــاً
غطّتِ[4] الأرضَ فلم تتركْ لنا	من فضاء الأرض إلاّ طرَفا
فكأنّ الأرض فيها عائمٌ	غاب إلاّ هامةً أو كتِفا

(١) هو ابن دراج القسطلى ، واسمه : أحمد بن محمد بن العاص بن أحمد بن سليمان بن عيسى ابن دراج ، وفى كنيته خلاف ، ذكره الدكتور محمود على مكى فى حواشى ديوانه ص ٢١ ، والأبيات فى ديوانه ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) الديوان :

* مَوَاثِل تَرعى فى ذُرَاهَا مَواثلاً *

(٣) الديوان : « يقان وموج البحر والهم والدجى » .

(٤) ط : « غصت » .

وكأنّ الموج فيها عسكرٌ لَبِسوا لأما وقالوا جُحُفا
خافقٌ راجفـةٌ أحشاؤه كحشا المهجورِ يهفو أسفا

قوله : نسى السَّفْر ما كان، أى نسوا ما كان من طِيب العيش بصفو الصحو. قولُه : الحدَث الثائر ، أى الأمر الطارئ . لنريح ، أى لنُريح أنفسَنا من تعب الهول والخوف ، وأراحَ الرجلُ :استراحَ وأراح غيرَه ، وأراحَ الريحَ وأروحَها واسْتَرْوَحها:وجدَها . رَيْث : قَدْر ، والرّيث اللُّبث والبُطء . تُواتِي : توافق . اعتياص : التواء وتصعّب . نفِدَ : فَنِيَ . اسْتِثَارة : استخراج ، يقول : هل لك فى إدراك الحظّ بالخروج من السفينة إلى البريّة .

* * *

فَنَهَدْنا إلى الجزيرة ، على ضُعفٍ من المريرَة ؛ لنركُضَ فى امتراء الميرَة ؛ وكِلانَا لا يَمْلِكُ فَتِيلا ، ولا يَهْتَدِى فِيهاَ سبيلا ؛ فأقبلنـا نَجُوس خِلاَلهَـا ، ونتفيّأ ظِلاَلهاَ ، حتّى أفضَيْنا إلى قصرٍ مَشيدٍ ، له بابٌ مِنْ حَدِيد ، ودُونَه زُمْرَةٌ من عَبِيد . فناسَمْناهُمْ لنتَّخِذَهُمْ سُلَماً إلى الارْتقاء ، وأرشِيَةً لِلاستِقاء ؛ فألفيناَ كُلاًّ منهمْ كَئِيباً حسيراً ؛ حتّى خِلْناه كسيراً أو أسيراً . فقلنا : أيّتُها الغِلْمة ، ما هذه الغُمّة ؟ فلم يُجِيبوا النِّداء ، ولا فاهُوا بِبَيْضاَء ولا سَوْداء ، فلمّـا رأيناَ نارَهمْ نارَ الحُباَحِب ، وخُبْرَهُم كَسَرَاب السّباسِب ، قُلْنا : شاهَت الوُجُوه ، وقَبُح اللُّكعُ وَمَنْ يَرْجوه فابْتدرَ خادِمٌ قد علَتْهَ كَبْرَةٌ ، وعرَتْه عَبْرة ، وقال : يا قوم ، لا تُوسِعُونا سبًّا ، ولا تُوجِعُونا عَتْبا ؛ فإنا لَفِى حُزْنٍ شامِلٍ ، وشُغْلٍ عن الحديثِ شاغِل ، فقال له أبو زيد : نَفِّسْ خِناقَ

الْبَثّ ، وانفِثْ إن قَــدَرْتَ عَلَى النَّفْث ، فإنك ستجد مِنِّى هَرّافاً كافياً ، وَوَصّافاً شافياً .

* * *

تَهَدَّنا : تقدَّمنا . المِرة : قوة النفس . تركُض ، بفتح أولها ، وأصل الرّكض ، تحريك القوائم ، ومنه ﴿ واركُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ ، ولهذا قيل للجنين إذا اضطرب فى بطن أمه : قد ارتكض ، ومن مُشْكِل أبيات المعانى :

قد سبق الحلْبَةَ وهو راكِضُ   فكيف لا يسبق وهو رابضُ

المراد : أنّ أمه سبقت الجياد وهى حامل به ، فأضاف السَّبْقَ إليه لاتصاله بها ، وأراد براكض تحريكه قوائمه فى مقرّه ، والرّكض يستعمل فى الحول وغيرها فيقال : ركضَ البعيرُ برجله ، والطائر بجناحه .

قوله : امتراء ، أى استخراج . المِيرة : جَلْب الرزق ، ومار الرجل على أهله مَيْراً : جلب لهم القوت .

نجُوس خلالها ؛ نطوف فى طرقها ، قال الليث وابن سيده : الجوس والجَوَسان : التردّد فى خلال الدّور والبيُوت ، وقال الأصمعىّ والأزهرىّ وأبو عبيدة : جاسوا الموضع : وطئوه ، وفلان يجوس بنى فلان ، أى يطؤهم يطلب فيهم . وقال الطّبرى والنّقّاش والزّجاج والثعالبى : ﴿ فجاسُوا[٢] خِلاَلَ الديار ﴾ ، أى طافوا بين بيوتهم ، يقتلونهم ويطلبونهم ، ذاهبين وجائين . والخلل : الفرجة بين الشيئين ، والجمع خِلال . تَتَفَيّأ : نستظلّ ، وتفيّأ به : استظلّ به ، وتفيّأ : تقلّب

أفضينا : وصلنا . مَشِيد: مرتفع البناء، والشِّيد : الجص . زمرة : جماعة. ناسمناهم: قربنا منهم ، وناسمه: سارّه وَشامَهُ ، وناسمت الرجلَ: قرّبت نسمتَك من نَسَمته ، وتحدّثت معه سرًّا . أرشية : حبالا . الارتقاء : الصعود . المَسْك : الجلد ، يريد أنه شديد التوجّع ، وهذا كما تقول : لقيت فلانًا في ثوب نمِر ، أو في جلد أسد، أي لقيته بادىَ الشرّ ، قال الشاعر :

فطوراً ترانا في مُسُوكِ جِيَادنا   وطوراً ترانا في مُسُوك الثّعالِب

قال البكريّ : الخيل توصف بالإقدام والثعالب بالرّوغان ، فيريد أنهم مُقْدِمُون على أعدائهم يوما ، ورائغون عنهم يوما . وقال الأستاذ : أي أُسِرُوا فكُتِّفوا بجلود خيلهم المعقورة وفي جلود الثعالب ، كناية عن خُبْث الأسير . فاهوا : نطقوا . سوداء : كلمة رديئة . نار الحباحب : ما تطاير من الشّرَر في الهواء بتصادم حجرين أو بضرب حافر في حَجَرٍ ، وتلك نارٌ لامنفعة فيها ، وقيل : الُحباحب رجل بخيل كان يُوقِد ناراضعيفة لئلا يُقصَد ، فإن أحسّ بإنسان أطفأها لئلا يَقْتبِس أحدٌ من ناره ، وقيل : نار الحباحب نار سراجه ، ولبخله كان إذا جاء أحد يوقد منه أطفأها ، وقال عبد الصمد بن المعذّل في أخيه :

ليت لي منك يا أخي   جارةٌ من محاربِ
نارُها كلَّ شَتْوةٍ   مثلُ نارِ الُحباحِبِ

يريد جارةَ القطاميّ التي يقول فيها :

إلى حيزبونٍ تُوقِد النّارَ بعد ما   تَلفّعَتِ الظّلْماء من كلّ جانبِ

فلمّا تنازعْنا الحديثَ سألْتُها … عن الحيّ قالت: معشرٌ من محاربِ
ألا إنما نيران قومي إذا شَتَوْا … لطارقِ ليلٍ مثل نار الحُباحِبِ

وقيل : الحُباحبُ ذباب يطير بالليل ، له شعاع كالسراج . قوله : خُبرهم ، الخُبر بضم الخاء ، مصدر خبرت أخبُر إذا امتحنت ، والسباسب والبَسابس : الأرض المستوية ، واحدها سَبْسَب وبَسْبَس . شاهَتِ الوجوه: قَبُحت الوجوه . وفى الحديث : « أخذ عليه الصلاة والسلام قبضةً من تُرابٍ يَوْمٍ بدر فحثاها فى وجوه المشركين ، وقال: شاهت الوجوه » ، ويقال شاهَ وجهُ الرجل يشوهُ شوْهاً وشَوْهة، قبح، ووجهٌ مشوّه ، أى مقبّح، ورجل أشوه وامرأة شوهاء . واللُّكَع اللئيم ، وقد لكع لكاعة فهو ألكع، ولُكَع ولكيع ، إذا لؤم وحَمُق وامرأة لَكاع ولَكيعة . قوله : علته كَبْرة ، أى أسنّ وكَبِر . وعرته عَبْرة ، أى غشيته دَمْعة . والخادم : الخصىّ ، موصوف بطول العمر وسُرعة الْعَبْرة ، قال الهيثم بن عدىّ : فى الخصىّ عشر خصال لاتجتمع فى غيره : التّهمة ، والنميمة ، والشّرَه ، وسُرعة الدمعة ، وطول العُمْر ، وكِبرَ القَدَم ، والتبرّى من الصلع ، والإجارة فى الصغر ، والقيادة فى الكِبَر ، والاسترخاء فى المقعدة وسعة الحجر . لاتوسعون سَبًّا ، أى لاتكثروا شتمنا عتبا لوما وموجدة ، وعتبت عليه أعتب عتباً وعتابا ، وأعتبه : أرضاه ، والعُتبَى الرضا ، واستعتبته طلبت إليه أن يعتب ، وقال النابغة :

* وإن تك ذَا عُتْبى فمثلك يُعتِب *[1]

وقال حبيب :

سَرَتْ تحمل العُتْبى إلى العَتْب والرّضا … إلى السّخط والعذر الجميل إلى الحِقْدِ[2]

---

(١) ديوانه ١٤ ، وصدره :

* فإن أكُ مَظْلُوماً فعبدٌ ظلمته *

(٢) ديوانه ٢١٥

الخناق : الحبل يُخنق به كالمقال للجمل يُعْقَل به . نفّس : روّح وحل عن المخنوق . والبثّ : الحزن . انفُث : تـكلّم ، وأصله ابصُق ، عرّافا : كثير المعرفة ، والعرّاف : العالم بالشيء ، وأصله الـكاهن .

• • •

فقال لَهُ : اعْلَمْ أَنّ ربّ هذا الْقَصْرِ هو قُطْبُ هَذهِ الْبُقْعة ، وشاهُ هذه الرّقْعة ؛ إلاّ أنّهُ لَمْ يخلُ مِن كَمَدٍ ، لُخلوّه مِن ولَدٍ ؛ ولم يزلْ يستكْرِمُ الْمَغارِس ، ويتخيَّر من المفارِشِ النّفائِس ؛ إلى أَنْ بُشِّرَ بِحَمْلِ عقيلَة ، وآذَنَتْ وَقْلتُهُ بفسِيلة ، فنُذِرَت لهُ النّذور ، وأُحصِيَتِ الأيّام والشّهُور . ولمّا حَانَ النّتَاج ، وصِيغَ الطّوْق والتّاج . عَسُرَ مَخاضُ الْوَضْع ، حَتَّى خيفَ عَلَى الأَصْل والفَرْعِ ؛ فَمَا فينا مَنْ يَعْرِفُ قراراً ، وَلاَ يَطْعَمُ النَّوْم إلاّ غِرَاراً . ثمّ أَجْهَش بالبُكاء وَأَعْوَلَ ، وردَّدَ الاسْتِرْجاعَ وطوّل . فقال لَهُ أبو زيد : اسْكُنْ يا هذا واسْتَبْشِر ، وَأَبْشِر بالْفَرج وبَشِّر ؛ فعندى عزيمةَ الطَّلْق ، الّتي انْتَشَرَ سَمْعُهَا فى الْخَلْق . فتبادَرَتِ الْغِلْمةَ إلى مَوْلاَهُمْ ، متباشرِينَ بانكِشافِ بَلْوَاهُمْ ، فلم يكُنْ إلاّ كَلاَ ولاَ ، حَتى بَرَزَ مَنْ هَلْمَمَ بنا إليه . فلَمَّا دَخَلْنا عليْه ، وَمَثَلْنا بَيْنَ يَدَيْهِ ، قال أبو زيد : لِيَهْنِكَ منالُكَ ، إن صَدَق مَقالُكَ ، ولم يَفِلْ فالُك .

• • •

قُطْب هذه البقعة ، أى رئيس هذه الأرض ، وقطب القوم : سيّدهم الذى يلجئون إليه .

وشاه هذه الرقعة : مَلِك هذه الجزيرة ، وأراد بالرقعة سُفْرة الشطرنج ، وشاهها : ملِك جيشها الذى يتصرّف فى بيوتها كيف شاء ، وقد أحسن مَنْ قال فيها :

أرضٌ مربّعة حَمْراء من أدَمٍ ما بين خِلّين موصوفَيْنِ بالكَرَمِ
تذاكَرَا الحرب فاحتالاَ لها شَبَهًا من غير أن يَسْعَيا فيها لسفكِ دمِ
هـذا يُغير على هـذَا وذاك على هذا يُغير وعيْن الحرْب لم تَنَمِ
فانظر إلى فِطَنٍ جاشتْ بمعرفةٍ فى عسكرين بلا طَبْلٍ ولا علَمِ

قوله : كَمَد ، أى حزن . المفارس والمفارش : النساء، كأنّ النُّطَف تغرَس فيهن ّفيكثر الولد منها . النفائس: الكرائم . عَقِيلة : خَيّرة ، والعقيلة درّة البَحْر ، وبه سُمّيَت المرأة لكرمها وشرفِها ، وكل كريمة من النساء والإبل والخيل فهى عَقِيلة . الرّقْلة : النّخْلة الطويلة . الفَسِيلة : نُخَيلة تكبَر فى أصل النخل ، أراد أنّ المرأة حملت بولد . نذرت النذور ، أى وَعدَتْ بفعل خير إن سلم الحمل . أحصيت : عددت ، وعلم ما بقِىَ منها . حان النّتاج : قرب وقت الولادة صِيغَ : صُنِع . الطّوْق : الثوب يلبسه المولود بغير جيب ، ولمّا سبَق إلى جذيمة ابن أخته عمرو ، وكان له طَوْقٌ يلبسه فى الصِّغَر، فقال له : البسه فلم يَسَعْه ، فقال : شبّ عمرو عن الطوق ، فذهبت مثلا ، قال ابن القَبْطُرْنة[1] فى الحكم بن حزم ، وكلّفه ذلك ابن سراج :

---

(١) ط : « القبطارية » تصحيف ، صوابه من نفح الطيب ، قال « وكان بنو القبطرنة بالأندلس أشهر من نار على علم ، وقد تصرفوا فى البراعة والقلم ، ولهم الوزارة المذكورة والفضائل المشكورة » .

رأى صاحبى عَمْراً فـكلّف وصْفَه ... وحمّلنى من ذاك ماليس فى الطّوْق[١]

فقلت له : عمرو كعمرو فقال لى ... صَدَقْتَ ولـكن شبّ هذا عن الطّوْقِ

عَسُر : صعب . مخاض : تحرّك الولد عند الولادة ، وقيل : وجع الولادة . القَرار : السكون . الغِرَار : النوم القليل ؛ وهو من غرّ الطائرُ فرخَه يَغُرّه ، إذا أطعمه شيئاً بعد شىء ، وأخذه من قول الشاعر :

لا أذوقُ النّومَ إلاّ غِرَاراً ... مثل حَسْوِ الطّير ماء الثِّمادِ[٢]

ولا يَطْعَمُ النّوم ، أى لا يذوقه ، ويقال: طعمه وتطعّمه : ذاقه ، وفى المثل : تطَعّم تُطْعم ، أى ذُقْ تَشْتَهِ . أجهش: أى تهيّأ للبكاء ، والإجهاش: تغيّر الوجه عند إرادة البكاء . أعوَل : رفع صوتَه بالبكاء . الاسترجاع ، قد تقدّم . الطّلْق: وجع الولادة ، سُمّىَ طَلْقاً على التفاؤل للمرأة بالانطلاق بالولَد . سمعُها : ذكرها الجميل . تبادرت : تَسَابَقتْ .

وجمع غلام غِلْمة وغلمان . البَلْوى : البلاء . كَلاَ وَلاَ ، أى كاللفظ بها ، وهى كناية عن قلة اللّبث وسرعة الأمر ، ويُضرب بلا المثل ، فيقال : أخف من لا على اللسان ، وأقل من لا فى اللفظ ، وقال جرير :

يكون نزول القومِ فيها كَلاَ ولاَ ... غِشاشاً ولا يُدْنُونَ رِجْلا إلى رجلِ[٣]

غِشاشا، أى قليلا . ويقال: لقيه على غِشاش ، أى على عجلة ، وقال الـكُمَيْت :

---

(١) نفح الطيب ١ : ٦٣٦ ، قلائد العقيان ١٧٦ ، قال فى النفح : « وركب أبو الحسن بن القبطرنة إلى سوق الدواب بقرطبة ومعه أبو الحسن بن سراج فنظر إلى أبى الحكم بن حزم غلاماً كما عق تمائمه ؛ وهو يروق كأنه زهر فارق كمائمه ، فسأل أبا الحسين بن سراج أن يقول فأرتج عليه ؛ فثنى عنان القول إليه ، فقال » وذكر البيتين .

(٢) الكامل ١ : ١٥١ — بشرح المرصفى ، من أربعة أبيات نسبها إلى بعض الأعراب ، وفى ط « الثمار » تحريف .

(٣) ديوانه ٤٦١ ، وفيه « رحلا إلى رحل » بالحاء .

كلاَ وكذا تغميضُهمْ ثم هجعتُمُ لدَى حِينَ أن كانوا إلى النَّوم أفقرا(١)

يقول : كان نومُهم فى القلة والسرعة ، كقول القائل : لا وذا .

وقال الحسن(٢) رحمه الله :

يا عاقد القَلْب مِنِّى هلاَّ تذكَّرْت خِلاَّ
تركتَ مِنِّى قليلاَ مِنَ القليـلِ أقَـلاَّ
يكادُ لا يتجزَّى أقلَّ فى اللفظ مِن لاَ

وفى أبيات البديع :

وأرْوَع أهداه لِيَ اللَّيلُ والفَلاَ وخمس تمسّ الأرض لـكنْ كَلاَ وَلاَ

جعل قوائم فرسه وهى الخمس تمسّ الأرض فى المشى كلا ولا على اللسان .
قوله : برَز ، أى خرج . هلم : دعا ، وقال لنا هلمّ مَثَلْنا : وَقَفْنا ، ومثَل بين يديه : انتصب قائمًا . منالك : عطاؤك . ولم يفل فالك : لم يخطىء رأيك ، وفال رأيه فيولةً : ضَعُفَ وأخطأ .

* * *

فاستَحضَر قلماً مَبْرِيًّا ، وزَبَداً بحْرِيًّا ، وَزَعفَرانًا قدْ دِيفَ ، فى ماء وردٍ نظيف ؛ فَمَا إنْ رجَع النَّفَس ، حتى أحْضِرَ ما الْتَمَس ، فسجَد أبوزيدٍ وعفّر ، وسبَّحَ وَاستَغفر ، وأبعَد الحاضِرِينَ ونفّر . ثمّ أخذ القَلَمَ واسْحَنفَر ، وكتب على الزَّبَدِ بالمُزعفَرِ :

(١) اللسان (لا) ، وفيه « تغميضة » .
(٢) هو الحسن بن هانئ ، أبو نواس

أيُّها الجنين إنِّى نصيـــــحٌ لك، والنُّصْحُ مِنْ شروطِ الدِّينِ
أنتَ مستعصِمٌ بِكِنٍّ كَنِينٍ وقرارٍ من السُّكُونِ مَكِينِ
ما ترى فيهِ ما يروعكَ من إلـــفٍ مداجٍ ولا عَدُوٍّ مُبِينِ
فمتى ما برزتَ منه تحوَّلـــتَ إلى منزلِ الأذَى والهُونِ
وتراءى لك الشقاءُ الذى تلْـــقَى فتبكِى له بدمعٍ هَتُونِ
فاستدِمْ عيشَك الرغيدَ وحاذِرْ أن تبيع المحقوقَ بالمظْنُونِ
واحترِسْ من مُخادعٍ لَكَ يَرْقِيـــكَ لِيُلقِيكَ فى العذاب المُهِينِ
وَلعَمرِى لقَدْ نصحتُ ولـكِنْ كَمْ نصيحٍ مُشبَّهٍ بظنينِ

* * *

والزَّبَد: حجر معروف، وهو شديد البياض دقيق الثقب جدًّا، يوجد عائمًا على وجه الماء يصرف فى الأكحال. وقالت الحكماء: من خصائص الزَّبد البحرىّ أنه إذا عُلِّق على امرأة ماخض سَهُل عليها الولادة، ويكون فى بحر اليمن. ديفَ: خُلِط. التمس: طلب عفَّر: جعل وجهه على الأرض، والعَفَر التراب. اسْحَنْفَرَ: جدّ وشمر للكتابة، ويقال: اسحنفر فى الأمر، إذا تحفز فيه. وقالت جارية من العرب:

يا أمَّتا أبصرَنِى راكبٌ مُسْحنفِرٌ فى مَسْرَبٍ لاحِبِ[1]
مازلتُ أحثُو التربَ فى وجهِهِ عمداً وأحمى حَوْزَةَ الغائبِ

(١) تنسب هذه الأبيات للبحترى، وانظر الديوان وحواشيه ص ٣٠١.

فأجابتها أمها[1]:

الحصن أولَى لو تأيّيته من حَثْيك الترب على الراكب

مسرب : طريق لاحب بيّن. الغائب : زوجها . الحصن: العفّة . تأيّيته : تعمّدته وقصدته . لازعفر : المداد من الزعفران . الجنين : الولد في بطن أمه . النصح : ضدّ الغش ؛ قال الخطّابى : النّصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظّ للمنصوح ، وقيل: أصلُها من نَصَح الرجل ثوبه ، أى خاطه، والنِّصاح : الخيط، شبّهوا فعل النّاصح بالخيط الذى يلائم الخلل والفتوق ، والتوبة النصوح ، كأنها ترقع ماخرقته المعصية . مستعصم : مستمسك ممتنع ، واستعصم[2] فى ذكر يوسف : امتنع وتأبّى . كِنّ : موضع يكنّ فيه . كَنين : ساتر ، والسكنين : المستور . والقرار : المكان المطمئنّ الذى يستقرّ فيه الماء ، وأراد به الرَّحِم . يُروعك : يفزعك . إلف : صاحب . مداج : يُظهر الحُبّ ، ويضمر خلافه ، وداجاه: ساتره بالعداوة . برزت : خرجت. الأذى: الضرر. الهُون : الهَوان . تراءى : تظاهر . هَتُون : كثير السّيلان. وهتنت السّماء : صبّت . الرّغيد : الواسع . المحقوق : الذى لايُشكّ فيه . المظنون : المشكوك فيه ؛ فهو يشير على الصبىّ أن يُقيمَ فى بطن أمه ولا يخرج للدُّنيا . ظَنين : متهم .

* * *

ثمّ إنّه طمسَ المكتُوبَ عَلَى غفْلَة ، وَتفل عَليْه مائة تَفلَة ، وشدّ الزّبدَ فى خِرْقَةِ حَرِيرٍ ، بعْد ما ضَمَّخها بعَبِير ، وأمَر بتَعْليقها على فَخِذِ

---

(١) فى الديوان :

قالت لهـا ضاحكةً أمُّها أنتِ كمثلِ الأمَلِ الخائبِ

(٢) هو قوله تعالى فى سورة يوسف ٣٢ ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾

الماخِضِ ، وألاّ تعلَقَ بِهاَ يَدُ حائض ، فلم يَكُنْ إلاّ كَذَوَاقِ شَارِب ، أو فواق حالِب ، حتّى اندلَق شَخْصُ الولَد ، لخِصِّيصى الزَّبَد ، بقُدْرَةِ الواحدِ الصَّمد .

فامتلأ القصْرُ حُبوراً ، وَاستُطِيرَ عَميـدُهُ وعبيدُه سُرُوراً ، وأحاطتِ الجماعة بأبى زيدٍ تُثنِى عليه، وتُقبّلُ يدَيْهِ ، وَتَتبَرّكُ بمسَاسِ طِمْرَيْه ؛ حتّى خُيِّلَ إلَىّ أنّهُ القَرَنِىُّ أُويس ، أو الأسَدِىُّ دُبَيْس .

* * *

طمَس : غطّى ، وطمست الدار إذا غطّى التراب آثارها ومحاها . والتَّفَل: نفخ يخرجُ معه بُصاق متفرّق ، وأوله البزْق ثم التفل، ثم النَّفث ، ثم النفخ .

ضمّخها : لطّخها . عبير: أخلاط من الطيب. الماخض: الحامل. ولا تعلَقُ بها يد حائض ، تمويه بأن مكتوبه من القرآن والحائض لا تمسّه . الذّواق : مسّ الطعام أو الشراب بلسانك . الفُوَاق : مابين الحلبتين من الوقت ، لأنّ الناقة تُحلَب ثم تترَك ساعة يرضعُها فصيلُها لتدرّ ثم تحلَب . اندلَق : خرج بسرعة ، وكلّ شىء يدرّ خارجا بسرعة فقد اندلق ، واندلق السّيفُ من غِمْدِه إذا سقط من غيرأن يسلّ. خِصِّيصى الزّبد ، أى خاصّيته التى ينفرد بها عن الأحجار، واختصصتُ بالشىء : انفردتُ به ، وجاءنى خصّيصَى القوم ، مقصورا ، أى خاصّتهم ، وخصَصْتُه بالشىء خصوصا وخُصوصيّة وخِصّيصَى .

ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما وُلِدَ فى أهل بيت غلامٌ إلا أصبح فيهم عِزٌّ لم يكن » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ وُلِد له مولود فأذّن فى أذنه اليمنى وأقام فى اليسرى ، دفعت عنه أم الصبيان » .

حُبورا : سرورا . واستُطير : داخله السرور . عبيدُه : سيّده طِمْرَيه : ثوبيه .

وذكر ابن قُتيبة بسندٍ متصل بابن عباس رضى الله عنهما ، أنه قال : مَرَّ عيسى بن مريم عليه السلام على بقرةٍ قد اعترض ولدُها فى بطنها ، فقالت : يا كلمةَ الله ، ادعُ الله أن يخلّصنى ، فقال : يا خالقَ النّفس من النّفسِ ، ويا مُخرج النّفس من النّفْس ، ويا مخلّص النّفْس من النّفْس خلّصها ، فألقت مافى بطنها ، فإذا عسرت على المرأة ولادتُها فيكتب على مكيال ، ثم تعطاه المرأة .

وذكر الفَنْجديهىّ بسندٍ متصل بأبى هريرة رضى الله عنه ، قال : بينا عيسى ويحيى عليهما السلام فى البرية إذْ رَأيا وحشيّةً ماخضا[1] ، فقال عيسى ليحيى : قل تلك الكلمات : حَنّة ولدت مريم ، مَرْيم وَلَدَتْ عيسى ، الأرض تدعوك يا ولد ، اخرج يا ولد ، اخرج .

قال حمّاد بن زيد : فما يكونُ فى الحىّ امرأةٌ ماخض ، فيقال هذا عندها إلاّ ولدتْ ، حتى الشاة التى يتعسّر وضعها ، فيقال هذا عندها ، فلا تبرح حتى تضع .

يونس بن عبيد الله : اللهمّ أنت عُدّتى عند شِدّتى ، وأنت صاحبى عند كُرُبتى ، وأنت ولىّ نعمتى ، مَنْ قالها عند النُّفساء إذا عسر عليها ولدها ، أو على بهيمة ، أذن الله تعالى فى خروجه .

وذكر عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إذا عسر على المرأة ولادتُها ، فليكتبْ لها بسم الله لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سُبْحانَ الله رب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين ﴿ كأنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لم يلبثوا إلاّ عشيّةً أو ضحاها ﴾[2] ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ . لم يَلْبَثُوا إلا ساعةً من نهارٍ بلاغ فهل يُهْلَكُ إلا القوم الفاسقون ﴾[3] .

---

(١) الماخض : الحامل .
(٢) سورة النازعات ٤٦ .
(٣) سورة الأحقاف ٣٥ .

قال سفيان : يكتب هذا فى جام وتُسقاه .

وذكر عن أبى الزّناد قال: كنت مِئْناثا ، فقهل لى استغفرالله إذا جامعت، ففعلت فوضع لى بضعة عشر ذكرا .

قوله خُيّل : أى شبّه .

[ذكر أويس القرنى]

وأويس القَرَنىّ بَشّر به النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو من التابعين .

وفى صحيح مسلم: إنّ أهل الكوفة وَفَدُوا على عمر رضى الله عنه ، وفيهم رجل يِمَنْ كان يسخر بأويس، فقال عمررضىالله عنه :هل هاهنا أحد من قَرَن ؟ فجاء ذلك الرجل ، فقال عمر: إن رسولالله صلىالله عليه وسلم قال : « إن رجلاً يأتيكم من اليمن يقال له أويس ، لايدع باليمن غير أمّ له ، وقد كان فيه بياض ، فدعا الله ، فأذهبه الله عنه إلا موضع الدينار أو الدرهم ، فمن لَقِيَه منكم فليستغفرْ لكم .

وفيه عن أُسَيد بن جابر ، قال : كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا أتاه أمداد أهل اليمن سأل: أفيكم أويس بن عامرٍ ؟ حتىأتى على أويس، فقال : أنت أويس بن عامر ؟ قال : نعم ، قال : من مُرَادٍ ، ثم من قرن ؟ قال : نعم ، قال : فكان بك بَرَصٌ فبرئتَ منه إلاّ موضع الدرهم ؟ قال : نعم ، قال : ألك والدة ؟ قال : نعم ، قال : سمعت رسولالله صلىالله عليه وسلم يقول: « يأتى إليكم أوَيْس بن عامر ، مع أمداد أهل اليمن ، من مُرَاد ثم من قرن ، وكان به برص فبرِئ منه إلا موضع الدرهم ، له والدة هو بها بارّ لوأقسم على الله لأبرّه ، فإن استطعت أن يَسْتَغْفِر لك فافعل » ، فاستغفرلىفاستغفر له ، فقال عمر رضىالله عنه أين تريدُ ؟ فقال : الكوفة ، قال ألا أكتب لك إلى عاملها ؟ قال : أكون فى غبر النّاس أحبُّ إلىّ . قال: فلما كانَ فى العام القابل حَجّ رجل من أشرافهم،

فوافى عمرَ رضى الله عنه ، فسأله عن أُوَيس ، فقال : تركتُه رثّ البيت ، قليل المتاع . قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : يأتى عليكم أويس ابن عامر مع أمداد أهل اليمن من مُراد ثم من قَرَن ، وكان به بَرَص فبرئ منه إلا موضع درهم ، له والدة هو بها بارّ،لو أقسم على الله لأبرّه ، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل. فأتى أويسا فقال : استغفر لى ، فقال : أنت أحدث عهدا بسفر صالح ؟ قال : نعم ،قال له : لقيت عمر ؟ قال : نعم ، فاستغفر له ، ففطن له الناس ، فانطلق على وجهه ، قال أُسَيْد : وكسوته بُرْدة ، فكان كلما رآه إنسان قال : من أين لأُوَيسٍ هذه البُرْدة !

وفى كتاب الإحياء : أنه لما ولىَ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : أيّها الناس ، مَنْ كان من أهل العراق فليقمْ ، فقاموا ، فقال : اجلسوا إلاّ مَنْ كان من قَرَن ؟ فجلسوا إلا رجلا واحداً ، فقال له عمر رضى الله عنه قَرَنىٌّ أنت ؟ قال: نعم ، قال : أتعرف أويسا ؟ قال : نعم ، وما تسأل عن ذلك يا أمير المؤمنين ؟ والله مافينا أحمق ولا أجنّ ولا أحوج منه ! فبكى عمر رضى الله ، ثم قال : ماقلت ، إلاّ أنّى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يدخل فى شفاعته مثل ربيعة ومضر » . ولمّا كان عند أهله كالمجنون بَنَوْا له بيتاً على باب دارهمْ ، فكان تأتى عليهم السَّنة لايرَوْن وجهه ، كان يخرج أوّل الأذان ويأتى بعد العشاء الآخرة ، وكان طعامُه أن يلتقط النّوى ، فكلّما أصاب حَشَفَةً خبأها لإفطاره، فإن أصاب مايقوته باع النّوى،وتصدّق به ،وإلاّ اشترى منه مايقوته. وكان لباسه قطع الأكسية من المزابل ، يلفقُ بعضَها إلى بعض ، ثمّ يلبسها ، وإذا مرّ بالصبيان رجموه ، يظنُّون أنه مجنون ، ولهذا أعظَم النبى صلى الله عليه وسلم حرمته ، فقال : « إنى لأجد نفس الرحمة من قبل اليمن » إشارة إليه .

[ذكر الأمير دبيس]

وأما دُبَيس فهو الأمير سيف الدولة بن مَزْيد الأسدىّ ، وقيل: دبيس بن صدقة بن مزيد ، وذكر أبو الحسن علىّ بن الحسين بن أبى طالب الباخرزىّ الأمير أبا الأعز دبيس بن علىّ فقال: خدمتُه ببغداد ، وعبرتُ إليه أختَ يده الجواد - يعنى دجلة - وهى زاخرة الأمداد ، فإذا باحة للطارقين مباحة ، وراحة فى كَفِّها للعفاة رَاحَة ، وقباب التفّت بها غابُ القنا ، واشترك مع أسودها الناس فى فرائس الغنى .

قال الفنجديهىّ : سمعت بعضَ أهل الفضل يقول ببغداد : لما سمع الأمير دبيس ، أن الرئيس أبا محمد الحريرى ذكرهُ فى مقاماته ، وأورد فيها بعض صفاته ، أنفذ إليه من الخلع السنيّة ، والجوائز المهنيّة ومزية العطية ، ماعجز عنه الوصف ، وكلّ عنه الطرف ، واقتضاه علوّ همته ، وسموّ قدرته . ثم عصى دبيس على الإمام المسترشد بالله أمير المؤمنين أبى منصور الفَضْل بن المستظهر بالله ، وسعى فى إراقة دمه ، وجَمَع العساكر وحشد ، وقصد بغداد فى عسكر عظيم ، وعاث فى أطرافها ، وأفسد فى أكنافها ، فخرج المسترشد بالله أمير المؤمنين من دار الخلافة ، واجتمعت إليه الأجناد ، وظهر إليه وحمل عليه ، فهُزم دبيس وعسكره ، وانتهى إلى الحِلّة المزيدية ، فانتهبَها ، وذلك فى المحرّم فى سنة سبع عشرة وخمسمائة . وانهزم دبيس فى خواصّ من أصحابه وغلمانه خوفاً من الخليفة ، ومرّ نحو الشام ثم قتل الأمير دبيس بن صدقة بن مزيد فى سنة ثلاثين أو فى سنة تسع وعشرين ، قتله السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه لأمور أنكرها وأسباب امتعض لها ، نُسبت إليه[1] .

ثمّ انثالَ عليه من جوائز المجازاة ، ووصائِلِ الصِّلاتِ ، ما قَيِّض له

الغِنَى، ويُقَيِّضَ وجهَ المُنَى، ولم يَزَلْ يَنْتَابُه الدَّخل، مذ نُتِجَ السَّخْل؛ إلى أنْ أُعطِيَ البَحْرُ الأمان، وتَسَنَّى الإتمامُ إلى عُمان؛ فاكتفى أبو زيدٍ بالنِّحلَة، وتأهَّبَ للرِّحلة؛ فلم يَسْمَحِ الوالِي بحركتِه، بعد تجرِبةِ بَرَكَتِه، بل أَوْعَزَ بضمِّه إلى حُزَانَتِه، وأن تُطلَقَ يَدُه في خِزانَتِه.

قال الحارث بن همّام: فلمّا رأيتُه قد مال، إلى حيث يُكتَسَبُ المال، أنحَيْتُ عليه بالتّعنيف، وهجّنتُ له مفارقةَ المألفِ والأليف؛ فقال: إليك عنّي، واسمعْ مِنّي.

* * *

قوله: انثال، أي انصبّ. جوائز: عطايا. وصائل: متّصلات غير منقطعة، والوصائل: ثياب حمر مخطّطة تُصْنَع باليمن يلبسها النساء، قال الشاعر:

* لها حُبُكٌ كأنّها من وصائلِ *

نقيّض: قدّر وساق. ينتابه، أي يقصده ويأتيه مرّةً بعد أخرى.

الدخْل: العطايا التي تدخل إليه من قبل الأمير وغيره، ورجل كثير الدخل: إذا كثر دخول الرزق عليه. والسَّخْل: الولد.

ومما يستحسن في التهنئة بمولود قول الحلوانيّ:

نجمٌ تولّد من شمسٍ ومن قمرٍ ... وأين مَنْ أبواه الشّمس والقمرُ

شمس العفافِ ومجد البدْرِ بينهما ... تولّد النور إلاّ أنه بشرُ

أخذه من قول ابن الرومى :

شمس وبَدْرٌ ولدَا كَوْكَباً أقسمت بالله لقد أنجبا

وجاء الرّمادى يُهَنِّئُ الفقيه ابن العطار بمولود ، فقال :

يَهْنِيكَ مازادتِ الأيام فى عددِكْ من فلذةٍ بَرَزَتْ بالسّعْدمن كَبِدِكْ[1]

كأنما الدهرُ دهرٌ كان مكتئباً من انفرادك حتى زادَ فى عَدَدِكْ

لا خلّفتك الليالى تحت ظِلّ ردًى حتى ترى ولداً قد شبّ من وَلَدِكْ

قوله : تَسَنّى الإتمام ، أى تيسّر إتمام المشى والإقلاع . اكتفى : اقتنع . النِّحلة : العطية . أوْعَزَ وَوَعز ، تقدم ، يعقوب: لا يقال . وَعَز بالتّخفيف . حُزَانته: جماعته ، وعياله الذين يتحزّنون لنكبته ولفقده ، ويحزن هو لِضَيْعَتِهِمْ . أنحيت : ملت عليه وقصدته به . التعنيف : اللوم والأخذ باللسان. المألف : البلدة وموضع الألفة . الأليف : الصّاحب . إليك عنى : تباعد عنى .

* * *

لا تصبُونَّ إلى وَطَنْ فِيهِ تُضَامُ وتُمْتَهَنْ

وارْحَلْ عن الدار الّتِي تُغلِي الوِهادَ على القُنَنْ

واهْرَبْ إلى كِنٍّ يَقِي ولو أنّهُ حِضْنَا حَضَنْ

وار بأ بنفسك أن تقيـمَ بحيث يَغشاك الدّرَنْ

وجُبِ البلادِ فأَيُّها أَرْضاك فاخْتَرْهُ وَطنْ

وَدعِ التــذكُّرَ للمعا

هِدِ والحَنِينَ إلى السَّكَنْ

---

(١) نفح الطيب ٣ : ٤١٤

واعلمْ بأنّ الحـرّ فى أوطانهِ يَلقَى الغَبَنْ
كالدرِّ فى الأصداف يُشْـتَرَى ويُبْخَسُ فى الثَّمَنْ

• • •

تَضْبُونَّ : تميلَنّ ، وصبوت إليه مِلْتُ بالمحبّة . تُضام : تذل . تمتهن : محتقر ، وقال محمد بن بشر فى هذا المعنى :

إنّما أزرَى بقـدرى أننى لستُ من بابَةِ أهلِ البَلَدِ
ليس منهم غير ذى مقليَةٍ لذوى الألباب أو ذى حَسَدِ
يتحامونَ لقائى مثلَ ما يتحامونَ لقـاءَ الأسَـدِ
مطلبى أثقل فى أعينهم وعلى أنفسهم من أُحُـدِ
لو رأونى وسط بحرٍ لم يكنْ أحـدٌ يأخذ منهم بيدى

وقال البحترىّ :

أشرّق أم أغرّب ياسعيدُ وأنقص من زَماعِى أم أزيدُ[1]
عَدَتْنِى عَنْ نصيبينَ العَوَادِى فبختى أبلهٌ فيها بليـدُ
وأخلفنى الزمان على رجالٍ وجوههمُ وأيديهمْ حديدُ
لهم حُلَلٌ حسُنَّ فهنّ بيضٌ وأخلاق سَمُجْنَ فهنّ سود

وممن نبا به بلده القاضى أبو محمد عبد الوهاب ، خرج من بَغداد يريد مصر ، فشيّعه أكابرها ، ومن أصحاب محابرها جلة موفورة ، فقال لهم : والله لو وجدت بين أظهركم رغيفين كلّ يوم ، ماعدلتُ ببلدكم بلوغ أمنية ، والخبز عندهم يومئذ ثلثمائة رطل بدينار ، وقال :

---

(١) ديوانه ٥٨٠

سلامٌ على بغدادَ مِنّى تحيّةٌ وحُقّ لها منى السّلامُ المضاعَفُ[(١)]
لعمرُكَ ما فارقتُها قالياً لها وإنى بشطّىْ جانِبَيْها لعارفُ
ولكنها ضاقت علَىّ برُحْبها ولم تكن الأقدار ممن يُساعِفُ
فكانت كخِلٍّ كنتُ أهوى دنوَّهُ وتأبَى به أخلاقُه ويخالفُ

وقال أيضاً :

بغدادُ دار لأهلِ المال واسعةٌ وللمفاليس دار الضَّنْكِ والضِّيقِ[(٢)]
قد صرتُ أمشى مهاناً فى أزقّتها كأنى مصحفٌ فى كفّ زنديقِ

قوله: الوِهاد والقُنن:الانخفاض والارتفاع ، والقُنّة :أعلى الجبل ، والوَهْدَةُ القعدة من الأرض تجرى إليها مياه جهاتها . حَضناً : جانباً حصيناً مانعاً . أربأ ، أى ارتفع . يغشاك : يُغطّيك . الدَّرَن: الوسخ . المعاهِد: منازل سكناه . الحنين: الشوق . السَّكَن : الأهل . الأصداف : محالّ الجوهر . يستزرى : يستحقر . يبخس : ينقص ، ومعنى هذه الأبيات يقول : أرحل من بلد يعلو فيه قدر أصاغر الناس قدرَ أكابرهم ، ولا تُقِمْ فيه على الهوان ، وارفع قدر نفسك من أن تقيم بموضع توسّخك فيه الإهانة ، فإنّ المرء حيث يضع نفسه ، وطُفْ بالبلاد ، واختر وطناً ما أرضاك ، فإنّ الحرّ يضيع فى وطنه ، ولا يعرف قدره .

الأصمعىّ : سمعتُ بعضَ العرب يقول : الفقر فى الوطن غربة ، والغنى فى الغربة وطن .

ونظر أبو الحسن إلى برذونٍ يُستَقَى عليه ، فقال : المرء حيث يضع نفسه ، لو هَملَج هذا لم يُبتلَ بما ترون .

---

(١) معجم البلدان ٢ : ٢٣٩ (٢) معجم البلدان ٢ : ٢٤١ .

الزبير رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن العباد عباد الله ، والبلاد بلاد الله ، فحيثما وجدتَ خيراً فأقم ، واحمد الله » .

وقال هلال بن العلاء الرَّقِّى :

لا تجزعنَّ وإن نأتْ أرضٌ تُنالُ بها المحبَّهْ
وطنُ الغريب يَسارُه والفقرُ فى الأوطان غربَهْ

وقال آخر :

أشدّ من فاقةِ الزَّمانِ مقام حُرٍّ على الهوانِ
فاسترزق الله واستغنه فإنه خيرُ مستعانِ
فإن نبا منزلٌ بحرٍّ فمن مكانٍ إلى مكانِ

وقال آخر :

شرِّق وغرِّب تجد من غادرٍ بدلاً فالأرض من تربةٍ والنَّاسُ من رجُلِ

وقال آخر :

مَنْ ضاق عنك فأرض الله واسعةٌ من وجه كلِّ مضيق وجه منفرجِ
خيرُ المذاهب فى الحاجات أنجحُها وأضيق الأمر أدناه من الفرجِ

* * *

ثمَّ قالَ : حَسْبُكَ ما استمعتَ ، وحبَّذا أنتَ لوِ اتَّبعْتَ .
فأَوضحتُ له معاذيرى ، وقُلت له : كُنْ عَذيرى . فعَذَرَ واعتَذَر ، وزوَّدَنى حتَّى لم يَذَرْ ، ثمَّ شيَّعنِى تَشْيِيع الأقارِب ، إلى أَنْ ركبتُ فى القارِب . فودَّعْتُه وأنا أشكُرُ الفِراقَ وَأَذُمُّه ، وَأَودُّ لو كان هلكَ الجنين وأمُّه

* * *

حسبك : يكفيك . أوضحت : بيّنت . معاذيرى : أعذارى ، والعَذِيرةُ : العذر ، ويقال : عذيرك من كذا، بمعنى هلمّ معذرتك منه ، وقيل: العذير بمعنى عاذر ، فَعِيل بمعنى فاعل ، أى هلمّ لمن يعذرك منه .

ثعلب : العذير ، مصدر بمعنى النّكير ، ومعنى عذيرى منه ، أى مَنْ يعذِرنى منه !

وعذَر : قَبِل العذر . والله أعلم .

المقامة الأربعون وهي التبريزية

أخبر الحارثُ بنُ همّام ، قالَ : أزمعتُ التّبريزَ مِنْ تَبريزَ ، حِينَ نبَتْ بالذّليلِ والعزيز ، وخلَتْ من المجيرِ والمُجيز ؛ فبينما أنا في إعدادِ الأُهْبة ، وارتيادِ الصُّحبة ، أُلفيتُ بها أبا زيدٍ السّروجيّ مُلتفًّا بكساءٍ ، ومحتفًّا بنِساءٍ ، فسألتُه عَنْ خَطْبه ، وإلى أيْنَ يسْرُبُ مَعَ سِرْبه ؛ فأوْمأ إلى امرأةٍ مِنهُنّ باهرةِ السّفور ؛ ظاهرةِ النُّفور ، وقال: تزوّجتُ هذه لِتؤنِسَني في الغُرْبة ، وتَرْحَضَ عنّي قَشَفَ العُزْبة ، فلَقِيتُ مِنْها عرَقَ القِرْبة ، تمطُلني بحقّي ، وتُكلّفُني فَوْقَ طوْقي ، فأنا مِنْها نِضوُ وَجىً ، وحِلفُ شَجْوٍ وشجىً . وها نحنُ قدْ تساعَيْنا إلى الحاكِم ، لِيَضرِبَ علَى يدِ الظّالم ؛ فإنِ انتظمَ بينَنا الوِفاق ، وإلاّ فالطّلاقُ والانطِلاق .

قال: فملت إلى أن أخبُرَ لِمَن الغَلَب ، وكَيْفَ يكون المُنقلَب ! فجعَلْتُ شُغْلي دَبْرَ أُذُني ، وصَحِبتُهما وإنْ كُنْتُ لا أُغْني .

* * *

أزمعتُ: عزمتُ ، والإزماع العَزْم ، والتّبريز: الخروج إلى البراري ، وهي الأرضُ الفضاء بلا شجر . تَبريز : قرية من كُوَر أذربيجان من عمل خُراسان ، بينها وبين المراغة عشرون فرسخا .

نبَتْ : قلعت وارتفعت المجير : الذي يُجيرك من النّاس ويكفيك شرّهم ، والمجيز : الواهب الجائزة وهي الصِّلة ارتياد : طلب مُحتفّا . محلقا . خطبه :

أمره . يسرب : يذهب. وسربه : جماعة نسائه . أومأ : أشار . باهرة : ظاهرة . والسفور : كشف النقاب عن الوجه . ترحض : تغسل، ورحض الثوب يرحضه غسله . قشف : تغير ، ورجل متقشف : لا يتعهد الغسل والنظافة . والقشف : سوء العيش. ومطله حقه ، كناية عن جماعه لها ، والمطل فى الأصل : المد ، يقال : مطل القين الحديد يمطله مطلاً إذا ، مده وطوله ، فهى يتمطى : تطول على . والطوق : الطاقة . نضوجى : هزيل من الجفاء ، وأراد به شرها وما يلقاه منها . حلف شجو : صاحب حزن . والشجا : الاختناق بالعظم وهو شىء صعب : ليضرب على يده : ليكفه ويمنعه

* * *

فلما حضرا القاضى ؛ وكان ممن يرى فضل الإمساك ، ويضن بنفاثة السواك ، جثا أبو زيد بين يديه ، وقال : أيد الله القاضى وأحسن إليه ، إن مطيتى هذه أبية القياد، كثيرة الشراد ؛ مع أنى أطوع لها من بنانها ، وأحنى عليها من جنانها . فقال لها القاضى : ويحك ! أما علمت أن النشوز يغضب الرب ، ويوجب الضرب ! فقالت : إنه ممن يدور خلف الدار ، ويأخذ الجار بالجار ، فقال له القاضى : تبا لك ! أتبذر فى السباخ ، وتستفرخ حيث لا إفراخ ! اعزب عنى، لا نعم عوفك ، ولا أمن خوفك ، فقال أبو زيد : إنها ومرسل الرياح ، لأكذب من سجاح !

فقالت : بل هو ومن طوق الحمامة ، وجنح النعامة ، لأكذب من أبى ثمامة ،حين مخرق باليمامة !

* * *

لا أغنِى ، أى لا أنفع ، الإمساك : الشح ، يضِنّ : يبخل ، والثُّفاثة : ماتطرحُه من فيك من السّواك بعد الانتفاع به ، وهذا وإن كان فى غاية البخل مُنْتَزَعٌ من قول الشاعر :

لقد بخلتْ حتى لو أنِّى سألتُها قَذَى العين من ضاحى التراب لَضَنَّتِ

وقال آخر فى معناه :

يبخل بالماء ولوْ أنه منغمسٌ فى وَسَطِ النِّيلِ
شحًّا فلا تطمع فى خَيْرِه ولو توسَّلْتَ بجبريلِ

وقال آخر :

ما كنتُ أحسِبُ أن الخبز فاكهةٌ حتى نزلتُ على أوْفَى بنِ منصورِ
الحابس الرَّوْث فى أعقاب بَغْلَتِه خوفًا على الحَبّ من لقط العصافيرِ

وهذا الباب مستوفًى فى الرابعة والأربعين :

ومما يُستظرف من لفظ السوّاك ، قول بعض الظرفاء :

قد هجرتُ السِّوَاكَ من أجل أنّى إن ذكرتُ السِّواكَ قلتُ سِواكَا
وأحِبّ الأراكَ من أجْلِ أنّى إن ذكرتُ الأراكَ قلت أرَاكَا

جَنًا : برك ، أَيْد : قوّى مطيّتى : زَوْجَتى ، أبيّة : صَعْبة ممتنعة على قائدها . الشِّراد : النُّفور ، أحْنى : أعطف وأرْحَم . جَنانها : قلبها .

النُّشوز : عصيان الزوج ومخالفته ، والنُّشوز أصله الارتفاع . ووَبّخ ، معناها التوبيخ والتقبيح ، وتستعمل أيضاً للترحّم ، وقوله : ويوجب الضرب من قوله تعالى : ﴿ واللاتى تَخافُونَ نُشُوزَهُنّ فعِظُوهُنّ واهجروهن فى المضاجع واضْرِبُوهُنّ ﴾[1] فنشوزهنّ : عِصْيانُهنّ . الأزهرىّ : النُّشوز : كراهة كلّ واحد من الزوجين صاحبه ، ونشزَتْ تنشُز فهى ناشز

(١) سورة النساء ٣٤ .

ابن عمر رضى الله عنهما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « لا تُسْكِنُوا النّساء الغُرَف فيشرفن ، ولا تعلّموهنّ الكتابة ، واستعينوا عليهنّ بالضرب » .

ابن عباس رضى الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عَلِّقوا السوط حيث يراه أهل البيت » .

ووصّى بعضَ أهله فقال : « أنفِقْ على أهلك من طَوْلِك ، ولا ترفع عصاك عنهم ، وأخِفْهم فى الله » ؛ فمعنى لا ترفع عصاك ، أى لا تترك تأديبهم فى الله تعالى . قوله : ويأخذ الجار بالجار ، العرب تسمى فَرْج المرأة بالجار ، ودُبرها جار الجار ، وأخذه الحريرى من قول أعرابى جاء لامرأته وقد اغتلم واشتدّت شهوته ، فأنعظ ، فلما قرب منها وهجم عليها قالت له : إنى حائض ، قال لها : فأين الهَنَة الأخرى ؟ ثم حمل عليها وهى تدافعه وتسبّه ، وهو ماض فى شغله ينشدها :

كلاّ وربِّ البيت ذى الأستارِ لأهتِكَنّ حلق الحتّارِ

* قد يؤخذ الجارُ بذنب الجارِ *

قال الخليل : الحتّار : ما استدار من طَوْق الجفن ، وكذلك حتّار الظّفر والدبر ، ومما يبيّن هذا المعنى قول الشاعر[1] :

جارُكَ قَدْ يجنِى عليكَ وقَدْ تُعْدِى الصِّحاحَ مبارِكُ الجُربِ[2]
ولربَّ مأخوذٍ بذنب قَرِينِهِ ونجا المقارِفُ صاحبُ الذّنبِ[3]

---

(١) البيتان فى العقد ٥ : ١٥٠ و ٢٣٢ ، ونسبهما لذؤيب بن عمرو ، يقولهما لأبيه ، وذكر قبلهما :

يا كعبُ إن أخاكَ منحمقٌ إن لم يكن بِكَ مرةً كعبُ

(٢) فى العقد « جانيك من يجنى عليك » .

(٣) المقارف : المرتكب ؛ وموضع هذا البيت فى العقد ٥ : ٢٣٧

والحربُ قد تضطرُّ صاحبَها نحو المضيق ودونَهُ الرَّحبُ

أنهذر : أتزرع ، والبَذْر الحهوب تزرع : السِّباخ : الأرض ذات الملح والرَّشح ، وهى لا تنبت شيئاً لملوحتها وقلة جفافها ، وأراد: أتزرعُ نطفتَك فى موضعٍ لا يقبل الولد ، تستَفرِخ : تلتمس عمل الفرخ . اعزب : غب

طوّق الحمامة : جعل لها طَوْقاً ، والحمام عند العرب ذوات الأطواق نحو الفواخِت والوَراشين والقمارىّ ، ودخلت الهاء على أنه واحد للجنس لا للتأنيث ،

الليث : تقول العرب : حمامة ذكر ، وحمامة أنثى ، والجميع الحمام .

الشافعى : كلّ ما عبَّ وهَدَر فهو حمام ، يدخل فيه القمارى والوراشين ؛ سواء كانت مطوّقة أو غير مطوّقة ، آلفة أو وحشية ، وهذا القول كأنّه الأكثر لأنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يأمر بأخذ الحمام التى تستفرخ فى البيوت ، وليست ذوات أطواق ، وكان يسمِّيها حماما ، وكان فى منزله حمام أحمر ، اسْمُه وَرْدان ، وقد قدّمنا فصلا فى الحمام فى الصدر

تخَرّق الرجل : أوهم أنه على حق وصواب ، وهو على خلافه

[قصة زواج مسيلمة بسجاح]

وأوردُ هنا فى شرح تزويج مسيلمة بسجاح ما يبيّن سخف نبوّتهما ، وإن كان الحريرى قد أشار إلى ذلك فى هذه المقامة .

(١) كان مسيلمة بن حبيب الحنفىّ ، ثم أحد بنى الدُّيل ، قد تسمّى بالرحمن فى الجاهلية ، وكان من المعمَّرين .

ذكر وثيمة بن موسى أن مسيلمة تَسمّى بالرحمن قبل أن يولَد عبد الله أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولمّا بُعِث رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت قريشٌ تقول: إنّما يعلّم محمدا رجلٌ يقال له الرحمن ، فنزلت ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ ﴾(٢) وكانت بنو تميم قد تخاذلت فى أمر الرِّدة بعد موت النبى صلى الله

(١) القصة فى تاريخ الطبرى ٣ : ٢٧٦ وما بعدها (٢) سورة الرعد ٣٠

عليه وسلم واختلفوا فى ذلك اختلافاً شديداً ، فبينما هم على ذلك إذ فاجأتهم سجاح بنت الحارث مقبلةً من الجزيرة ، تقود بنى ربيعة . فأتاهم أمرٌ كان أعظمَ مِمّا هم فيه من الاختلاف ، وكانت سَجَاح تميمية وبنو أبيها فى تغلب ، وادّعت النبوّة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فى الجزيرة ، فاجتمعت عليها بنو تميم ورؤساء تغلب ، فادّعت أنها أنزل عليها : « يأيها المؤمنون المتقون ، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكنّ قريشاً قوم يبغون » . فاجتمعت تميم كلها تنصرها ، فكان فيهم الأحنف وحارثة بن بدر ووجوه بنى تميم ، وكان مؤذّنها شبيبَ ابن ربعىّ الرياحىّ ، فقالت : « أعِدّوا الركاب ، واستعدوا للنهاب ، ثم اغدوا على الرِّباب ، فليس من دونهم حجاب » . فصمدت إليهم ، وقتلت فيهم قتلاً كثيراً ، ثم قالت لأجنادها : اقصدوا اليمامة ، فقيل لها إن شوكة أهل اليمامة قويّة شديدة وقدَ غَلظ أمرُ مسيلمة ، فقالت : « يامعاشر تميم ، اقصدوا اليمامة ، فاضربوا فيها كل هامة ، وأضرموا ناراً ملهامة ، حتى تتركوها سَوْداء كالحمامة » ، وإنّ الله تعالى لم يجعل هذا الأمر فى ربيعة — تعنى نبوّة مسيلمة — وإنما جعلها فى مُضَر ، واقصدوا هذا الجمع ، فإذا قصدتموه عكرتم على قريش .

فسارت فى قومها ، وهم عدد لا يُحصى ، وبلغ مسيلمةَ الخبرُ ، فضاق به ذرعا ، وتحصّن فى حِجْر حصن اليمامة ، وأحاطت به جيوشها ، فأرسل فى وجوه قومه وقال : ماترون ؟ قالوا : نسلّم هذا الأمر لها ، فإن لم نفعل فهو البوار . فقال لهم بدهائه : سننظر . ثم بعث إليها ، وقال : إنّ الله قد أنزل عليك وحياً وعلىّ ، فهلمّى نجتمع فنتدارس ما أنزل الله ، فمن عرف الحق تبِعه ، واجتمعنا ، فأكلنا العرب أكلاً بقومى وقومك . فأنعمت له ، فأمر بضرب قبّة من أدَم ، فضُرِبت وأمر بالعود المندلىّ فبُخّرت به ، وقال : أكثروا من الطيب ، فإن المرأة إذا شمّتْ رائحته ذكرت الباه . وأتته إلى القبة ، وقالت : هات ما أنزَل عليك ربك ،

فقال: « ألم تر كيف فعل ربك بالحُبْلَى، أخرج منها نسمةً تَسْعى، ومن بين صِفاقٍ[١] وحَشَى، من بين ذكر وأنثى، وأمات وأحيا، إلى ربكم يكون المنتهى» . قالت: وما ذاك؟ قال: « ألم تر أن الله خلقنا أفراجاً، وجعل لنا النساء أزواجاً، فنولجُ فيهن قعساً إيلاجاً، ونخرجه منهن إذا شئنا إخراجا» ، قالت: فبأيّ شيء أمر ربك؟ قال:

ألاَ قُومِي إلى المَخْدَعْ	فقد هُيِّي لك المضجعْ
فإن شئتِ ففي البيت	وإن شئتِ ففي المخدَعْ
وإن شئتِ سَلَقْناكِ[٢]	وإن شئتِ على أَرْبَعْ
وإنْ شئتِ بثلثيه	وإن شئتِ به أجمَعْ

قالت: بل به أجمع. قال: كذلك أوحى إليّ. فواقعها فلمّا قام عنها قالت: إنّ مثلي لا يُنْكَح هكذا، فيكون وَصْمةً على قومي، ولكنّي مسلّمة لك النبوّة، فاخطبني إلى أوليائي يزوّجوك، ثم أقود معك تميماً. فخرج وخرجت معه، واجتمع الحيّان: حنيفة وتميم، فقالت سَجَاح: إنّه قرأ عليّ ما أُنْزِل عليه، فوجَدْتُه حقا، فاتبعته، ثم خطبها فزوّجوه منها.

وقال الأغلب العجلي في ذلك:

قد لقيَتْ سَجاحُ من بعد العمَى	ملوّحاً في العين مشدودَ القُوَى
كأنّ عِرْقَ أيْرِهِ إذا بدا	حبل عجوز ضفرت سَبْعاً قُوَى
مازال عنها بالحديث والمُنَى	والخلُقِ السَّفْسافِ يَرْدَى في الرَّدَى[٣]
قال: ألا أدخِلُه؟ قالت: بَلَى	فشام فيها مثلَ محراب العَصا

(١) الصفاق: الجلد الأسفل الذي تحت الجلد الذي عليه الشعر.

(٢) سلقه: ألقاه على قفاه.

(٣) السفساف: الرديء. ويردى مثل يرضى: هلك.

تقول لمّا غاب فيها واستوَى ... لمثل هذا كنت أحسيك الحُسَى

واليمامة بلدُ الزرقاء . وسيأتى ذكرها فى المحسين ، فعلى نحو ماذكرنا من أمر سجاح ، ذكَرَها أكثرُ أهلِ الأخبار.

وقال الفنجديهى: سَجاح بنت الحارث بن سويد بن عِقْيان ، من بنى يربوع ، كنيتها أم صادر ، ادّعت النبوّة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فى الجزيرة فى بنى تغلِب ، فاستجابوا لها ، وتبعها قوم من تميم ، وظهر أمرها حتى هابتْها العرب وصالحتْها ، لتجوز فى بلادهم حيث شاءت . فسمعت بمسيلمة فى اليمامة ، فقالت لقومها «عليكم باليمامة ، دُفّوا إليها دفيف الحامة[1] ، فإنها غزوة صرامة ، لا تلحقكم بعدها ملامة ».

وبلغ مسيلمةَ خبرُها فهابها ، وخاف إن هو شُغِل بها غلبه ثمامة بن أثال وشرحبيل على حُجْر اليمامة إذ هما من قِبَل أبى بكر رضى الله عنه ، فأرسل إليها يستأمنها على نفسه ، فأمّنته فجاءها فى أربعين من بنى حَنيفة ، فقال لها : نصف الأرض لى ، والنصف الذى كان لقريش صار لك ، فقالت : لا يردّ النصف إلا من جَنِف ، فاحمل النّصف . فصالحها على أن يحمل إليها نصف غلّات اليمامة من تلك السنة ، وعلى أن يُسلِفَها من غلات السنة المقبلة . فنهلت منه ، وقدِم لها مثلَ تلك السنة ، ورجعت إلى الجزيرة ، فلم تزل فى بنى تغلِب حتى نَقَلَهُمْ معاوية عام انفراده بالملك إلى الكوفة ، فانتقلت معهم ، وحسن إسلامها .

[قصة تخاصم أبى الأسود مع امرأته]

وأظن أن الحريرىّ صوّر تخاصمَ زوجة أبى زيد معه على تخاصم أبى الأسود الدؤلىّ مع زوجته عند معاوية .

---

(١) ط : « الجماعة » تحريف ، والصواب ما أثبته من تاريخ الطبرى .

حدث أهل الأخبار قالوا : كان أبو الأسود كبيراً عند معاوية ، وكان معاوية يجالسه ويُدْنيه ، ويسأله فيجيبه فيما يعلم ، فبينما هو ذات يوم عند معاوية وقد قدم المدينة إذ دخلت عليه امرأة بَرْزَة[1] فقالت : أصلح الله أمير المؤمنين وأمتع به ! إنّ الله جعلك خليفة فى البلاد ، ورقيباً على العباد ، يُسْتَسْقَى بك المطر ، ويُسْتَنْبت بك الشجر ، ويُؤمّن بك الخائف ، ويُرْدَع بك الجانف[2]. أنت الخليفة المصطفى ، والأمير المرتضى ؛ فنسأل الله لك النعمة فى غير تغيير ، والبركة من غير تقدير ؛ فقد ألجأنى إليك يا أمير المؤمنين أمرٌ ضاق بى عنه المخرج ، من أمر كرهتُ عاره ، لمّا أردتُ إظهاره ، فليكشف عنى أمير المؤمنين ، ولينصفنِي من الخصم ، ولكن ذلك على يديه ، فإنى أعوذ بك وبحَقْوَيْك من العار الوبيل ، والأمر الجليل ؛ الذى يشتدّ على الحرائر ، ذوات البيوت الأخاير .

فقال لها معاوية : مَنْ هذا الذى أشعركِ شعارَه ؟ قالت : أمر طلاقٍ جائر ، من بعلٍ غادر ، لا تأخذه من الله مخافة ، ولا يجد بأحد رأفة . قال : ومَنْ بعلُكِ ؟ قالت : هو أبو الأسود . فالتفت معاوية إليه فقال : أحقٌّ ما تقول هذه المرأة ؟ فقال : إنّها تقول من الحق بعضاً ، وليس أحد يطيق عليها نقضا . أما ماذكرتْ من أمر طلاقها لحق ، وسأخبرك عن ذلك بصدق ، أنا والله ماطلّقتُها لريبة ظهرتْ ، ولا مِنْ هفوةٍ حضرت ؛ ولكن كرهت شمائلها ، فقطعت حبائلها . قال : فأىّ شمائلها كرهتَ ؟ قال : إنك تُهيِّجها علىّ جواب عتيد ، ولسان شديد . قال : لابدّ من جوابها ، قال : هى يا أميرَ المؤمنين كثيرة الصَّخب ، دائمة الذَّرَب ، مُهينة للأهل ، ومُؤذِية للبَعْل ؛ إن ذكر خيراً دفنته ، وإن ذكر شرًّا أذاعته ، تخبر بالباطل ، وتَطير مع المازل ، لا تنكِل عن عَتْب ، ولا يزال زوجها معها فى تعب ؛ فقالت : أما والله لولا حضور أمير المؤمنين ، ومَنْ حضر من المسلمين ،

(١) امرأة برزة ، أى بارزة المحاسن . أو المرأة الجليلة التى تبرز للقوم يجلسون إليها ويتحدثون . (٢) الجانف : المائل .

لرددت عليك بوادرَ كلامك ببوادرَ تردَعُ كلّ سهامك. فقال معاوية : عزمتُ عليك لما أجَبْتِه ! فقالت : هو والله يا أمير المؤمنين سئول جهول ، ملحاح بخول ، إن قال فشرّ قائل ، وإن سكت فقَدَمٌ غائل ، ليثٌ حين يأمن ، ثعلب حين يخاف ، شحيحٌ حين يُستضاف ، إن التَّمِسَ الجود عنده انقمع ، لما يعلم من لؤم آبائه ، وقصر رشائه ، ضيفه جائع ، وجاره ضائع ، لا يحمى ذِماراً ، ولا يُضرم ناراً ، ولا يَرعى جِواراً ، أهون الناس عليه مَنْ أكرمه ، وأكرمهم عليه من أهانه .

فقال معاوية : ما رأيت أعجبَ منها . انصرفى رواحاً[1] ، فلمّا كان العشىّ جاءت ، فلما رآها أبو الأسود قال : اللهمّ اكفنى شرّها ، فقالت : كفاك الله شرّى ، وأرجو ألاّ يعيذك من شرّ نفسك . قال : ناولينى هذا الصبىّ حتى أحمله ، قالت : ما جعلك الله بأحقّ من يحمل ابنى منى . فوثب فانتزعه منها ، فقال معاوية : مهلا يا أبا الأسود . قال: يا أمير المؤمنين حملتُه قبل أن تحمِلَه ، ووضعته قبل أن تضعه ، وأنا أقوم عليه فى أدبه ، وانظر فى أوَده ، أمنحه علمى ، وألهِمه حلمى ؛ حتى يكمل عقله ، ويستحكم فِتلُه ، قالت : كلاّ أصلحك الله احمَله خِفًّا ، وحملته ثِقلاً ، ووضَعه شهوة ، ووضعته كُرْهاً . حجرى فناؤه ، وبطنى وعاؤه ، وثديى سقاؤه ، أكلؤه إذا نام ، وأحفظه إذا قام .

فقال معاوية : ما رأيت أعجبَ من هذه المرأة ! فقال أبو الأسود : يا أمير المؤمنين ، إنها تقول من الشعر أبياتاً فتجيدها ، قال : فتكلّف أنت لها أبياتاً لعلك أن تقهرها بالشعر ، فقال أبو الأسود :

مَرْحباً بالّتى تجور علينا ... ثمّ أهلاً بالحاملِ المحمولِ
أغلقتْ بابها علىّ وقالت ... إن خير النسا ذواتُ البعولِ
شغلتْ قلبها علىّ فراغا ... هل سمعتم بفارغٍ مشغولِ !

---

[1] الرواح : العشى .

فقالت :

ليس مَنْ قالَ بالصواب وبالحـــقِّ كَمَنْ حاد عن منار السبيلِ
كان حجرى فِناءهُ حين يُضْحى ثم ثدي سقاؤه بالأصيــلِ
لستُ أبغى بواحدى يابن حربٍ بدلاً ما رأيته والجاهــلِ

فقال معاوية رضى الله عنه :

ليس مَنْ قد غذاه طفلاً صغيراً وسقاه من ثديه بالجدُولِ
هي أولى به وأقربُ رحما من أبيه وفى قضاء الرّسولِ

ثم دفعه معاوية إليها .

* * *

فزفَرَ أبو زيدٍ زَفيرَ الشُّواظ ، واستَشاطَ استِشاطَةَ المغتاظ ، وقال لها : وَيْلَكِ يادَرفارِ يا فَجار ، يا غُصَّةَ البَعْل والجَار ، أتعمَدِين فى الخَلْوةِ لِتَمْذِيبى ، وتُبدِينَ فى الحفلَةِ تَكذِيبى !

وقد علمتِ أنّى حِينَ بَنَيْتُ عَلَيْكِ ، ورَنَوْتُ إليكِ ، ألْفيتُكِ أقبحَ مِنْ قِرْدَة ، وأيْبَسَ مِنْ قِدَّة ، وأخْشَن من لِيفَة ، وأنْتَنَ مِنْ جيفَة ، وأثقلَ مِنْ هَيْضة ، وأقذَرَ مِنْ حِيضَة ، وأبْرَزَ من قِشْرَة ، وأبْرَدَ مِنْ قِرّة ، وأحْمَقَ من رِجْلة ، وأوْسَعَ من دِجْلة ؛ فَستَرتُ عَوَارَكِ ، ولم أُبْدِ عارَكِ . عَلَى أنَّه لَوْ حَبَتْكِ شِيرِينُ بجمالها ، وزُبَيْدَةُ بمالِها ، وبِلقيسُ بِعَرْشِها ، وبُوران بفرْشِها ، والزَّبَّاء بمُلْكِها ،

ورَابعة بِنُسكِها ، وخندفُ بِفخرِها ، والخنساء بِشِعْرِها في صَخْرِها ، لأنِفتُ أَنْ تكُونِي قعِيدَةَ رَحْلِي ، وَطَرُوقةَ فَحْلِي .

* * *

قوله : زفر: أى تنفّس بغيظ ، والزَّفْر والزّفير ردّ النفس في جوفه حتى تنتفخ عروقه . قال ابن عرفة : الزّفير من الصدر والشّهيق من الحلق . الشُّواظ : النار بغير دخان وزفيره : صوت اتّقاده . استشاط : اشتدّ غيظه وانتشر في جسده .

يا فَجَار : ابن عمر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قذف امرأته جُلِد يوم القيامة مائة جلدة بسياط من نار » .

والغُصّة : ما يختنق به . والبعل : الزوج ، وأراد أنّها مؤذية يشقى بها زوجها وجارها ، كما يشقى صاحب الغُصّة . تعمِدين : تقصدين . الخَلوة . الانفراد . والحفلة : الاجتماع . بنيتُ عليك ، أى تزَوّجتك ، وكانت العرب إذا تزوّج الرجل بَنى على أهله قُبّة ، فيسمّى دخول الزوج بناء لذلك . رنوتُ : نظرتُ . ألفيتك : وجدْتك . قِدّة : شراكة تُقَدُّ من من جلد غير مدبوغ . والليفة ، واحدة ليف النخل ، وهى التى تكون بين الجرائد . هَيْضة : هى التخمة تئول إلى القىء والإسهال وقِشْرَة الشىء : ما علا عليه

ودِجْلة : نهر العراق ، وعليه بغداد والبصرة ، وواسط على جَرْفها ، ويجرى على وجه الأرض أربعمائة فرسخ . ولم يحمل الحريرىّ مبالغة السعة على هذه ؛ وإنما أراد دجلة العوراء ؛ وهى التى انْتَشر ماؤها فى البطاح ، حتى صارت سعتها هنالك ثلاثين فرسخا فى مثلها .

وقال ابن سُكّرة يهجو امرأة بالسّعة :

لا تعذُلوني على ما كان من مَلَلِ مَنْ ذا يراكِ ولا يصبُو إلى المَلَلِ[1]

(١) يتيمة الدهر ٣ : ١٣ .

إن كنت أبصرت أشقى منك فى بصرى فلا بلغتُ الذى أهواه مِنْ أملى
الهجر أنت ، وأيْرى ليس من سَمَكٍ وليس بينى و بين البحر من عملِ

قال هشام بن عبد الملك للأبرش الكلبىّ : زوِّجْنى امرأة من كلْب ، فزوّجه ، فقال له ذات يوم يهزل معه: تزوّجنا إلى كلْب، فوجدنا فى نسائهم سعة، فقال الأبرش : ياأميرَ المؤمنين ، إن نساء كلبٍ خُلِقْنَ لرجال كلب .

وسمع رجل من كِنْدَة رجلا يقول : وجدنا فى نساء كندة سعة ، فقال : إنّ نساء كندة مكاحل فقدَتْ مَرَاودها.

قيل: لامرأة تُطلَّق كثيراً : مابالَك تُطلَّقين أبدا ؟ قالت: يريدون الضِّيق: ضَيَّق الله عليهم .

قوله: فسترت عَوارك ، ابن عباس، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « مامِنْ مُسْلِمٍ اطّلع على عورة مسلم فأذاعها عليه شماتة وعدوانا إلا كان حقّاً على الله أن يَفْضَحه عاجلا أو آجلا ، ومَنْ سترها عليه كان حقّا على الله أن يدخله فى ستره وحجابه يوم تُبْلَى السرائر وتُخْرَج الخبآت » . خَبْئَك : أى خَصْلتك .

وشيرين هى بنت أبرويز بن هرمز ، وكانت آية فى الجمال ، وغاية فى الحسْن والكمال ، فاقت نساءزمانها صيانةً وظَرْفاً، وبهرتْهن ملاحةً ولُطْفاً ، وخلفت فى العراق آثاراً منها قصر شيرين ، ولها قصة منظومة مشهورة بالعجمية .

[زبيدة بنت جعفر زوج الرشيد]

وزبيدة : هى بنت جعفر بن عبد الله بن أبى جعفر المنصور ، زوجُها هارون الرشيد ، وجدّها المنصور ، وعمّها المهدى ، وابنها الأمين ؛ فكانت الخلافة قد اكتنفتها ، وليس فى بنى هاشم عباسيّة وَلَدَتْ خليفة إلا هى . ولدت فى حياة المنصور ، فسمّيت أمَة العزيز .

وكان المنصور يرقصها ويقول: يازُبَيْدة أنت زبيدة! فغلب ذلك على اسمها، وكانت أموالها لا تحصى، وأنفقت فى سبيل الله وفى الحج وفى بناء المساجد والقناطر ما لم ينفقه أحد قبلها؛ فمن ذلك ما أنفقت فى حفرها العين المعروفة بعين المُشاش بالحجاز، فإنها حفرتْها، ومهّدَتْ الطريق لها فى كلٍّ رفع وخفض، حتى أجرتها من مسافة اثنى عشر ميلا، فأحصى ما أنفقت فيها فوجد ألف ألف وسبعمائة ألف دينار، دون ما كان فى وقت الشغل بها فى البذل، وما عمّ أهلَ الفاقة، ولها فى طريق مكة من العراق آثار كثيرة فى مصانع حفرتْها، وبِرَكٍ أحدثتها، تنزل وفود الحج عليها، فلا تجد ماء إلا فيها، فيشربون ويسقُون إبلَهم، ويتزوّدون وهم فى الكثرة أعداد لا يحصيهم إلا خالقُهم، والكل داعون لزبيدة إلى زماننا هذا.

وأما آثارها الملوكية، فإنها أوّلُ من اتخذت الآلات من الذهب والفضة المكلّلة بالجوهر. وبلغ ثوب وشى اتخذ لِلباسها خمسين ألف دينار.

وهى أول من اتخذ القباب من الفضة والأبنوس، وكلاليبها من الذهب، ملبسة بالوشى والديباج، وأنواع الحرير الملوّن، وهى أوّل مَن اتخذ الخفاف المرَصّعة بالجوهر، وشماع العنبر. ولما أفضى الأمر إلى ابنها الأمين رفع منازل الخدَم ككوثر وغيره، فلمّا رأت حُبّه فيهم اتخذت له الجوارى المقدودات الحسان الوجوه، وعمّمت رءوسهنّ، وجعلت لهن الطُرَر والأصداغ والأقفية، وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق، فبانت قدودهنّ، وبرزتْ خُصورهنّ. وبعثت بهنّ إليه، فاستحسنهنّ وأبرزهنّ للناس، فسمّوهنّ الغلاميات.

وأخبارها كثيرة، وعندما قُتِل الأمين دخل عليها بعضُ خدمها، فقال لها: ما يُجلسك وقد قتِل أمير المؤمنين؟ فقالت: ويلك وما أصنع؟ قال: تخرجين وتأخذين بدمه، كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان، فقالت: اخسأ لا أمّ لك! ما للنساء وطلب الدماء! ثم أمرت بثيابها فسُوِّدَتْ ودعت بدواة، فكتبت إلى المأمون:

أخيرَ إمام قام من خير عنصُرٍ ... وأفضل راقٍ فوق أعواد مِنْبَرِ

ووارثَ علم الأوّلين وفخرَهم ... إلى الملك المأمون من أمّ جعفرِ

كتبتُ وعينى تستهِلُّ دموعها ... إليك ابن عمى من جفونى ومحجرى

أصِبْتُ بأدنى الناس منك قرابةً ... ومن زال عن عينى فقلّ تصبُّرى

أتى طاهرٌ، لا طهّر الله طاهراً،[1] ... فمــا طاهر فى فعله بمُطَهَّرِ

فأبرزنى مكشوفة الوجه حاسراً ... وأنهب أموالى وحرّق أدؤرى

يعزّ على هارون ما قـد لقيتُه ... وما نالنى من ناقص الخلق أعورِ

تَذَكّرْ أميرَ المؤمنين قرابتى ... فديتُك من ذى قربةٍ متذكّرِ

فإن كان ما أبدى لأمرٍ أمرته ... صبرتُ لأمرٍ من قديرٍ مُقَدَّرِ

وإنْ كان ما قد كان منه تعدّياً ... علىّ أمير المؤمنين فغَيِّرِ

فلمّا قرأها المأمون، بكى بكاء شديداً، ثم قال: إنّى لأقول كما قال علىّ أمير المؤمنين حين بلغه قتلُ عثمان رضى الله عنهما: والله ما أمرتُ، ولا رَضِيتُ، اللهمّ جَلِّلْ قلب طاهر حزنا.

قال إبراهيم الحربى: رأيتها فى المنام، فقلت لها: ما فعل الله بك؟ فقالت: غفر لى، فقلتُ: بما أنفقت فى طريق مكة؟ فقالت: أما النفقات فرجعت أجورَها إلى أربابها، وغفر لى بنيّتى.

[بوران بنت الحسن بن سهل وزوجها بالمأمون]

وأما بُوران فهى خديجة بنت الحسن بن الحسن بن سهل، تزوّجها المأمون على يد إسحاق الموصلىّ، وفى هذا التزويج قِصّة الزّبيل وهى طويلة ظريفة، نذكرها على جهة الاختصار، حدّث إسحاق الموصلىّ قال:

---

(١) هو طاهر بن الحسين قائد المأمون، قتل الأمين بتدبيره سنة ١٩٨.

بينا أنا ذات يوم عند المأمون ، وقد خلا وجهُه ، وطابت نفسه ، فقال : يا إسحاق ، هذا يوم خلوة وطيب ، فقلت : طيَّب الله عيش أمير المؤمنين ، وأدام سرورَه وفرحَه . فأخذَ بيدى ، وأدخلنى فى مجالس غير التى كنّا فيها ، فأخذنا من لذّاتنا وشرابنا حتى غَرُبت الشمس ، فقال : قد عَزَمْتُ على دخلة إلى دار الحرم ، فلا تَرِمْ حتى آتيك ، فنَهض وبقيتُ إلى عامة الليل ، وكان المأمون أشغفَ خلق الله بالنساء ، وأشدّهم ميلاً إليهنّ ، فقلت فى نفسى : هو فى لذة وأنا فى غير شىء ، وتذكرتُ صبيّةً اشتريتُها ، وكنت عزمت على افتضاضها فنهضت إلى الباب ، فقال الحاجب : أين تريد ؟ فقلت : الانصراف ، قال فإن طلبَك ، قلت هو من لذة السرور فى شُغْلٍ عن طلبى ، فقيل لى : إن غلمانك استبطئوك وانصرفوا . فجىء بدابة ، فركبتُها ومشيت ، فأحسست بالبول ، فعمدت إلى زقاق لأبول ، فبلْتُ وقت لأتمسح بالحيطان إذا أنا بشىء معلّق من تلك الدور ، فنهضت فإذا بزبيل[1] كبير بأربع آذان ، ملبس ديباجا ، فقلت : إنّ لهذا سببا ، وبقيت أتروّى فى أمره ، ثم قلت : والله لأجلسنّ فيه كائنا ما كان ، فجلست ، فلمّا أحسّ بى الذين يرقبونه ، جذبوه إلى رأس الحائط ، فإذا أربع جوار يَقُلْن لى : انزل بالرحب والسعة ، فمشتْ بين يدىّ جارية بشمعة ، حتى نزلتُ إلى دار نظيفة إلى مجالس مفروشة ، لم أرَ مثلَها إلاّ فى دار ملك ، فجلست فما شعرت إلاّ بعد ساعة ، حتى أزيلتْ ستور كانت فى ناحية الدار ، وإذا وصائف يتماشين ، فى أيديهنّ الشمع ، وبعضهنّ بمجامر يحرق فيها العود ، وبينهنّ جارية تتهادى كأنّها البدر الطالع ، فنهضتُ قائماً ، فقالت : مرحبا بك من زائرا وجلست . ثم استطردتْ إلى سؤالى أبدع استطراد ، فقلت : انصرفت من عند بعض إخوانى ، وغرّنى الوقت ، وحرّكنى البول ، فعدلتُ إلى هذا الزقاق ،

---

(١) الزبيل : القفة أو الوعاء .

فوجدت زبيلاً معلّقاً ، فحملني النبيذ أنْ جلست فيه ، فإن كان خطأ فالنبيذ أكسبَنيه ، قالتْ : لا ضيرَ ، أرجو أن تحمد عاقبة أمرك ، قالت : فما صناعتك ؟ قلت: بزّاز من بغداد ، قالت : فهل رويت من الأشعار شيئاً ؟ قلت : شيئاً ضعيفاً ، قالت : فذا كِرْنا ، قلت : إن الداخل حشمةً ولكن تبدئين ،قالت : صدقت ، فأنشدتني لجماعة من القدماء والمحدَثين من أجود أقاويلهم ، وأنا مستمع لا أدرى مِمّ أعجب ! أمِن حسنها ، أم من حُسْن روايتها وجودة ضبطها للغريب ، أم من اقتدارها على النحو ومعرفة أوزان الشعر ! ثم قالت: أذَهب ما كان عندك من الحصَر ؟ قلت : إى والله ، قالت : فإن رأيت أن تنشدنا ، فأنشدتُها لجماعة من القدماء ما فيه مقنع ، فاستحسنتْ ذلك ثم قالت: والله ما ظننت أن يوجد فى أبناء السوقة هذا !

ثم أمرت بالطعام فأحضِر ، وقالت : الممالجة[1] أول الرضاع ، فدونك . وجعلتْ تقطّع وتضع بين يدىّ ، وفى المجلس من صنوف الرياحين وغرائب الفواكه ما لا يكون إلا عند سلطان ، ودعت بالشّراب ، فشربتُ قَدَحًا ، ثم سقتْنى قدحاً ، فشربت، ثم قالت: هذا أوان المذاكرة بالأخبار وأيام الناس، فاندفعتُ فقلت : بلغنى أنه كان كذا ، وكان رجل يقال له كذا ، حتى أتيت على عدة أخبار حسان ، فسُرّت بذلك ، وقالت : كَثُر تعجّبى أن يكون أحدٌ من التجار يحفظ مثل هذا ، وإنّما هذه أحاديث ملوك ، فقلت : كان لى جار يُنادم الملوك ، فإذا تعطّل حضرتُ معه ، فربّما حدّث بما سمعتِ ، فأخذتها عنه . فقالت : لَعمرى لقد أحسنتَ الحفظ ، وما هذا إلا لقريحة جيّدة ، وأخذنا فى المذاكرة إذا سكتّ ابتدأتْ هى ، وإذا سكتَتْ ابتدأتُ أنا ، حتى قطعنا عامة

(١) يقال : ملج الصبى أمه ، أى تناول ثديها بأدنى فمه ، والكلام على التشبيه .

الليل ، وبخور العود يَعْبق ، وأنا فى حالة لو توهمها المأمون لطار فرحاً . فقالت : إنك من الرجال وضيء الوجه ، بارع الأدب ، وما بقيَ عليك إلا شيء واحد . قلت : وما هو ؟ فقالت : لو كنت تترنَّم ببعض الأشعار ! فقلت : والله لقديماً كَلِفتُ به ولم أرزَقه ، فأعرضت عنه ، وفى قلبى منه حزازة ، وكنت أحبّ أن أسمع فى مجلسى هذا منه شيئاً لتكمل ليلتى ، قالت : كأنك عرّضت بنا ! قلت : والله ماهو تعريض ، قد بدأتِ بالفضل وأنتِ جديرةٌ باستتمامه . فأحْضِر عودٌ بأسرها ، فغنّت بصوت ماسمعت كحسنه ، مع حسن أدائه ، وجَوْدة الضرب . قلتُ : والله لقد أكمل الله فيك خلالَ الفضل وحَباكِ بالكمال الراجح ، والعقل الوافر ، والأخلاق الرضيّة والأفعال السنية . قالت : هل تعرف هذا الصوت ومَنْ غنّى فيه ؟ قلت : لا والله ، قالت الشعر : لفلان ، وكان سببه كذا والغناء لإسحاق ، قلت : وإسحاق هذا جُعِلْتُ فداك فى هذا الحال ! قالت : بخٍ بخٍ ! إسحاق بارع هذا الشأن ، قلت : سبحان الله ! لقد أعطىَ هذا مالم يعطه أحد ، قالت : فكيف لو سمعتَ هذا الصوت منه ! فلم نزل كذلك حتى إذا انشقّ الفجر أقبلت عجوز كأنها دايةٌ لها ، قالت : أى بنيّة ، إن الوقت قَدْ حضر ، فنهضتْ عند قولها ، فقالت : مصاحباً ، لتستر ما كنا فيه ، فإن المجالس بالأمانات ، فقلتْ : جُعِلت فداك ، أفأحتاج إلى وصية فى ذلك ! وودعتها وجارية بين يدىّ إلى باب الدار ، ففُتح لى ، وخرجت إلى دارى فصلّيت الصبح ، ونمْتُ .

فأنبهَنى رسول المأمون فسرْتُ إليه ، فلما رآنى ، قال : ياإسحاق ، تشاغلنا عنك ، فما كان حالك ؟ قلت : اشتريت صبيّةً وكنت معلّقَ القلب بها ، فمضيتُ لها ، وشربت معها ونمتُ ، فقال : يَهْنِيّاً مثل هذا ، فهل لك فيما كنا فيه أمسِ ! فقلت : وما يمنع من ذلك ؟ فنهضتُ إلى مجلس أمس ؛ فلما كان العشاء قال : لا تَرِمْ ، فإنى أجيئك ونهض ، فتأمّلت ما كنت فيه البارحة ، فإذا هو شيء

لا يصبر عنه إلا جاهل؛ فخرجتُ . فقال الغلمان : الله الله، فإنه أنكر علينا تخليتك ، فوعدتُهم أن آتىَ قبل أن يجىء ، وأنّ خروجى لعذر ، وفى الحين أرجع .

فنهضت إلى الزّبيل فجلست فيه ، فرُفع بى إلى موضع البارحة ، فإذا هى قد طلعت ، فقالت : لقد عاودت ، فقلت : ولا أظنّ إلاّ أنى قد تَقلّت ، فقالت : مادح نفسه يقرئك السلام ، قلت : فهفوة فتًى بالفضل . قالت : قد فعلنا ، ولا تَعُد، فأخذنا فى مثل الليلة السالفة من المذاكرة والمناشدة وغريب الغناء منها إلى الفجر .

فانصرفتُ إلى منزلى وصليت ونمت ، فأنبهنى رسولُ المأمون ، فلمّا رآنى قال : أبيت إلا مكافأة لنا ! فقلت : والله ياأمير المؤمنين ماذهبت إلى ذلك ، ولـكن ظننت أن أمير المؤمنين قد تشاغل عنى بلذّته ، وأغفل أمرى ، وجاء الشيطان ، فذكّرنى أمر تلك الملعونة، فبادرت قال: فما كان منك ؟ قلت : قضيت الحاجة منها ، قال: فقد انقضى ما كان بقلبك منها ، وواحدةٌ بواحدة ، والبادى أظلم. قلت : بل أنا أظلم ، وإليك المعذرة ، قال : لاتثريبَ عليك ، فهل لنا فى مثل حالنا أمس؟ قلت : إى والله، فقمنا إلى موضعنا إلى الوقت ، فقال : ياإسحاق ما عزمُك ؟ قلت : لاعذرَ لى ، قال : فعزمت عليك لتجلس حتى أجىء ، فإنى عازم على الصّبوح ، وقد تنغصتَ علىّ منذ يومين ، قلت : فالليلة إن شاء الله ، فما هو إلا أن غاب وجالتْ وساوسى ، فلمّا تذكّرت ما كنت فيه البارحة هان علىّ ما يلحقنى من سَخَطِه؛ فوثبت مبادراً ، فوثب إلىّ جند الدار ، وحُبست ، فقلت : الله الله ! إنى معلّق البال ببعض مافى منزلى ، فقالوا : مالى تركك من سبيل ، فلم أزل أرغّب هذا وأقبّل يَدهذا ، ووهبت خاتمى لهذا ، وردائى لهذا، وخرجت أعدُو حاسراً حتى وافيت الزّبيل ، فقعدتُ فيه ، فرُفِعْتُ إلى موضعى ، وأقبلت ، فقالت : صديقنا ! قلت : إى والله ، قالت : أجعلتَها دارَمقامٍ ؟ فقلت : جُعِلت فِداكِ ! حق الضيافة ثلاث ، فإن رجعتُ فأنتم فى حلّ من دمى . قالت:

والله لقد أتيتَ بحُجَّة ، ثم جلسنا فى مثل تلك الحال ، فلمَّا قَرُب الوقت علمت أن المأمون لابُدّ أن يسألنى ، ولا يقنع منى إلا بشرح القصّة ، فقلت لها : أراك ممّن يعجب بالغناء ، ولى ابن عمّ أحسنُ منّى وجها ، وأظرف قدًّا ، وأكثر أدبا ، وأنا حسنة من حسناته ، وهو أعرف خلق الله بغناء إسحاق الموصلى ، قالت : طفيلىّ وتقترح ؟ قلت لها : أنت المحكّمة ، قالت : إن كان ابنُ عمك على ما تصف فما نكره معرفتَه ، ثم جاء الوقت فنهضتُ فلم أصل إلى دارى إلاّ ورسل المأمون قد هجموا علىّ ، وحملونى حملا عنيفاً ، فوجدته على كرسىّ وهو مغتاظ ، فقال: ياإسحاق أخروجاً من الطاعة ! قلت: لا والله قال : فما قصّتك وما هذا الانحراف؟ فأصدقنى ، قلت : فى خلوة ، فأومأ إلى مَنْ بين يديه فتنحَّوْا فحدثته الحديث وقلت له : قد وعدتُها فى أمرك ، قال : قد أحسنت ، ولولا ذلك لنكّلت بك، فقلت: قد سلّم الله، فأخذنا فى لذتنا فى ذلك اليوم ، وهو لا يسمع منى غيرَ حديثها، فلم يتمّ النهار إلا والمأمون معلّق القلب، فلما جاء الوقت سِرْنا وأنا أوصيه وأقول: تجنّب أن تظهرنى بحضرتها ، ودعنى من نخوة المُلك ، وكن لى تبعاً ، وهو يقول: نعم ويلك ! وإن قالت : غنّ كيف أصنع ؟ قلت : أنا أدفعها عنك .

ثم صرنا إلى زبيلين فقعدنا فيهما ، فرُفعنا إلى الموضع ، فأقبلت فسلّمت ، فما تمالك إذ رآها أن بُهِت فى حسنها ، وقالت لى : والله ما أنصفتَ ابن عمك إذ لم ترفع منزلته ، وكان قد قعد دونى ، فقالت : ارتفع فديتُك ، أنت جديد ، وهذا قد صار من أهل البيت ، فنهض إلى صدر البيت ، وأقبلتْ تُذاكره وتناشده وتمازحه ، وهو يَظْهر عليها فى كل فن . ثم أحضِر النبيذ فشربنا ، وهى مقبلة عليه ومسرورة به ، وهو أكثر ، وأخذتِ العود فغنّتْ صوتاً ، وقالت : وابن عمك هذا من التجار ؟ قلت : نعم ، قالت : إنكما لغريبان . فلما شرب المأمون ثلاثة أرطال داخله الفرح والطرب ، ثم رأيتُه ينظر إلىّ نظر الأسد إلى فريسته ، فصاح : ياإسحاق ، فنهضت وقلت: لبيك ياأميرالمؤمنين !

قال : غنّ هذا الصوت ، فلمّا علمتُ أنه الخليفة نهضت إلى كِلّة مضروبة ، فدخلتها ، فلما فرغتُ من الصوت ، قال : انظر مَنْ ربّ هذه الدار ؟ فسألت عجوزاً ، فقالت : هو الحسن بن سهل ، فقال : علىّ به ، فغابت العجوز ساعة وإذا الحسن قد حضر ، فقال له : ألك ابنة ؟ قال: نعم بوران ، قال: فزوّجنيها ! قال : لا والله ، قال : فأنى أخطبها إليك ، قال : هى أمَتُك ، وأمْرُها إليك ، قال : قد تزوّجتُها على نقد ثلاثين ألفاً نحملها إليك صبيحة يومنا ، فإذا قبضتْ المال فاحملها إلينا ، قال : نعم ، ثم خرجنا .

فقال : يا إسحاق لا يقف على ما وقَفْتَ عليه أحد ، فسترتُ الحديث إلى أن مات المأمون : فما اجتمع لأحد ما اجتمع لى فى تلك الأربعة الأيام مجالسة المأمون بالنهار ، ومجالسة بُوران بالليل ، ووالله ما رأيتُ أحداً من الرجال فى ملوكهم مثل المأمون ، ولا شاهدت امرأة تقارب بُوران فهما وعقلا ، وما أظن أحداً وقف منى العلوم على ما وقفت عليه .

وفى المسعودى : انحدر المأمون إلى فم الصِّلح فى شعبان سنة تسع ومائتين ، وأملك[(١)] بخديجة بنت الحسن بن سهل ، ونَثَر الحسن فى ذلك الإملاك مالم ينثره قطّ ملك فى جاهلية ولا إسلام ، نثر على الهاشميين والقواد والكتّاب بنادق مسك ، فيها رقاع بأسماء ضياع ، وجوار وأسماء ديار ودواب وغير ذلك ، فإذا وقعت البندقة بيد الرجل ، فتحها فيجدها على قدر سعده ، ثم ينثر بعد ذلك الدنانير والدراهم ونوافج المسك على عامة الناس ، وأنفق على المأمون وعلى جميع قواده ، فلما أراد المأمون الانصراف إلى مدينة السلام قال له : يا أبا محمد ، سلْ حوائجك ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أسألك أن تحفظ علىّ مكانى من قِبَلك ، فأمر المأمون أن يحمل له خراج فارس والأهواز لسنة[(٢)] .

وذكر الحريرىّ فى الدّرة أن المأمونَ لمـّا بنى على بُوران ، فرِش له حصير منسوج بالذهب مامَسّه أحد ، وعليه در منثور ، فوجّه الحسن إلى المأمون أن

(١) أملك : تزوج (٢) مروج الذهب ٤ : ٣٠

هذا نثار يجب أن يُلتَقَط ، فقال المأمون لمن حوله من بنات الخلفاء : شرّفن أبا محمد ، فمدّت كل واحدة منهن يدها ، فأخذت دُرَّةً وبقيَ باقي الدرّ يلوح على الحصير المذهب ، فقال : قاتل الله أبا نُواس ، لقد شبّه بشيء ما رآه قط ، فأحسن في وصف الخمرة والحباب الذى فوقها فقال :

كأنّ صُغرى وكُبرى من فواقِعها   حَصْباء درٍّ على أرض من الذَّهبِ[(١)]

فكيف لو رأى هذا معاينة !

ويقال : إن الحسن بن سهل نثر في ذلك العرس على المأمون ألف حبّة جوهر، وأشعل بين يديه شمعة عنبر، وزنها مائة رطل ، فأسرله المأمون بمائة ألف ألف درهم، وأقطعه مدينة فم الصِّلح ، وهى قريبة من واسط ، وكان العُرس بها .

وذكر المبرّد أن الملاحين الذين تصرّفوا في هذا العرس نيّفوا على السبعين ألفاً ، وكانت جراية السلطان عليهم ، ولما بنى المأمون على بُوران وأراد غشيانها حاضت ، فقالت : أتى أمر الله فلا تستعجلوه ! فنام في فراش آخر ، فلمّا أصبح دخل عليه أفاضل ندمائه يهنئونه ويدعون له فأنشدهم بديها :

فارس في الحرب منغمِسٌ   عارف بالطّعن في الظُّلَمِ
رامَ أن يُدْمِي فريسَتَه   فاتَّقَتْهُ من دم بدمِ

وأكثر الشعراء في ذلك الإملاك ، وأستظرف منها قولَ ابن أبي حازم الباهليّ :

بارك الله للحسَنْ   ولبُورانَ في الخَتَنْ[(٢)]
يا ابنَ هارون قد ظفرْ   تَ ولكنْ ببنت مَنْ !

(١) ديوانه ٢٤٣
(٢) البيتان في معاهد التنصيص ٣ : ١٣٩ ، من شواهد التوجيه ، وهو إيراد الكلام بوجهين مختلفين ، وهنا لم يعلم ما أراد بقوله : « ببنت من » .

فلما وصلت إلى المأمون قال : لا والله ماندرى أخيراً أراد أم شراً .

ويشبه هذا أن رجلا أتى رجلا خياطاً بثوب ليقطع له منه قميصاً ، فقال : والله لأفصلنّه لك تفصيلا، لايُدْرَى أقميص هو أم قَباء ؟ففعل ذلك ، فقال له صاحب الثوب : وأنا والله لأدعونّ لك دعاء لايُدْرَى ألك هو أم عليك ؟ وكان الخياط يسمّى بِشْرا ، وكان أعور ، فقال :

خاط لِي بشرٌ قَباءً لَيت عينيه سواءُ(١)

وأتت المأمون بجهاز لم يُسمع بمثله قطّ كان فيه الفُرُشُ منسوجةً بالذهب .

وقال إبراهيم بن العباس الصّولىّ يهنئ الحسن بمصاهرة المأمون :

هنّتك أكرومةٌ جلّت نعمتها أعلت وليّك واجتثّتْ أعاديكا(٢)

ما كان يُحْبَى بها إلا الإمام ولا كانت إذا قُرِنَتْ بالخلق تعدوكا

وماتت بُوران فى سنة إحدى وسبعين ومائتين ، وقد بلغت ثمانين سنة .

وثمّ بُوران أخرى وهى بنت كسرى ، وأمها مريم بنت قيصر ، ملكت سنةً ونصفاً ، وليست المعنيّة فى المقامة .

* * *

[ذكر بِلقيس وعرشها]

وأما بِلقيس فهى ابنة شراحبيل بن أبى سرح بن الحارث بن قيس بن صيفى ابن سبأ ، وكان سبب مراسلة سليمان إليها أنه فقد الهدهد ، وبه يُعرَف قُرْب الماء من بُعده ، فنزل سليمان عليه السلام بمفازة ، فدعا بالهدهد فلم يُوجَدْ ، فقال وهو غاضب ﴿ مَالِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ ... ﴾(٣) الآيات. وكان الهدهد قدمرّ بعرش

---

(١) معاهد التنصيص ٣ : ١٣٨ ، ونسبه إلى بشار ، وذكر بعده :

فقلتُ شعراً ليس يُدرَى أمديحٌ أمْ هجاءُ

(٢) ديوانه ١٣٥، ١٣٦ (٣) سورة النمل ٢٠ ومابعدها .

بلقيس وبساتينها ، فلمّا رجع تلقتْه الطير ، فقالوا : تَوَعَّدَكَ رسول الله بنتف ريشك أو بذبحك، فينقطع نسلك،فقال : وما استثنى؟ قالوا : بلى، قال :﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾،أى بعذر مبين فأتى سليمانَ فقال:ماغيّبك عنى؟قال:﴿أحطتُ بما لم تحطْ به ﴾حتى بلغ ﴿ فانظُرْ مَاذَا يَرْجعون . قالَ سَنَنظرُ أصدقْتَ.. ﴾ الآيات فوجّهه بالكتاب ، فوافقها فى قصرها ، فسدّ عليها بالكتاب ضوء طاق ،فالتفتتْ فألقى إليها الكتاب ، فأخذته وغطّته بثوب ، ونادت فى قومها فقالت : ﴿ يأيُّها الملأُ... ﴾ الآيات، فقالوا لها: ﴿نحن أولو قوة...﴾ الآيات. ثم قالت: إن قَبِل الهدية فهو مَلِكٌ من ملوك الدنيا وأنا أعزّ منه ، وإن لم يقبلها فهو نبيّ من عند الله .

فلما رجع بالهدية قال سليمان: ﴿ أتمِدُّونَنِ بمالٍ ﴾ إلى ﴿وهم صاغرون﴾ . فلما رجع إليها رسلُها بالخبر، خرجتْ فزعة فى قومها ـ قال ابن عباس رضى الله عنهما: ومعها ألف قَيْل ، وأهل اليمن يسمون القائد القَيْل ـ مع كل قَيْلٍ عشرة آلاف . وكان سليمان مهيباً لا يبدؤه أحدٌ بشىء حتى يسأل عنه ، فخرج فرأىَ رهَجاً قريباً منه،فقال:ماهذا ؟ قالوا : بلقيس ، قال : وقد نزلت منّا بهذا المكان . ثم قال : ﴿ أيُّكُمْ يأتيني بِعَرْشِهَا ﴾ فأتاه به الذى عنده علم الكتاب قبل ماقطع كلامه ، وصرفَ بصَره ، فرآه مستقِرًّا عنده ، فقال:هذا من فضل ربى . ثم جاءت بلقيس وقعدت إلى سليمان،فقيل لها :﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ فنظرتْ إليه وقالت :﴿ كأنّه هو﴾ ثم قالت: تركته فى قصرى والجنود محيطة به،فكيف جىء به! وكانت شعراء الساقين ، فقالت الجن :إن نكحَها سليمان فولدت له غلاماً ماننفكّ من العبودية أبداً ، فهلمّ نبغى له بنهاناً ، فيرى شَعَرَها فيه فلا يتزوّجها ، فبنوا له صَرْحاً أخضر من قوارير كأنه الماء ، وجعلوا فى باطن طرائقه كلّ شىء من الدواب والسمك وغيره ، وأُلقِيَ لسليمان كرسى فى أقصاه ؛فلما رأى منه ما رأى قعد عليه ،ودعا بها؛ فلما رأت صور السمك فيه حسبته لجّة ، وكشفتْ عن ساقيها. فأبصر شَعَرَها سليمان ،

فصرف بصره عنها ، وقال إنه صرح ممرّد من قوارير ، فقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نفسِى .. ﴾ الآية . فقال سليمان للجن : ما يُذهِب الشعر ؟ فقالوا : له النُّورة ، فاستنكحها سليمان عليه السلام .

وذكر ابن إسحاق أنها لمّا أسلمت ، قال لها سليمان : اختارى رجلاً من قومك أزوّجكه ، فقالت : ومثلى يُنكح ، وقد كان لى من الملك والسلطان ما كان! فقال لها : ما ينبغى أن تحرّمى ما أحلّ الله لك ، فزوّجها ذا تبع ملك هَمْدان ، وملّكه اليمن ، وردّها معه ، فلم يزل ملك اليمن حتى مات سليمان . وكانت بلقيس من بيت المملكة ، قيل : إنها ولدها أربعون ملكا ، واختلف فى أمها فقيل : إنسيّة وقيل جنّية .

وأما عرشها ، وهو سريرها ، فقيل : كان طوله ثمانين ذراعا ، وعرضه كذلك . وكان عرشها صفائح من ذهب وفضة قد ركبت فيه فُصُوصُ الياقوت الأحمر والزّبرجد الأخضر والدرّ واللؤلؤ ، وكان له قائمتان من ياقوت وقائمتان من زَبَرْجد ، والملك لله وحده ، الذى سخر لسليمان هذا الملك العظيم ومَنْ أحضر له هذا العرش العظيم قبل رجع الطرف !

وذكر الحريرى فى الدرّة : أن صواب لفظ « بِلقيس » أن تكسر باؤه لأن كل أعجمى يُعرّب فقياسه أن يلحق بأمثلة كلام العرب ، قال : وعلى ذلك بِلقيس.[1]

وقرأت فى أخبار سيف الدولة أن الخالديّين مدحاه ، فبعث إليهما وصيفا ووصيفة ، مع كلّ واحد منها بَدْرَة وتَخْت من ثياب مصر والشام ، فكتبا إليه :

---

(١) درة الغواص ٦٢ .

لم يَفْدُ شكرك فى الخلائق مطلقاً ... إلا ومالُك فى النَّوال حَبِيسُ[1]

خوَّلتنا شمسا وبدْرًا أشرقت ... بهما لدينا الظلمة الحِنْدِيسُ

رَشأٌ أتانا وهو حُسْنًا «يوسفٌ» ... وغزالة هى بهجةً «بِلقيسِ»

هذا ولم تقنــع بذاك وهــذه ... حتى بعثتَ المال وهو نفيسُ

أتَتِ الوصيفةُ وهى تحمل بَدْرَةً ... وأتى على ظهر الوصيفِ الكِيسُ

وكسَوْتَنا مما أجادت حَوْكَهُ ... مصرٌ وزادت حُسْنَهُ تِنِّيس

فغدا لنا من جودك المأكول والمشروبُ والمنكوحُ والملبوسُ

فلما قرأها سيف الدولة قال: أحسنا ، إلا فى لفظ «المنكوح» ، إذ ليستْ مما يخاطب بها الملوك .

وهذا من بديع نقده المليح وشواهد ذكائه الصريح .

وأما الزَّبَّاء: فقد تقدّم ملكها فى الرابعة والعشرين .

* * *

[ذكر رابعة العدوية]

وأما رابعة فهى[2] بنت إسماعيل العدويّة ، وكانت قد بلغت من النّسك والفضل والزهد منزلة شريفة ، وكانت منوَّرة البصيرة ، مطهَّرة السريرة ، حَظِيَتْ بالمكاشفات الربانية . وكان سفيان الثورىّ يذهب إليها ويسألها عن مسائلَ دينية ، ويعتمد عليها ، وخطبها عبد الواحد بن زيد، فقالت له بعد أن

---

(١) ديوان الخالدين ١٦٢ .

(٢) انظر ترجمتها فى ابن خلكان ١: ١٨٢

حجبته أياما ثم أذنت له: ياشهوان، أى شىء رأيته فىّ من آية الشهوة؟ ألا خطبتَ شَهْوانية مثلك!

وقال أبو سليمان الدارانى: بتّ ليلة عند رابعة العدوية، فقامت إلى محراب لها، وقمت إلى ناحية من البيت فلم تزل قائمة إلى السَّحَر، فقلت: ما جزاء من قوّانا على قيام هذه الليلة؟ قالت: جزاؤه أن نصوم له غدا.

وزارها أصحابها، فذكروا الدنيا وأقبلوا على ذمّها، فقالت: اسكتوا عن ذمّها، فلولا موضعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها! ألا مَنْ أحبَّ شيئاً أكثر من ذكره.

واحتاجت رابعة إلى شىء فقيل لها: لو بعثْتِ إلى فلان؟ قريب لها، فقالت: والله لا أطلب الدنيا ممّن يملكها، فكيف ممّن لا يملكها!

وحدّث جعفر بن سليمان قال: أخذ بيدى سفيان الثورىّ فقال لى: مر بى إلى المؤدّبة التى لا أجدنى أستريح إذا فارقتها - يعنى رابعة - قال: فلما دخلت عليها، رفع سفيان يديه، وقال: اللّهمّ إنّى أسألك السلامة! فبكت رابعة، فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: أنتَ عرّضتَنِى للبكاء، فقال لها وكيف ذلك؟ قالت: أمَا علمتَ أن السَّلامة من الدنيا تَرْكُ ما فيها، فكيف وأنت متلطّخ بها!

وقال سفيان الثورى لرابعة رحمة الله عليهما: ما حقيقة إيمانك؟ قالت: ما عبدته خوف النار، ولا رجاء الجنة، فأكون كالأجير السوء، بل عبدتُه حبّا له وشوقا إليه، وقالت فى معنى ذلك:

أحبّك حُبّيْن: حبَّ الهوى وحُبّا لأنّك أهلٌ لذاكَ

فأمّا الذى هو حبّ الهوى فشُغْلِى بذكرك عمّن سواكَ
وأمّا الذى أنت أهلٌ له فكشفك لى الحجْبَ حتى أراكَ
فلا الحمد فى ذا ولا ذا ليا ولكنْ لك الحمدُ فى ذا وذاكَ

وقيل لها : كيف حبّك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : شغلنى حبُّ الخالق عن حبّ المخلوقين .

ودخل سفيان عليها وهى قائمة تصلّى ، فلم تعرِّج عليه ، ودخل جعفر - وكان يخدمها - فقال لسفيان : أىُّ شىء دارَ بينك وبينها ؟ قال: ما كلّمَتنِى. فقال لها: يا سبحان الله ! الشيخ جاء إليك فما كلّمتِه، فقالت: إن العبد إذا كان مقبلاً على الله عز وجل كان الله مقبلاً عليه ، وقد كنتُ مقبلة على الله عز وجل ، ولست أشُكّ فى إقباله علىّ ، فأيما أحبّ إليك أن أكون مقبلةً على الله ويكون مقبلا علىّ ، أو أقبل على هذا ؟ ثم قالت : الله أكبر .

وقال لها رجل : إنى أحبك فى الله، فقالت : فلا تَعْصِيَ الذى أحببتنى له وأنشدت :

أتضمنُ يافتَى تركَ المعاصِى وأرهنه الكفالةَ بالخلاصِ
أطاع الله قومٌ فاستراحُوا ولم يتجرّعوا غُصَصَ المعاصِى

* * *

[ذكر خندف]

وأما خندف ، فهى ليلَى بنت حُلْوان بن عمران بن الحافِ بن قضاعة ، وهى امرأة إلياس بن مضر ، ولدَتْ منه عمراً وهو مدركة ، وعامراً وهو طابخة ،

وعميراً وهو قَمَعة ، فندّت لهم إبل ، فخرجوا فى طلبها فأدركها عمرو ، فسُمّى مدركة ، واقتنص عامر أرنباً فطبخها ، فسُمّىَ طابخة ، وانقمع عمير فى بيته فسُمّىَ قمعة ، فلما أبطئوا عليها خرجَتْ فى إثرهم ، فقالت : مازلت أخندف فى إثركم ؟ فلقِّبت خندف ، والخندفة بالهرولة ، وهى أمّ عرب الحجاز ، وجميع ولد إلياس من خندف ، والخندف يُنسبُون ، وجميع ولد مضر من إلياس وخندف ، فمن مدركة كنانة وأسد ابنا خُزَيمة ، ومن طابخة ضبّة بن طابخة ، ومزينة والرِّباب ، وهم عدىّ وتيم بن مرّ بن أد بن طابخة ، وثور وعُكل بن مدركة ، وقُرَيش وهو فى كنانة .

ومنها سيد ولد آدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى مافى كنانة من الشجعان المشاهير فى الجاهلية .

ومن طابخة تميم ، وهى أكبر قبيلة فى العرب وأشجعها ، وهى عدد لا يحصى ، وعزٌّ لايدرك .

وقال المنذر بن ماء السماء ذات يوم وعنده وفود قبائل العرب وَدَعا بِبُرْدَيْن فقال : ليلبس هذين البردين أكرم العرب وأشرفهم حسباً وأعزّهم قبيلة ، فأحجم الناس ، فقام الأحمر بن خلف بنَ بَهْدَلَة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة ابن تميم ، فلبس أحدَهما وارتدى الآخر ، فقال له المنذر : ماحجتك فيما ادعيت ؟ قال : الشرف من نزار فى مضر ، ثم فى تميم ، ثم فى سعد ، ثم فى بَهْدلة ، قال : هذا أنت فى أصلك ، فكيف أنت فى عشيرتك ؟ قال : أنا أبو عشرة وعم عشرة وخال عشرة قال : هذا أنت فى عشيرتك ، فكيف أنت فى نفسك ؟ فقال : شاهد العين شاهدى ، ثم قام فوضع قدمَه فى الأرض ، وقال : من أزالها فله مائة من الإبل ، فلم يقم إليه أحد ، وفى ذلك يقول الفرزدق :

فما ثمّ في سعدٍ ولا آل مالكٍ غلام إذا ما قيل لم يتبهدَلِ [(١)]

لهم وهَبَ النعمانُ بردى محرّق بمجد معدّ والعديدِ المحصَّلِ

فالخندف هذا الفخر في الجاهلية ثم النبوّة ، ثم الملك إلى يوم القيامة وفيها يقول الراجز :

* وخندف هامة هذا العالم *

* * *

[ذكر الخنساء]

وأما الخنساء فهي تُماضر بنت عمرو بن الشريد ، من مَرَاة قبائل سُليم بن منصُور بن عكرمة بن خَصَفة بن قَيس عَيلان ، قدمتْ على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومها بنى سُلَيم ، ولسُلَيْم في الإسلام سابقة حسنة ، حضر منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فَتْح مكة وحرب حُنين ألف رجل .

وذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستنشد الخنساء ويعجبُه شعرها ، فكانت تنشده وهو يقول : هيه ياخنساء ! ونظرتْها عائشة رضى الله عنها ، وعليها صِدَارٌ من شَعر ، فقالت : ياخنساء ، أتلبسين الصِّدار وقد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : لم أعلم بنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وكان للصِّدار سبب ، كان زوجى رجلا مِتلافًا فأملق ، وأراد أن يسافر ، فقلت له : أقم حتى آتى أخى صخرا ، فأتيته فشاطرنى ماله فأتلفه زوجى ، فعدت إليه فعاد بمثل ذلك ، فأتلفه زوجى ، فعدت إليه في الثالثة والرابعة ، فقالت له زوجته : إن هذا المال متلَف ، فامنحها شرار مالك ، فقال :

---

(١) ديوانه ٧٤٤ .

والله لا أمنحُها شرارَها وهي حَصان وقد كفتني عارَها (١)
ولو هلكتُ خرّقتْ خمارها واتّخذت من شعرها صِدارَها

فلما هلك اتّخذت هذا الصّدار .

وقيل لجرير : مَنْ أشعر الناس ؟ قال: أنا ، لولا هذه الفاعلة - يعني الخنساء - قيل له : فبِمَ فضلتْك ؟ قال بقولها :

إنّ الزمان وما تفنى عجائبُه أبقى لنا ذنباً واستُؤصِل الرّاسُ (٢)
أبقى لنا كلّ مجهول وفجّعنا بالحالمين فهمْ هامٌ وأرماسُ (٣)
إن الجديدين في طول اختلافِهما لا يَفسُدان ولكن يَفسُد الناسُ

فأجمع علماء الشعر أنه لم تكن قطّ امرأة قبلها ولا بعدها أشعرَ منها .

وكان النابغة الذبياني يجلسُ لشعراء العرب بعُكاظ على كرسيّ ، ينشدونه فيفضل من يرى تفضيلَه ، فأنشدته في بعض المواسم فأُعجب بشعرها ، وقال لها : والله لولا أنّ هذا الأعمى أنشدني قبلك - يعني الأعشى - لفضّلتك على شعراء هذا الموسم .

وكان بشار يقول : لم تقل امرأة شعرا إلاّ ظهر الضعف فيه ، فقيل له : أوَ كذلك الخنساء؟ فقال : تلك كان لها أربع خصى .

ومن جيّد ما رثت به صخرا قولُها :

---

(١) شرح ديوان الخنساء ٢١ ، الأغاني .

(٢) ديوانها ١٥٥ ، وروايته : « وما يفنى له عجب » .

(٣) فجّعنا : أحزننا ، والهام : جمع هامة ، أراد به هاهنا الجثث والمرئات . والأرماس : القبور ، جمع رمس .

ألا يا صَخْرُ إن أبكيتَ عيني لقد أضحكتَنِي دَهْراً طويلا[١]
بكيتُك في نساء معولاتٍ وكنتَ أحقَّ من أبدَى العويلاَ
دفعتُ بك الجليلَ وأنت حيٌّ فمن ذا يَدْفَعُ الخطب الجليلاَ
إذا قَبُح البكاء على قتيلٍ رأيت بكاءك الحسنَ الجميلاَ

ومنه :

يؤرِّقني التذكُّرُ حين أمسِي ويردَعُني عن الأحزان نُكْسِي[٢]
على صخرٍ وأيّ فتًى كصخرٍ ليوم كريهة وطِعان خَلْسِ
ولم أر مثله رُزْءاً لجنٍّ ولم أر مثله رزءاً لإنسِ
يذكّرني طلوعُ الشمسِ صخرا وأبكيه لكلِّ غروب شمسِ
ولولا كثرةُ الباكين حَوْلِي على إخوانهم لقتلتُ نَفْسِي
وما يبكون مثل أخي ولكنْ أعزّي النَّفس عنهُ بالتّأسي

ومنه أيضاً :

أبعْدَ ابن عمرو من آل الشّريد حلّتْ به الأرض أثقالَها[٣]
لعَمْرُ أبيه لنِعمَ الفتَى إذا النفس أعجبها مالَهَا
فإن تك مُرّة أودتْ به فقد كان يكثر تقتالَهَا
فخرّ الشوامخ من فَقْدِه وزُلزلت الأرضُ زلزالَهَا

---

(١) ديوانها ٢٢٥ .
(٢) ديوانها ١٥٠ ، وفيه : « مع الأحزان » .
(٣) ديوانها ٢٠١ ، وقبله :

ألا ما لعينك أم مالها وقدْ أخضل الدّمع سِرْبالهَا

ومنه أيضاً :

أعينيَّ جودا ولا تجمُدَا ألا تبكيانِ لصخرِ النَّدى[1]

ألا تبكيانِ الجرىء الجميلَ[2] ألا تبكيان الفتى السيِّدا

طويلَ النجادِ رفيعَ العمـا د سادَ عشيرتَه أمرَدَا

ومنه أيضاً :

تعرَّقني الدهر نهشا وحزَّا وأوجعَني الدَّهر قرعاً وغمزا[3]

وأفنى رجالي فبادوا معاً فأصبحتُ من بينهم مستفزَّا[4]

كأنْ لم يكونوا حِمًى يُتَّقى إذ الناس إذ ذاكَ مَنْ عزَّ بزَّا

وكانوا سَراةَ بنى مالكٍ وفخرَ العشيرة مجداً وعزَّا

جززنا نواصِيَ فرسانِها وكانوا يظنُّون ألاَّ تُجَزَّا

ومَنْ ظنَّ ممَّن يلاقى الحرو ب ألاَّ يصابَ فقد ظنَّ عجْزَا

ومنه أيضاً :

ياصخرُ ورَّادَ ماء قد تبادَرَه[5] أهل الموارِدِ وما فى ورْدِه عارُ

مشى السَّبَنْتَى إلى هَوْجاء معضلةٍ له سلاحان أنيابٌ وأظفارُ[6]

(١) ديوانها ٤١ .

(٢) الديوان : « الجميل » .

(٣) ديوانها ١٤٣ .

(٤) الديوان :

* فأصبح قلبي لهم مستفزَّا *

(٥) ديوانها ٧٥

(٦) السبنتى : النمر .

وماعجولٌ عَلَى بَوٍّ تحنّ له لها حنينان إعلان وإسرارُ
تَرْتع ما رَتَعت(١) حتى إذا ادّكرت فإنما هي إقبال وإدبارُ
يوما بأوجعَ مني حينَ فارقني صخرٌ فللدهر إحلاءٌ وإمرارُ
وإنّ صخرا لوالينا وسيِّدُنا وإنّ صخراً إذا نشتو لنَحّارُ
وإن صخراً لتأتمُّ الهداةُ به كأنه علمٌ في رأسه نارُ

وحدث المفضّل قال: كنت جالساً يوماً على باب منزلى، أحتاج إلى درهمٍ واحد، وعلىّ دين عشرة آلاف درهم، إذ جاءنى رسول المهدىّ، فقال: أجب أمير المؤمنين، فقلت فى نفسى: وما بعثه إلىّ! لعلّ ساعياً سَعَى بى عنده. ثم دخلت منزلى، ولبست ثيابى، وسرتُ إليه، فلما مثلت بين يديه أومأ إلىّ بالجلوس، فلما سكن جأشى، قال لى: يا مفضّل، ما أفخرُ بيت قالته العربُ؟ فأرْتِـجَ علىّ ساعة، ثم قلت: يا أمير المؤمنين قولُ الخنساء، فاستوى جالساً وكان متكئا، فقال: أىّ، [بيت هو؟](٢) فقلت قولها:

وإنّ صخراً لتأتمّ الهداةُ به كأنه علمٌ فى رَأْسِهِ نارٌ

فقال: قد قلت له فأبى علىّ - وأومأ إلى إسحاق(٣) بن بزيع - قلت: الصواب مع أمير المؤمنين، ثم قال: يامفضّل، حدّثنى فحدّثته حتى انتصف النهار، قال: أنشدنى، فأنشدته قول الحسين بن مُطير الأسدىّ:

وقد تَغدِرُ الدنيا فيضحى غنيُّها فقيرا ويَغْنَى بعد بؤسٍ فقيرُها
وكمْ قد رأينا من تَغَيُّر عيشةٍ وأخرى صفا بعد كَدْرٍ غديرُها
فلا تقربِ الأمر الحرام فإنه حلاوته تَفْنَى ويبقى مريرُها

---

(١) ط: «غفلت». (٢) من الأغانى.
(٣) فى الأغانى: فأومأ إلى إسحاق بن بزيع، ثم قال: قد قلت له ذلك فأباه.

وكان المهدىّ رقيقا فبكى ، وقال : يامفضّل ، كيف حالك ؟ فقلت : كيف يكون حال مَنْ عليه عشرة آلاف درهم ، وليس معه منها درهم واحد ، قال : يا إسحاق ، أعطه عشرة آلاف دِرْهم قضاء لدينه ، وعشرة آلاف درهم يستعين بها على حاله ، وعشرة آلاف درهم يصلح بها من شأنه (١) .

ورأى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه الخنساء تَطوفُ بالبيت محلوقَةَ الرأس ، تبكى وتلطم خدّها ، وقد علَّقت نعلَ صَخْرٍ فى خمارها ، فوعظها فقالت : إنّى رُزِئت فارساً لم يُرْزأ أحدٌ مثله ، فقال : إن فى الناس مَنْ هوأعظم مرزأة منك ، وإنّ الإسلام قد غطّى ما كان قبله ، وإنه لايحلّ لك لطمُ وجهك ، ولا كشف رأسك ، فكفَّتْ من ذلك وقالت :

هَريقى مِنْ دُمُوعك واستفيقى	وصبراً إنْ أطقْتِ ولَنْ تُطيقِى (٢)
وقُولى إنّ خيرَ بنى سُليمٍ	وأكرمَهم بصحراء العقيقِ
ألا هل تَرْجِعَنَّ لنا الليالى	وأيامٌ لنا بِلِوَى الشَّقيقِ
وإذ فينا معاوية بن عمرو	على أدْمَاء كالجمل الفَنيقِ (٣)
فنبكيه فقد أودَى حميداً	أمينَ الرأى محمودَ الصّديقِ (٤)
فلا والله لاتَسْلوك نفسى (٥)	لفاحشةٍ أتيتُ ولاعُقوقِ (٦)
ولكنّى رأيت الصبر خيراً (٧)	من النَّعْلين والرأس الحليق

وأما أبو العباس المبرّد فقال : وقالت الخنساء ترثى أخاها معاوية بن عمرو ، وكان أخاها لأبيها [وأمها ، وكان صخر أخاها لأبيها] (٨) وكان أحبّهما إليها ،

(١) الخبر والشعر فى الأغانى ١٦ : ٢١ ، ٢٢ . (٢) ديوانها ١٧٣ .
(٣) أدماء : ناقة بيضاء . والفنيق : الفحل من الإبل .
(٤) الديوان : « فبكيه » (٥) الديوان : « ماسليت نفسى » .
(٦) الديوان : « بفاحشة علمت » .
(٧) الديوان : « بعاقبة فإن الصبر خير » . (٨) من الكامل .

واستحق ذلك لأمور : منها أنه كان موصوفاً بالحلم مشهوراً بالجود ، معروفاً بالتقدّم والشجاعة ، محظوظاً فى العشيرة ، ثم أنشد الأبيات المتقدّمة [١].

وكان صخر أحلَ رجل فى العرب ، وكان سبب قتله أنه جمع جمعاً ، وأغار على بنى أسد بن خزيمة ، فنذِرُوا به والتقوا ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، فارفضّ أصحاب صخر عنه ، فطعنه ربيعة بن ثور الأسدىّ ، فأدخل جوفه حلقا من الدِّرع ، فاستقَلَ [٢] منها ، وسار إلى أهله فاندمل عليه الجرح ، ونتأ منه مثل اليد ، فأضناه ذلك حولاً ، فسمع سائلا يقول لامرأته : كيف صخر اليوم ؟ فقالت : لا حىٌّ فيرجَى ، ولا ميت فيُنْعَى ، ولقد لقينا منه الأمَرَّين ـ وامرأته بديلة الأسدية وكان سباها من بنى أسد ، واتخذها لنفسه ـ فلما سمع قولها علم أنها بَرِمَتْ منه ، ورأى تحزّن [٣] أمه عليه ، فقال :

أرَى أمَّ صخرٍ لاتجفُّ دموعُها ... وَملَّتْ سُليمى مضجعِى ومَكانِى

وما كنتُ أخشى أن أكونَ جِنازة ... عليكِ ، ومَنْ يغترُّ بالحدَثَانِ

أهمّ بأمر الحزم لو أستطيعهُ ... وقد حيل بين العِير والنَّزَوَانِ

لعمرِى قَدْ نبّهتِ مَنْ كان نائما ... وأسمعتِ مَنْ كانتْ له أذنانِ

فأىّ امرىء ساوى بأمّ حليلةً ... فلاعاش إلا فى شَقًى وَهوَانِ

ثم عزم على قطع ذلك الموضع ، فلما قطعه يئس من نفسه ، فقال :

أجارتَنا إنّ الخطوب قريبُ ... على الناس ، كلّ المخطئين تصيبُ

أجارتَنا إنّا غريبان هاهنا ... وكلّ غريب للغريب نسيبُ

---

(١) الكامل ٤ : ٥١ .

(٢) ط : « فاستعل » تحريف . وفى الكامل : « استقل بها » .

(٣) الكامل : « حزن أمه » .

فلما مات دفن فى أرض بنى سُلَيم بقرب عَسِيب[1] .

وحضرت الخنساءُ القادسيّة مع بنيها وهم أربعة رجال ، فقالت لهم من أول الليل : يابنىّ إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذى لا إله إلا هو ، إنكم لبَنُو رجلٍ واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ماخنت أباكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هجّنت حسبَكم ، ولا غيّرت نسبَكم ، وقد تعلمون ما أعدّ الله تعالى للمؤمنين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين . واعلموا أنّ الدار الآخرة خيرٌ من الدار الفانية ، يقول الله عز وجل : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا اصبروا وصابرُوا ورَابِطُوا واتّقُوا اللهَ لعلّكُمْ تُفلحون ﴾ ، فإذا أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين فاغدوا لقتال عدوّكم مستبصرين ، وبالله على أعدائه مستنصرين ، فإذا رأيتم الحرب قد شمّرتْ عن ساقها ، وجلّلَت نارا على أوراقها ، فتيمّمُوا وطيسَها ، وجالدوا رسيسها ، تظفروا بالغُنْم والكرامة فى دار الخلد والمقامة . فلمّا أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم فتقدّموا واحداً بعد واحد ، يُنشِدون أراجيزَ يذكرون فيها وصيّة العجوز لهم ، حتى قُتِلوا عن آخرهم ، فبلغها الخبر ، فقالت : الحمد لله الذى شرّفنى بقتلهم ، وأرجو من ربّى أن يجمعنى بهم فى مستقرّ الرحمة .

وكان عمر بن الخطاب يعطيها أرزاق بنيها الأربعة ، وكان لكلٍّ منهم مائتا درهم ، حتى قُبِض رضى الله تعالى عنه .

قوله : قعيدة رحل ، أى امرأة يتق . وناقةٌ طروقة : بلغت أن يطرَقها الفحل . وأنفت . استنكفت وكرهتْ .

* * *

قال : فتذمّرتِ المرأة وتنمّرَتْ ، عن ساعِدِها وشمّرَتْ ، وقالت له : يا أَلأَمَ مِنْ مادِرٍ ، وأَشْأَم مِنْ قاشِرٍ ، وأَجْبَنَ من صافِرٍ ، وأَطْيَشَ

---

(١) الخبر والشعر فى الكامل ٤ : ٦٠ ، ٦١ مع اختلاف فى العبارة وتغيير فى الأبيات .

من طامر ؛ أترميني بشنارك ، وتفري عرضي بشفارك ، وأنت تعلم أنك أحقر من قلامة ، وأعيب من بزلة أبي دلامة ، وأفضح من حبقة ، في حلقة ، وأحير من بقة، في حقة .

وهبك الحسن في وعظه ولفظه ، والشعبي في علمه وحفظه ، والخليل في عروضه ونحوه ، وجريراً في غزله وهجوه ، وقساً في فصاحته وخطابته ، وعبد الحميد في بلاغته وكتابته ، وأبا عمرو في قراءته وإعرابه ، وابن قريب في روايته عن أعرابه ؛ أتظنني أرضاك إماماً لمحرابي ، وحساماً لقرابي ، لا والله ولا بواباً لبابي ، ولا عصا لجرابي .

* * *

تذمرت: غضبت، وتذمر الرجل، إذا رأى ما يكرهه فغضب وتهدد ،والذمر: اللوم والحض،وذمر قائد الجيش أصحابه يذمرهم ، إذا لامهم وأسمعهم مايكرهون ليجدوا في القتال . تنمرت : تغيرت وتشبهت بالنمر ، ولا يوجد النمر إلا مستنكراً غضبان ،ونمر الرجل وتنمر :تنكر وتغير. حسرت عن ساعدها : شمرت عن ذراعها . أطيش : أخف ، والطيش : خفة العقل .

والطامر : البرغوث، يقال له طامر ابن طامر . قال الأصمعي : كنت بالبادية فرأيت أعرابيًا قد بسط كساءه ليفليه في الشمس ، فوقفت أنظر إليه ، فجعل يأخذ البراغيث ، ويدع القمل ، فقلت له : لم تأخذ بعضا وتدع بعضا ؟ فقال : أبدأ بالفرسان ثم أعكر[1] على الرجالة .

(١) عكر على الشيء : كر وانصرف إليه .

سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يسبّ برغوثا ، فقال : « لا تسبه فإنه نبّه نبيًا من الأنبياء لصلاة الفجر » .

أبو الدرداء رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا آذاك البراغيث ، فخذ قدحاً من ماء ، واقرأ عليه سبع مرات ، ﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هدانا سبلنا ﴾ إلى قوله : ﴿ المتوكلون ﴾[1]. فكفّوا شرّكم وأذاكم عنّا ، ثم ترشّ الماء حول فراشك ، فإنك تبيت الليلة آمناً من شرّها » .

شَنارك : عيبك وعارك . تفرِى : تقطع ، وفرى ، يستعمل فى القَطْع على جهة الإصلاح ، وقد جاء هنا فى الإفساد ، ومنه قول الشاعر :

فَرَى نائباتُ الدهر بينى وبينَها وصَرْفُ الليالى مثلَ مافُرِىَ الجِلْدُ

ابن سيده : فَرَى الشىء يفريه فرياً وفرّاه تفريةً ، كلاهما شقّه وأفسده . وأفراه أصلحه ، والمتقِنون من أهل اللغة ، يقولون : فرى : شَقّ للإفساد وأفرى للإصلاح. وقيلَ: أفراه أفسده ، وفراه:قطعه للإصلاح. قال الأصمعىّ رحمه الله: أفرى الجلدَ مَزّقه وأفسده ، يُفريه إفراء ، وفرى المزادة يفريها فَرْياً : خرزها .

القُلاَمة : مايقص من الظفر ، وبها يتعلق وسخه ، فهى مع حقارتها مستقذَرة .

[ذكر أبى دلامة]

وأما أبو دُلامة ، فاسمه زَنْد ــ بالنون ــ بن الجون ، وهو كوفىّ أسود ، مولى لبنى أسد ، أدرك آخر أيام بنى أميّة ، ونبغ فى أيام بنى العباس ، ومدح السّفّاح والمنصور والمهدىّ ، وكان صاحبَ نوادر ومُلَح ، وكان خليعاً فاسد الدين ، ردىء المذهب ، وقد تقدّم له شىء من ذلك فى الصّلاة والحجّ ، ونذكر له هاهنا شيئاً فى الصيام ، ونضيف له فنوناً من سائر مُلَحه .

وأما بغلته فكانت جامعةً لعيوب الدوابّ كلها ، وكانت أشوَهَ الدوابّ

(١) سورة إبراهيم ١٢

خِلْقَةً فى منظر العين، وأسوأها خلقاً فى مخبرها ، فكان إذا ركبها تبعه الصبيان يتضاحكون به ، وكان يقصد ركوبها فى مواكب الخلفاء والكبراء ، ليضحكهم بشماسها ؛ حتى نظم فيها قصيدته المشهورة[1] وهى :

أبَعْـدَ الخيل أركَبُها كراماً ... وبعد الفُرْهِ مِنْ حُضْرِ البغالِ[2]

رُزِقْتُ بُغَيْلَةً فيهـا وِكَالٌ ... وليتَهُ لم يكُنِ غيْرَ الوِكالِ[3]

رأيتُ عيوبَها كَثُرَتْ وغالتْ[4] ... وإن أكْثَرْتُ ثَمَّ من المَقالِ[5]

لِيُحصِيَ[6] منطقى وكلام غيرى ... عُشَيْرَ خصالها ، شرُّ الخصالِ[7]

فأهْوَنُ عَيْبِها أنِّى إذا ما ... نزلتُ وقلت : إمشى لاتُبالِى

تقومُ فما تَبُتُّ[8] هناك شِبْراً ... وتَرْمَحُنِى وتأخذ فى قِتالِى

وحِينَ ركوبُها آذيت نفسى[9] ... بضربٍ باليمين وبالشِّمالِ[10]

---

(١) وردت هذه القصيدة فى ثمار القلوب للثعالبى ٣٦١-٣٦٤ ، وكتاب القول فى البغال للجاحظ ، وأبيات منها فى الأغانى ١٠ : ٢٦٥ ، ونهاية الأرب ١٠ : ٨٩ .

(٢) ثمار القلوب : « بعد الغر » والبيت فى كتاب البغال ونهاية الأرب :

أبعـد الخيل أركبها وراداً ... وشُقْرًا فى الرَّعيل إلى القتالِ

(٣) الوكال : الكسل والبطء .

(٤) كذا فى كتاب البغال : وفى ثمار القلوب : « وعييت فيها » . وفى نهاية الأرب « وعالت » وفى ط: « وليست »

(٥) كتاب البغال ونهاية الأرب وثمار القلوب : « ولو أفنيت مجتهدا مقالى » .

(٦) ثمار القلوب : « ليحصر » .

(٧) ثمار القلوب : « فخير خصالها شرح الخصال » ، ولم يرد هذا البيت فى نهاية الأرب .

(٨) ثمار القلوب : « فما تسير هناك سيراً » . وفى كتاب البغال : « تقوم فما تريم إذا استحثت » .

(٩) ثمار القلوب : « وحين ركبتها آذيت نفسى » .

(١٠) ثمار القلوب : « أركزها » .

وبالرِّجلَيْنِ أركُضُها جمِاً ... فهالك فى الشقاء وفى الكلالِ[1]

أتانى خائبٌ يَسْتامُ[2] منِّى ... عربق[3] فى الخسارةِ والضَّلالِ

وقال تبيعُها ؟ قلتُ ارتَبِطْها ... بحكمك إنَّ بيعى غيرُ غالِ

فأقبل ضاحكاً نحوى سرورا ... وقال أراك سَهْلاً ذا جمالِ

هلمَّ إلىَّ يَخْلُو بى خِداعاً[4] ... ومايدرى الشقُّ بمن يُخالِى

فقلت بأربعين فقالَ أحْسِنْ ... إلىَّ فإن مثلك ذو سِجالِ[5]

فأتْرُكُ خمسةً منها لعلمى ... بما فيــه يصيرُ من الخبالِ

فلمّا ابتــاعها منى وبُتَّت ... له فى البيع غيرِ المُستَقالِ

أخَــذتُ بثوبه وبرئتُ ممّا ... أعدّ عليه من سُوء الخلالِ

بَرِئْتُ إليك من مَشَشٍ[6] قديم ... ومن جَرَدٍ[7] ومن بَلَلِ الخالى[8]

---

(١) بعده فى كتاب القول فى البغال ونهاية الأرب :

رياضةُ جاهلٍ وعُلَيْج سَوْء ... من الأكراد أحبَن ذى سُعالِ

شتيم الوَجْهِ هِلْباجٍ هِدَانٍ ... نَئُوسٍ يوم حَلٍّ وارتِحالِ

فأدّبهـــا بأخلاق سمـــاجٍ ... جزاه الله شراً عن عِيالِى

فلمّا هدَّنى ونفى رُقادى ... وطالَ لِذاكَ همّى واشتِغالى

أتيتُ بِهاَ الكناسةَ مستغيثاً ... أفكّر دائباً كيف احتيالى

بمُهــدةِ سِلْعةٍ ردّت قديماً ... أطمُّ بِهاَ على الدّاء العُضالِ

فبينا فِكرَتى فى السّوم تَمرِى ... إذا ماسُمتُ أرخصُ أم أغالى

(٢) كتاب البغال وثمار القلوب ونهاية الأرب : « حق شقى » .

(٣) فيما عدا الشريشى : « قديم » .

(٤) كتاب البغال ونهاية الأرب : « وراوغنى ليخلو بى خداعا » .

(٥) السجال هنا : المباراة والمساجلة ، يريد أنه لا يماكس فى الثمن » .

(٦) المشش : ورم يأخذ فى مؤخر عظم الوظيف أو باطن الساق .

(٧) الجرد فى الدواب : ورم فى مؤخر عرقوب الفرس يعظم حتى يمنعه المشى .

(٨) فى كتاب البغال ونهاية الأرب وثمار القلوب : « وتخريق الجلال » وبعده فيها :

ومن فرطِ الحِرَانِ ومن جماحٍ ... ومن ضَعْفِ الأسافِلِ والأعالى

ومن فَتَقٍ بها فى البطن ضخمٍ ... ومن عُقّالها[1] ومن انفتالِ

ومِنْ قطع اللسان ومن بياضٍ ... بعينيها ومن قَرْض الحبالِ[2]

ومن عضّ الغُلام ومن خِراطٍ[3] ... إذا ماهمّ صحبُك بارتحال

وأقطَى من فُرَيخ الذّر مشيا ... بها عَرَنٌ وداء من سُلال[4]

وتكسِرُ سرجها أبدا شِماساً ... وتقمص للإكاف على اغتيال[5]

ويُدْبِرُ ظهرُها من مَسّ كفّ ... وتهزم فى الجمام وفى الجلال[6]

تظلّ لِرَكْبةٍ منها وقهـذا ... يخاف عليك من وَرَم الطِّحال

ومِشْفارٌ[7] تقدّم كلّ سرج ... تصيّر دَفّتيه على القَذَال

وتَحْفَى لو تسيرُ على الحشايا ... ولو تمشى على دَمِثِ الرِّمالِ

إذا استعجلتَها عثَرَتْ وبالتْ ... وقامتْ ساعة عنـد المبال

وتضرِط أربعين إذا وقفنا ... على أهل المجالس للسُّؤال

فتقطع منطِقى وتحول بينى ... وبين حديثهم فيما تُوالِى

وتذعَرُ للدّجاجة إذ تراها ... وتنفِـــر للصّفير وللخيَال

---

(١) العقال : داء يأخذ فى قوائم الدابة .

(٢) كتاب البغال : « بناظرها ومن حل الحبال » ، وبعده :

وعقّالٍ يُلازمها شديدٍ ... ومن هَدْمِ المعالف والرِّكالِ

تُقطّع جلدها جرَباً وحكاً ... إذا هُزِلتْ وفى غير الهُزالِ

(٣) كتاب البغال ونهاية الأرب : « ومن عند العضاض ومن شباب » .

(٤) العرن : داء يأخذ الدابة فى آخر رجلها ، وفى غير العمريشى : « وألطف »

(٥) فى كتاب البغال :

وتُلقِى سَرْجَها أبداً شِماساً ... وتَسْتَنط فى الوحول وفى الرّمال

(٦) فى نهاية الأرب :

وتَهزَلُ لَمّا الجمام إذا خَصِبنا ... ويُدْبِرُ ظهرَها مسٌّ الجِلال

(٧) ط : « ومشغار » ، والصواب ما أثبته من نهاية الأرب .

فأمّا الاعتلاف فأدْنِ منها ... من الأتبان أمثال الجبال
وأما القَتّ فأتِ بألف وَقْرٍ ... بأعظم حمْلِ أحمال الجمال
فلستُ بعالفٍ منها ثلاثا ... وعندك منه عودٌ للخلال
وإن عطشت فأوردْها دُجَيْلاً ... إذا أوْرَدْتَ أو نهرىْ بِلاَلِ[1]
فذاك لريِّها سُقِيتْ حبا ... وإنْ مدّ الفُرات فللنهالِ
وكانت قارحاً أيّام كسرى[2] ... وتذكُر تُبّعاً عند الفعالِ
وقد دَبرَتْ ونُعمانٌ صبىّ[3] ... وقَبْل فِصاله تلك الليالى[4]
وتَذْكُر إذ نشا بِهرَامُ جُورٍ[5] ... وعامِلُه على خَرْجِ الجوَالِى
وقد مَرّتْ بقَرْنٍ بعد قَرْنٍ ... وآخرُ عهدها لهلاك مالى
فأبْدِلْنى بها يارب طِرْفاً[6] ... يزين جمالُ مِشْيَتِهِ جمالِى

وأنشدها المهدىّ ، فقال : لقد أقِلْتَ من بلاء عظيم ، فقال : والله يا أمير المؤمنين لقد مكثت شهرا أتوقّع صاحبها أن يردّها . فقال المهدىّ لصاحب دوابّه : خيّره بين مركبين فى الإصطبل ، فقال : إن كان الاختيار إلىّ فقد وقعت فى شرّ من البغلة ، ولكن مره يختر لى ، ففعل .

وفى القصيدة ألفاظ من الغريب أبينها ، فمنها يقال : وَاكَلَتِ الدابة وِكالا : أساءت السير. ورمحت ترمح: ضربت برجليها والمَشَش: داء فى قوائمها . والجرَد. استرخاء العَصَب ،والعُقّال: أن تنقبض القوائم ولا تنبعث ، والخِرَاط :

(١) يشير إلى النهر الذى حفره بلال بن أبى بردة بالبصرة .
(٢) القارح من ذى الحافر: الذى شق نابه وطلع .
(٣) كتاب البغال : « ونعمان فطيم » .
(٤) كتاب البغال : « وذو الأكتاف فى المجح الحوالى » .
(٥) بهرام جور ، من ملوك ساسان .
(٦) الطرف : الفرس الجواد .

الجماح ، والعَرَن: حكة وشقاق فى القوائم ، وقد عرن عرَنا، وقمص يقمُص ويقمِص قمصا وقماصا : رفع يديه معاً وطرحهما معا ، وعجن بيديه ، وقطا يقطو : قارب الخطو .

وكان لأبى دلامة بِرْذون أعجف محطّم هرِم ، فدخل على المهدىّ يوما وبين يديه سَلَمة الوصيف ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنِّى جلبتُ لبابك مهراً ليس لأحدٍ مثله ، وأحببت أن أهدِيَه لك ، فإنْ أحببت أن تشرّفنى بقبوله ! فأمر بإدخاله ، فخرج وأدخل برذونه ، فقال له المهدىّ: أىّ شىء هذا ويلك! ألم تزعم أنه مُهر ، فقال له أبو دلامة : أو ليس هذا سَلَمة الوصيف قائما بين يديك تسمّيه الوصيف وله ثمانون سنة ! فإن كان سَلَمة وصيفاً فهذا مُهر ، فجعل المهدىّ يضحك وسَلَمة يشتمه ، فقال له المهدىّ : ويلك ! إن لهذه أخوات ، والله ليَضحكنّ بك فى المحافل . فقال : والله يا أمير المؤمنين لأفضحنّه ، فليس فى مواليك أحد إلاّ وقد وصلنى غيره ، فما شربت الماء له قطّ . فحكم عليه المهدىّ أن يشترىَ نفسه بثلاثة آلاف درهم ، فقال له سلَمة . على ألاّ تعاود ، فقال أبو دلامة : أفعل ، فحملها إليه .

ومما ينتظم بهذا النمط أن محمد بن عبيد الله بن خاقان حمل أبا العيناء على فرس ، فكتب إلى أبيه : أعلم الأمير أعزه الله أنّ أبا محمد أراد أن يبرّنى فعقّنى ، وأن يُركبنى فأرجلنى ، أمر لى بدابة تقف للنَّبرة ، وتعثر بالبعرة ، كالقضيب اليابس عجفاء ، وكالمهجور البائس دنفاء ، قد أذكر الرواة عروة العذرىّ والمجنون العامرىّ ، مباعداً أعلاه لأسفله ، حباقه مقرون بسعاله ، فلو أمسك لترجَّيْت ، ولو أفرد لتعزّيت ، ولكنه يجمعها فى الطريق المعمور ، والمجلس المشهور ، كأنه خطيب مرشد ، أو شاعر منشد ، يضحك من فعله النّسوان ، ويتفاعى من أجله الصبيان ، فمن صائح يصيح : داوه بالطباشير ، ومن قائل

يقول : نقّ له الشعير ، قد حفظ الأخبار وروى الأشعار ، ولحق العلماء فى الأمصار ، فلو أعين بنطق لروَى بحق وصدق ، عن جابر الجعفىّ وعامر الشعبىّ . ولم أوتَ من أمر الأمير أعزّه الله ، وإنما أُتيتُ من كاتبه الأعور ؛ الذى إذا اختار لنفسه أصاب وأكثر ، وإذا اختار لغيره أخبث وأنزر ، فإن رأى الأمير أن يبدلنى ويريحنى بمركوب يضحكنى كما أضحك منّى ، يمحو بحسنه وفراهته ، ما سطّره العيب بقبحه ودناءته ، ولست أذكر سرجه ولجامه ، لأن الأمير أكرم من أن يَساب ما يهديه ، وينقص ما يمضيه . فوجّه إليه ببرذوْن بسرجه ولجامه ، ثم اجتمع بابنه محمد عنده ، فقال له عبيد الله : شكوت دابة محمد ، وقد أخبرنى أنه يشتريه الآن منك بمائة دينار ، وهذا ثمنه لا يؤخر عنك ، فقال : أعز الله الوزير ، لو لم أكذب مستزيدا ، لم أذهب مستفيدا ، وإنى وإياه لكما قالت امرأة العزيز : ﴿ أنَا راودْتُه عن نفسه وإنّه لمنَ الصّادِقِينَ ﴾ .

وقال ابن رشيق فى بغل :

أوصيكَ بالبغل شرًّا	فإنه ابن الحمـــارِ[1]
لا يصلُح البغــل إلا	للكدِّ والأسفــار
كالعبد إن لم تُهِنْهُ	جَنَى على الأحرارِ
ما اعتاض بغلاً بِطِرْفٍ	إلاّ أخـــو إدبارِ[2]

وله أيضاً فيه :

فأوصيكمو بالبغـــل شرًّا فإنّه	من العَيْرِ فى سوء الطّباع قريبُ[3]
وكيفَ يَجِىء البغلُ يوما بحاجةٍ	تَسُرّ وفيـــه للحمار نصيبُ !

---

(١) نقله الميمنى فى النتف ٣٦ .

(٢) الطرف بالكسر : الفرس الجواد ؛ والياء دخلت على المتروك .

(٣) نقله الميمنى فى النتف ٦ .

وله من قصيدة :

أوْ بَغْـلةٍ سفواء تعرض للفتى ... فتخال تحت السَّرْج أمَّ غزالِ[١]
سألتُ إلى الأم الهجانَة من أبٍ ... وزهتْ على الأعمام والأخوالِ
وكأنهـا قد أفرِغت فى قالبٍ ... لا أنهـا خُلِقَتْ على تِمثالِ

وله من قصيدة أيضاً :

كأنِّى ببعضُ نُجومِ السَّماء ... تصعَّد فى الجوِّ ثم انحدرْ
على رسلةٍ من هِبات الملو ... كِ سَفْوَاء ململومةٍ كالحجرْ
تَعاونَ فى جَـدْلِ أعضائها ... بنو أخْدَرٍ وبنات الأغرْ

ولمحمد بن يسير[٢] الخارجىّ فى بغلة :

نَزَعتْ من الخيلِ العِتَاق نجارها ... منهـا وعِتْقَ سوالفٍ ولَبَانٍ[٣]
ولهـا من الأعيـار عند مسيرها ... [٤] قِحَةٌ وطولُ صَبَارَةٍ ومِرَانِ

رجعنا إلى أخبار أبى دلامة .

يحكى أنّ المهدىّ أو المنصور ـ أنشده ما أعجبه ، فكساه طيلسانا وأمر له بمال ، وعاهده ألاّ يشرب الخمر ، فحلف له وخرج إلى بنى داود بن علىّ فضحكوا به . وقصّ عليهم خبره فسقوْه حتى أسكروه وأخرجوه ، فأعلِمَ المهدىّ الخبر ، فأرسل فيه ، وأمر الرّسول بسجنه وتخريق ساجِه ، وألاّ يمكن

---

(١) نقله فى النتف ٦٣ .

(٢) ط : « بشر » تحريف ، وهو محمد بن يسير ، شاعر ظريف من المحدثين . وله ترجمة فى الشعر والشعراء ٨٧٩ ـ ٨٨٠ والأغانى ١٢ : ١٣٩ ـ ١٣١.

(٣) القول فى البغال ٧٥ من مقطوعة طلب فيها من مويس بن عمران بغلة لرحله . وفيه : « نجادها » .

(٤) القول فى البغال « جد » ، وفيه « قال ذلك لأن حافر العير أوقح الحوافر » .

من قرطاس ولا مداد ، ففعل به الرسول ذلك ، فانتبه فى جوف الليل فنادى جاريته فقال له السجان: طعنة فى كبدك فقال له : ويلك ! مَنْ أنت ، وأين أنا ؟ فقال له : سَلْ نفسك أين كنت عشاء أمس ؟ فاستحلفه مَنْ أنت؟ فقال : أنا السجان ، بعث بك أمير المؤمنين وأنت سكْران ، فأمرنى أن أحبسك مع الدجاج ، فقال : أحبّ أن تُسرِج لى سراجا ، وتأتينى بداوة وقرطاس ، ولك عندى صِلة ، فقال له. أما السِّراج فنعم ، وأما القرطاس والدواة ، فقد أُمِرْت ألاّ أمكّنك منهما . فلما أتاه بالسِّراج وجد ساجَه مخرَّقا ملطّخا بازبال الدجاج ، ورأى نفسه جالساً بينها ، فقال له : ادع لى ابنى دلامة ، فدعاه ، فأمره أن يجيدَ حلاقة رأسه ، وأن يأتيه بفَحْمة ، ففعل ، فكتب على رأس ابنه :

أمِنْ صهباء صافيةِ المِزاجِ كأنَّ شُعاعَها لهبُ السِّراجِ(١)

تَهشّ لهـا القلوب وتشتهيها إذا برزت تَرَقرقُ فى الزُّجاجِ

أقاد إلى السجون بغير جُرْمٍ كأنى بعضُ عمّال الخراجِ

ولو معهم حبست لكان خيراً ولـكنّى حُبِسْتُ مع الدَّجاجِ(٢)

أمير المؤمنين فدتك نفسى ففيم حبستنى وخرقت ساجى

على أنى وإن لاقيت شرّا لخيرك بعد ذاك الشرّ راجى

ثم قال : يا أمير المؤمنين،هذه أمانة ، فإذا قرأتها فمزّق الرقعة. ثم أمر دُلامة أن يدخل عَلَى أمير المؤمنين ويقرئه ما فى رأسه ، فأتى الباب وصاح : دعوة

---

(١) وبعده فى الأغانى :

وقد طُبِخَتْ بنـار الله حتّى لقد صارتْ من النُّطَفِ النِّضاجِ

(٢) بعده فى الأغانى :

وقدْ كانتْ تخبّرنى ذنوبى بأنّى من عقابك غيرُ ناجى

المظلوم ، فعلم أمير المؤمنين بمكانه فأمر بإدخاله ، فكشف رأسه ، وقال: إن ظُلامتي مكتوبة في رأسي ، فأُدْنِيَ منه حتى قرأها فاشتدّ ضحكه ، وعجب من جهالته وأمر بإخراجه ، وقال : ما كان أحوج هذه الرقعة أن تُمزّق ، ثم وصله بصلة ، ونهاه أن يوجَد سكران[١] .

وخرج المهديّ يتصيّد ومعه عليّ بن سليمان ، فسنحَ له قطيع من الظّباء ، فأرسلتْ الكلابُ وأجْرَيتِ الخيل ، فرمى المهديّ سهماً فصرع ظبياً ، ورمى عليّ بن سليمان سهما فصرع كلباً ، فقال أبو دلامة :

قَدْ رَمَى المهديّ ظبياً شَقَّ بالسَّهْمِ فُؤادَهْ
وعليّ بن سليما ن رَمَى كلبا فصادَهْ
فهنيئاً لهما كلُّ امرىءٍ يأكل زادَهْ

فضحك المهديّ حتى كاد يسقط .

ومن مُلحه ، أنه دخل على المهديّ ، وعنده وجوه بني هاشم ، فقال : أنا أعطي الله عهداً لئن لم تَهْجُ واحداً ممّن في البيت لأقطعنّ لسانك ، فنظر إلى القوم ، فكلّما نظر إلى واحد غمزه بأن عليه رضاه ، قال : فعلمت أني وقعتُ ، وأنها عزْمَةٌ من عزماته لابدّ منها ، فلم أرَ أدعى إلى السّلامة من هجاء نفسي ، فقلت :

ألاَ أبلِغْ لديك أبا دُلاَمَهْ فليسَ من الكرامِ ولا كَرَامَهْ
إذا لبس العمامة كان قردًا وخنزيراً يكون بلا عِمَامَهْ
جمعتَ دمامةً وجمعت لؤما كذاك اللؤم تتبعه الدّمَامَهْ
فإنْ تكُ قد أصبتَ نعيمَ دُنْيا فلا تفرحْ فقد دَنَتَ الْقِيامَهْ

(١) الخبر في الأغاني ١٠ : ٢٥٢ مع اختلاف في رواية الخبر والشعر .

فضحكوا ، ولم يبق أحد إلاّ أجازه[١] .

وخرجت[٢] له صبيّة فأخذها على كتفه ، فبالت عليه فرمى بها ، وقال :

بَلَلْتِ عليّ - لا حُيِّيتِ - ثوبي ... فبالَ عليكِ شيطان رجيمُ
فما ولدتك مريمُ أمّ عيسى ... ولا ربّاك لقمانُ الحكيمُ
ولكن قد تضمُّك أم سوء ... إلى لبّاتها وأبٌ لئيمُ

ولمّا خرجت الخيزران إلى الحج تلقّاها ، فصاح: الله الله في أمري ! فسألته عن أمره فقال : إني شيخ كبير ، وأجرُك فيّ عظيم ، تَهَبين لي جارية تؤنسني وترْفُق بي ، وتُريحني من عجوز عندي ، قد أكلت رِفْدي ، وأطالت كدّي ، وقد عزف[٣] جلدَها جلدي ، وتمنّيت بُعْدَها ، وتشوقت فَقْدَها ، فوعدته بها ، فلمّا جاءت من الحجّ دخل على أم عُبيدة حاضنة موسى وهارون ، فدفع إليها رقعة ، فدفعتْها إلى الخيزُران وفيها :

---

(١) الخبر في الأغاني ١٠ : ٢٥٨ .

(٢) الخبر في الأغاني ١٠ : ٢٤٠ : « دخل أبوعطاء السندي يوما إلى أبي دلامة ، فاحتبسه عنده ، ودعا بطعام فأكلا وشربا ، وخرجت إلى أبي دلامة صبية فحملها على كتفه ، فبالت عليه ، فنبذها عن كتفه ، ثم قال : بللت على ... البيتين ، ثم التفت إلى أبي عطاء ، فقال له : أجز ، فقال :

صدقتَ أبا دُلامَةَ لم تلدها ... مطهّرةٌ ولا فَحْلٌ كريمُ
ولكنْ قَدْ حوَتْها أمّ سوء ... إلى لبّاتها وأب لئيمُ

فقال له أبو دلامة : عليك لعنة الله ! ماحملك على أن بلغت بي هذا كله ! والله لا أنازعك بيت شعر أبدا . فقال أبوعطاء : لأن يكون الهرب من جهتك أحب إلي » .

(٣) الأغاني : « عاف » .

وفيها :

أبلغى سيّدى إن شئتِ يا أمّ عبيدهْ
أنّها أرشدها الله وإن كانت رشيدهْ
وعدتنى قبل أن تخرج للحجِّ وَليدهْ
إننى شيخٌ كبيرٌ ليس فى بيتى قعيدهْ
غير عجفاء عجوزٍ ساقُها مثل القديدهْ
وجْهها أقبح من حو تٍ طرىٍّ فى عصيدهْ
ما حياتى مع أنثى مثلِ عرسى بحميدهْ [(١)]

فضحكت واستعادت «حوتاً فى عصيده» وهي تضحك ، ثم قالت لجارية : خذى ما عندك فى قَصْرى وامشى إليه . فلمّا بلغها الرسول منزلَهُ لم يجده ، فدفعها إلى امرأته ، ودخل دُلامة وأمّة تبكى ،فسألها فأخبرته وقالت :إن أردتَ برّى يوماً من الدّهر ، فاليوم . قال لها : قولى ماشئتِ أفعله ، قالت : تدخل إليها ، وتُعلِمها أنّك مالكها ، فتطؤها فتحرُم عليه ، وإلاّ شغلته بجفائى وجفاك . ففعل ، وجاء أبو دُلامة فسألها عنها ، فقالت : هى فى ذلك البيت ، فدخل ومدّ يده إليها ، وذهب ليقبّلها ، فرأت شيخاً عظماً قبيح الوجه ، فقالت : تنحّ وإلاّ لطمتُك لطمةً دَقَقتُ بها أنفَك . فقال : وبهذا أوصتك سيدتك ؟ فقالت : إنها بعثتنى إلى فتى من صفته كذا وكذا ، وقد نالَ حاجته منى آنفاً . فعلم أنه دهاء من دلامة وأمه [(٢)] ، فخرج ولطمه ولَبَبه [(٣)] .وحلف ألاّ يفارقه إلاّ إلى المهدىّ ، فمضى على تلك الحالة حتى دخل إلى المهدىّ ،فقال له : ما بالك

(١) الأغانى : « بسعيده » .
(٢) الأغانى : « فعلم أنه دهى من أم دلامة وابنها »
(٣) لببه : أخذ بتلبيبه ، أى جمع ثيابه عند صدره ونحره فى الخصومة ثم جره .

وَيْحك ! فقال له : حمل بى هذا ابنُ الخبيثة ما لم يعمله أحدٌ بأبيه ، ولا يرضيني إلا أن تقتله ، وأخبره الخبر . فضحك المهدىّ حتى استلقى ، وأبو دلامة يقول : يعجبك فعله ، فتضحك منه ! فقال : علىّ بالسيف والنطع ، فقال دلامة : اسمع حجتى يا أمير المؤمنين ، كما سمعتَ حُجّته ، فقال : هاتِ ، فقال : هذا الشيخ أصفقُ الناس وجهاً ، وهو ينيك أمى منذ أربعين سنة فما غضبت ، ونِكْتُ جاريتَه مرة واحدة فغضب . فضحك المهدىّ أشد من ضحكه الأوّل ، فقال : دعها له [يا أبا[1] دلامة] ، وأنا أعطيك خيراً منها ، فقال : على أن تخبأها بين السماء والأرض ، وإلاّ ناكها كما ناك هذه ، وحلف لدلامة إن عاد ليقتلنّه[2] .

وجاء دُلامة لأبيه فى محفل ، وجلس بين يديه ، وقال للجماعة : إنّ شيخى كما ترون قد كَبِر سنّه ، ورقّ جلده ودقّ عظمه ، وبنا إلى حياته حاجة ، وأنا لا أزال أشير عليه بشىء يمسك رمقَه ، ويبقى قوّته ؛ فيخالفنى . وأرغب إليكم أن تسألوه قضاء حاجة فيها صلاح جسمه ، فقالوا : حبًا وكرامة ، فأخذوا أبا دلامة بألسنتهم ، فقال : قولوا له الخبيث فليقلْ ما يريد ، فستعلمون أنه لم يأتِ إلاّ ببليّة . فقال : إنما يقتله كثرة النَّيْك ، ولا يدفعه عنه إلا الخصاء ، فتعاونونى عليه حتى أخصيَه ، فضحكوا منه كثيراً ، وقالوا لأبيه : قد سمعتَ فما عندك ؟ فقال : قد عرّفتكم أنه لم يأت بخير ، وقد جعلتُ أمه حكما بينى وبينه ، فقوموا إليها ، فدخلوا عليها وقَصُّوا القصّة عليها ، فأقبلت على الجماعة وقالت : إن ابنى أبقاه الله ، قد نصح أباه وبرّه ، وأنا إلى بقاء أبيه أحوج منه إليه ؛ إلاّ أنّ هذا الأمر لم تقع فيه تجربة عندنا ، ولا جرت به عادة ، وهو قد ادّعى معرفة ذلك ،

---

(١) من الأغانى .

(٢) الخبر فى الأغانى ١٠ : ٢٦٣ ، ٢٦٤

فليبدأ بنفسه فليخصها، فإذا عوفي ورأينا ذلك قد أبقى عليه أثراً محموداً ، استعمله أبوه على علم ، فجعل القوم يضحكون ويَعجَبُون من اتفاقهم في الُخبْث .

وأمره المهديّ أن يلزم المسجد في رمضان ، وقال له : إن تأخّرت فلشرب الخمر ، ولئن علمتُ ذلك لأقتُلنّك ، فشق عليه ذلك ، وتشفّع إليه بكل إنسان ، فلم يشفعه ، فأدخل إلى ريْطة رقعة ، ـ وكان للمهديّ لا يخالفها ـ وفيها :

أبلغا رَيْطة أنّي كنت عبداً لأبيها

فمضى يرحمه اللـــه وأوصَى بي إليها[1]

جاء شهرُ الصوم يمشي مِشيةً لا أشتهيها

قائداً القلة ليـــلـ ر كأنّيَ أبتغيها

تنطح القِبْلة شهرا جَبهَتي لا تأتليها[2]

فاطلبي لي فرَجاً مِنـــها وأجرى لك فيهـا

فضحكت ، وقالت : يصبر حتى تمضي ليلة القَدْر ، فقال : إذا مضت ليلة القدْر فنِيَ الشهر . وكتب إليها :

---

(١) بعده في الأغاني :

وأرَاها نسيَتْني مثل نِسْيان أخيها

(٢) بعده في الأغاني :

ولَقدْ عِشْت زماناً في فيافيَ وجيها

في ليالٍ من شتاء كنتُ شيخاً أصطليها

قاعداً أوقدُ ناراً لضِبابٍ أشتويها

وصَبُوحٍ وغَبُوقٍ في هِلاب أحتسيها

ما أبالي ليلة القدْ ر ولا تُشمِعُنيها

قامت قيامتُها بين المصلِّينا خافي إلمك في نفسٍ قد اختُضِرَتْ
إنى أخاف المنايا قبل عِشْرينا ماليلةُ القَدْرِ من هَمِّى فأطلبَها
في ليـلةٍ بعد ماقمنا ثلاثينا لابارك اللهُ في خـيرٍ أؤمِّلُهُ
يالَيلة القَدْرِ حقًّا ماتُمنّينَا ! يالَيلةَ القَدْرِ قد كَسَّرْتِ أرجُلَنا

فلما قرأتها ضحكت ، ودخلت إلى المهدىّ فشفّعها[1] فيه . وأخباره كثيرة

• • •

وعلى قوله : جاء شهر الصوم قال أبو القاسم الثعالبىّ : أنشدنيه الفقيه أبو الحسن بن زرقون :

أشَهْرَ الصَّوْم مامثلـــك عندِ الله مِنْ شَهْرِ
على أنك حرَّمت علينا لذَّة السُّكْرِ
وقرعِ الكأس بالكأس ورشفَ الثَّغْر بالثَّغْرِ
وإنّى والذى شرَّ فَ أوقاتَك بالذِّكْرِ
وما أمسى يصلّى فيـــك من شَفْعٍ ومِن وِتْرِ
لمسرورٌ بأن تَفْنى على أنّك من عُمْرِى

وقال ابن المعتز :

بنحس على الكأس والبرْبطِ تجلّى عِشاء هِلاَلُ الصِّيامِ
ن نَشْوَان ذا فرح مُفْرِطِ وكم من فتى راحَ بين القيا
ه همٌّ بهمٍّ ولم يَنْشَطِ وكان نشيطاً فلمّا رآ
فتاةٌ عن الجانب الأشْمَطِ فأعرض عنه كما أعْرَضَت

---

(١) الخبر والشعر فى الأغانى ١٠ : ٢٤٩ ؛ ٢٥٠

وقال ابن رشيق :

لاحَ لى حاجب الهلال عِشاء فتمنّيت أنّني من سَحابِ[1]

قلت أهلا وليس أهلا لما قُلْــت ولـكن أسمعتُهـا أصحابى

مظهِرٌ حُبَّهُ وعندىَ بُغضٌ لعدوّ الـكؤوس والأكوابِ

الحَبْقة : الضَّرطة ، والحلقة جماعة الناس ، وربما تؤدّى فضيحتُها أمام القوم إلى أن يموتَ صاحبها غمًّا ، وقد وُجد ذلك .

* * *

[أفاكيه]

وحَبَق أعرابىّ فى جماعة فاستحيا ، فأشار نحو استه ، وقال : إنهـا خَلْف نَطقتْ خُلْفا .

وذكر الحريرىّ أن مطيع بن إياس ويحيى بن زياد وحماد الراوية كانوا يشربون ذات يوم ، ومعهم نديم لهم ، فبرزت منه فَلْتة ، فخجل وغاب عنهم أياما ، فكتب إليه مطيع :

أمِنْ قَلُوصٍ غدت لم يؤذِها أحدٌ إلاّ تذكّرها بالرَّمْل أوطانا

خانَ العِقال لها فانبتّ إذْ نَفَرَتْ وإنّمـا الذنب فيه للذى خانا

أظهرتَ منك لنا هُجراً ومعتبةً وغبتَ عنا ثلاثا لَسْت تَغشانا

هوّن عليك فما فى الناس ذو إبلٍ إلاّ وأينقه يَشْرُدْنَ أحيانا

دخل[2] أبو الفضل بديع الزمان على الصّاحب بن عبّاد ، ففرح به ، وأجلسه معه على سريره ، فَحبَق البديع حَبْقة منكرة ، ثم أراد أن ينفىَ عن نفسه التّهمة ، فقال : يامولانا هذا صرير التخت ، فقال له : بل صفير « التّحت » ، فخرج البديع خجلا ، وانقطع عن الوصول إليه فكتب إليه الصاحب :

---

(١) نقله فى التنف ١٢

(٢) يتيمة الدهر ٣ : ١٨٨

قل للصفيرى لاتذهب على خجلٍ … من ضَرْطَةٍ أشبهت نايًا على عُودِ[1]
فإنّها الريح لاتسطيع تدفَعُها … إذ لستَ أنت سليمان بن داود

تزوّج أعرابيٌّ امرأة ، فلما دخل عليها عابثها ، فضرَطت ، فخرجت غضبى إلى أهلها ، وقالت : والله لا أرجع إليه أو يفعل مافعلت، فقال لها : عودى لأفعل، فعادت ، فعابثها فضرَطت أخرى ، فقال :

طالبتِنِيَ دَينًا قديمًا فلمْ … أزنِكِ حتى زدتِ فى قرضِكْ
فلا تلوميني على مُطْلِهِ … إن كان ذا دأبَك لم أقضِكْ

قيل لأعرابيّ : ماتقول فى الضرطة ؟ فقال : لابأس بها ، وربما سبّبت الضرطة وأنا راكع فى الصلاة .

قدم أبوعلقمة الأزدىّ على الفضل بن عبد الرحمن الهاشمىّ بالبصرة ، فقال الفضل لجلسائه : إذا جلسنا على المائدة وأبو علقمة معنا فليضرِطْ أحدكم ثم الآخر ثم الآخر ، وليكن بين كلّ ضرطتين فرجة ، فلما وُضعت المائدة فعلوا ذلك ، فأخذ أبوعلقمة المائدة ، وقام بها ، فقيل له : إلى أين يا أبا علقمة ؟ قال : إلى الكنيف ، فمن أراد منكم أن يخرأ كان قريبًا .

وجلس ثقيل إلى بشار،فضرَط بشار ضَرْطَةمنكرة، فظن الرّجل أنها فلتة، فمشى فى حديثه ، فضرَط بشار ثانية وثالثة ، فقال له : ماهذا يا أبا معاذ ؟ قال : رأيتَ أو سمعتَ ؟ قال : بل سمعت ،قال: كلّ ماسمعت ريح لاتصدق حتى ترَى .

* * *

قوله : حُقّه ، أى وعاء الطِّيب، ويقال له : حقّ والجمع حِقاق ، وتهدل عامتنا من قافه كافا ، والروائح العطرة مضرّة بهذه الهوام المنتنة ، وقد قال المتنبى :

بذى الغَباوة من إنشادِها ضررٌ … تضرّ كما تضرّ رياح الورد بالجُعَلِ[2]

---

(١) يتيمة الدهر :

يابن الخضيرىّ لاتذهبْ على خجلٍ … لحادث منك مثل النّاى والعودِ

(٢) ديوانه ٣ : ٤٠

قوله هبك ، أى حسبك .

* * *

[ترجمة الحسن البصرى]

وأما الحسن فهو أبو سعيد بن أبى الحسن البصرىّ ، وهو من التابعين . ولد بالمدينة لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، وأمّه اسمها خَيْرة ، وكانت مولاة لأمّ سلَمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، فكانت تُعطيه ثديَها إذا اشتغلتْ أمه ، فدرّ ثديها له باللبن ، فأظهر الله تعالى بركة ذلك اللبن عليه . وأبوه مولًى لامرأة من الأنصار ، وقيل إن أبويْه كانا مملوكين لرجل من بنى النّجّار ، فتزوج امرأة فى بنى سَلِمة من الأنصار ، فساقهما إليها من مَهْرها فأعتقتْهما ، وكان أحسنَ النّاس لفظاً ، وأبلغهم وعظاً ، وكان زاهداً عالماً مقدّماً فى العلم والدين على نظرائه من التابعين .

وكان الحجّاج له معظّماً ومتعجّباً من فصاحته ، ولم ينفكّ من مجلس وعظ أو تدريس علم ، إلى أن مات رحمه الله تعالى .

وقال أبو عمرو بن العــلاء : مارأيت قطُّ أوعظَ ولا أفصحَ من الحسن البصرىّ .

وقال أبو أيوب السختيانىّ : ماسمع أحد كلامَ الحسن البصرىّ إلاّ ثَقُل عليه كلام الرجال .

قال حُميد : قال لى الشعبىّ ونحن بمكة : أحبّ أن اختلِيَ بالحسن ، فقلت : ذلك للحسن ، فقال: إذا شاء، فجاء الشعبىّ ، فقلت له : ادخل عليه، فإنه فى البيت وحده ، فقال: أحبّ أن تدخُلَ معى، فدخلنا فإذا الحسنُ قبالة القِبلة يقول : يابن آدم، لم تــكن فــكُوِّنت ، وسألت فأعطِيت ، وسئلت فمنعتَ ، فبئس ماصنعت ! ثم يذهب فيرجع بعُيَيد ذلك حتى أعادها مراراً ، فقال لى الشعبىّ : ياهذا انصرف فإن الشيخ فى غير مانحن فيه .

ولما دخل على الحجّاج فقال له : ماتقول فى علىّ وعثمان ؟ قال : أقول فيهما ما قال مَنْ هو خيرٌ منى بين يدىْ مَنْ هو شرٌّ منك ، قال : و مَنْ ذاك ؟ قال : موسى وفرعون حيث قال له فرعون : ﴿ فَمَا بَالُ القُرُونِ الأُولَى قالَ : عِلْمُها عِنْدَ ربّى فى كتاب ﴾ (١) .

الشعبىّ قال : قدمنا على الحجاج فى البصرة فى جماعة من قُرّاء الشام والعراق فى يوم صائف شديد الحرّ ، وهو فى آخر ثلاثة أبيات ، فدخلنا الأوّل فإذا فيه الثلج والماء قد أرسل فيه ، وفى الثانى أكثر وفى الثالث أكثر ، والحجاج قاعد على سريره وعنبسة بن سعيد إلى جانبه ، فجلسنا على الكراسىّ ، ودخل الحسن آخر مَنْ دَخَل ، فقال الحجاج : مرحباً بأبى سعيد ! اخلع قميصَك ، فجعل الحسن يعالج زرّ القميص فأبطأ به ، فطاطأ له الحجاج رأسَه تلطُّفاً به حتى حلّه ، وجاءت جاريةٌ بدُهْنٍ فوضعته على رأس الحسن وحده ، فقال له الحجاج : ياأبا سعيد ، مالى أراك منهوكَ الجسم، لعلّ ذلك من قلة نفقة وسوء ولاية ! ألاَ نأمرلك بنفقة توسّع بها على نفسك ،وخادم لطيف ! فقال : إنى من الله تعالى لَفِى سَعة ونعمة وإنى منه لفى عافية ، ولكن الكبرَ والحرّ ،فأقبل الحجاج على عَنْبسة ، وقال : لا والله ، بل العلم بالله والزهد فيما نحن فيه ، فلم يسمعها الحسن ، وسمعتها أنا لقُرْبى من عَنْبسة ، وجعل الحجاج يسأله حتى ذكر علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فنال منه ونِلْنا منه مرضاةً له ، وفَرَقاً من شرّه ، والحسن عاضٌّ على إبهامه ، فقال له : مالى أراك ساكتاً ؟ فقال : وما عسى أن أقول : فقال : أخبرْنا برأيك فى أبى تراب ، قال : إنى سمعت الله عز وجل يقول : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنْتَ عليْهَا إلاّ لنعلم مَنْ يتبع الرّسولَ مِمَّنْ ينقلِبُ على عَقِبَيْه وإنْ كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان اللهُ ليضيعَ إيمانكم إن الله بالنّاس لرءوف رحيم (٢)﴾ فعلىٌّ ممّن هدى الله، ومن أهل الإيمان وابن عمّ نبى الله صلى الله

(١) سورة طه ٥١ (٢) سورة البقرة ١٤٣

عليه وسلم وختنه على بنته ، أحبّ الناس إليه، وصاحب سوابق مباركات سبقت له من الله عز وجل، لن تستطيع أنت ولا أحدٌ من الناس يحظرها عليه ، ولا يحول بينه وبينها . فتغيّر وجه الحجاج وقام مغضباً عن سريره ، ودخل بيتاً خَلْفه. وخرجنا وأخذتُ بيد الحسن ، فقلت : يا أبا سعيد ، أغضبت الأمير ، وأوغرت صدره ، فقال : إليك عنى يا عامر ، ألستَ شيطاناً من الشياطين إذ توافقه فى رأيه ! ألا صدقت إذ سُئِلت أو سكَتّ فسلِمت ! فقلت : قلتها والله، وأنا أعلم بما فيها ، قال الحسن: فذلك أعظم فى الحجّة عليك ، وأشدّ فى التّبِعة . ثم خرجت إلى الحسن التّحف والطّرَفُ ، وكانت له المنزلة واستخفّ بنا وجفانا ، فكان أهلاً لما أتى إليه ، وكنّا أهلا لما أتى إلينا ، فما رأيت مثل الحسن بين العلماء إلا مثل الفرس العربىّ فيما بين المقارِف ، وما شهدنا بعد مشهداً إلاّ بَرَزَ علينا بفضله ، وقال لله ، وقلنا موافقة للولاة ، وكان يقول : جَدّدوا هذه الأنفس فإنها سريعة الدثور ، واقدَعُوها فإنها طامحة وإنكم إن لم تقدعوها تنزعْ بكم إلى شر غاية .

وقال لمطرّف بن عبد الله بن الشِّخير : عظ أصحابك ، فقال له : إنى أخاف أن أقول مالا أفعل ، فقال له : يرحمك الله ، وأيّنا يقول ما يفعل ! يودّ الشيطان أنه ظفر بهذه منكم ، فلم يأمرْ أحد بمعروف ولم ينه عن منكر .

ونظر إلى الناس فى مصلّى البصرة يضحكون ويلعبون فى يوم عيد ، فقال: إن الله تعالى جعل الصوم مضمارا لعبيده ، ليستبقوا إلى طاعته ، ولعَمْرِى لو كشف الغطاء لشُغِل محسن بإحسانه ،ومسىء بإساءته عن تجْديد ثوب أو ترجيل شعر .

ومات فى سنة عشرة ومائة وله تسعون. وتقدم موتَ ابن سيرين بمائة يوم، ومات فى رجب ليلة الجمعة .

وقال عبد الواحد بن زيد : رأيت ليلة مات الحسن فى النوم أبواب السماء كأنها مفتحة ، وكأنّ الملائكة صفوف ، فقلت : إن هذا لأمرٌ عظيم ، فقال لى قائل : ألا إنّ الحسن البصرىّ قدِم على الله وهو عنه راض !

وسمع بعض أصحابه فى منامه ليلة مات كأنّ مناديا ينادى فى السماء: ﴿إنّ الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ ، واصطفى الحسن البصرى على أهل زمانه.

[ترجمة الشعبى]

والشعبىّ ، اسمه عامر بن عبد الله بن شراحيل بن عبيد بن ذى كبار الشعبىّ من شعب هَمْدان ، وكنيته أبو عمرو ، منسوب إلى شعبان بن عمرو ، وهو من حِمْير ، فمن كان منهم باليمن فهو حميرىّ ، ويقال له شعبانىّ ، ومَنْ كان بالعراق فهو هَمْدانى، ويقال له شعبىّ . وولد لستٍّ سنين من خلافة عمر رضى الله عنه. سمع علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه والحسنَ والحُسين وجماعة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وهو كوفىّ ، وبه يُضْرَب المثل فى الحفظ ، فيقال : أحفظ من الشعبىّ .

وقال الزُّهرىّ : العلماء أربعة : سعيد بن المسيّب بالمدينة ، وعامر الشعبىّ بالكوفة ، والحسن البصرىّ بالبصرة ، ومكحول بالشأم .

وقال ابن شُبْرُمة : سمعت الشعبىّ يقول : ما كتبتُ سوداء فى بيضاء إلى

يومى هذا ، ولا حدّثنى رجل قطّ بحديث إلا حفظته، ولا أحببتُ أن يُعيدَه علىّ.

وقال الشعبىّ لأصحابه : ما أروى شيئاً أقلّ من الشعر، ولو شئت لأنشدتكم شهرا لا أعيد .

وكان الشعبىّ فقيهاً عالماً حافظاً أديباً ، وقال : لولا ما زوجت فى الرحم ما قامت لأحدٍ معى قائمة .

وكتب عبد الملك إلى الحجاج أن ابعث إلىّ رجلا يَصْلُح للدين والدنيا ، أتّخذه سميراً وجليساً ، فبعث إليه بالشعبىّ ، فلما دخل عليه وجده مغتمًّا ، فقال : ما بال أمير المؤمنين ؟ قال ذكرت قول زهير[1] :

كأنى وقد جاوزتُ تسعين حِجّةً ... خلعتُ بها عَنّى عِذَارَ لجامى
رمتْنى بناتُ الدهر من حيث لا أرى ... فكيف بمن يُرْمَى وليس برامِ
فلو أننى أُرْمَى بنبلٍ رموتُها[2] ... ولكننى أُرْمَى بغير سهامى
على الراحتين تارة وعلى العصا ... أنوء ثلاثاً بعدهنّ قيامى[3]

فقال له الشعبى : ليس كذلك ، ولكن كما قال لبيد بن ربيعة :

كأنّى وقد جاوت سبعين حجةً ... خلعت بها عن مَنْكِبىّ رِدَائيا[4]

فلما بلغ سبعاً وسبعين ، قال :

---

(١) الأغانى « أصبحت كما قال عمرو بن قيئة » .

(٢) الاغانى « فلو أنها نبل إذاً لاتقيتها »

(٣) موضعه فى الأغانى :

وأهلكنى تأميلُ يوم وليلةٍ ... وتأميلُ عامٍ بعد ذاك وعامِ

(٤) ملحق ديوان لبيد ٣٦١

باتت تَشـكَّى إلىّ الموت مجهشةً[١] وقد حملتُك سبعاً بعد سبعينا
فإن تراخَتْ ثلاثاً تبلغي أملاً[٢] وفى الثلاث وفاء للثمانينا

فلما بلغ التسعين ، قال :

ولقَدْ سَئِمتُ من الحياةِ وطولها وسؤال هذى النَّاسُ كيف لبيدُ[٣]
وغَنيتُ سبتاً قبل مجرى دَاحِسٍ لو كانَ للنَّفسِ اللّجوج خُلودُ

فلما بلغ عشرين ومائة ، قال :

أليس وَرَائى إن تراخَتْ منيّتى لزومُ العصا تُحنَى عليها الأصابعُ[٤]
أخبِّر أخبارَ القُرون الّتى مَضَتْ أنوء كأنّى كلّما قمتُ راكعُ[٥]

فلما بلغ ثلاثين ومائة حضرته الوفاة ، فقال :

تمنّى ابنتاىَ أن يعيش أبوهُمَا وهل أنا إلاّ من ربيعةَ أو مُضَر[٦]
فَقُوما فقولاَ بالّذى أنا أهــلُه ولا تخمِشا خدّا ولا تَحْلِقا شَعَرْ
وقُولاَ هو المرء الّذِى لا صديقَهُ أضاعَ ولا خَانَ الخليلَ ولاَ غدرْ
إلى الحوْلِ ثم اسمُ السَّلام عليكما ومَنْ يبكِ حولاً كاملا فقداعْتَذَرْ

---

(١) الأغانى :

* قامت تَشكى إلىّ الموتَ مُجْهِشَةً *

(٢) الأغانى « فإن تزادى ثلاثا » .

(٣) ديوانه ٣٥ (٤) ديوانه ١٧١

(٥) الديوان :

* أدبُّ كأنّه كلّمـا قمتُ راكعُ *

(٦) ديوانه ٢١٣ ، وبعده فى الديوان :

ونائحتان تندُبَانِ بعاقلٍ أخاثقةٍ لا عين منه ولا أثرْ
وفى ابنى نزار أسْوةٌ إن جزعتُما وان تَسألاَم تُخبَرافيهمُ الخبَرْ
وفيمن سواهم من ملوكٍ وسوقةٍ دعائمُ عرش خانه الدّهرُ فانقعرْ

قال الشعبيّ : فلقد رأيت السرور في وجه عبد الملك طمعاً أن يعيشها[1] .

وقال الحريري في الدُّرّة : حدثني أحد شيوخي أن ليلى الأخيلية كانت تتكلم بلغة بَهْراء ، فتكسر حرف المضارعة ، فتقول: «أنت تِعلم» فاستأذنتْ يوماً على عبد الملك بن مروان وبحضرته الشعبيّ ، فقال : أتأذن لي ياأمير المؤمنين في النَّقض منها ؟ فقال : افعل ، فلما استقرّ بها المجلس قال لها الشعبيّ : ياليلَى ، مابال قومك لا يَكتنون! فقالت: ويحك أما نِكْتَنِي ـ بكسر النون ـ فقال: لا والله ولو فعلتِ لاغتسلت ، فخجلتْ عند ذلك ، واستغرق عبد الملك في الضحك .

الأصمعي: وجّه عبدُ الملك الشعبيّ إلى ملك الروم في بعض الأمور ، فاستكبر الشعبيّ ، فقال له : مِنْ أهل بيت الملك أنت ؟ قال : لا ، فلما أراد الرجوع إلى عبد الملك حمّله رقعة لطيفة ، وقال له : إذا بلّغتَ صاحبك جميع مايحتاج إلى معرفته من ناحيتنا فادْفع إليه هذه الرقعة ، فلمّا رجع إلى عبد الملك ذكر له مااحتاج إلى ذكره ، ونهض . فلما خرج ذَكر الرقعة ، فرجع فقال: ياأمير المؤمنين إنه حَمّلني إليك رقعة أُنسيتُها ، فدفعها إليه ونهض فقرأها عبد الملك ، وأمر بردّه فقال : أعلمت مافي الرقعة ؟ قال : لا ، قال : فيها عجبتُ من العرب كيف ملّكت غير هذا ! أفتدري لم كتب إليّ بهذا ؟ قال:لا ، قال: حسدني عليك ، فأراد أن يُغْرِيني بقتلك، فقال الشّعبيّ: لو رآك ياأميرَ المؤمنين مااستكبرني . فبلغ ذلك ملك الروم، فذكر عبد الملك وقال : لله أبوه ! والله ماأردت إلا ذلك .

وكان الشعبيّ خرج مع عبد الرحمن بن الأشعث على الحجّاج ، فلما هُزِم عبد الرحمن أُتِيَ به موثقاً مع الأسرى ، وكان حكمُ الحجاج فيهم : مَنْ أقرّ أنه كافرٌ أبقاه ، ومن أقرّ أنه مسلم قتله . قال : فلما جئتُ باب القصر لقيَني يزيد ابن مسلم كاتبه ، فقال : إنا لله يا شعبيّ ، لِما بين دفتيك من العلم ! وليس

(١) الخبر والشعر في الأغاني ١٨ ، ١٤٣ .

بيوم شفاعة، فقلت له : وما الخرج ؟ فقال بُؤْ للأمير بالشِّرْك والنفاق ، وبالحرى أن تنجو ، فلمّا دخلتُ على الحجاج قال لى : وأنت ياشعبىّ ممن حرج علينا ! قلت : أصلح الله الأمير ! أحْزَن بنا المنزل ، وأجدَب بنا الجناب ، واستحلَسْنا الخوف ، وضاق الملك ، وخبطتنا[1] فتنة ، لم نكن فيها بررة أولياء ، ولا فَجَرة أقوياء ، قال : لله أبوك ! لقد صدقت والله مابررتم بخروجكم علينا ، ولاقويتم. خلّوا سبيلَه .

وكلم ابنَ هبيرة فى قوم حبسهم ، فقال : إن كنت حبستَهم بباطل ، فالحقّ يُطلِقهم ، وإن كنتَ حبستَهم بحقّ فالعفو يَسَعُهم.

ودخل عليه رجل من النَّوْكَى ، وهو جالس مع امرأة ، فقال : أيُّكما الشعبى ؟ فقال له: هذا ، فقال: ماتقول أصلحك الله فى رجل شتمنى فى أوّل يوم من رمضان هل يُؤْجر ؟ فقال له الشعبىّ : أما إن كان قال لك: يا أحمق ، فأرجو له الأجر .

وسأله آخر، فقال : ماتقول فى رجل أدخل إصبعه فى أنفه فى الصلاة ، فخرج عليها دم ، أترى له أن يحتجم ؟ فقال : الحمد لله الذى نَقَلَنا من الفقه إلى الحجامة.

وسأله آخر : كيف كانت تسمى امرأة إبليس ؟ قال ذلك نكاح لم نشهده

ودخل الحمّام فرأى داود الأودِىّ بلا مئزر ، فغمّض عينيه ، فقال له داود : مَتَى عميت ياأبا عمرو ؟ فقال : مذ هتك الله سترك . ومات فى سنة أربع ومائة وهو ابن اثنتين وثمانين سنة .

[ذكر الخليل بن أحمد]

والخليل رحمه الله هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد البصرىّ الفراهيدى، ينسب إلى فراهيد بن مالك بن فَهم بن عبد الله بن مالك بن نصر الأزدى ، ويقال : اليَحْمَدِىّ . واليحمَد بطن من الأزْد .

---

(١) ط : « خطبتنا »

وكان الخليل من أزهد الناس وأعلاهم نفساً ، وأشدّهم تعفّفاً ، ولقد كان الملوك يقصِدُونه ويعرِّفون إليه لينال منهم ، فلم يفعل ، وكان يعيش من بُسْتانٍ له خلّفه عليه والده ، وكان يغزو سنة ويحج أخرى ، حتى جاءه الموت .

محمد بن حميد ، قال : تزوّجت إلى جيران الخليل ، فنزلتُ عليهم ، فكنت أسمع قرآن الخليل طول الليل ، فقالوا لى : ما عرفنا من هذا الرجل إلا ما ترى ، وإنه ليغيب عنّا فى غزوٍ وَحَجّ فنتوحّش إليه ، وقالوا : لا يجوز الصراطَ بعد الأنبياء والصحابة أدَقُّ ذهناً من الخليل . وكانت تلك الفضيلة فيه ببركة اسم أبيه ، لأنه أوّل من تَسَمّى بأحمد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أبو عاصم : دخلت عليه قبل وفاته بأيام ، فقال : والله ما فعلت قطّ فعلا أخاف على نفسى منه وكان لى فضل فكر ، صرفته إلى جهةٍ وَدِدْت أنى كنت صرفتُه إلى غيرها . وما علمت أنى كذبت متعمّداً قطّ ، وأرجو أن يغفر الله لى التأوّل .

واجتمع أدباء من كل أفق ، فجعل أهل بلد يرفعون علماءهم ، ويقدّمونهم حتى جرَى ذكر الخليل ، فلم يبق أحد إلا قال: الخليل أذكى العرب، وهو مفتاح العلوم ومصرّفها .

النّضر : مارأى الراءون مثل الخليل ، ولا رأى الخليل مثل نفسِه . وكان أشعثَ الرأس، شاحبَ اللون ، قشِف الهيئة ، متخرّق الثياب ، متقلّع القدمين ، مغموراً فى الناس لا يُعْرف .

محمد بن الفضل : كان بالبصرة رجل يعطِى دواء لظلمة البصر ، فينتفع به الناس ، فمات فأضرّ ذلك بمن كان يستعمله ، فذُكر للخليل فقال : أله نسخة ؟ فقالوا : لم نجدها ، قال : فهل كان له آنية يعمله فيها ؟ قالوا : نعم ، إناء يجمع فيه أخلاطاً ، قال : فجيئونى به ، فجعل يتشمّمه ، ويخرج نوعاً نوعا حتى

أخرج خمسة عشر نوعاً ، ثم سأل عن جمعها ومقاديرها فعرفه مَنْ كان يعالج مثله فعمله ، وأعطاه الناس، فانتفعوا به مثل تلك المنفعة . ثم وجدت النسخة في كُتب الرجل ، فإذا فيها ستة عشر خَلطا ، فلم يغفل إلا عن خلْط واحد .

وكتب إليه ملك اليونان كتاباً باليونانية،فخلا به شهراً حتى فَهِمه ، فقيل له في ذلك ،قال : قلت : لابدّ أن يفتتح الكتاب باسم الله تعالى وماأشبهه ، فبنَيت أوّل الحروف على ذلك حتى انقاستْ لي.

النّضر بن شميل . جاء رجل من حَلْقة يونس ، فسأل الخليل عن شيء ، فأطرق يفكِّر ، فقالوا له : ما هذا مما يحتاج إلى فكْر يفكِّر فيه ! فقال لهم : فما الجواب عندكم ؟ قالوا : كذا ، قال : فإنه يزيدكم في الجواب كذا ، قالوا : يقول كذا ، يقول : كذا ، فانقطعوا ، فقال : ما أجبت بجواب قطّ إلا وأنا أعرِف آخر ما عليّ فيه .

وكان يخرج من منزِله فلم يشعر إلا وهو في الصحراء ، ولم يردْها لشغله بالفكر .

وقال النضر : سمعت الخليلَ يقول : الأيام ثلاثة : فمعهود وهو أمس ، ومشهود وهو اليوم ، وموعود وهو غد .

وقال الخليل : إذا نسِخ الكتاب ثلاثَ نُسخ ولم يعارَض به تحوّل بالفارسية .

ورأى مع رجل دِ فتراً وفيه خطّ دقيق ، فقال لصاحبه : أيِسْت يا هذا من طول عمرك !

وقال : إن لم تعلّم الناس ثوباً فعلِّمهم لتدرس بتعليمهم علمك ، ولا تجزع من تفرّع السؤال ، فإنه ينبّهك على علم مالم تعلم .

وقال : أكثِر من العلم لتفهمْ ، واختر قليلا منه لتحفظ .

وكان يقول : إذا خرجتُ من منزلى لقيت أحدَ ثلاثة ، إمّا رجلاً أعلم بشىء منى ، فذلك يوم فائدة ، أو مثلى فذلك يوم مذاكرة ، أو دُونى فذلك يوم ثواب .

وقال : من الناس مَنْ يدرى ويدرى أنه يدرى ، فذلك عالم فاتّبعوه ، ومنهم مَنْ لا يَدْرى ولا يدرى أنه لا يَدْرِى ، فذلك جاهل فاحذروه ، ومنهم مَنْ يدرى ولا يدرى أنه يدرى ، فذلك ضالٌ فأرشدوه .

وكان يقول : إذا أردت أن تعلم خطأ معلّمك من صوابه فجالس غيره .

وقال : أنا أول مَنْ سمّى الأوعية ظروفا؛ لأنّها جُعِلت ظرفا للأدب والنظافة.

وقال : أدركت بعض ما أنا فيه باطّراح الحشمة بينى وبين المعلّمين ، ومَنْ رَقّ وجهه فى طلب العلم رَقّ علمه .

وقال : إذا أخطأ بحضرتك مَنْ تعلم أنه يأنف بإرشادك فلا تردّ عليه خطأه ، فإنك إذا نبّهته على خطئه أسرعتْ إفادته ، واكتسبْت عداوتَه .

وقال : اجعلْ ما تكتب بيتَ مال ، وما فى صدرك للنفقة .

وقال : العلوم أقفال والسؤالات مفاتيحها .

وقال : النّاس فى سجن ما لم يتمازحوا .

وقال : الرجل بلا صديق ، كاليمين بلا شمال .

وقيل له : إن استفساد الصديق أهونُ من استصلاح العدو ، فقال : نعم ، كما أن تخريقَ الثوب أهونُ من نَسْجِه .

وقيل له : ما الجود ؟ فقال : بذل المجهود ، قيل له : فما الزهد ؟ قال : ألاّ تطلب المفقود ، حتى تفقد الموجود .

وقال : الدنيا أمَدٌ، والآخرة أبد .

وقال: حسب امرئٍ من الشرّ أن يرى في نفسه فساداً لا يصلحه ، ومَنْ علم بفساد نفسه علم بصلاحها، وأقبح التحوّل أن يتحوّل المرء من ذنب إلى غير توبة ولا إقلاع عنه .

وقال : الدنيا أضداد متجاورة وأشباه متباينة ، وأقارب متباعدة ، وأباعد متقاربة .

وقال : ثلاثة أشياء أنا أحبّها لنفسي ولمن أحبّ رشده : أحبّ أن أكون بيني وبين ربي من أفضل عباده ، وأكون بيني وبين الخليقة مِنْ أوسطهم ، وأكون بيني وبين نفسي من شرّهم . وقال عبد الله بن داود : لو كتب شيء بالذهب لكتب هذا .

ونظر في فقه لأبي حنيفة ، فقيل له : كيف ترى؟ فقال : أرى جدًّا وطريق جدّ ، ونحن في هزل وطريق هزل .

وقال عبد الله بن داود : لقد نال الناس بالخليل وعلمه الرّغائب ، وإنه لبينَ أخصاص البصرة ، يَزهد فيما يُرْغب فيه .

وقال : ثلاثٌ يُنْسِين المصائب : مَرّ الليالي ، والمرأة الحسناء ، ومحادثة الرجال .

النّضر : سمعت الخليل يقول : التواني إضاعة ، والحزم بضاعة ، والإنصاف راحة ، واللجاج وَقاحة .

وكان له غلام كثير الخلاف عليه ، فقال له يوما : قُمْ ، فقال : لا أقوم ، فقال : اقعد : فقال : لا أقعد ، قال : فأيّ شيء تصنع ؟ قال : لا أصنع شيئاً .
ويشبه هذا قولُ الشاعر في امرأته :

سكتُّ فقالت لِمْ سكتّ عن الحقِّ ... وقلتُ فقالت: ما دعاك إلى النُّطقِ[1]

فأومأتُ هل من حالةٍ بين ذا وذا ... فقالت وذا الإيماء أيضاً من الحُمْقِ

فلم أر لى إذ حلّت الغربَ راحةً ... من الشرّ إلا فى الهروب إلى الشّرقِ

فلما أتيت الشّرق ألفيتُهــا به ... وقد قعدتْ لى منه فى ضيّق الطُّرقِ

وإنما أكثرنا من أخباره لأنّها آداب ، وحِكَمٌ مَن اقتدى بها اهتدى ، وما تركناه من أخباره أكثر ، وذكر النحو والعروض مؤخّر إلى المحسن إن شاء الله تعالى :

ولتقدّمه فى العلم ضربت الشعراء به المثل ، فمن ذلك قول أبى تمام يهجو عياش بن لهيعة :

ولو نشر الخليلُ له لعفّتْ ... بلادتُه على فِطَنِ الخليــل[2]

فما أدرى عمائى عن رشادى ... دَهاني أم عماك عن الجهلِ

وقال آخر :

يا مَنْ يزيد تمقُّتاً ... وتباغُضاً فى كل لحظَهْ

والله لو كنتَ الخليــلَ لما روَيْنا عنك لفظَهْ

وأنشد المبرد :

لم تدرِ ما علمُ الخليل فتقتدى ... ببيان ذاكَ ولا حدودَ المَنْطِقِ

وقال المعرى :

إذا قيل نُسْكٌ فالخليل ابن آزرٍ ... وإن قيل فهمٌ فالخليل أخو الفَهْمِ

---

(١) ديوانه ٣٠٥

ابن مزاحم الشاعر: كان الخليل صديقا لى ، فدخلت عليه يوما ؛ فقال: أجِز ؟

رأيت غنى الإنسان نفسا زكية

فقلت :

* مُطَهَّرَةٌ من كلِّ رِجْسٍ وباطِلِ *

فقال :

* فنى عاجل الدنيا مديح ورفعةٌ *

فقلت :

* وخيرٌ عظيم عاجلٌ بعد آجلِ *

فقال : والله جئت بما فى نفسى ، ثم قال :

كأنك كنت قد خامرْت قلبى ... فجئتَ بما شَفَيْتَ به الْغليلاَ
رأيتَ براعة الإيجاز أشفى ... فصارَ كثيرُ غيرِكَ لى قليلاَ

وله :

العلم يُذكِى عقولاً حين يصحبُها ... وقد يزيدُها طولَ التجاربِ
وذو التأدُّب فى الجهّال مغتربٌ ... يَرَى ويَسْمَعُ ألوانَ الأعاجِيب

وكان صديق سليمان بن حبيب ، وأنشده الشعراء ، فتشاغل عنهم سليمان ، فذكروا ذلك للخليل فكتب إليه :

لا تقبلنّ الشّعر ثم تعقّه ... وتنام والشُّعراء غير نيامِ
واعلم بأنّهمُ إذا لم ينصَفوا ... حكمُوا لأنفسهم على الحُكّامِ
وجناية الجانى عليهم تنقضِى ... وكلومهمْ تبقى على الأيّامِ

* * *

[ذكر جرير]

وأما جرير فهو ابن عطية بن الخطفى . شاعر من فحول العرب ، واتفقت العلماء على أنّ أشعر الإسلاميين جرير والفرزدق والأخطل ، وأكثرهم على تفضيله عليهما . وسأذكر لك شيئا من غزله وهجوه ، تستدلّ به على منزلة شرفه في الشعر : ورأت أمه وهي حامل به كأنها ولدت حبلاً من شَعَر أسود ، فلما سقط جعل ينزُو فيقع في عنق هذا فيخنُقه حتى فعل ذلك برجال كثيرة ، فانتبهتْ فازعةً فأوّلت الرؤيا، فقيل لها : تلدين غلاماً شاعراً ذا أشرٍ وشدة وشكيمة وبلاء على الناس ، فلما ولدته سمّته جريراً، باسم الحبل الذى رأته ، فهاجاه ثمانون شاعراً ، فغلَبهم .

وقال جرير : ماعشقتُ ولو عَشِقْتُ لنسبت نسيبا تسمعُه العجوز فتبكي على مافاتها من شبابها . قالوا : وأرقُّ ماجاء في النسيب قوله :

إنّ العيون الّتي في طرفها حَوَرٌ قتلننَا ثم لم يحيين قتلانا[1]
يَصْرَعن ذا اللّبّ حتى لاحَرَاكَ له وهنّ أضعفُ خلق الله أركانا
أتبعتُهمْ مُقْلةً إنسانُها غرِقٌ هل ما ترى تاركٌ للعين إنسانا !

ومثل هذا أوجب على الحريرى أن يذكر جريراً بالغزل ، وإلا فقد أُخِذ عليه في ذكر جرير بالغزل ، وإنما الذى اشتهر في زمانه بالغَزَل مثل عمر بن أبى ربيعة وكثيّر عزة وجَميل وقَيس بن ذريح وأمثال هؤلاء ، وإنما اشتهر جرير بالمدح والهجو ، ولانطباعه قد جاء في شعره من الغزل الرقيق كثير ، وإن كان تكلّفًا إذ لم يعشق . قال الجاحظ : كان الفرزدق مشتهراً بالنساء ، ومع ذلك

(١) ديوانه ٥٩٥ ، ٥٩٦ وفيه، « في طرفها مرض »

فليس له بيت واحد فى النّسيب ، وكان جرير عفيفاً لم يعشق امرأة قط ، ومع ذلك فهو أغزل الناس شعراً .

وسئل الفرزدق عنه فتنفّس حتى كادت حيازيمه تنشَق، ثم قال : قاتله الله ! فما أحسن ناحيتَه وأشرَد قافيتَه ، والله لو تركوه لأبكى الشابةَ على أحبابها ، والعجوز على شبابها ، ولكنهم هزّوه فوجدوه عند الهراش نابحاً ، وعند الجراء قارحا ، ولقد قال بيتا ، لأن أكون قلتُه أحبّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس ، وهو :

إذا غضبتْ عليك بنو تميمٍ حسبتَ النّاس كلّهمُ غضابا[1]

وقال مسعود بن بشر : قلت لابن مناذر : مَنْ أشعر الناس ؟ قال : من إذا شئتَ جدّ ، وإذا شئت لعب ، وإذا شئت أطمعك لعبه ، وإذا رمتَه بعُد عليك ، وإذا جدّ فيما قصد له آيسك من نفسه . قلت : مثل مَنْ ، قال : مثل جرير إذ يقول حين لعب :

إنّ الذين غدَوْا بلبّك غادروا وشَلاً بعينك لا يزال مَعِينا[2]
غيّضْنَ من عبراتهنّ وقلنَ لى ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا !

ثم قال حين جدّ :

إنّ الذى حَرَم المكارم تغلباً جعل الخلافة والنبوّة فينا[3]
مضرٌ أبى وأبو الملوك فهل لكمْ يا خُزْرَ تغلِبَ من أبٍ كأبينا
هذا ابنُ عمى فى دمشق خليفةٌ لو شئتْ ساقَكمُ إلىّ قَطِينا

(١) ديوانه ٧٨
(٢) ديوانه ٥٧٨
(٣) ديوانه ٥٧٨ ، ٥٧٩

فلما بلغ عبد الملك هذا، قال :مازادابن المراغة أن جعلني شُرَطيًا له ! أما إنه و قال: « لو شاء ساقكم » لسُقْتُهُمْ إليه كما قال .

ونزل الفرزدق حين قدم على الأحْوص فقال : ماتشتهى ؟ قال شواء وطلاءً وغناء ، قال: ذلك لك ، ومضى به إلى قينة فغنّته :

ألا حيِّ الديار بسَعْدَ إنّى   أحبُّ لحبِّ فاطمة الدّيارا[١]
إذا ماحلّ أهلُكِ باسُلَيمى   بدارة صُلْصلٍ شَحَطُوا مَزَارا[٢]
أراد الظاعنون ليحرمُونى   فهاجوا صَدْعَ قلبيَ فاستطارا[٣]

فقال : ما أرقّ أشعاركم يا أهل الحجاز ! قال : أو تدرى لمن هذا ؟ قال : هو لجرير يهجوك ، قال :ويلٌ لابن المراغة ! ما كان أحوجه مع عَفافِه إلى صلابة شعرى، وأحوجنى مع فسوق إلى رِقة شعره ، وفى الفرزدق منها :

وكنتَ إذا نزلتُ[٤] بدار قومٍ   رحلتَ بخَزْيةٍ وتركْتَ عارا

وقال جرير :

لقد طال كتمانى أمامة حبّها   فهذا أوان الحبّ تَبْدُو شواكلُهُ[٥]
وإنى وإن لام العواذلُ مولعٌ   بحبّ الغضامِين حُبَّ مَنْ لا يُزايلُهُ
ولما استقرّ الحبُّ ألقتْ بيَ العصا[٦]   ومات الهوى لما أصيبت مقاتلُه
وقلن تزَوَّجْ لا يكن لك حاجة[٧]   وقلبك لا تشغل وهُنّ شواغِلُه

(١) ديوانه ٢٨٠
(٢) الديوان : « المزارا »
(٣) الديوان : « ليحزنونى » .   (٤) الديوان : « حللت » .
(٥) ديوانه ٤٧٨
(٦) الديوان :

* فلمّا التقى الحيّانِ أُلقِيَتِ العَصا *

(٧) الديوان :

« وقُلْنَ تزوّجْ لاتكن لك ضيعة »

وقال أيضاً :

يا أخت ناجيةَ السّلامُ عليكمُ قبل الرّحيل وقبل لوم العُذّلِ[١]
لو كنتُ أعلم أنّ آخرَ عهدِكُمْ يومُ الفراق فعلتُ مالم يفعلِ

وقال أيضاً :

بنفسي مَنْ تجنّبُه عزيز عليّ ومَنْ زيارتُه لِمَامُ[٢]
ومَنْ أمسي وأصبح لا أراه ويَطْرُقني إذا هَجَع النِّيامُ
أتذكر إذ تودّعنا سُلَيمى بفرع بشامةٍ سُقِيَ البَشَامُ

وقال أيضاً :

لاتكثرنّ إذا جعلْتَ تلومني لا يذهبنّ بحلمك الإكثارُ[٣]
كان الخليطُ هُمُ الخليطُ فزايلُوا ولقـــد تبدّل بالديار ديارُ
لا يَلبَثُ القُرَناء أن يتفرّقوا ليـلٌ يكـرّ عليهمُ ونهارُ

ومن هجوه في الراعي:

فغضّ الطرف إنّك من نُمير فلا كعباً بلغت ولا كِلاَبا[٤]

وعندما قال هذا البيت وثب قائماً حتى أصاب السقف رأسه ، وقال : أخزيتُه والله وغصصته، وقدّمت أخويه عليه، والله لا يفلح بعدها ، وكان كما قال، ما أفلح بعدها هو ولا نمير .

وقال في جندل بن الراعي :

أجندلُ ما تقول بنو نميرٍ إذا ماالأيرُ في است أبيك غابا[٥]

---

(١) ديوانه ٤٤٣ :

يا أمّ ناجيةَ السلام عليكمُ قبل الرّواحِ وقبلَ لَوْمِ العُذّلِ[٦]

(٢) ديوانه ٥١٢ .

(٣) ديوانه ٢٠١

(٤) ديوانه ٧٥

(٥) ديوانه ٧٥

وأنشد القصيدة والفرزدق واقف ، فلما بلغ إلى قوله :

• تَرَى برصاً بأجمع إسكتيها •

وضع الفَرَزدق يده على فيه ، وغطى منفقته فقال :

• كمَنْفَقةِ الفرزدق حين شابا •(١)

فانصرف الفرزدق وهو يقول: اللهمّ أخزِه ، ولقد علمت حين بدأ البيت ألاّ يقول غيرها ، ولكن طمعتُ ألاّ تأتيهُ .

وقال فى ابن لجا :

تعرّضتْ تيم لِي عمداً لأشتمها ... كما تعرّض لاستِ الخارئ الحجرُ(٢)

ياتيمَ تَيْمَ عدىّ لا أبالكمُ ... لايلقينّكمُ فى سوءةٍ عمرُ

وقال يذكر أمه :

تقول والعبدُ مسكين يُزَحّرها ... رفقاً فِدا لك أنت النّاكح الذكرُ(٣)

وبينا جرير ينشد فى زوجته :

لولا الحياء لعادنى استعبارُ ... ولزرت قبركِ والحبيبُ يُزَارُ(٤)

كانت إذا هَجَر الضجيعُ فراشَها(٥) ... كُتِمَ الحديثُ وعفّت الأسرارُ

لايلبث القرناءُ أن يتصدّعوا ... ليلٌ يكرّ عليهم ونهارُ

إذ طلع الأحوص فقطع إنشاده ، ورفع صوته ، يقول :

عوَى الشعراء بعضهمُ لبعضٍ ... علىّ فقدْ أصابهمُ انتقامُ(٦)

---

(١) ديوانه ٦٩ (٢) ديوانه ٢٨٣

(٣) ديوانه ٢٨٦ (٤) ديوانه ١٩٩ ، ٢٠١

(٥) الديوان : « هَجَر الخليلُ فِراشَها » .

(٦) ديوانه ٥١٣ ، الأغانى ٨ : ٦٥

إذا أرسلتُ صاعقةً عليهمْ رأوا أخرى تحرّق فاستداموا[1]
فمصطَلَمٌ[2] المسامع أو خَصِيٌّ وآخرُ عظمُ هامَتِهِ حُطَام

ثم عاد . فقيل : لم فعلت هذا ؟ قال: إنى نَهيت الأحوص أن يهين الفرزدق [علىّ][3] وإنى والله يابنى عمرو بن عوف ماتعوّذت من شاعر قط ، ولولا حقكم ماتَعَوَّذْتُ منه .

الأصمعىّ : حدثنى أبى قال : رأى رجل جريرا فى المنام ، فقال : مافعل الله بك ؟ قال : غفرلى، قال: بماذا قال بتكبيرةٍ كبّرتُ الله فى الغمر - وهو ماء بالبادية - قال : فما فعل أخوك الفرزدق ؟ قال : هيهات أهلكه قذفُ المحصنات .

قال الأصمعىّ : لم يَدَعْه فى الحياة ولا فى الممات ، وتوفّىَ سنة أربع عشرة ومائة .

* * *

[ذكر قس بن ساعدة الإيادى]

وأما قسّ بن ساعدة الإيادىّ ، فيضرب به المثل فى الفصاحة والخطابة ، فيقال : أبلغ من قُسّ ، وهو أسقفّ نَجْران ، وهو من حكماء العرب ، وكان مؤمناً بالله ومبشّرا برسوله ، وهوأول مَنْ خطب متوكِّئاً على عصا ، وأوّلُ مَنْ كتب : من فلان إلى فلان ، وفيه يقول الأعشى :

وأفصح من قُسٍّ وأجرى مِنَ الذى بذى الغين من خَفّان أصْبَحَ خادرا[5]

ولمّا[6] قدم وفد بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سألهم عن رجل

---

(١) استداموا ، أى انتظروا .
(٢) مصطلم : مقطوع (٣) من الأغانى
(٤) فى معجم البلدان : غمر: هضب من أعراض المدينة .
(٥) البيت ليس فى ديوانه
(٦) الخبر فى الأغاني ١٥ : ٢٤٦

كان فيهم نازلاً ، يقال له : قُسّ بن ساعدة الإيادىّ ، قالوا : هلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد رأيته بعكاظ يخطُب على جمل له أوْرق[1] وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا ، واسمعوا وعُوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكلّ ماهو آتٍ آت ، ليلٌ موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تغور ، وبحر يمور . أمّا بعد ، فإنّ فى السماء لخبراً ، وإنّ فى الأرض لعبراً ، مالى أرى الناس يموتون ولا يرجعون، أرضُوا بالإقامة فأقاموا، أم تركوا كما هم فناموا . أقسم بالله قسٌّ قسماً حقا ، فما حَنِثَ ولا أثم ، إنّ لله ديناً هو أرضى من ديننا ، هذا الذى نحن عليه ، ثم قال أبياتاً ما أحفظها ، فقال رجل من الأنصار : أنا شاهد يارسول الله ، بأبى أنت وأمى ! قال : فأنشدنا ، قال : سمعته يقول :

فى الذّاهبين الأوّليـــن من القُرون لنَا بصائرْ
لمّا رأيت موارداً للموت ليسَ لها مصادرْ
ورأيتُ قومىَ نحوها تمضى الأصاغرُ والأكابرْ
لايرجع الماضى ولاَ يبقى من الباقين غابرْ
أيقنتُ أنى لامحا لة حيثُ صارالقوم صائرْ

وقال صاحب الأغانى[1] فيه هو قسّ بن ساعدة بن عمرو بن عدى بن مالك بن أيدعان[2] بن النَّمِر بن واثلة بن الطّمثان بن عَبْد مناة بن يقدم بن أفصى ابن دُعْمىّ بن إياد .

وكان يفِد على قيصر زائرا فيكرمه ويعظّمه ، فقال له قيصر : ما أفضلُ العلم ؟ قال :معرفة الرجل بنفسه ، قال : فما أفضل العقل ؟ قال : وقوف المرء عند علمه ، قال : فما أفضل الأدب ؟ قال : استبقاءالرجل ماء وجهه : قال : فما أفضل

---

(١) الأورق : الذى فيه سواد وبياض .

(١) الأغانى ١٥ : ٢٤٦ (٢) ط : « أرمان » ، والمثبت من الأغانى

المروءة ؟ قال : قلة رغبة المرء فى إخلاف وعده ، قال : فما أفضل المال ؟ قال : ماقُضِيَ به الحق.

ابن عباس رضى الله عنهما : وفد الجارود بن عبد الله فى وفد عبد القَيْس، وكان سيِّدا فى قومه ، معظَّما فى عشيرته ، فآمن وآمن قومه ، فسرّ النبى صلى الله عليه وسلم بهم ، ثم قال : ياجارود ، هل فى جماعة عبد القيس مَنْ يعرف لنا قُسًّا ؟ قال : كلنا نعرفه يارسول الله ،وأنا كنت مَنْ بينهم، أقفو أثره ، وأطلع خبرَه ، كان قُسّ سِبْطاً من أسباط العرب ، صحيح النسب ، فصيحاً ، ذا شيمة حسنة ،عُمِّر سبعمائة سنة، يتقفّر القِفار ، ولا تكِنُّه دار، ولا يُقرّه قرار ، يتحسّى فى تقفّره بمضَ الطعام ، ويأنس بالوحوش والهوامّ ، يلبس المُسوح ويتبع السواح على منهاج المسيح ، لايفتر الرهبانية ، مقرٌّ بالوحدانية ، تُضرب بحكمته الأمثال وتنكشف به الأهوال ، وتتبعه الأبدال ، أدرك رأس الحواريين سمعان ، فهو أول من تألّه(١) من العرب وأعْبَدُ مَنْ تعبّد فى الحِقَب،وأيقن بالبعث والحساب ، وحذّر سوء المنقلب والمآب ، ووعظ بذكر الموت، وأمر بالعمل قبل الفوت ، الحسَن الألفاظ ، الخاطب بسوق عكاظ ،العارف بشرق وغرب،ويابس ورَطْب، وأجاج وعذب، كأنى أنظر إليه،والعرب بين يديه ، يقسم بالربّ الذى هُو له : ليبلغنّ الكتاب أجله ، وليوفينّ كلّ عامل عمله ، ثم أنشأ يقول :

هاج للقلب من هواه ادّكارُ ... وليالٍ خلالهنّ نهارُ
ونجوم يحثّها قمر الليـ ... ـل وشمسٌ فى كلّ يومٍ تدارُ
ضوءها يطمس العيون وإرعا ... دٌ شديد فى الخافقين مُثارُ
وغلام وأشمطٌ ورضيعٌ ... كلهم فى التراب يوماً يُزارُ
وقصور مشيَّدة حوت الخيـ ... ـرَ وأخرى خَوَتْ فهنّ قفارُ
وكثير مما تقصرُ عنه ... حدسةَ الناظر الذى لا يحارُ

(١) تأله ، أى تعبد .

والّذى قد ذكرت دل على الله نفوساً لها هدًى واعتبارُ

فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : على رِسْلِك ياجارود ، فلستُ أنساه بسوق عكاظ ، على جمل له أورَق ، وهو يتكلّم بكلام مونق ، ما أظنّ أحفظه ، فهل فيكم يامعشر المهاجرين والأنصار مَنْ يحفظ لنا منه شيئاً ؟ فوثب أبو بكر قائماً ، وقال : يارسول الله ، أنا أحفظه وكنت حاضراً بعُكَاظ حين خطب فأطنبْ ، ورهّب ورغّب ، وحذّر وأنذر ، وقال فى خطبته : أيُّها الناس اسمَعُوا وعُوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا ، إنه مَنْ عاش مات ، ومَنْ مات فات ، وكلّ ماهو آت آت ، مَطَرٌ ونبات ، وأرزاق وأقوات ، وآباء وأمهات ، وأحياء وأموات ، وجَمْع وشتات ، وآيات بعد آيات ، إنّ فى السماء لخبراً ، وإنّ فى الأرض لَعِبراً ، ليلٌ داجٍ ، وسماء ذات أبراج ، وأرض ذات رتاج ، وبحار ذات أمواج ، مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ! أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تُرِكوا هناك فناموا ! أقسم قُسٌّ بالله قسما حقًّا لا آثما فيه ولا حانثا ، إنّ لله ديناً هو أحبّ إليه من دينكم الذى أنتم عليه ، ونبيًّا قد حان حينُه ، وأظلّكُم أوانهُ وأدرككم إبّانُه ، فطوبَى لمن آمن به فهداه ، ووَيلٌ لمن خالفه وعصاه ! ثم قال : تبًّا لأرباب الغفلة من الأمم الخالية ، والقُرون الماضية ! يامعشرَ إياد ، أين الآباء والأجداد ، وأين المريض والعوّاد ، وأين الفراعنة الشِّداد ؟ أين مَنْ بنى وشيّد ، وزخْرَف ونجّد ، وغرّه المال والولد ! أين مَنْ بَغَى وطغَى ، وجمع فأوعى ، وقال : أنا ربّكم الأعلى . ألم يكونُوا أكثرَ منكم أموالاً ، وأطولَ منكم آجالا ، طَحنَهم الثّرى بكَلْكله ، ومزّقهم بتطاوله ، فتلكْ عظامهم بالية ، وبيوتهم خاوية ، عَمّرتها الذئاب العاوية . كلاّ بلْ هو المعبود ، ليس بوالد ولا مولود ، ثم أنشأ يقول :

فى الذاهبين الأولين . . الأبيات المتقدمة . قال : ثم جلس أبو بكر رضى الله عنه ، وقام رجل ذو هامة عظيمة ، وقامة جسيمة ، فقال : ياسيّدَ المرسلين ، وصفوةَ ربّ العالمين ، لقد رأيت من قُسّ عجبا ؛ أشرف بى جملى على وادٍ ،

وشجر من شجر عاد ، مُورقة مونقة ، وقد تهدّل أغصانها . قال : فدنوت منه ، فإذا قُسّ في ظل شجرة ، بيده قضيب من أراك ينكت به الأرض وهو يترنم ، ويقول :

يا ناعِيَ الموت والملحود في جَدَثٍ	عليهمُ من بقايا خَزِّهم خِرَقُ
دعْهم فإنّ لهم يوماً يُصاحُ بهمْ	فهم إذا انتبهُوا من نومهم أرِقُ
حتى يعودوا بحالٍ غير حالهمُ	خَلْقاً جديداً كما مِنْ قبلها خُلِقُوا
منهمْ عراةٌ ومنهم في ثيابهمُ	منها الجديد ومنها المَنْهَجُ الخَلَقُ

قال : فدنوت منه ، وسلّمت عليه ، فردّ عليّ السلام ، وإذا بعين خرارة ، في أرض خوارة ، ومسجد بين قبرين ، وأسدين عظيمين ، يلوذان به ، ويتمسحان بأثوابه، فأراد أحدهما أن يسبق إلى الماء ، وتبعه الآخر يطلب الماء ، فضربهُ قسٌّ بالقضيب ، وقال : ارجع ثكلتك أمّك ! حتى يشرب الذى وَرَد قبلك . فرجع ثم ورد بعده ، فقلت له : ماهذان القبران ؟ قال : هذان قبر أخوين لِي كانا يعبدان الله معى فى هذا المكان ، لا يُشركان بالله شيئاً ، فأدركهما الموت فقبرتُهُما ، وهاأنا بين قبريهما ، حتى ألحقَ بهما . ثم نظر إلى السماء فتغرغرت عيناه بالدموع ، وانكبّ عليهما ، وجعل يقول :

خَليلَيّ هبّا طالمَا قد رقَدْتُما	أجِدَّكما لا تقضيان كَرَاكُمَا[1]
ألم تعلمـا أنى بِسَمْعانَ مفردٌ	وما لِيَ فيها من خليلٍ سواكُمَا
مقيم على قبريْكما لستُ بارحًا	طولَ الليالى أو يُجيبَ صداكُمَا
أبكيكما طول الحياة وَما الذى	يردّ على ذى عَوْلةٍ إن بَكاكُمَا
كأنكما والموت أقرب غاية	بروحىَ فى قبريكما قدْ أتاكُمَا

(١) الأغانى ١٥ : ٢٤٨

أمِنْ طول نومٍ لا تجيبان داعياً كأنّ الذى يسقى العقَار سقاكُما
فلو جُعلتْ نفس لنفسٍ وقايةً لجدُتْ بنفسى أن تكون فِدَاكُما

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «رحم الله قُسّا، إنى لأرجو أن يَبْعثه الله أمةً وحده» .

• • •

[ذكر عبد الحميد]

وأما عبد الحميد ، فهو ابن يحيى بن سعيد، كاتب مروان بن محمد، آخر ملوك بنى أمية ، وكتب أيضاً للمنصور . وقيل إنه قتل مع مروان .

وكان رأساً فى الكتابة ، ومقدماً فى الفصاحة والخطابة ، بليغاً مرسلا، وقال فيه ابن عبدربه : كتب عبد الحميد بن يحيى لعبد الملك بن مروان ، وكتب لسليمان بن عبد الملك ، وليزيد بن عبد الملك ، ثم لم يزل كاتباً لخلفاء بنى أمية ؛ حتى انقضت دولتُهم[١] .

وعبدُ الحميد أوّل مَن فَتقَ أكام البلاغة ، وسهّل طرقها ، وفكّ رقاب الشعر[٢]

وقال له مروان حين أيقنَ بزوال ملكه : قد احتجتُ أن تصير مع عدوّى ، وتظهر الغدر بى ؛ فإنّ إعجابهم بآدابك يدعوهم إلى حسن الظنّ بك ، فإن استطعتَ أن تنفعنى فى حياتى، وإلاّ لم تعجز عن حفظ حُرْمتى بعد وفاتى . فقال له عبد الحميد : إنّ الذى أشرت به علىّ أنفعُ الأمرين لك ، وأقبحهما لى، وما عندى إلا الصبر حتى يفتح الله لى ولك ،أو أقتل معك . ثم قال :

أسِرُّ وفاء ثم أظهِرُ غَدْرَةً فمن لى بعذر يُوسِعُ الناسَ ظاهرُه[٣]

(١) العقد ٤ : ١٦٥ (٢) العقد ١ : ٩٢

وعبد الحميد هو صاحب الرسائل والبلاغات ، وهو أوّل من أطال الرسائل ، واستعمل التحميدات فى فصول الكتب ، واستعملت بعده ؛ وهو القائل : البلاغة تقرير المعنى فى الأفهام،من أقرب وجوه الكلام .

ولم يزَلِ الشُّعراء ومَهَرة الكتبة يضربون ببلاغته وكتابته الأمثال فى كتبهم وأشعارهم فى القديم والحديث ، كفضل الصاحب وقرنائه ، مع طَبْع سَمْحٍ ولفظ عذب ، وصلة نثر بنظم ، فإن شاء قال : أنا الوليد ، وإن شاء قال أنا عبيد ، وإن شاء قال : أنا عبد الحميد ، وإن شاء قال :أنا سعيد .

وقيل: بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد .

* * *

[ذكر أبى عمرو بن العلاء]

وأما أبو عمرو فهو ابن العلاء ابن عمار بن عبد الله بن الُحصين بن الحارث ابن جَلْهم بن خُزاعىّ بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم: واسمه وكنيته واحد فى الأشْهَر .

الفنجديهىّ: اختُلف فى اسمه على تسعة عشر قولاً، فقيل : اسمه محمد أو حميد أو حمّاد أو عثمان أو سفيان أو غير ذلك ، وأصحها زَبّان .

واختُلف فى مولده، فقيل: ولد سنة خمس وستين بمكةَ فى أيام عبد الملك ابن مروان: وقيل:سنة سبعين.

أبو عبيدة : كان أبو عمرو أسْمَر طويلاً ضَرْب اليدين ، حادّ النظر ، مارأيت مثلَه قبله ولا بعده فى فهمه ولا علمِه ، وكان صاحِبَ غريب ونحو وعلم، وهو أحد الأئمة فى القراءة ، وعنه أخذ يونس والأصمعىّ وأبو عبيدة . وفيه يقول الفرزدق :

ما زِلتُ أغلِقُ أبواباً وأفتحُها حتى أتيتُ أبا عمرو بن عمّارِ

وقال ابن مجاهد : كان أبو عمرو مقدّماً فى عصره ، عالماً بالقراءة ووجوهها ، قدوة فى العلم باللغة ، إمام الناس فى العربية .

وكان مع ذلك متمسكا بالآثار ، ولا يكاد يخالف فى اختياره ما جاء عن الأئمة قبله ، متواضعاً فى علمه .

وقال أبو عبيدة : كان أبو عمرو أعلَمَ النّاس بالقرآن والعربية وأيّام العرب وأنسابها وشعرها ، وكانت دفاتره ملء بيت ، فلمّا تنسّك أحرقها ، وجعل على نفسه أن يختم القرآن فى كلّ ثلاث ليال ، فلما أسنّ اختلط بالناس ، واحتاجوا إليه تعوّل على حفظه ، فأملى من حفظه كتب الناس ووقع عليه الإجماع .

روى الأصمعىّ عن أبى عمرو قال : كنتُ أسمر مع مسلم بن قتيبة الباهلىّ وكان يعجبه الرّوىّ على السين ، فأنشدتُه ليلة ستين قصيدة على السين لستّين شاعراً ، اسمهم عمرو .

الأصمعىّ : كان لأبى عمرو كلّ يوم من غلّة داره فَلْسان : فلس يشترى به كوزاً ، وفلس يشترى به ريحانا ، يشرب فى الكوز يومه ، ويشمّ الريحان يومه ، فإذا أمسى تصدّق بالكوز ، وأمر الجارية أن تجفّف الريحان وتدقّه فى الأشنان .

الأصمعىّ : قال أبو عمرو : كنت فى ضيعتى ، فاشتدّ علىّ الحرّ ، فكنت أدور فى سِدْرٍ فيها نصفَ النهار ، فسمعت قائلا يقول :

وإنّ امرءا دنياه أكبرُ همه لمستمسكٌ منها بحبلِ غرورِ [1]

---

(١) الخبر والبيت فى طبقات النحويين واللغويين الزبيدى ٣٣ .

فقلت : إنسيّ أم جنّي؟ فما أجابني ، فنقشته في خاتمي ، فكان نقشَ خاتمه .

الأصمعيّ : كنت واقفاً بالمِرْبَد ، وإذا أنا بأبي عمرو ، فلما بَصُر بي مال إليّ ، فقال : ماوقوفك هنا ياأصمعيّ ؟ قلت : إني أحبّ المِرْبد وأُكثِرُ الجلوس فيه ، فقال: الزمْه ، فإنه يشدّ النظر ويجلو البصر ، ويجمع بين ربيعة ومضر . ثم أردت الانصراف ، فقال : إلى أين ياأصمعيّ ؟ فقُلت : إلى صديق لي ، فقال : إمّا لفائدة أو لعائدة أو لمائدة وإلاّ فلا . ثم قال لي : مالي أراك بلا عمامة ؟ قلت : لاعمامة لي ، فنزع عمامته عن رأسه فدفعها إليّ ، فكَبُرَ ذلك عليّ ، فقال لي : إنّ لي بدلَها إحدَى عشرة عمامة ، ثم قال لي: الزم العِمامة ، فإنّها تشد اللّامة ، وتحفظ الهامة ، وتزيد في القامة ، ثم استخرج من كُمّه كيساً فدفعه إليّ ثم قال : ياأصمعيّ ، لازلتم بخيرٍ مادمتم تأمرون بالمعروف ، وتنهوْن عن المنكر، فإذا تركتم ذلك سلّط الله عليكم أقواماً غلاظاً فِظاظاً ، خِبْرتكم على قدر معرفتكم .

وأما قراءته وإعرابه المذكوران في المقامة ، فإن شجاع بن نصر ، قال : قلت لأبي عمرو : كيف طلبت قراءة القرآن ؟ قال : لم أزل أطلب أن أقرأه كما قرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما أنزِل عليه ، فقلت له : وكيف ذلك ؟ قال : هرب أبي من الحجّاج ، وأنا شابٌ ، فقدمنا مكة ، فلقيت بها عدّة من التابعين مِمّن قرأ على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثل مجاهد وسعيد ابن جُبير وعطاء وغيرهم ، فقرأت عليهم القرآن ، وأخذت العربية عن العرب الّذين سبقونا باللحن ،فهذه التي أخذت بها قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاشدُدْ يدك بها .

وقال : خرج أبي هاربا من الحجّاج إلى اليمن ، فإنّا لَنَسيرُ في الصحراء باليَمَن إذ لحقنا لاحقٌ يُنشد :

رُبّما تجزع النّفوس من الأمـــر له فَرْجَةٌ كحلّ العِقـالِ[1]

فقال له أبى : ما الخبر ؟ فقال : مات الحجاج ، فأنا بقوله : « فَرْجة » بفتح الفاء أشدّ سروراً منى بموت الحجاج ، فقال أبى : اصرف ركابنا إلى البصرة .

الفنجديهىّ : رأيت فى بعض الفوائد أنّ الحجاج قال لأبى عمرو : ماوجه قراءتك : ﴿ إلاّ مَنِ اغتَرَف غَرْفَةً ﴾ بفتح الغين ؟ فقال : أبلغنى ربق ، فقال : قد أبلغتُك الفرات . وقال : قاتل الله ابن أم الحجاج ، لئِنْ لم تأتِني بالجواب إلى خمسة عشر يوماً لأقتلنّك شرّ قتلة ، ووكلّ به موكلين، فخرج أبو عمرو يطوف فى أحياء العرب، فلم يجد له حُجّةً إلى يوم وعده، فجرّه الموكّلون به ليُرجعوه إلى الحجاج ، فسمع راعياً ينشد : رَبّما تجزع النفوس ... البيت ، فقال له أبو عمرو : كيف تنشد هذا البيت : له فَرْجة أو فُرجة ، فقال : فَرْجة وفُرْجة ، وكذلك كلّ ماجاء على فَعْلة ، فلنا فيه ثلاث لغات ، فقال له أبو عمرو : فما سبب إنشادك هذا البيت فى هذا الوقت ؟ فقال: إنّا كنّا خائفين من الحجاج ، وقد بلَغنا نعيُه ، قال : والله لا أدرى بأيهما كنت أشدّ فرحاً ، بوجدانى الجواب والحجّة لقولى واختيارى ، أم بموت الحجّاج !

سفيان بن عيينة : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقلت له : يارسول الله ، قد اختلفت علىّ القراءات ، فبقراءة مَنْ تأمرنى أن أقرأ ؟ قال : بقراءة أبى عمرو بن العلاء .

وقال أبو العباس بن سُريج : من أراد أن يتظرّف فعليه بمذهب الشافعى ،

---

(١) البيت لأمية بن أبى الصلت، وهو فى اللسان ، (فرج) وذكر قبله :

* لا تَضِيقنّ فى الأمور فقد تُــكْشَفُ غماؤها بغير احتيالِ *

وقراءة أبى عمرو بن العلاء وشعر ابن المعتز ، فقيل له : قد عرفنا مذهب الشافعىّ وقراءة أبى عمرو بن العلاء ، فأنشدنا من شعر ابن المعتزّ ما يوجب الظّرف فأنشد :

كنت صَبـاحِى قرير عينٍ ... فصرتُ أمسِى صَرِيع بَيْنِ
بعين نفسى أصبتُ نفسِى ... فالله بينى وبين عينِى

وكان يقول : إنّما نحن فيمن مضى ، كبقل فى أصول نَخْل طوال .

وقال أبو عمرو : ناظرت عمرو بن عبيد فى الوعيد ، فقال : إن الله تعالى لا يُوعدنا بشىء فيخلفه ، فقلت له : يا أبا عثمان[1] ، ليس لك علم باللغة ، إنّ خلف الوعيد عند العرب ليس بخلف ، وأنشد :

وإنى وإن أوْعَدْته أو وَعَدْته ... لَيَـكذب إيعادى ويَصْدق مَوْعِدى[2]

وقال أبو عمرو : كنت رأساً والحسن حىّ . وتوفِّىَ بالكوفة سنة أربع وخمسين ومائة ، وهو ابن ست وثمانين سنة ، وعلى قبره مكتوب «هذا أبو عمرو ابن العلاء مولى بنى حنيفة » .

وإنما قيل هذا لأن أمه كانت من بنى حنيفة .

أبو عبيدة : دخل أبو عمرو على سليمان بن عبد الملك ، فسأله عن شىء فصدَقه فيه ، فلم يعجبْه ماقال ، فخرج أبو عمرو وهو يقول :

أنفت من الذلّ عند الملوكِ ... وإن أكرمونى وإن قرّبُوا
إذا ماصدقت لهم خفتُهمْ ... ويَرْضَوْن منى بأن يكذبوا

وقال أبو بكر بن مجاهد : رأيت أبا عمرو فى المنام ، فقلت : مافعل الله

(١) أبو عثمان كنية عمرو بن عبيد .
(٢) البيت كما فى اللسان (وعد) لعامر بن الطفيل ، وروايته .
« لمخلفُ إيعادِى ومُنْجِزُ موعدى »

بك ؟ فقال لى : دعنى مما فعل الله بى ، مَنْ أقام ببغداد على السنّة والجماعة ومات، نُقل من جنة إلى جنة .

* * *

[ذكر مناقب الأصمعى]

وأما ابن قُريب ، فهو أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيب بن علىّ بن أصمع ، وإلى أصمع هذا يُنسب . وأصمعُ بَخِذٌ من بنى قتيبة بن معن بن أعصُر بن سعيد بن قيس بن عَيْلان ، وبنو معن هُمْ بنو باهلة ، وباهلة امرأة من هَمْدان تزوّجت معناً فنُسب ولده إليها . والأصمع فى اللغة الضّامر الذى ليس بمنتفخ ، ومنه الصَّوْمعة لضُمرها ، وتدقيق رأسها ، ومثله قولهم : جاء بثريدة مصمّعة ؛ إذا رققها وأحَدّ[1] رأسها، وسهم متصمّع : متلطّخ بالدم ، فانضمّت قُذَذُه[2] .

وكان الأصمعىّ حافظا عالما فطِناً عارفا بأشعار العرب وأخبارها ، كثير التطوّف بالبوادى لاقتباس علومِها وتلقّى أخبارها ، فهو صاحب غرائب الأشعار ، وعجائب الأخبار ، وقدوة الفضلاء ، وقبلة الأدباء ، قد استولى على الغايات ، فى حفظ اللغات ، وضبط العلوم الأدبيّات ، صاحب دين متين ، وعقل رصين ، وكان خاصًّا بالرشيد ، آخذا لصِلَاته كثيرا ، وقد تقدّم فى هذا الكتاب من الحكايات المسنَدة إلى الأصمعىّ ، مايدلّ على تبحّره وحفظه .

ومن حكاياته عن أعرابه على ما أشار له الحريرىّ هنا : حدّث الأصمعى رحمه الله، قال : أعرابىّ : حُسْن التدبير مع الكفاف ، أكفى من الكثير مع الإسراف .

الأصمعى: سمعت أعرابيًّا يقول: مَنْ كساه الحياء ثوبه، أخفى على الناس عيبَه .

---

(١) ط : « أخذ »

(٢) القذذ : جمع قذة ، وهى ريش السهم .

الأصمعيّ : قال أعرابيٌّ : من اقتصد فى الغنى والفقر ، فقد استعدّ لنائبات الدهر .

قال : وقال أعرابيٌّ : عداوة الحكيم أقلّ عليك ضررًا من مودّة الجاهل منهم .

قال : وقال أعرابيٌّ : أعجزُ النّاس مَنْ قصّر فى طلب الإخوان ، وأعجز منه مَنْ ضيَّعَ مَنْ ظَفِر به منهم .

وقال : تزوّج أعرابيٌّ إلى بعض الحاضرة ، فلمّا كان ليلة دخوله بها ، إذا هى أدماء مجدورة ، فخرج مِن البيت وهو ينشد ويقول :

زَوَّجْتَنِى أدماء مجدورةً كأنها من خَشب البيتِ
قبيحة الوجهِ لها منظرٌ يفرّ منه مَلَكُ الموتِ

قال : وجَرى بين أعرابىّ وبين امرأته كلام بالمِرْبد، فشتمتْه ، فقال لها : اسكتى، فوالله ماشَعْرُكِ بوارد[1]، ومافوك ببارد ، ولا ثديك بناهد ، ولا بطنُك بوالد ، ولا الخير فيك بزائد ، ولا الشرّ فيك بواحد ، وما أنا لك بحامد ، ولا بعد موتك بواجد .

[مجلس للأصمعى عند الرشيد]

ونذكر بعد ذلك حكايته المشهورة مع الرشيد ووزرائه ، ومحتمل طولها لما احتوتْ عليه من غرائب الآداب ، وكان مجلسَ مذاكرة بين أفراد ، فأظهر كلّ رجل منهم أفضلَ ما يذكر .

حدث الأصمعىّ قال : استدعانى الرّشيد فى بعض الليالى ، وقد تصرّمتْ قطعة من الليل ، فراعنى رسلُه ، ولم أفتأ أن مثلت بين يديه ، وإذا فى المجلس يحيى بن خالد وجعفر والفضل ، فلمّا لحظنى الرشيدُ استدنانى ، فدنوت منه ،

(١) الشعر الوارد : الطويل المسترسل .

فتبيّن مابيَ من الوجل ، فقال لى : ليُفرِخ رُوعك ، فما أردناك إلا لما يُراد له مثلك ، فمكثتُ هُنيهَة إلى أن ثابت إلىّ نفسى بعد أن كادت تطير شعاعاً ، فقال : إنى نازعتُ هؤلاء القوم فى أشعر بيت قالته العرب فى التشبيه ، ولم يقع إجماعُنا على بيت ، فأردناك لفصل هذه القضية ، واجتناء ثمرة الخِطار[1] فيها .
فقلت : يا أميرَ المؤمنين، إن التعيين على بيت واحد فى نوع واحد - قد وسعت العرب فيه ، وجعلته معلَما لأفكارها ، ومستراحاً لخواطرها - لبعيدٌ أن يقع النص عليه ، ولكن أحسنُ الناس تشبيها امرؤ القيس فى قوله :

كأنّ قلوبَ الطّيْرِ رَطْبًا ويابسًا لدَى وكرها العُنّابُ والحَشَفُ البالِى[2]

وفى قوله :

كأنّ عُيونَ الوحش حولَ خبائِنا وأرحلنا الجَزْعُ الّذى لم يثقّبِ[3]

وفى قوله :

ولو عن نَثَا غيرِه جاءنى وجُرْحُ اللسان كجرح اليدِ[4]

وفى قوله :

سموتُ إليها بعد ما نام أهلُها سُموّ حَباب الماء حالاً على حالِ[5]

فالتفت إلىّ يحيى ، وقالَ : هذه واحدة ، قد نصّ على امرئ القيس أنه أبدعهم تشبيها . قال يحيى : هى لك ياأميرالمؤمنين ، ثم قال لى الرشيد : فما أبدع تشبيهاته عندك؟ قلت : قوله يصف فرسا :

---

(١) الخطار : المراهنة
(٢) ديوانه ٣٨ ، والحشف :ردئ التمر
(٣) ديوانه ٥٢ والجزع : الخرز
(٤) ديوانه ١٨٥
(٥) ديوانه ٣١

كأن تَشُوّفه بالضحى تَشَوُّفُ أزرق ذى مِخْلَبِ[1]
إذا قرعته حلالٌ له تقول سلبت ولم تسلبِ

فقال : هذا حسن ، وأحسن منه قوله :

فرُحنا بكابْنِ الماء يُجْنَبُ وسطنا تصوّب فيه العَيْنُ طورًا وترتقى[2]

فقال جعفر : يا أمير المؤمنين ، ماهذا التحكّم ؟ قال الرشيد: وكيف ؟ قال: يذكر أمير المؤمنين ما وقع اختياره عليه ، ونذكر ما اخترناه ، ويكون الحكم واقعاً بعد، فقال الرشيد : أمرضت،فاستحسنها ـ يقال: أمرض الرجل: إذاقارب الصواب ـ ثم قال الرشيد : بل تبدأ يايحيى ، فقال يحيى : أحسن الناس تشبيها النابغة فى قوله :

نظرتْ إليك بحاجةٍ لم تقضِها نَظَرَ السّقيم إلى وجوهِ العُوّدِ[3]

وفى قوله :

فإنّك كالليلِ الذى هو مُدْرِكى وإنْ خلتُ أنّ المنتأى منك واسِعُ[4]

وفى قوله :

مِنْ وحش وجرة موشىٍّ أكارعُه طاوِى المصير كسَيْفِ الصَّيْقلِ الفردِ[5]

فقال الأصمعىّ : أما تشبيهه مرض الطّرف فحسن ، إلاّ أنه هجّنه بذكره العلة ، وتشبيهه المرأة بالعليل . وأحسن منه قول عدى بن الرقاع العاملىّ :

وكأنّها بَيْنَ النساءِ أعارها عينيه أحورُ من جآذرِ جاسِمِ[6]

---

(١) لم يرد هذان البيتان فى ديوانه .
(٢) ديوانه ١٧٦ وفى ط : « بكأس الماء » ، تصحيف صوابه من الديوان .
(٣) ديوانه ٣٠ .
(٤) ديوانه ٥٥ .
(٥) ديوانه ١٨ .
(٦) اللآلى ٥٢١ .

وَسْنَانُ أقصدَهُ النعاس فرنَّقتْ   فى عينه سِنةٌ وليس بنـــائم

وأما تشبيه الإدراك بالليل ، فقد تساوى الليل والنهار فيما يدركانه ، وإنما كان سبيله أن يأتىَ بما ليس له قسيم ، حتى يأتى بمعنىً ينفرد به ، ولو قال قائل : إنّ قول النمرىّ فى هذا أحسن،لوجد مساغاً إلى ذلك حيث يقول :

فلو كنتُ بالعنقاء أو بسِنامها   لخلتك إلاّ أنْ تُصدّ ترانى

وأما قوله :

* طَـاوِى المصيرِ كَسَيْفِ الصَّيْقَلِ الْفَرَدِ * ،

فالطرّماح أحق بهذا المعنى، لأنه أخذه فجوّده وزاد عليه، وإن كان النابغة اخترعه ، وقول الطرماح :

يَبْدُو وتُضْمِرُه البـــلادُ كأنه   سيف على شرفٍ يُسَلّ ويُغْمَدُ

فقد جمع فى هذا البيت استعارة لطيفة بقوله : « وتضمره البلاد » وتشبيه اثنين بقوله : « يبـدو وتضمر » « ويسلّ ويغمد » ، وجمع حسن التقسيم وصحة المقابلة .

قال الأصمعىّ : فاستبشر الرشيد وبَرَقَتْ أساريرُ وجهه ، حتى خلتُ برقا يُومض منها ، وقال ليحيى : فضلْتُك ورب الـكعبة ، فانتقع يحيى ، فكأنّ الرّماد ذرّ على وجهه ، قال الفضل : لا تعجل يا أمير المؤمنين، حتى أمرّ ما قلته بسمعه ، فقال : قل ، قال : أحسن الناس تشبيها طرفة فى قوله :

ووجهٌ كأنّ الشمسَ ألقتْ رداءها   عليـه نقىّ اللون لم يتخدّدِ(١)

---

(١) ديوانه ٣١٠ (ضمن مجموعة مختار الشعرى الجاهلى) وفى ط : « يتجدد » تحريف .

وفى قوله :

يشقُّ حَباب الماء حَيزومُها بهـا　　كما قسم التربَ المفايلُ باليدِ [١]

قال : فقلت : هذا حَسَن وغيره أحسن منه ، قد شركه فى هذا المعنى جماعة من الشعراء ، وبعد فطرفة صاحب واحدة ، لا يُقطع بقوله مع التجوّز ، وإنما يعدّ من أصحاب الواحدة قال : ومَنْ أصحاب الواحدة؟ قلت : الحارث بن حِلِّزة فى قوله :

آذنتْنا ببينِها أسْمَـاء　　رُبّ ثَاوٍ يُمَلُّ منه الثّواءُ [٢]

والأسعر الجعفى فى قوله :

هل دان قلبك من سُلَيمى فأشتفِى　　ولقد عنيت بحبِّها فيما مضَى [٣]

والأفوه الأودىّ فى قوله :

إنْ تَرَىْ رأْسِىَ فيه قَذَعٌ　　وشَوانِى خَلّةً فيها دوارُ [٤]

وعلقمة فى قوله :

* طحا بك قلبٌ فى الحِسانِ طروبُ * [٥]

وسويد بن أبى كاهل فى قوله :

بَسَطَتْ رابعةُ الحبلَ لنا　　فوصلْنا الحبلَ منها فاتّسَع [٦]

(١) ديوانه ٣٠٩ .
(٢) مطلع المعلقة ٤٣٣ - بشرح ابن الأنبارى .
(٣) لم يرد فى مقصورته الأصمعية ٤٤ .
(٤) ديوانه ١١ (مجموعة الطرائف الأدبية)
(٥) مطلع قصيدته البائية ٤١٨ (مختار الشعر الجاهلى) وبقيته :

* بُعيدَ الشّبَابَ عصرَ حان مشيبُ *

(٦) مطلع قصيدته المفضلية ص ١٩١ .

وعمرو بن كلثوم في قوله :

ألا هُبّي بصحنك فاصْبَحِينا ... ولا تُبْقِي خُمورَ الأندرينا[١]

وعمرو بن معد يكرب في قوله :

أمِنْ رَيحانَةَ الدّاعي السميعُ ... يُؤَرِّقني وأصحابي هُجُوعُ[٢]

فاستخفّت الرشيدَ الأريحيّة ، وقال : ادنه، فإنك جُحَيش وحدك ، وزدتَ في عيني نبلا ، فقال جعفر :

* البَثْ قليلا يدرك الهيجا حَمَل *

يعرّض بأنه قد يجوز أن يدرك ما يحاوله ، فقال له الرشيد : فاتتك والله السوابق،وجئت سُكَيْتًا[٣] ذا زوائد أربع،قال : ورأيت الحميّة في وجهه،فقال جعفر : على شريطة حلمك . قال : أتراه يسع غيرك ويضيق عنك ؟ فقال جعفر : لست أنصُّ على شاعر واحد أنه أحسن الناس في بيت تشبيها ، ولكن قول امرىء القيس :

كأنّ غلامِي إذ علا حالَ مَتْنِه ... على ظهر بازٍ في السّماء محلّقِ[٤]

وقولِ عديّ بن الرقاع :

يَتَعاوران من الغُبار ملاءةً ... غبراء محكمةً هُما نَسَجاها[٥]

تُطْوَى إذا وَرَدَا مكانًا جاسيًا ... وإذا السّنابك أسهلت نشَراها[٦]

---

(١) مطلع المعلقة ٣٧١ ـ بشرح ابن الأنبارى .

(٢) مطلع قصيدته الأصمعية ٦١ .

(٣) السكيت : مايجىء آخر الحلبة من الخيل .

(٤) ديوانه ١٧٣ .

(٥) أمالى المرتضى ١ : ١٠٣ ، ١٠٤ ، وفيه : « ملاءة بيضاء »

(٦) ط : « خاشيًا » وما أثبته من أمالى المرتضى . والجاسى : الغليظ من الأرض. وأسهلت: صارت إلى سهولة الأرض . وفي الأمالى : « إذا وطئا مكانا » .

وقول النابغة :

بأنك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ إذا طلعتْ لم يبدُ منهن كوكبُ(١)

قال الأصمعيّ : قلت : هذا حسن كُلُّه بارع،وغيرُه أحسن منه ، وإنما يجب أن يقع التمييز على ما اخترعه قائله فلم يُتعرّض له ، أو تعرّض له شاعر ، فوقع دونه ، فأمّا قول امرىء القيس:

* على ظَهْرِ بازٍ في السَّمَاء محلّقِ *

فمن قول أبي دواد :

إذا شاء راكبُه ضمّه كما ضمّ بازي السماء الجناحُ(٢)

وأما قول عدى :

* يتعاوران من الغُبارِ ملاءةً *

فمن قول الخنساء :

جارَى أباه فأقبلا وهُمَا يتعَاوران مُلاءة الحُضْرِ(٣)

وأول من نطق به جاهلى من بنى عقيل ، قال :

ألا يا ديارَ الحىّ بالبَرَدَانِ عَفَتْ حِجَجٌ بعدى لهن ثمانى(٤)

فلم يبق منها غير نؤىٍ مهدّم وغير أثافٍ كالرّكى دِفانِ

وآثارهابٍ أورق اللون سافرتْ به الرِّيح والأمطار كلَّ مكانِ

---

(١) ديوانه ١٣

(٢) ديوانه ١٣ ، وفيه « إذا شاء فارسه » وفى ط : « الجناحا »

(٣) ديوانها ٢٥٩ .

(٤) خزانة الأرب ٣ : ٢٧٦ ومعجم البلدان ٥ : ٣ ، وزهر الآداب ٩٢٦ ، وتنسب هذه الأبيات إلى ابن مقبل ، كما تنسب لابن أحمر .

قِفارُ مَرَوْرَاةٌ يَحَارُ بها القطا ويُضحى بها الجأبانِ يَعْتركانِ(١)
يُثيران من نَسْجِ الغُبار عليهما قميصيْن أسمالاً ويرتديانِ

وشارك عديًّا أبو النجم،وأورده فى أحسن لفظ ، قال يصف عَيْرا وأتانا وما أثاراه من الغبار بعدْوِهما :

أَلقَى بجنب القَاعِ من جِبالِها سربا له وانشام فى سِرْبالِها

وأما قول النابغة :

* بأنك شمس والملوك كواكبُ *

فقد تقدّمه فيه شاعر قديم من شعراء كندة يمدح عمرو بن هند ، وهو أحقّ به من النابغة ؛ إذْ كان أبا عُذْرَتِه ، فقال :

كادتْ تميدُ الأرض بالناس إذ رأوْا لعمرو بن هند غضبةً وهو عاتبُ
هوَ الشمس وافتْ يوم سعد فأفضَلَتْ على كلّ ضوء والملوك كواكبُ

قال: فكأنّى والله ألقمت جعفراً حجراً . فاهتزّ الرشيد فوق سريره، وكاد يطير عُجْبا وطربا ، وقال : والله ، لِلّه دَرّك يا أصمعىّ ، اسمع الآن ما كان وقع عليه اختيارى ، فقال : ليقل أمير المؤمنين أحسن الله توفيقه، فقالَ : عيّنت على ثلاثة أشعار ،أقسم بالله إنى أملك السبق بأحدها ، فقال يحيى: خَفّض على هينتك ، فأبى الله إلا أن يكون لك الفضل ، ثم قال الرشيد : أتعرف يا أصمعىّ تشبيها أفخرَ وأعظم فى أحقر مشبه وأصغره فى أحسن معرض ، من قول عنترة الذى لم يسبقه إليه سابق ، ولانازعه منازع ، ولا طمع فى مجاراته طامع ، حين شبّه ذباب الرّوض العازب فى قوله :

---

(١) المروراة : المفازة ، والجأبان ، مثنى جأب ، وهو الحمار الغليظ من حمر الوحش .

وخلا الذبابُ بها فليس ببارحٍ ... غرِدًا كفعل الشَّارب المترنّمِ[١]
هزِجًا يحكّ ذِراعَهُ بذراعِهِ ... فعلَ المُكِبّ على الزّناد الأجْذمِ

ثم قال : يا أصمعىّ هذا من التشبيهات العُقْم التى لا تنتج ، شبهّت بالريح العقيم التى لا تُنتِج ثمرة ، ولا تلقح شجرة ، فقلت : كذلك هو يا أمير المؤمنين ، وبمجدك آليت ما سمعت قط أحدًا يصف شعرا بأحسن من هـذه الصفة ، ولا استطاع بلوغ هذه الغاية ، فقال : مهلا ، لا تعجلْ أتعرف أحسن من قول الحُطيئة يصف لغام ناقته ، أو تعلم أحدا قبله أو بعدهُ شبّه تشبيهَهُ حيث يقول :

تَرَى بين لَحْيَيْها إذا ما تَرَغّمتْ ... لُغاما كنَسْج العنكبوت المَمدّدِ[٢]

فقلت: والله ما علمتُ أحدًا تقدّمه إلى هـذا التشبيه ، أو أشار إليه بعده ولا قبله ، قال: أتعرفُ بيتًا أبدعَ وأوقعَ من تشبيه الشّماخ لنعامةٍ سقط ريشها ، وبقى أثره فى قوله :

كأنّما مُنْثَنَى أقماع ما مَرَطَتْ ... من العِفَاء بلِيتَيْها الثّآليلُ[٣]

فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، فالتفت إلى يحيى ، فقال : أوَجَب ، فقال: وجَب ، فقال : أأزيدك ؟ فقال : وأىّ خيرٍ لم يزِدْنى منه أمير المؤمنين ! قال : وقول النابغة الجعدىّ :

رمَى ضَرْعَ نابٍ فاستهلّ بطعنةٍ ... كحاشية البُرْدِ اليمانى المسهّمِ[٤]

---

(١) المعلقة ٣١٤ ، ٣١٥ ـ بشرح ابن الأنبارى .
(٢) ديوانه ٢٣ ، الترغم : الصوت الضعيف . ولغام البعير زبده .
(٣) ديوانه ٢٧٨ ، أقماع : جمع قمع ، وأصله الذى على رأس الثمرة . ما مرطت : ما نتفت . والعفاء : الريش .
(٤) ديوانه ١٤٣ . والناب : الناقة المسنة . والبرد المسهم : المخطط .

ثم التفت إلى الفضل ، فقال : أوجب؟ قال : وجب ، قال : أزيدك ، قال ذلك لأمير المؤمنين ، قال : قول الأعرابىّ :

به ضرب أنداد المطايا كأنّه ملاعبُ ولدانٍ تمطّ وتمضغُ

ثم التفت إلى جعفر، فقال : أوجب ؟ قال : وجب ، قال : أزيدك ، قال : لأمير المؤمنين علوّ الرأى ، قال : قول عدىّ بن الرقاع :[1]

تُزْجِى أغنّ كأنّ إبْرَةَ رَوْقِه قلم أصابَ من الدّواةِ مِدَادَهَا

فقلت : يا أمير المؤمنين،هذا بيت حَسَدَ عديًّا عليه جرير ، قال : وكيف ذلك ؟ قلت : زعم أبو عمرو بن العلاء أن جريرًا قال : لما ابتدأ عدىّ ينشد :

* عرفَ الدّيارَ تَوَهُّمًا فاعتادَها *[2]

فقلت فى نفسى : ركب والله مركبًا صعبًا ، سيُبْدِع فيه ، فمازال يتخلّص من حَسَنٍ إلى حسن ، إلى أن قال :

* تزجِى أغنّ كأنّ إبْرَة رَوْقِهِ *

فرحمته ، وظننت أن مادته تَقْصُر به ، فلما قال :

* قلم أصابَ مِنَ الدّوَاةِ مِدَادَهَا *

حالت الرحمةُ حَسَدًا، فقال: لله أبوك يا أصمعىّ ؟ ثم أطرق ورفع رأسه ، وقال : أتراك تعوننى فى انحطاطك فى هواى ؟ فقلت : كلا يا أمير المؤمنين ، إنك لتجلّ عن ذلك ، قال : انظر خمسًا ، قلت :قد نظرت ، قال : فالسَّبْق لمن ؟ قلتُ : لأمير المؤمنين ، قال : فقد أسهمتُ لك فى العُشْر والعُشر كثير ، ثم

---

(١) الخبر والشعر فى الأغانى ٩ : ٣١٦ ، ٣١٧

رمى بطرفه إلى يحيى ، وقال : المال الساعة ، وأولى لك ! فما كان ساعة حتى حضرت البِدَرُ بينى وبينه ، ورأيت ضوء الصبح قد غلب على ضوء الشمع ، فأشار إلى خادم على رأسه ، كم هى ؟ فقال : ثلاثة آلاف ألف درهم ، فقال : دونك احتمل ثلاثين ألفا إلى منزلك ، ونهض عن مجلسه ، وأمر الخَدَم بمعاونتى على حَمْله ، فكانت أسعدَ ليلة ابتسم فيها الصباح عن أحدٍ بالغنى.

فهذه الحكاية تدلك على تبحره فى علوم العربية وسعة حفظه .

* * *

تبع ابن الرمادى عنترة فى قوله : « وخلا الذباب » بقوله :

وكأسٍ كريق الإلف شَعْشَعها به وعيشى من هذا الشراب المُشَعْشَعِ
إذا ما شربنا كأسنا صُبَّ فضلُها على روضِنا للسجع المتخلّعِ

وقال ابن الرومى:

وأذكى نسيمُ الروض ريعانَ ظلّه وغنّى مغنّى الطير فيه فرجّعا
وكانتْ أهازيجُ الذباب هنا كم على شَدَواتِ الطير صوتا موقّعا

وكان أبوه قُريب بخلافه ، كان نذلاً خسيسا ، وكان عطاء الملك أتى بجماعة من البصرة إلى قُريب فوجدوه ملتفًّا بكساء ، نائمًا للشمس ، فوكزه برجْلِه ، وصاح به : قم يا قُرَيب ويلك ! قال : ألقيتَ أحدًا من أهل العلم قطّ أو من أهل اللغة أو الفقهاء أو من المحدّثين ؟ قال : لا والله ، قال لِمَنْ حَضَر : اشهدُوا على ما سمعتم ، لا يقول لكم غدًا الأصمعىّ أو بعد غد : أنشدَنى والدِى أو حَدّثنى ؛ ففضحه .

* * *

ومن حكاياته عن أبيه قال الأصمعيّ : حدثني أبي قال : أُتِيَ عبدُ الملك ابن مَرْوان برجل مع بعض مَنْ خرج عليه ، فقال : اضربوا عُنقَه ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، ماهذا جزائي منك، قال: وماجزاؤك ؟ قال : والله ماخرجت مع فلان إلاّ بالتطيّر لك ، وذلك أنى رجل مشئوم ، ما كنت مع رجل قطّ إلا غُلِب وهُزِم ، وقد بان لك صحة ما ادّعيت به ، وكنت عليك خيرًا لك من مائة ألف معك . فضحك منه وخلّى سبيله .

وكان للأصمعيّ ابنٌ ظريف ، فقيل له يوما : أين أبوك ؟ فقال : في بيته يكذِب على الأعراب .

ومرض الأصمعيّ فعاده أبو ربيعة ـ وكان يحب أهلَ الأدب ـ فقال له : أقرِضْني خمسة آلاف درهم ، ففعل ، وقال: أتشتهي غير هذا ؟ فقال : نعم ، فصًّا حسنًا ، وسيفا قاطعا ، وبِرْذونا حَسَنًا وسَرْجًا محلًّى ، فبعث بذلك إليه .

وكان إسحاق(1) الموصلي يعظّمه ويقرأ عليه ، فدخل الأصمعيّ يوما على الفضل بن يحيى وإسحاق يُنشِده في صفة فرس :

كأنّه في الجلّ(2) وهو سامِ مشتملٌ جاء من الحَمّامِ
يَسور بين السَّرج واللجامِ سور القطامي إلى الحَمامِ(3)

فقال الأصمعيّ: هات بقيّتَها ، فقال له إسحاق: ألم تقل لي :مابقي منها شيء ؟ فقال: مابقيَ إلاّ عيونها . ثم أنشد بعد ذلك ثلاثين بيتا ، فغضب إسحاق وعرّف الفضلَ قِلَّةَ شكره لمارفة ، وبخلَه بما عنده ، وأخذ يصف فضلَ أبي عبيدة ونزاهته ،وبذله لما عنده ، واشتماله على علوم العرب ، فأنفذ إليه الفضل مالاً جليلا .

---

(1) الخبر والشعر في الأغاني ٥ : ٣٥٢ (بيروت) مع تصرف واختصار .
(2) الجل للدابة ، كالثوب للانسان .
(3) يسور : يثب . والقطامي : الصقر .

واستقدمه من البصرة ، وسمى بالأصمعىّ عند الرشيد ؛ حتى حَطّ منزلته . وقال إسحاق يهجوه :

أليس من العجائب أن قِرْداً | أصَيْمِعَ باهليًا يستطيلُ
ويزعُمُ أنه قد كانَ يُفتى | أبا عمرو ويسأله الخليلُ
إذا ماقال: «قال أبى» عَجِبْنا | لما يأتى به ولِمَا يَقُولُ
وجلّله عطاءُ المُلْك عاراً | تَزُولُ الرّاسِياتُ ولاَ يزُولُ
فقل لأبى ربيعة إذْ عصانى | وحادَ به عن القَصْدِ السبيلُ
لقد ضاعت بُرودُك فاحْتَسِبْها | وضاعَ القَمِصّ والسَّيْفُ الصّقِيلُ
فأما الخمسة الآلاف فاعلمْ | بأنك غبنها لا تستقيلُ

والأصمعىّ لا يقدح هذا القدر فى جانبه ، لأنّ بعض محاسنه يغطّى على كل مساوئه .

وكان منشؤُه بالبصرة ، وبِها توُفّىَ سنة تسع عشرة ومائتين وبلغ ثمانيا وثمانين سنة .

قوله : محرابى ، ومابعده فى معناه ، يعنى فَرْجَها . والإمام ومابعده ، يعنى به ذَكَره . وسمِّىَ محرابُ المسجد محرابًا لأنه يباعد مَنْ ليس من أهله أن يقربَه ، إذْ هو أرفع مافى المسجد ، وفلان حَرْب لفلان ، أى مباعد له . والقِراب : وعاء من جلد يُجعل فيه السيف مع غمده . والقِراب : وعاء الزاد .

• • •

فقال لهما القاضى : أرَاكُما شَنًّا وَطَبَقَة ، وحِدَأةَ و بُنْدُقَة ، فاتركْ أيُّها الرّجُلُ اللَّدَد ، واسْلُكْ فى سَيْرِكَ الجَدَد . وأمّا أنتِ فكُفِّى عن سِبابِه ، وقِرِّى إذا أتَى البيتَ من بابِه .

فقالت المرأةُ : واللهِ ما أَسْجُنُ عنه لِسانى، إلا إذَا كَسانى ، ولا أرفَعُ له شِرَاعى ، دُونَ إشْبَاعى . فحلف أبو زيدٍ بالمحرِّجات الثّلاث ، إنَّهْ لا يملِكُ سِوَى أطْمارِهِ الرِّثاث .

فنظر القاضى فى قَصَصِهِما نَظَرَ الألْمَعِىّ ، وَأَفْكَرَ فِكْرَةَ اللَّوْذَعِىّ . ثُمَّ أَقْبَلَ عليهما بوجهٍ قَد قَطَّبَهُ ، ومِجَنٍّ قَد قَلَبَهُ ، وقال : ألم يكفِكُما التّسَافُهُ فى مَجْلِسِ الحُكْم ، والإقدامُ على هذا الجُرْم ، حتّى تراقَيْتُما فى فُحْشِ المُقَاذَعة ، إلى خُبْثِ المُخَادَعَة ! وايمُ اللهِ لقَدْ أخطأَتْ استُكُمَا الحُفْرَة ، ولم يُصِبْ سَهْمُكُما الثُّغْرَة : فإنَّ أميرَ المؤمنين ، أعزَّ اللهُ ببقائِه الدِّين ، نصبَنى لأقضىَ بين الخُصماء ؛ لا لأقضىَ دَيْنَ الغرماء . ووَحقِّ نعمتِه الّتِى أَحَلَّتْنِى هَذَا المحلّ ، ومَلَّكَتْنِى العَقْدَ والحلّ ، لئن لم تُوَضِّحَا لِى جَلِيَّةَ خَطْبِكما ، وخَبِيئَةَ خِبِّكُما ، لأنَدِّدَنَّ بكُما فى الأمْصَارِ ، ولأجعلنّكما عِبْرَةً لأولى الأبصار .

* * *

واللّدَد : شدّة الخصومة . الجَدَد : الأرض الصّلبة ، والمعنى فى قوله : اسلك فى سيرك الجدَد ، جامعُها فى الفرج لا غيره ، وفى المثل : مَنْ سَلَكَ الجَدَد أَمِنَ العثار .

قِرّى : اسكنى . البيت ، كناية عن فرجها . من بابه ، يريد ألاّ يأخذ الجار بالجار . وقولها : إلا إذا كسانى ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اعْرُوا النّساء يلزمْنَ الحِجال ».

والشِّراع : قِلْع السفينة ، وأرادت برفعه كشفَ ثيابها ورفع رجليها حين يطؤها ، وقال أبو نواس فى معناه :

ترفَّق قليلاً قد اوجعتَنى والحقتَ قُرْطِى بخَلْخالِيَهْ

والقُرْط فى الأذن ، والخلخال فى الرجل ، فانظر متى يجتمعان . وقال ابن الرومى فى ذلك :

يا أحمد بن سعيد لو بَصُرْتَ بها إذا الأكفُّ لساقَيْها خَلاَخيلُ

وقال البحترىّ :

لم تَخطُ بابَ الدِّهليز خارجةً إلا وخَلْخَالُها مع الشُّنُفِ[1]

وقال ابن الرومىّ :

لو أنّ رجلاً عِرْسنا يداها[2] ما أخطأتْها رحمةٌ تغشاها
قد خُلِقت مرفوعةً رِجْلاها كأنّما يَسْتغفران اللهَ

وله أيضاً :

شيخ لنا يكنى أبا حَفْصَلِ أقْرَنُ مثل الأيِّل الأثْوَلِ[3]
تَبيت فى منزله نسوةٌ يلبسْنَ ثوب الليل كالمنزلِ
يعملن فيه عملاً صالحا يرفعه الله إلى أسفل
يستغفر النّاس بأيديهمُ وهنّ يستغفرن بالأرْجُلِ

قال الأصمعىّ : قلت لأمَةٍ ظريفة : ياجارية هل فى يديك عمل ؟ قالت : لا ، ولكن فى رجلى .

والمحرِّجات الثلاث : هى الطّلاق والعِتْق والمَشْى إلى مكةَ ، وقيل : هى الطّلاق الثلاث ومحرِّجات : فيها حَرَج ، أىْ إثم وضيق .

---

(١) ديوانه ١٤١١ (٢) العرس : امرأة الرجل . (٣) الأثول : الأحمق

وحدّث أبو حاتم، عن الأصمعيّ عن عيسى بن عمر، قال: اشتكى رجل امرأته، فقال له شيخ من بني نصر، كان أسنّ منه: ألا تكتنفها بالحرّجات ـ يعني الطلاق ـ قال: قاتلك الله! فما أغرّك، وعليّ الطلاق ثلاثا.

حدثنا أبو بكر محمد بن أسد الدبليّ قال: سمعت أبا فتان الدارع يقول: الطلاق الثلاث البتّ لازم لي، لقد سمعتُ أبا عبيدة معمر بن المثنى يقول: الطلاق الثلاث، البتُّ لازم لي، لقد سمعت أبا عمرو بن العلاء، يقول الطلاق الثلاث البتّ لازم لي، إن كانت العرب قالت أحكم من هذه الأبيات.

كُنْ للمكارِه بالعَزاء مقنّعا فلعلّ يوما لا ترى ما تكرهُ

فلربّما استتر الفتى فتنافستْ فيه العيون وإنه لمموّهُ

ولربّما خزن الكريمُ لسانَه حذرَ الجواب وإنّه لمفوّهُ

ولربما ابتسم الكريم من الأذى وفؤاده من حرّه يتأوّه

قوله: أطماره الرّثاث، أي ثيابه الخلقة. الألمعيّ: المتوقد الحاضر الذّهن. ابن الأعرابيّ: الألمعيّ: الذي إذا لمع له أوّلُ الأمر عرف آخره، فيكتفي بظنّه دون تعيينه. واللوذعيّ: الفطِن الذّكيّ الظريف الحديد الفؤاد. قَطّبه: عبسه. مجنّ: تُرْس. وقلبه، كناية عن إبداء الشرّ بعد الخير، وقد تقدّم. التّسافه: الإفحاش والشّتم. الجُرْم: الذنب. القاذعة: الشاتمة بمافحش. الثُّغْرة: الحفرة في أصل العُنُق. خِبّكما: خداعكما وغشّكما. أندّدنّ: أسمع الناس بما يَنالكما عندي من المكروه، وندّدَ به: شتمه وأسمعه القبيح. الأمصار: البلاد. عبرة: موعظة. أولي الأبصار: أهل العقول.

* * *

فأطرقَ أبو زيدٍ إطراقَ الشُّجاعِ ، ثم قال له : سَماعِ سَماعِ :

أنا السَّرُوجِيّ وَهَذِى عِرْسِى وَلَيْسَ كُفْءُ البدرِ غيرُ الشَّمسِ
وما تنافَى أُنسُها وأُنسى ولا تنَاءى دَيْرُها عَنْ قُسِّى
ولا عدَتْ سُقْيَاىَ أَرْضَ غرْسِى لكِنَّنا مُنْذُ ليالٍ خمسِ
نُصْبِحُ فى ثوبِ الطَّوَى وَنُمسى لانعرفُ المضغَ ولا التَّحَسِّى
حَتى كأنَّا لِخُفُوتِ النَّفْسِ أشباحُ مَوْتَى نُشِرُوا من رَمْسِ
فحِينَ عَزَّ الصَّبْرُ والتَّأسِّى وَشَفَّنَا الضُّرُّ الأليمُ المَسِّ
قُمْنَا لسَعْدِ الجَدِّ أو للنَّحْسِ هَذَا المقَامَ لاجْتِلابِ فَلْسِ
والفقرُ يُلجِئُ الحرَّ حين يُرْسِى إلى التَّجَلِّى فى لباسِ اللَّبْسِ
فهذه حالِى وهذا دَرْسِى فانظرْ إلى يَوْمِى وسلْ عن أمسِى
وأمُرْ بِجَبْرِى إن تَشَا أو حَبْسِى ففي يَدَيْكَ صِحَّتِى ونُكْسِى

• • •

أطرق : أمال رأسه ساكنا . الشُّجاع : الحيّة . سماعِ سماعِ ، أى اسمع منّى ، كُفْءُ البدر : أى نظيره ، والكفء : النّظير والمِثل . دَيْرها : فرجها . قُسّى : ذَكَرِى . وأصل الدّيْر للنصارى ، والقَسّ والقِسيس : عالمهم وعابدهم . عَدَتْ : جارت وخرجت عن طريقها . والسُّقْيا : الشرب ، وهى هنا مصدر بمعنى السَّقى . والتحسّى : شرب الحَسْوة ، وأراد بالمضغ والتحسّى أكلَ الخُبز واللحم ، وحَسْو مرقه . وقيل : المضغ فى الرّخاء والحسْو فى الشدّة ، كاستعمالهم فيها حَسْو السَّخينة

وغيرها . وعزّ : قلّ . التأسّى : الاقتداء بالغير ، وقد تأسّى تأسّياً إذا اقتدى بفعل غيره وتصبّر ، وهذا بابٌ غلبت عليه الخنساء بقولها :

وَلَوْلاَ كَثْرَةُ الباكين حَوْلِي ... على إخوانهمْ لَقَتَلْتُ نفسِي (١)

وما يبكونَ مثل أخي ولكنْ ... أعزّى النّفس عنه بالتأسّي

فزاد عليه ابن العباس الرومىّ ، في المعنى وبيّنه حتى استحقّه حيث قال :

رأيتُ الدّهرَ يجرح ثم يأسُو ... يؤسّى أو يعوّض أو ينسّي (٢)

أبت نفسى الهُلاعَ لرزء شىء ... كفَىَ رزءا لنفسى رُزْءُ نفسِي

أأجزَعُ وحشةً لفراق إلفٍ ... وقد وَطّنتُها لحلول رَمْسِي

فذهب في هذه الأبيات كلّ مذهب ، ثم أراد أن يُظهر ماعنده من فضل القوّة وحُسْنِ التصرف ، فقال:

يا شَبابى وأينَ مِنّى شبابى ... آذنتنى أيامُه بانقضابِ

ومعزّ من الشّباب مؤسّ ... بمشِيب اللّذّات والأصحابِ

قلت لـما انتحى يَعُدّ أساه ... بمصابٍ شبابه بمصابِ

ليس تأسو كلومُ غيرى كلومِي ... مابه مابه ومابِىَ مابِي

وكرّر هذا المعنى فأحسن ماشاء ، وذهب فيه مذاهب أخرى ، فقال :

خليلىّ قد علّلتمانىَ بالمُنَى ... وأنتما لو أنّنى أتعلّلُ (٣)

ألناس إيثارى وإلاّ فما الأسى ... وعيشِكما إلاّ ضلالٌ مُضَلّلُ

وماراحة المرزُوء فى رزء غيره ... أيحمل عنه بعضَ مايتحمّلُ ؟

كِلاَ حامِلَىْ أوقى الرزية مثقلٌ ... وليس معيناً مثقلَ الظّهر مثقلُ

وضربٌ من الظلم الخفىّ مكانه ... تعزّيك بالمرزوء حين تأمّلُ

(١) ديوانها ١٥٣

(٢) زهر الآداب ٩٢٩

(٣) زهر الآداب ٩٢٩ .

ولابن رشيق :

رأيتُ التعزِّىَ مما يَهيجُ على المرء ساكنَ أوصابِهِ[١]

وما نال ذو أسوة سلوةً ولـكن أتى الحزن من بابِهِ

تفـكّر فى مثل أرزائِهِ فذكّرَه مابه مابِهِ

وقال ابن رشيق : أخذتُه من قول عمر بن أبى ربيعة :

وذو الشَّوْق القديم وإن تعزَّى مشوقٌ حينَ يلقَى العاشقينا[٢]

وأخذه عمر من قول متمم بن نويرة :

وقالوا أتبكِى كلَّ قبر رأيتَه لِقبرٍ ثوى بين اللِّوى والدَّكادِكِ[٣]

فقلت لهمْ إنّ الأسى يَبْعَثُ الْبُكَا دَعُونى فهذا كلّه قبر مالكِ[٤]

* * *

خُفوت : ضعف النفس من شدة الجوع ، وخَفَتَ خفوتا : ضعف وسكن ومات . والأشباح : الأشخاص ، وأصل الشَّبَحَ الشخص تُبصره على بعد ، فلا تعرف ماهو ، ويقع الشَّبح على كلّ شخص مرئىّ . نُشِروا : أحيوا . رمْس : قبر ، والمسّ : لصوق جارحة بأخرى . الجَدّ : الحظ والنصيب . يُرْسى : يثبت ويقيم . التجلّى : البروز والظهور . اللّبس : التخليط . درسى : ثوبى الخَلَق .

---

(١) النتف ١٤ (٢) ديوانه ٤٠٣ ، وفيه :

* وذو القَلْبِ المُصابِ ولو تعزَّى *

(٣) أمالى القالى ٢ : ١ ، وذكر قبله :

لَقَدْ لامَنِى عند القبور على البكا رفيقى لتَذْرَافِ الدُّموعِ السَّوافكِ

(٤) فى الأمالى : « إن الشجا يبعث الشجا » وذكر بعده :

أَلَمْ تَرَه فينَا يقسِّم ماله ونأوِى إليه مُرْمِلاتُ الضرائكِ !

الضرائك : الفقراء السيئو الحال ـ

الجبر : أن تُغْنِيَ الرّجل من فقر ، أو تصلح عظمه من كَسْر ، وجبره الله : سدَّ مفاقره . والنُّكس : بضم النون : عَوْد المرض بعد القوّة ، ونكس نُكْساً .

• • •

فقال له القاضي : لِيَثُبْ أُنْسُك ، ولْتَطِبْ نفسُكَ ، فقَدْ حَقَّ أن تُغفَرَ خَطِيَّتُك ، وتُوَفَّرَ عَطِيَّتُكَ . فثارتِ الزّوجَة عِندَ ذلك واستطالَتْ ، وأشارت إلى الحاضِرِين وقالت :

يا أهْلَ تبريزَ لَكُمْ حَاكِمٌ ... أَوْفَى على الحُكّامِ تَبْرِيزَا
مافيه مِنْ عَيْبٍ سِوَى أَنَّهُ ... يَوْمَ النَّدَى قِسْمَتُهُ ضِيزَى
قصدتهُ والشيخُ نبغي جَنَى ... عُودٍ له ما زَال مَهْزُوزا
فسرّحَ الشَّيْخَ وَقد نَالَ مِنْ ... جَدْواه تخصيصاً وتمييزا
وردَّني أخيبَ من شائمٍ ... برقاً خفاً في شهرِ تمُّوزا
كأنّهُ لم يَدْرِ أنِّي الّتِي ... لَقّنْتُ ذا الشَّيخَ الأَرَاجِيزَا
وأنني إنْ شِئْتُ غادَرْتُهُ ... أُضْحُوكَةً في أهل تَبْرِيزا

• • •

لِيَثُبْ : أي ليرجع . تُوَفَّر : تكثر . ثارت : ظهرت ، وأفشت سرّها . واستطالت : جرحت بلسانها ، وأعلت كلامها . أوفى : أشرف عليهم وزاد . تبريزا : ظهورا وسَبْقاً . ضِيزَى : غير مستوية ، فيها بخس ونقصان ، وقد ضاز الحاكم ، إذا جار ، وضازه بضيزه ضَيْزاً ، إذا نقصه ومنعه حقه . ويحكى أن مزيداً المدني ـ ويكنى أبا إسحاق ـ صلّى يوما ، فلمّا فرغ من صلاته قالت امرأته : اللهم

أشركني في دعائه ، فقال مزيد اللهمّ اصلبني ، فقالت امرأته: أمّا على هذا فلا، فقال يا ضرّاطة ، تلك إذاً قسمةٌ ضيزى .

قوله والشيخَ : منصوب على المفعول معه . نبغى : نطلب . النّدى : الكرم . وجَنَى العود : مايجنى من ثمره ، وأرادت كرم القاضي . مازال مهزوزاً ، أي مازال القاصدون يهزّون عودَه فيتساقط عليهم جَنَاه ، فمعنى مازال مهزوزاً ، أي مطلوب منه المطايا . جَدْواه : عطاياه . تخصصا : ترفها . تميزاً : تعيناً ، وقد تخصّص الرجل : تشبّه بالخواصّ ، وتعيّن : تشبّه بالأعيان . شائم : ناظر للبرق . خَفِيَ : لمع . تموز : يوليه بالسريانية ، وهو أشدّ الشهور حرّاً . لقنت : فهمت وحفظت . غادرته : تركته . أضحوكة : يضحك به من رآه .

* * *

قالَ : فلمّا رأى القاضي اجتراء جَنانِهما ، وانصِلاتَ لِسانِهما ، علم أنّهُ قَدْ مُنِيَ مِنْهُما بالدّاء العَياء ، والدّاهيَةِ الدّهياء ؛ وأنّه متى مَنَحَ أحدَ الزّوجَيْنِ ، وَصَرَفَ الآخرَ صِفْرَ اليدَيْنِ ، كانَ كَمَنْ قَضَى الدّيْنَ بالدّيْنِ ، أوْ صَلّى المغربَ رَكْعَتَيْنِ . فَاْلسَمَ وطَرْسَمَ ، واخرَنطَمَ وَبَرْطَمَ ، وَهَمْهَمَ وَغَمْغَمَ ، ثمّ الْتَفَتَ يَمْنَةً وشامة وتَمَلْمَلَ كآبَةً وَنَدامة، وأخذ يَذمُّ القضاءَ وَمَتاعِبه ، ويُعَدّدُ شَوائِبَهُ ونَوائِبَه ، ويُفَنّدُ طالِبَهُ وَخاطِبَهُ . ثمّ تنفّسَ كما يتنَفّسُ الحَريبُ ، وَانتَحَبَ حتّى كادَ يفضحُهُ النّحيب ، وقال : إن هَذا الشّيءُ عَجيب ! أأرْشَقُ في موقفٍ بِسَهْمَيْنِ ! أأُلزَمُ في قضيّةٍ بِغُرْمَيْنِ ! أأُطِيقُ أنْ أُرضِيَ الخَصْمَيْنِ ، ومِنْ أيْنَ ومن أيْنَ !

* * *

اجتراء : إقدام وتشجّع . جَنانَهما : قلبهما ، يريد أنهما لم يهاباه . انصلات لسانهما : خروجه بالكلام وطاقته بالشرّ ، وانصلت السيف : تسلّل من غِمْده وخَرَج . مُنِيَ : بُلِيَ . الدّاء العياء : الذى يعيى الطبيب . والدّاهية : كل أمر فظيع لا يُطاق . الدهياء : مبالغة وتأكيد لمعنى الدّاهية ، أى الداهية الشديدة . مَنْح : إعطاء . صِفْر : فارغ . ومَنْ قضى الدَّيْن بالدَّين، فكأنّه ماقضاه وأنشدوا :

إذا كنتَ تقضى الدَّيْن بالدَّيْن لم يكُنْ قضاء ولكن كان غُرْمًا على غُرْمِ

تململ : توجّع وتقلّب . كآبة : حزن وهمّ . شوائب : ما يكره ويختلط به . نوائبه : نوازله . يفنّد : يُخطِّئ . الحريب : المحزون المسلوب ماله ، وقد حَرَبه ، إذا سلبه «فعيل» بمعنى «مفعول» . انتحب : بكى . يفضحه : يشهره . أرشق : أرمى ، والرِّشْق جملة السهام تُرْمَى مجتمعة ، وقال لبيد[1] .

فرميت القومَ رِشْقًا صائبًا ليس بالطّيش ولا بالمُقْتَمِلْ

وإذا وقعت السهام مجتمعة عند الغَرَض سُمِّيَت رِشْقًا . القضية : القضاء والحكومة . المغرَم والغَرامة واحد .

* * *

ثمّ عَطَفَ إلى حاجبِهِ ، المُنْفِذِ لمآربه ، وقال : ماهذا يومُ حُكْمٍ وَقَضَاء ، وفَصْلٍ وَإمْضاء ؛ هذا يوم الاغتِمام ، هذا يوم الاغترام ، هذا يَوْمُ البُحْرَان ، هذا يومُ الخُسْرَان ، هذا يومٌ عَصيب ، هذا يومٌ نُصابُ فيه ولا نُصيب ؛ فأرِحْنِي من هَذَيْنِ الهِذَارَيْن ، واقْطَعْ لِسانَيْهِمَا بدينارَيْن . ثمّ فرّق الأصحاب ، وأَغْلِق الباب ، وأشِعْ

(١) ديوانه ١٩٤ ، والرشق ،بكسر الراء : أن تُرْمَى سهام كثيرة دفعة واحدة .

أنَّهُ يومٌ مَذموم، وأنّ القاضِيَ فيه مهموم؛ لِئلاّ يَحْضرَني خصُوم.

قال: فأمَّنَ الحاجبُ عَلى دُعائِهِ، وتباكَى لبكائِهِ ثم نَقَدَ أبا زيدٍ وعِرْسه المِثقالَين، وقال: أشهَدُ إنّكُما لأحْيَلُ الثقلَين؛ ولكِن احترِماً مجالِسَ الحكّام، واجتَنِبا فيهما فُحْشَ الكلام؛ فما كلُّ قاضٍ قاضِي تَبريز، ولا كُلُّ وقتٍ نُسْمَعُ الأراجيز، فقالا له: مِثْلُكَ مَنْ حَجَب، وشُكْرُكَ قد وَجَب، ونَهَضا وَقَدْ حظِيا بدينارَيْن، وأصْلَيا قَلْبَ القاضِي نارَيْن.

* * *

مآربه حوائجه. البُحْران: كاليوم السابع من المَرض، والبُحران عند الأطباء: مدافعة عظيمة تقع بين الطبيعة والعِلّة، وبَحَرَ الرجل بَحرًا، إذا اجتهد في العَدْوِ طالبًا أو مطلوبًا، فانقطع وضعُف. ورجل بحر: مسلول ذاهب اللحم. عَصِيب: شديد. المهذارين: الكثيرين الكلام بلا فائدة. اقطع لسانهما، أي صِلْهما حتى ينقطع بالدينارين كلامهما، وهذا اللفظ الذي هو قطع اللسان بالصِّلة قد نطق به رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أعطى المؤلَّفةَ قلوبهمُ من نَفَل حُنين، مائة مائة، وأعطى العباس بن مِرْداس أباعر، فسخطها وقال:

أتجعَلُ نَهْبِي ونَهْبَ العُبَيْـــدِ بين عُيَينة والأقرَعِ[1]
وما كان حصنٌ ولاحابسٌ يفوقان مِرْداسَ في مجمعِ
وما أنا دون امرىءٍ منهما ومَنْ يُخْفَضِ اليوم لم يُرْفَعِ

فقال صلى الله عليه وسلم: «اقطعوا عني لسانه». فأعطِيَ حتى رضي وقد جاء في

(١) الشعر والشعراء ٧٤٨.

النوادر فى حكاية ليلى الأخيلية حين قال الحجاج : ياغلام اذهب إلى فلان ، فقل له يقطع لسانها، فأمر بإحضار الحجام، فقالت: ثكلتك أمك ! إنما أمرك أن تقطع لسانى بالصلة ، وهى لفظة مستعملة عند مَنْ له أمرٌ ونهى .

قوله : أمَّن ، قال : آمين ، ومعناه الرغبة فى الإجابة . تباكى : استعمل البكاء . الثَّقَلَيْن : الإنس والجن، والواحد ثَقَل وثِقل كمَثَلَ ومِثْل ، وأصله مايُحمَل من الشىء الثقيل ، فقيل لهما : ثَقَلان ، لأنهما كالثِّقَل على الأرض . والفحش فى القول كالفاحشة فى الفعل . نهضا : تقدما . شكرك قد وجب : يقال: وَجَبَ البيع والحقّ،معناه وقع، ومنه قوله تعالى:﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾(١) أى وقعت على الأرض وسقطت . ووجب الحائط : سقط ، ووجب قلبُه : فزع وخفق. حَظِيّا : سَيِّدا . أصْلَيَا : أوْقَدا وألصقا به .

---

(١) سورة الحج ٣٦ .

تفسير ما أودع هذه المقامة

من الألفاظ اللغوية والأمثال العربية

قوله : « لقيتُ منها عَرَقَ القِرْبة » ، هذا مَثَلٌ يُضرب لِمَنْ يَلْقَى شِدّةً من الأمْرِ الذى يُزاولُهُ ، كما أن حامِلَ القِرْبةِ يَلقَى جَهْداً حتى يَعْرَق .

وقوله : « جعلتُه دَبْرَ أُذُنِى » ، يعنى طرحتُه ، وهو كقوله تعالى : ﴿ فَنَبَذُوه وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ .

وقوله : « أكذبُ مِنْ سَجاح » يعنى التى تنبّأتْ فى عهد مُسَيْلمة الكذاب ، وسارتْ إليه لتُناظره وتختبرَه ثم آمنتْ به ، ووهبتْ نفسَها له ؛ وهذا الاسمُ ، مبنىٌّ على الكسر ، مثل حَذَامِ وقطام ، لكونِه من الأسماء المعدُولة ، واشتقاقه من السَّجاحة ، وهى السُّهولة ، ومن قولهم : مَلَكْتَ فأسجِحْ .

وقولها : « أكذبُ من أبى ثُمامة » ، هذه كنية مُسيلمةِ الكذاب ، وكان تنبّأ باليمامة . وتخرّق بها ، إلى أن سار إليه خالدُ بن الوليد رضى الله عنه فقتله .

وقوله : « لانَعِمَ عَوْفُك » . العَوْف : الحال ، والعَوْف أيضا الذَّكَر ، ويُدْعَى للبانى على أهله فيقال له : « نَعِمَ عَوْفُك » .

وقوله : « يا دفارِ يا فجارِ » . هذان الاسمان معدولان عن دافرة وفاجرة ، والدَّفر : النَّتْن ؛ وبه سُمّيَتِ الدّنيا أم دفر ؛ وكلّ ماسُمّىَ بصفة غالبة ، ثم عُدِل بها إلى « فعَالِ » ، بُنِى على الكسر عند النداء ، كقولك : يالَكاعِ ، ياخباثِ ،

(١) سورة آل عمران ١٨٧ .

يا دَفارِ يا لَجارِ ، ولا يجوز استعمالُ ذلك فى غير النداء إلاّ فى ضرورة الشعر ، كقول الحطيئة :

أطوّف ما أطوّف ثم آوِى إلى بيت قعيدتُه لَكَاعِ

وأما قوله : « أحمَقُ من رِجْلة » ، فهى ضرب من الحِمْض تَنْبُت فى مجارى السَّيْل فيجرفُها .

وأمّا قولها : « الأمُ من مادِر » ، فهو رَجُلٌ من بنى هلال بن عامر ؛ كان اتّخذ حَوْضاً لِسَقْىِ إبله ، فلمّا رَوِيَتْ سَلَح فيه ،ومَدَره بسَلْحِه ؛ لئلا يَنْتفع به مَنْ بعده .

وأما قولها : « أشأم من قاشر » ؛ فإنّه فحلٌ كان فى قبائل سعد بن زيد بن مناة بن تميم ، ما طرق إبلاً إلاّ ماتت . وقيل : المرادُ به العام الجدب ، وسُمّى قاشِراً لقَشْره ما على وجْه الأرض من النبات .

وأما قولها : «أجبن من صافِر» ، فقد اختُلف فى تفسيره ، فقال بعضهم : عَنَى به كل ما يصفرُ من الطير ، وخصّ بالجُبْن لكثرة ما يتّقيه من جوارح الجوّ ومصايد الأرض . وقيل : إنّه طائر بعينِه ؛ إذا جنّه الليل تعلّق ببعض الأغصان،ولم يَزَلْ يصفرُ طولَ ليلته خوفاً على نفسه من أن ينام فيُؤخذ . وقيل : إنه الذى يصفر بالمرأة لريبةٍ وهو يجبن وقتَ صفيره مخافة أن يُظهَر على أمره . وقيل : إنّ المُراد به فى المثل المصفورُ بِهِ ؛ وهو الّذى ينذر بالصّفير ليهرب ، فعلَى هذا القول فاعل هنا بمعنى مفعول ، كقوله تعالى : ﴿ مِنْ ماءٍ دافقٍ ﴾ أى مَدْفُوق ، وكقولهم : راحلة بمعنى مَرْحولة ، وهو كثير فى كلامهم ، وقد جاء « مفعول » بمعنى « فاعل » ، كقوله تعالى : ﴿ حِجَاباً مَستوراً ﴾ ، أى ساتراً .

وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴾

وأما قوله : « أَطْيَشُ من طَامِرٍ » ، فالمُراد بِهِ البُرغوث ؛ ويسمّى طامر ابن طامر ؛ لكثرة وُثوبه .

وأما قول القاضي : « أرَاكُمَا شَنًّا وطَبَقَة ، وحِدَأَة وبُنْدقة » ، فإنه أراد به أن كلاً منكما كفء لصاحبه و مقاوم له . ولكل من المثلين تفسير مختلف فيه . أما شَنٌّ وطبقة ؛ فإن العلماء مختلفون في معنى قولهم : « وافق شنٌّ طبقة » ، فقال الأكثرون : إنّهما قبيلتان ؛ فشنٌّ هو ابن أفصى بن دُعْمِيّ ابن جَدِيلة بن أسد بن رَبيعة بن نزار . وطبقةَ حيٌّ من إياد ؛ وكانت طَبَقة لا تُطاق ، فأوقعت بها شَنّ ، فانتصفتْ منها .

وقال بعضهم : كان شَنٌّ رجلاً من دُهاة العرب ، وكان ألزَمَ نفسه ألاّ يتزوّج إلاّ بامرأةٍ تلائمه ، فكان يجوبُ البلاد في ارتياد طَلِبته ، فصاحَبَه رجلٌ في بعض أسفاره ، فلمّا أخذ منهما السَّير،قال له شنٌّ : أتحملني أم أحملك ؟ فقال له الرجل : يا جاهل وهل يحمِل الرّاكب الراكب ! فأمسك وسارا حتى أتيا على زرع ، فقال له شَنّ : أترى هذا الزّرعَ أُكِل أم لا؟ فقال له : ياجاهل ، أما تراه في سنبله! فأمسك إلى أن استقبلتْهما جِنَازة ، فقال له شنّ : أترى صاحبها حيًّا أم لا ؟ فقال : ما رأيتُ أجهلَ منك ، أتراهم حَمَلوا إلى القبر حيًّا ! ثمّ إنهما وصلا إلى قرية الرجل ، فصار به إلى منزله ، وكانت له بنت تسمّى طَبَقة ، فأخذ يُطرِفها بحديث رفيقه ، فقالت له : ما نطق إلا بالصواب ، ولا استفهمَك إلا عما يَستفهم عن مثله ذَوُو الألباب . أما قوله : أتحملني أم أحملك ، فإنه أراد : أتحدّثني أم أحدّثك ، حتّى نقطعَ الطريق بالحديث . وأما قوله : أترى هذا الزرع أُكِل أم لا ؟ فإنه أراد : هل استسلف أربابُه ثمنه

أم لا ! وأمّا استفهامُه من حياة صاحب الجنازة ، فإنّه أراد به : أخلف عَقِباً يَحيا ذكرُه به أم لا . فلمّا خرج إلى الرّجل حدّثه بتأويل ابنته كلامه ، فَخَطبها إليه ، فزوّجه إياها ، فلمّا سارَ بها إلى قومِه وخبّروا ما فيها من الدّهاء والفِطْنة قالوا :وافق شَنٌّ طَبَقَة ، فسار مثلا .

وحُكِيَ من الأصمعيّ ، سئل عن تفسير هذا المثل فقال : أظنُّ أنّ الشّنَّ وعاء من أدَم كان قد استشنّ ، فلمّا اتُّخذ له غطاء وافقه ، ضرِب فيه هذا المثل .

وأمّا حِدَأة وبندقة ؛ فإنّه يقال فى المثل المضروب لمن يفزَعُ بعدوّه أو يُبْلَى بنظيره: حدأ حدأ أو وراءك بندقة ؛ وكان الأصل حدأة بإثبات الهاء ، فرخّم فى النداء وقد اختلف فى المراد بهما،فقيل:الحدأة هو الطائر المعروف،وبُندقة الرامى.

وقيل : إنهما قبيلتان من سعد العَشيرة ، فأغارت حِدَأة ـ وكانت تنزل بالكوفة ـ على بُنْدقة ، وكانت تنزل باليمن، فنالتْ منهم ، ثمّ كرتْ بندقة على حِدَأة فأبحت عليهم .

وروى بعضهم هذا المثل: حَدا حَدا ، غير مهموز،على مثال عصا وقفا،وزَعَم أنّه اسم القبيلة .

وأما قوله : « أخطأتْ استكا الحفرة » ؛ فإنّه مثل يُضرَب لمن يُخْطِىءُ فى مقصِده ويضع الشىء فى غير موضعه .

وأمّا قوله: «طلسم وطرسم» ، فمعنى طلسم كرِه وجهه ، ومَعْنى طرسم أطرق.

وقوله : « اخرنطم وبرطم » أى غضب وقطّب وجهه .

وقيل : معنى اخرنطم غضب مع تكبّر. ومعنى بَرْطم غضب مع تعبّس .

وأما قوله : « همهم وغمغم » أى لم يبيّن الكلام .

تمّ الجزء الرابع من كتاب شرح المقامات للشريشى ويليه الجزء الخامس وأوله شرح المقامة الحادية والأربعون .

فهرس المقامات

صفحة

استـــدراك

وقع خطأ فى صفحة ١٦٥ فى عنوان المقامة ،والصواب : « المقامة الخامسة والثلاثون الشيرازية» .

فهرس الموضوعات

صفحة

صفحة

صفحة